

العَنْقَاءُ
أو
تَارِيخُ حَسِينٍ مُفْتَاحٍ

الطبعة الأولى : دار الطليعة : بيروت

أيار (مايو) ١٩٦٦

الطبعة الثانية : مكتبة مدبولي

القاهرة ١٩٨٧

الدكتور لويس عوض

العنقاكاء

وثنون

أو

تاريخ حسين مفتاح



المهنة نشرية العامة للكتاب

١٩٩٠

الهدية

إلى سر بكر حمدي سيف النصر ؛
سقط بين برج القوس وبرج الجدي .

في عام ١٩٥٧ .

وكان يكره أن يخرج هذا الكتاب إلى النور
مادت بي الأرض يوم وفاته .

لويس عوض

66

1. The first part of the paper is devoted to a discussion of the various methods of determining the rate of reaction.

2. The second part of the paper is devoted to a discussion of the various methods of determining the rate of reaction.

3. The third part of the paper is devoted to a discussion of the various methods of determining the rate of reaction.

مقدمة

في مايو ١٩٦٥ عثرت على مؤلف ضائع من مؤلفاتي القديمة هو « مذكرات طالب بعثة » (١٩٤٢) بعد ان حفظه الصحفي الاسكندري كناري (حسين محمود حسنين) في ادراجه على غير علم مني نحو عشرين عاماً . وقد نشرت لي هذا الكتاب في نوفمبر ١٩٦٥ دار روز اليوسف في سلسلة « الكتاب الذهبي » .

واليوم تنشر لي « دار الطليعة » البيروتية رواية « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » التي كتبتها بين القاهرة وباريس من اكتوبر ١٩٤٦ الى سبتمبر ١٩٤٧ . وعلى العكس من « مذكرات بعثة » لم تكن رواية « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » ضائعة مني ، بل اكاد اقول انها لم تغب عن بصري أو خاطري الا نادراً طوال العشرين سنة الفائتة ، أي منذ كتبتها وانا في الثانية والثلاثين من عمري . فقد كنت لسبب غير واضح في ذهني أعتز بهذه الرواية . لا انتقل من مكان الى مكان إلا وهي معي . وأبدي الحرص الشديد على المحافظة على مخطوطها فأضعه دائماً في مكان أمين كدولاب ملابس أو في درج لا تصل إليه أيدي من يترددون على بيتي من الاصدقاء والضيوف والفضولين . فإن أعرتها لصديق لقراءتها ، وقد قرأها نحو عشرة اشخاص على امتداد عشرين عاماً . كنت أهتم دائماً باستردادها منه خشية ان تضيع . ولعل السبب في ذلك أني كنت احس بالخطأ

أو بالصواب ان لهذا الكتاب قيمة فنية ايجابية. ولكن لا شك ايضاً في ان هناك علاقة سرية كانت تربطني بهذا العمل الفني ، ولا استبعد ان يكون منشأ هذه العلاقة اني كنت في دخيلة نفسي أعدها بمثابة « شاهد » على ضريح مرحلة كاملة من مراحل حياتي ، هي المرحلة التي انتهت عام ١٩٤٧ ؛ وهو عام زواجي أولاً وانصرافي انصرافاً يشبه ان يكون تاماً من التفكير في الحياة العامة وانقطاعي الى البحث العلمي وحده . والذي اذكره الآن ان خمسة اشخاص قرءوا « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » في السنة الأولى من كتابتها ، وهؤلاء هم المرحوم أبو بكر حمدي سيف النصر ، ومصطفى صفوان الاستاذ بجامعة ستراسبورج بفرنسا، وقد كانا شاهدي زواجي امام عمدة الحي اللاتيني بباريس في ٩ أغسطس ١٩٤٧ ، ثم ابراهيم شكر الله المستشار بالجامعة العربية والمستشرق الانجليزي دنيس جونسون ديفيز ولطف الله سليمان الناشر اليساري المعروف الذي اشتغل فيما بعد معاوناً بين معاوئي الرئيس بن بيللا بعد اعلان استقلال الجزائر ، وربما كان هناك آخرون . أما في السنة الاخيرة (١٩٦٥) فقد قرأها توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزي والدكتور جمال المطيفي المستشار القانوني لمؤسسة الاهرام والدكتور السعيد مصطفى السعيد مستشار دار المعارف ، كما قرأها احمد حمروش والهيام سيف النصر توطئة لاصدارها في الكتاب الذهبي وربما فئة اخرى من الكتاب الشباب .

وما دامت لهذه القصة قصة ، فلعل من الافضل ان اعود القهقري الى تاريخ ميلاد رواية « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » (١٩٤٦ - ١٩٤٧) لا بين الظروف التي ولدت فيها وربما القى هذا اضواء كشافه على بعض محتوياتها وعلى السرايب الغامضة التي اكتنفتها عشرين عاماً ، فلم تخرج الى النور إلا الآن .

كل من عاصرني صديقاً او زميلاً او طالباً في تلك الفترة البعيدة من حياتي بين ١٩٤٠ عام عودتي من كامبردج و ١٩٤٧ عام صدور ديواني « بلوتو لاند »

وكتابة رواية « العنقاء او تاريخ حسن مفتاح » كان يعرف أني لم اكن مجرد « مدرس » جامعي بالمعنى المألوف . وانما « معلماً » من ذلك الطراز الذي لا يوجد عادة إلا في عصور الانتقال حيث تسقط الحواجز بين المعرفة والحياة ، وكانت تلهيني « شهوة لاصلاح العالم » اذا جاز لي ان استعير لغة شلي في التعبير عن حاله هو في عصر الثورة الفرنسية ، وكنت دائم التفكير في عوامل التآكل التي استشرت في المجتمع المصري ، لا اقصد التآكل الخلقي وانما اقصد التآكل الاجتماعي الذي تجلى في تصدع الفلسفة الديمقراطية الليبرالية التي تبلورت في دستور ١٩٢٣ . كان واضحاً عند الكثيرين ان تطور مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي خلال العشرين عاماً الفاصلة بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية قد جعل من نظام الحكم المتمثل « نظرياً » في دستور ١٩٢٣ هيكلاً بالياً ينبغي تجديده أو ترميمه على أقل تقدير .. ومنهم من ذهب الى ان الدستور ثوب فضفاض (الدستوريون والسعديون) ومنهم من ذهب إلى ان الدستور ثوب ضيق (الوفديون) ومنهم من ذهب الى أن الدستور خرقة مهلهلة ملفقة ، وان المجتمع المصري بحاجة الى اسس جديدة أو الى عقد اجتماعي جديد (الاخوان والشيوعيون) . وعلى الجملة فقد كان المجتمع المصري يسير بوضوح نحو الاستقطاب فاليمين غدا اكثر يمينية واليسار غدا اكثر يسارية . وقد ظهرت بدايات التشكك - على مستوى القواعد الشعبية - في سلامة نظام الحكم الديمقراطي الليبرالي في مصر منذ أوائل الثلاثينات حين انعكست الازمة العالمية المشهورة (١٩٣٠) في الاقتصاد المصري وفي السياسة المصرية وولى الحكم اسماعيل صدقي لينقذ الرأسمالية المصرية والرأسمالية الاجنبية من اثاره الازمة في مصر . فأخذت جماعات من الشباب بين المثقفين والعمال تبحث عن حل وسط ينقذ مصر من الشيوعية فيما يسمى بالاشتراكية الوطنية (النازية والفاشية) ولكن النازية أو الفاشية المصرية عجزت عن التغلغل حقاً في الشعب المصري لسبب بسيط ، وهو ان الشيوعية أو نقيض الموضوع بلغة أهل الجدلية ، وهو ما ظهرت الفاشية لتحول دون انتشاره او لاجهاضه لم يكن له أي وجود اجتماعي

المعوس ، ولأن البروليتاريا المصرية ، بسبب وحدة الكفاح ضد الاستعمار البريطاني وركيزته الاولى في البلاد (الارستقراطية بقيادة الملك) ، لم تكن تحس بنفسها يومئذ كطبقة واضحة المعالم ذات مصالح اساسية متميزة عن مصالح غيرها من طبقات الامة ، فبقيت في صميمها تساند العقيدة الديمقراطية الليبرالية ممثلة في الوفد ، رغم جهود النبل عباس حلمي لتجميعها في اطار فاشي مستقل سماه حزب العمال . ولكن تجميد الحركة الوطنية والدستورية معاً بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ ثم بنشوب الحرب ، عمق التناقضات الاجتماعية داخل المجتمع المصري وكشفها على السطح ففجرت بهذا الاستقطاب الذي جعل اليمين اشد يمينية واليسار اشد يسارية على حساب الوسط الوفدي . وكانت أوضح صورة من صور اليمين متمثلة في جماعة الاخوان المسلمين المتماكة ، وكانت أوضح صورة من صور اليسار متمثلة في الجماعات الشيوعية المتعددة . وكان تعدد هذه الجماعات وتناحرها ظاهرة ملفتة للنظر . فها يعبران في ظاهر الأمر عن خلافات ايديولوجية ، وهو أمر طبيعي في محيط المثقفين الذين يرفضون القومية ، بحكم استقلالهم الفكري ، ولكن يبدو ان تعدد مصادر تمويل هذه الجماعات كان ايضاً من اسباب هذا التعدد التنظيمي والايديولوجي . كذلك كانت نشأة هذه هذه الجماعات خافية من الناحية التاريخية . فقد سافرت الى إنجلترا في ١٩٣٧ قبل ان اسمع بوجود أي تنظيم شيوعي في مصر غير التنظيمات التي كانت مأثورة من أوائل العشرينات ثم ذبلت . ثم عدت الى مصر في سبتمبر ١٩٤٠ فإذا بي اسمع عن جماعة تسمى نفسها « الفن والحرية » وجماعة اخرى تسمى نفسها « الخبر والحرية » وتصدر مجلة شهرية اسمها « التطور » وجماعة ثالثة تسمى نفسها « الاتحاد الديمقراطي » . وفي سنوات الحرب نشأت جماعة رابعة تسمى نفسها « جمعية نشر الثقافة الحديثة » وجماعة خامسة تسمى نفسها « دار الابحاث العلمية » وجماعة سادسة تسمى نفسها « الثقافة والفراغ » .

ان هذه الجمعيات الثقافية لم تكن سوى نوادر سياسية أو واجهات تحفي

وراءها تنظيمات شيوعية احدها يسمى نفسه ح. ت. ش (حركة تحرير الشعب)
والآخر يسمى نفسه (الشرارة) والثالث يسمى نفسه ش. و. ن. (شعب وادي
ننيل) ورابع يسمى نفسه (الفجر الجديد) وخامس يسمى نفسه ح. د. ت. و .
الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني) وربما كان هناك سواها . وقد جاءني فيما
بعد ان كل هذه الجماعات انبثقت من جماعة تكونت في مصر عام ١٩٣٧ باسم
« اتحاد انصار السلام » كان اكثر اعضائها من الاجانب المحليين والاجانب
المتصرين . وأياً كان الأمر فقد لاحظت بعد عودتي الى مصر عام ١٩٤٠ ، ان
كثيراً من اعضاء هذه الجماعات أو النوادي الثقافية من الاجانب المحليين
والاجانب المتصرين ، وان اليهود ممثلون فيها بنسبة عالية ، وانها كانت نوادي
مختلطة يختلف الى محاضراتها وندواتها الشبان والفتيات على السواء ، وهو شيء
لم يكن مألوفاً في الحياة الثقافية المصرية ، وان أكثر هؤلاء الاعضاء المختلطين من
الاجانب والاجنبيات والمتصرين والمتمصرات ، وأن هذه النوادي اخذت
تجتذب اليها لفيماً من المثقفين المصريين لهما ودماً ، ثم لفيماً من المثقفات المصريات لهما
ودماً ، وان اللغة السائدة في الحديث والمحاضرات والندوات كانت اللغة
الفرنسية . أنا الفرنسية الفصيحة وأنا الفرنسية البزيمية التي تجري على السنة
اجانب الشرق الأوسط ومتصرية . وكنت اسمع من اعضاء هذه النوادي انفسهم
ان تمويل نواديهم وربما جماعاتهم الباطنية يأتيهم بدرجات متفاوتة من بعض
المليونيرات اليهود لا ادري ان كانوا من الاجانب المحليين ام من الاجانب
المتصرين ، وكانت تتردد أمامي اسماء بعض هؤلاء المليونيرات اليهود كاسم
هنري كوريبيل واخيه راؤول كوريبيل ويهودي ثالث اسمه ريمون اجيون ويهودي
رابع اسمه شفارتز ويهودي خامس اسمه جاكودي كومب . وربما كان هناك
ممولون آخرون لم اسمع باسمائهم . وانا طبعاً احل لنفسني ذكر هذه الاسماء لان
هذه الحقبة من حياتنا قد دخلت في ذمة التاريخ . ولعل أهم ظاهرتين لاحظتهما
في هذه النوادي الثقافية أو السياسية ان نسبة المثقفين المصريين او المثقفات
المصريات كانت في ازدياد مطرد سنة بعد سنة ، حتى ان بعضها كجمعية نشر الثقافة

الحديثة ودار الابحاث العلمية وجمعية الحبز والحرية كان عمودها الفقري من المصريين قبلما تنقضي الحرب ، ورغم هذا فقد ظل التمويل اليهودي ساقطاً على الحركة الشيوعية المصرية بدرجات متفاوتة ، اسمع به لماماً من اصدقائي المصريين المشتغلين بهذه الحركات التي تحرر بعضها من سيطرة اليهود بعد تجربة مريرة لهم اثناء حرب فلسطين . اما الظاهرة الثانية الهامة التي لاحظتها في اوساط الشيوعيين يومئذ فهي ان نواديهم الثقافية ، وربما تنظيماتهم ايضاً ، كانت خلواً من ابناء البروليتاريا التي يدافع الشيوعيون عن كيانها ومصالحها ، وان أكثرهم كانوا خليطاً من ابناء الذوات المثقفين بثقافات أوروبية ، وبعضهم كانوا مليونيرات ومن ابناء الطبقة المتوسطة المثقفين ثقافة جامعية . ولم يتح لي ان اعرف الى أي مدى استطاعت هذه الحركات والمعتقدات ان تتغلغل في البروليتاريا ، ولكن احساسي العام انها كانت ولا تزال في صميمها تياراً من تيارات البورجوازية المهنية في مصر . ولا يفوتني ان اذكر ان الخلاف الايديولوجي الوحيد الذي استطاعت مداركي ان تعيه بين هذه الشيع المتناحرة كان الخلاف القائم بين جماعة من المثقفين المتهمين بالتروتسكية وبقية الشيع التي كانت متهمة بالستالينية . أما فيم كان يتناحر الستالينيون فهذا ما كان يحيرني من ناحية وما كان من ناحية اخرى عيراً تتبع جذوره الا لمن أوتي الرغبة في التغلغل بين صفوفهم وأوتي القدرة على ذلك في آن واحد .

هذه صورة عامة للنوادي الثقافية وللجماعات السياسية اليسارية المتطرفة التي ملأت القاهرة لغطاً بين ١٩٤٠ و ١٩٤٧ وهو العام الذي اصدرت فيه «بلوتو لاند» وكتبت فيه «العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح» ووقفت في مفترق طريقين رهيبين لا يلتقيان ، من مضى في احدهما فلا رجعة ولا اياب فيه . فاما ان اشتغل بالسياسة فأنتمي الى جماعة من هذه الجماعات أو أسس جماعة جديدة على شاكليتي ، واما ان ادير ظهري للسياسة تعاماً وانصرف كلية الى ابجائي الاكاديمية . وبعد ازمة روحية عنيفة دامت طوال صيف ١٩٤٧ اتخذت قراراً في باريس .

تزوجت وعدت الى كلية الآداب بجامعة القاهرة لادفن نفسي بين اساطير اليونان
ورمزيات العصور الوسطى وشعر الانجليز والأدب المقارن . واعتقد اني لا زالت
تلى اليوم ، بعد عشرين عاماً ، وفيما لهذا القرار الذي اتخذته في صيف ١٩٤٧ .
الأدب نعم ، أما السياسة فلا ، ولكن ربما كان المركب الذي خرجت به من هذه
التجربة العصبية هو دعوتي للأدب في سبيل الحياة . وبعد عودتي من باريس الى
قاهرة في أواخر سبتمبر ١٩٤٧ فقدت كل رغبة في تتبع ما يجري في محيط
الشيوعيين ، وقد عرفت فيما بعد ان امورهم تعقدت بعد ذلك بمزيد من التجمعات
والانقسامات فظهرت بينهم اشياء تدعى م . ش . م . او مشمش على سبيل الدعاية
(المنظمة الشيوعية المصرية) و ط . ش . (الطليعة الشيوعية) ون . ح . ش . م .
(نحو حزب شيوعي مصري) الى جانب حد تو أو الحركة الديمقراطية للتحرر
لوطني وغيرها من المنظمات التي كانت قائمة ايام الحرب العالمية الثانية ، وهي
كلها تحتاج الى خريطة بهار سوم بيانية واعلام تنقل من موقع إلى موقع مثلما يفعلون في
غرفة العمليات الحربية وربما انتفع المؤرخ المصري لو ظهر واحد من اهلها ليدون
لنا في صراحة ووضوح وموضوعية طبيعة هذه الانقسامات ، ومتى كانت ولم
تتم وعلى أي شيء . يختصمون دون ذكر للاسماء طبعاً أعفاءً لنفسه ولغيره من
الخروج .

أما انا فقد أتبع لي ان ارى بصيصاً مما كانت عليه الحال إبان الحرب العالمية
الثانية ، وكنت حقاً أحرار لما أرى . أذكر اني كنت ذات يوم قبيل انتهاء الحرب
في مكتب صديق من اصدقائي كان يشرف على تحرير « المجلة الجديدة » التي نزل
له سلامة موسى عنها في ظروف لم أطلع عليها ، او اطلعت عليها يومئذ ولكني
لم أعد أذكرها . وكان صديقي هذا متهماً بالتروتسكية واذا برفيق من « الرفاق »
مرموق المكانة في صفوف الشيوعيين يقتحم عليه المكتب في غضب بارد معنفاً
مطالباً بتخليه عن منصبه في الاشراف على تحرير « المجلة الجديدة » ومتهماً اياه
بالانحراف . ومن المناقشة ادركت ان هذا « الرفيق » غاضب لان صديقي كتب

افتتاحية العدد عن « الفانستارتيا » أي مذهب اللورد فانستارت الذي كان يومئذ وزيراً لخارجية بريطانيا وأدلى بتصريح خطير يقول فيه ان الحلفاء يعتبرون أو ينبغي ان يعتبروا الشعب الالماني كله مسؤولاً عن جريمة الحرب التي اشعلها هتلر والحزب النازي وبالتالي ينبغي ان يتحمل نصيبه في العقوبة . واشتد الجدل بين الرجلين الى حد اوشك ان يبلغ مبلغ العدوان البدني . وتدخلت انا بينها مهدئاً دون ان اقحم نفسي في موضوع الخلاف ، فالحق يقال اني قرأت تصريح فانستارت مع القارئین في تلك الفترة ، ولم يستوقف نظري فيه شيء غير مألوف . اما افتتاحية صديقي فقد كانت تتضمن حملة شعواء على فانستارت والفانستارتية واعلانا بأن الشعوب طبقاً للنظرية الماركسية لا ينبغي ان تؤخذ بحريرة زعمائها من تجار الحرب وتجار السياسة الخ ... وبالتالي فالشعب الالماني بريء من جرائم هتلر والنازيين ودعوة فانستارت الى التنكيل بالشعب الالماني مؤامرة استعمارية يبيتها الحلفاء لاسترقاق الشعوب . أما الرفيق او « الزميل » الآخر ، كما يسمى بلغة هذه الايام ، فكان يرى عكس ما يراه صديقي وقد ذهب يندد بمذابح ستالنجراد وسمولنسك ... إلى آخر القائمة الواردة في سجل الحرب العالمية الثانية ويطالب بالقصاص من الالمان زعامة وشعباً طبقاً للنظرية الماركسية ايضاً . وكانت هذه المناقشة في نظري اما مناقشة بيزنطية او فوق مستوى ادراكي رغم اني كنت اعرف عن الماركسية وعن اصولها شيئاً كثيراً ، ولكنني رأيت ان مهمتي هي الحيولة دون استفحال الشجار . وقد زاد من التهاب الموقف ما ادر كته من مجرى المناقشة ان الزميل المقتحم لم يكن يعبر عن رأيه الخاص في موضوع اللورد فانستارت وانما كان يتكلم باسم جماعة لا اذكرها على وجه التحقيق . وتخفيفاً للتوتر دعوت كليهما الى فنجان من القهوة في امريكين سليمان باشا ليتجادلا في هدوء ويسويا ما بينهما من خلاف على طريقة القوم المتحضرين . وفي الاميريكين اقترحت ان يحل الموقف بأن تخصص افتتاحية العدد القادم من « المجلة الجديدة » مقال يكتبه الزميل المقتحم دفاعاً عن الفانستارتية وبهذا ينتهي الاشكال . وبدأ الاقتناع على الطرفين وانصرفا على ما يشبه التراضي ،

منا فقد مضيت تملؤني السعادة بنجاح منهج « الحل الوسط » على الطريقة الانجليزية و تملؤني الحيرة ايضا من هؤلاء الفتية الذين رأيتهم يتجادلون في شئون حرب والسلام في غرفة بسيطة في ١٠ شارع علوي ليس بها من الاثاث سوى مائدة كموائد المطبخ واربعة كراسي من الخيزران ، وكأنها يتجادلان حول مائدة الصلح في فرساي او في هوايت هول ، او كأنها يترافعان امام محكمة نورمبرج. وفي اليوم التالي عرفت من مقاهي القاهرة فقد كان الخبر على كل لسان - ان الزميل المفتحم ما ان تركنا حتى توجه فوراً الى مقر المجلة في ١٠ شارع علوي وكسر قفل الباب بآلات حادة واستولى على كل ما كان في الغرفة من كليشيات واصول مقالات .

هذه صورة من صرور الحياة اليومية بين الشيوعيين المصريين ابان الحرب العالمية الثانية . صورة تبدو غريبة وكثيية ومضيفة في وقت واحد . هي غريبة لأن الرجل العادي حين يستعرض آراء الشيوعيين المصريين وفعالهم يعجب لانفصالهم عن بيئتهم كل هذا الانفصال الذي يجعلهم يعرفون عن حكاية ساكو وفترتي أو ما قاله لاسال في جنيف لحزب العمال البريطاني في الدولية الثالثة اكثر مما يعرفون عن علاقات العمل في مصانع شبرا الخيمة على قيد خطوات منهم . وهي صورة كثيية لان سيطرة اليهود على التنظيمات الشيوعية أو على الأقل على كوادرها الداخلية في سنوات التكوين بحكم التمويل ، أدت الى عزل هذه التنظيمات عن جماهير الشعب ، والى تعدد الانحرافات الخطيرة فيها والى استئراء الانتهازية بين صفوف الشيوعيين مما قضى على مستقبلها في مصر لجيل كامل على الأقل ، ولا سيما بعد ان مرت بمحنة الاختيار الرهيب ابان حرب فلسطين عام ١٩٤٨ بين الولاء للوطن والانسانية وبين الولاء لشعارات مدسوسة عليها باسم الماركسية تنادي بأن حرب فلسطين حرب استعمارية ، وان اسرائيل يمكن ان تكون قاعدة اشتراكية تشع التقدم وكافة حقوق الانسان على الوطن العربي المحيط بها . وهي اخيراً صورة مضيفة لأنني كنت ارى وسط كل هذه البلبلة الفكرية شرائح من

شباب مصر ومثقفها تحاول في اخلاص ان تعيد النظر في بناء المجتمع المصري على اسس جديدة قد يختلف عليها الناس وقد يتفقون، ولكنها كانت على كل حال أقرب الى التفكير العلمي من الشعارات الساذجة التي ألفها المصريون منذ تجربتهم الديمقراطية الليبرالية التي تمخضت عنها ثورة ١٩١٩ . وقد كانت أوضح نتائج هذا الاجتهاد السياسي الوعي العلمي بعلاقات القوى الاقتصادية داخل المجتمع المصري واليقظة الى ما نسميه اليوم بلغة الميثاق تحالف الرجعية بقيادة الملك مع الاستعمار ، وأخيراً وليس آخراً الحيلولة دون تغفل العقائد الشمولية الغيبية كالنازية والفاشية في نفوس الجماهير .

هذه هي الوجوه السلبية والوجوه الايجابية في الحركات الشيوعية التي خبرتها ابان الحرب العالمية الثانية . والحق اني لم ادرس هذه الحركات من الداخل ولكن درستها من الخارج ، فقد كانت علاقتي بها علاقة من نوع غريب . فحين عدت من المنفى عام ١٩٤٠ كان وجداني السياسي قد تطور بحيث امكنني ان انقف موقف المتفهم للفلسفة الماركسية في مجموعها والمتعاطف مع بعض وجوها فقد كنت في يفاعتي ، أي الى ١٩٢٩ عام حصولي على شهادة الكفاءة شديد الحماسة للديمقراطية الليبرالية وكانت حماسي متمثلة في الايمان ايماناً اعمى بدستور ١٩٢٣ الذي كنت اعتقد ان الحفاظ عليه هو وسيلة مصر الوحيدة لتقييد الملكية وكسر شوكة بطانتها التركية من ناحية ولطرد الانجليز من ناحية اخرى بقيام حكومة صلبة تعبر عن ارادة « الأمة » . وكانت هذه بوجه عام وجهة نظر الوفد . ولم تكن « الأمة » يومئذ قد تفتت في نظري الى عناصر أو مكونات او طبقات او مصالح . ودرجة درجة ، بتأثير سلامة موسى على وجه القطع وربما بتأثير الأزمة المالية وتقش البطالة وتعاقب دكتاتوريات محمد محمود واسماعيل صدقي ، بدأت اجنح الى الفكر الاشتراكي بطريقة هلامية ، فلم تعد الحرية عندي شيئاً مجرداً من غيبيات الحياه بل ارتبطت في ذهني بالاستقلال الاقتصادي سواء بالنسبة للامم أو للطبقات او للأفراد . وقد مكنتني هذه اليقظة الباكرا

مراجعة فكرة الحرية ومبادئ الديمقراطية الليبرالية من ان اكون من اسبق شباب جيلي الى مقاومة التيارات الفاشية والنازية الوافدة علينا من الغرب في أوائل ثلاثينات وفي أواسطها. وحين نشبت الحرب الاهلية الاسبانية كنت بوجداني اكابد مع الجمهوريين الاسبان . وقد اتيح لي ايام الطلب في جامعة القاهرة ان ادرس ماركسية ومختلف النظم والمذاهب دراسة منهجية كمادة من المواد المقررة في قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب ، وقد احسست يومئذ بالصدع العميق الذي نجني في صفوف اساتذتي الانجليز بسبب الرياح العقائدية التي كانت تحتاح أوروبا كهم في تلك الايام ، فقد كان بينهم المحافظون من امثال الاستاذ ر. أ. فيرنس والاحرار الليبراليون من امثال كريستوفر سكيف والاشتراكيون من امثال برين ديفيز وأوين هولواي وجون كراير. وكان اساتذتي لا يخفون هنا انقسامهم في الرأي ومنهم من كان يسخر من معارضيه امام التلاميذ وكانه اوين هولواي يدفع اليّ بكتب ماركس وانجلز وسوريل ، اما ديفيز فكان يدفع اليّ بكتب نخبين. وذات يوم اختفى من بيننا جون كراير ثم اتضح بعد اسابيع انه تضوع في الحرب الاهلية الاسبانية ليقاقل في صفوف الجمهوريين ، وكان سلوكه هذا بمثابة « سكاندال » اصابت الجالية الانجليزية في مصر. كل هذا ألهب عقلي ووجداني بالظلم لمعرفة ذلك الصراع الرهيب الذي اجتاحت أوروبا وبدأت نذره تظهر في مصر ولكن تكويني الليبرالي الأول جعلني حتى هذه السن اعتنق نوعاً من الفكر السياسي اجتمعت فيه الحرية والعدالة الاجتماعية ووجدت هذا التركيب في الفلسفة الاشتراكية الديمقراطية .

وحين سافرت الى إنجلترا دخلت في مأزق فكري جديد أكد في نفس الشك في سلامة الديمقراطية الليبرالية ، واكد لي انها لم تعد الا واجهة للنظام الرأسمالي. فقد اتضح في أوروبا يومئذ ان الرأسمالية الانجليزية والفرنسية والاميركية ساهمت مراراً في بناء الحزب النازي بملايين الجنيهات لتقيم من المانيا « حاجزاً صحياً » يقي غرب أوروبا من الشيوعية . ووجدت اكثر المثقفين من ابناء جيلي سواء في

جامعة كمبردج أو في جامعة لندن أو في السوربون يتظاهرون تأييداً للجمهوريين
الاسبان ويجمعون لهم المال واللبن ومنهم من لبس بدلة القتال . وكانت خيانات
الاحزاب الديمقراطية الاشتراكية في أوروبا هي التي ألقت بي في هذا المارق
الفكري أثناء اقامتي في الخارج ، فقد كان الديمقراطيون الاشتراكيون في أوروبا
اكثر تفاهاً مع المانيا النازية منهم مع روسيا الشيوعية . وهنا قالت نفسي كلا .
أي شيء إلا النازية والفاشية . حتى الديمقراطية الاشتراكية لا تملك دواءً لاجوع
الانسانية .

هذا هو الدواء الذي تنفسته في أوروبا مدى ثلاث سنوات ، فلما عدت الى
القاهرة عام ١٩٤٠ قادني استاذي هولواي ذات مساء الى نادي « الاتحاد
الديمقراطي » بالقرب من ميدان سليمان باشا لاستمع الى محاضرة لا اذكر الآن
موضوعها ولألتقي بالاخوين كوريليل . وكان لقاءً فاتراً ادركت منه للوهلة الأولى
ان ذلك غير ما أريد . كليشهات . كليشهات . كليشهات . شعارات . شعارات .
شعارات . ولكنني مع ذلك التقيت هناك ببعض المثقفين المصريين الذين اكتسبوا
احترامي . وكانوا يتكلمون لغة الماركسيين ولكن لغتهم كانت ممزوجة بالفن
وكان للانسان فيها مكان . ولم اعد الى « الاتحاد الديمقراطي » ولكنني انشأت
صداقات حميمة مع بعض من عرفتهم هناك من المثقفين المصريين . ثم ترددت
على الجماعات الاخرى أو على اكثرها مرة أو مرتين فكنت اصطفي من اصطفي
واحتقر من احتقر وأهل من أهل . وهكذا شهراً بعد شهر تعرفت الى عشرات
من المثقفين المرتبطين بالماركسية ومنهم من توثقت ببني وبينهم اواصر الصداقة
ودمنا على وفاء حتى هذه اللحظة . وكنا نلتقي كثيراً في بيوتنا أو في قهاوي
القاهرة أو في استوديوهات الفنانين منهم بدرج اللبانة المتأخم للقلعة نتجادل
ونتجادل الساعات الطوال ، وربما امتد بنا النقاش من العشاء حتى مطلع الفجر .
وكان اكثر من خالطتهم من مثقفي اليسار ، حتى من لم ارتبط بهم بغير المعرفة
الرسمية يثقون بي لأني ما كنت اتحدث عن الماركسية الا باحترام تام فإن خالفهم

خففتهم على أسس فلسفية لا مخالفة الزراية والتجريح . وقد كان هذا النهج
 حديداً في مصر يومئذ فقد كانت الصحافة الصفراء في مصر وغيرها لا تتحدث
 عن شيوعية إلا بلغة التشهير ، وتلقن الناس ان الرفاق والرفيقات في الاتحاد
 سوفيتي يعيشون بغير دين ويتباضحون على قارعة الطريق شأن القطط والكلاب .
 وقد نجحت فعلاً في غرس هذه الافكار في اذهان الكثيرين . أما انا فقد كنت
 أعمل الماركسية معاملي للميجيلية أو للافلاطونية ، أو للاكوينية ، أي اعاسلها
 معاملي لمذهب فلسفي ونظام اجتماعي نابع من فكر راقٍ ولا يجوز مناقشته إلا
 على مستوى الفكر الراقٍ . بل اكثر من هذا فقد كانت في الماركسية جوانب
 عريضة وجدتها مقنعة بعد تشذيبها مثل نظريتها القائلة بان الاقتصاد محرك
 لتاريخ ومثل اصرارها على اهمية المادة في تكوين الفكر ، وقد أنقذتني هذه
 من الخرافة المثالية التي تزعم ان الفكر هو محرك التاريخ ، وان المادة ليست إلا
 ظل من ظلال الروح المطلق المستتر وراء الأشياء . كذلك قبلت من الماركسية
 بعض اقوالها في فائض القيمة والتفاوت الى نظرية الحركة عن طريق النقائص .
 ولكنني رغم هذا كنت شديد التحفظ بالنسبة لبعض اركان الماركسية الهامة ،
 وكنت اجدها لا تجيب اجابة كافية على نواميس الوجود والحياة والمجتمع
 وسلوك الانساني . بل كنت اجد فيها ما يستوجب الرفض بوصفه خرافة مادية
 لا تفضل الخرافة المثالية في قليل أو كثير . من هذه التحفظات مثلاً (١) أن
 ندورة الجدلية الهيجيلية - الماركسية بحاجة الى مراجعة على ضوء المنطق
 لـنصوري الارسطاطاليسي (٢) ان « اسبقية » المادة على الفكرة لا تقل تبسيطاً
 لأمور عن « اسبقية » الفكرة على المادة في أي تفسير كوزمولوجي (٣) ان
 « الجبرية » مادية كانت أو تاريخية تتعارض مع معارفنا الفيزيائية عن تجلي
 لارادة الحرة في سلوك الذرة وعن معارفنا الاجتماعية عن تجلي الارادة الحرة في
 سلوك المجتمعات وعن معارفنا النفسية عن تجلي الارادة الحرة في سلوك الانسان ،
 فهي اذن بحاجة الى قانون مكمل . (٤) ان الاسراف في ابراز دور الاقتصاد في
 حركة التاريخ رغم اهمية التنبيه اليه قد يعود بنا القهقري الى المادية الميكانيكية

التي رفضتها الماركسية نفسها (٥) ولعل هذا هو اهم التحفظات من الناحية العملية والانسانية ، أنه نظرية صراع الطبقات ونظرية صراع الازداد اذا لم تستكمل داخل اطار اخلاقي اشمل كفيلة بأن تنشر على الكون والحياة رداء مأساويا قانياً كذلك الذي صبح منذ الأزل بدم هابيل وانه لا فرق في النهاية بين فكرة الصراع البروليتاري في ماركس وفكرة الصراع البورجوازي في داروين حيث بلغة الشاعر تينسون « الطبيعة حمراء الناب والخلب » وهذا الاعتراض هو موضوع رواية « العنقاء او تاريخ حسن مفتاح » (٦) أن الماركسية علم ومنهج ولكن العلم والمنهج لا « نهائية » فيه ، فهي اذن كغيرها من العلوم والمناهج مجرد ضوء جديد من الاضواء الكشافة التي يلقيها العقل البشري على مجاهل الحقيقة فيزيل عنها الظلال أو الظلام ، فاذا اصرت الماركسية على نهائيتها علماً أو منهجاً تحولت تلقائياً الى « دين » يقوم على المطلقات والغيبيات (٧) ان « رؤيا » ماركس للانسانية الشيوعية بعد ذبول الدولة لا تختلف عن رؤيا يوحنا اللاهوتي أو رؤيا فرجيل للعصر الذهبي وغيرها من المدن الفاضلة التي تخيلتها احلام الفلاسفة والحكماء ، هي حلم ذهبي جميل لا « حتمية » في تحقيقه جملة أو تفصيلاً مهما تمنينا ان تتحقق الاحلام (٨) ان دكتاتورية الطبقة العاملة كأية دكتاتورية مرفوضة شكلاً وموضوعاً . هي تقوم على حلم « لا طبقات » ، والدكتاتورية لا وجود لها الا في نظام طبقي . تقول : وماذا بقي في الماركسية بعد هذا؟ اقول : الكثير . ولكن هذه الاعتراضات وحدها كفيلة بأن تشغل المفكرين والمثقفين بالبحث الطويل وبالجدل الذي ليس له نهاية . وهذا ما كنا نفعله . كنا نبحت طويلاً ونتجادل بلا نهاية في اركان المادية الجدلية والجبر التاريخي والطوبى الشيوعية... الخ ، وأهم من هذا وذاك كنا نتجادل في نظرية « الصراع » صراع الازداد الذي نبعت منه نظرية حرب الطبقات . وكنت في الجامعة اعلم طلابي كيف يفكرون في الماركسية باحترام وكيف يرفضونها باحترام . ولم يكن لدي من بديل اعطيه لهم الا الاشتراكية الديمقراطية ، لا الديمقراطية الاشتراكية ولكن الاشتراكية الديمقراطية . ومن اجل هذا الاحترام الذي اشعته بين المثقفين في

ندوهم للماركسية ، ، ومن اجل دعوتي للفكرة الاشتراكية الديمقراطية ، بل ومن اجل بغضي الذي لا يلين للنازية والفاشية وكل الوان الغيبيات السياسية ، صبح لي ملف عند البوليس السياسي بوصفي شيوعياً . وربما كان هذا امرأ ضيعياً ، ففي تلك الايام ، لم يكن هناك اي فارق بين الاشتراكية والشيوعية ، بين وبين الراديكالية والشيوعية . أي مذهب فيه دعوة الى اعادة تنظيم الملكية لفردية أو تقييدها أو المساس بها ، كان في عهد فاروق تشتم فيه رائحة الشيوعية ، فقد كان هذا هو العهد الذي طرد فيه محمد خطاب من مجلس الشيوخ لمجرد انه اقترح تحديد الملكية الزراعية بمئتي فدان .

قلت ان مثقفي الشيوعيين من المصريين كانوا يشقون بي . كنا نتجادل في ود وصراحة واحترام متبادل . وكنت لا استفسر منهم عن شيء يتصل بنشاطهم الخنوي أو التنظيمي ، ولا اسمح لنفسي بذلك . ومن اراد منهم ان يفضي الي من تلقاء نفسه بشيء من هذا القبيل أو بأية مشكلة تعرض له أصغيت له بأدب وبغير فضول ، وربما ساعدته على حل مشكلته في حدود العلاقات الانسانية نظية . وكانوا احياناً يحتكون الي في مشاكلهم العامة أو مشاكلهم الخاصة أو مشاكلهم العاطفية . وعلى امتداد سنوات عرفت عنهم الشيء الكثير . عرفتهم كبشر من لحم ودم لا كمجرد اشباح تتحرك في دنيا السياسة . عرفتهم في ساعات قوتهم وفي ساعات ضعفهم وفي ساعات سعادتهم وفي ساعات شقائهم . واعجبت ببعضهم اعجاباً عظيماً وازدريت بعضهم ازدرأ عظيماً . وعرفت لانسان بنقائضه العظيمة وراء كل هذه المجردات .

وكنت أنا في الوقت نفسه أربي تلاميذي في الجامعة على الهيومانيزم أو المذهب الانساني لا على اساس فردية الرينسانس أو طوبوية توماس مور ، ولكن على اساس اشتراكية القرن العشرين . كنت الهب فيهم الظماً الى المعرفة والهب فيهم حب الحرية ، ولا سيما حرية الفكر ، واحطم امامهم المقدسات المزيفة القائمة على الغيبيات أو وليدة الخوف أو التقليد . وكنت افجر فيهم ملكة

الابتكار . كان الخوف من التفكير والشعور هو أول العوائق التي كان علي ان
انسفها في عقولهم وقلوبهم لكي ينطلق من رراثها طوفان الفكر والعاطفة ،
وكانوا يخافون من الاحلام خوفهم من الاشباح فعلتهم كيف يحملون وكيف
يأملون وكيف يجرؤون على التخيل . لم يكن بد من هذه الثقة في النفس ان كان
هناك أمل في تغيير الاوضاع . وجعلتهم يبعضون الدمامة ويحبون الجمال . ومن
خلال تعريفهم بالموسيقى الكلاسيكية فتحت امامهم فراديس تعانقت فيها عرس
الفكر وعرائس الفن وعرائس الشعر تحت جناحي الحرية العظيمين . استغفر
الله . أنا لم افعل من هذا شيئاً وإنما كنت مجرد وسيط . شيئاً شبيهاً بفتح
الكونتاكت . نصف دورة وكل شيء في مكانه . الموتور سليم . البوجهيات
نظيفة . البطارية مشحونة . نصف دورة وكل شيء يدور . عيونهم البريئة ،
منظفة كانت ام مضيئة ، كنت أرى فيها وجه مصر الجديدة . والهمني الله ان
هذه كانت مسؤوليتي .

ثم حدث شيء لم احسب له حساباً . اكتشفت بعد عامين أو ثلاثة أذتلاميذي
ما أن يتحرك فيهم الشوق الى المعرفة الحرة حتى يستدرجوا الى تلك النوادي
الثقافية التي كانت تجري فيها السياسة وراء وأجبة الثقافة . الى جمعية نشر الثقافة
الحديثة ، الى دار الابحاث العلمية ، الى جماعة الحزب والحرية ، لا اعرف من كان
يستدرجهم ولا كيف يستدرجون . اكتشفت هذا مصادفة حين جاء الي ان
بعض تلاميذي قبض عليهم في خلايا كذا أو في اجتماعات كيت ووقعت في حيرة
كبرى . ماذا افعل ؟ اذن فأنا اعد ابنائي طعاماً سائماً لهذه الغيلان الجائعة
لتزردهم ، لتفلق عقولهم من جديد قبل ان يكتمل تكوينهم بتعاليم قطعية
جديدة قد تكون خيراً من تعاليمهم القطعية البالية ولكنها تباعد بالحلل الجاهزة
ما بين الانسان وانسانيته . عندئذ ادركت طبيعة الاشكال الاكبر الذي وقعت
فيه . انا لا املك فلسفة جاهزة اعطيها للجيل الجديد . كل ما أملكه هو بلطة
احطم بها اغلال الفكر واصفاد الشعور ، وحين يخرج الاسير الى الرحاب يحذ

نفسه في العراء حرأ حقاً ولكن بغير مأوى ولا انتماء . بغير خيمة تظله . ومن ذا الذي يستطيع ان يعيش بلا انتماء ؟ الميت وحده لا منتم . كل انسان يبحث عن اصفاد . المهم ان « يختار » الانسان اصفاده . المهم ان تكون الاصفاد الجديدة أخف من الاصفاد القديمة . ومرت على نفسي . لقد ادركت ان مهمتي هي ان اعلم ابنائى كيف يختارون اصفادهم ، كيف يميزون بين سلاسل الحديد وسلاسل الذهب ، بين الاغلال الثقيلة والاعلال الخفيفة . وكنت طبعاً شديد الاستياء من قيام المنظمات الشيوعية بتجنيد بعض تلاميذي في الحفاء أو على الأقل استدراجهم الى نواديهم الثقافية حيث تكثر الكليشيات والشعارات وتصلب الانحناخ والقلوب والاكباد ، ولكنني وقفت موقف الحائر لأن السباق على تجنيد الشباب كان ابان الحرب العالمية الثانية اشد ما يكون بين الشيوع الجديدة ذات المستقبل السياسي وهي الاخوان المسلمون ، والشيوعيون ، والنازيون من دعاة « تقدم يا روميل » واخوان الحرية ، لا من انصار الانجليز ، ولكن من خدم الاستعمار البريطاني في صراحة وبلا حياء . ومن اقلت من حباطل نشيوعيين وقع بين برائين الاخوان أو النازيين أو الانجلو أمريكيين . ديمقراطية ليبرالية قفلس منذ ١٩٣٦ فلا هي قادرة على مقاومة طغيان الملك وتعميق الحريات نعمة والخاصة ، ولا هي قادرة على تجديد فلسفتها الاجتماعية وبرامجها الاقتصادية بحيث تعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات وتعزيز العدالة الاجتماعية والاقتصادية . وكل يريد ان يرث هذه المؤسسة التي تسير الى الافلاس التام . خراب التام للذين تبلورا في محنة ، فبراير ١٩٤٢ . هذه كانت ورطتي التي لم عرف يومئذ بسبب ارتباطي الرسمي والفعل بالجامعة كيف اخرج منها بأكثر من تحذير هادئ لكل من اشتبه عن تلاميذي انه بدأ يتردد على المنظمات الشيوعية من التردد عليها كنت اقول لكل منهم : كن ماركسياً اذا اردت ولتكن كن جامعيأ أولاً وقبل كل شيء ما دمت في الجامعة ، وحين تتخرج تصرف في نفسك كما تشاء فلا سلطان عندئذ لأحد على فكرك أو ضميرك .

أما أنا فموقفي الشخصي كان يتلخص على الوجه الآتي : في الموقف الخارجي كنت بعواطفني وفكري مع الحلفاء املاً في ان يسحقوا المحور ، فقد كان واضحاً في ذهني ان مقاومة الاستعمار القديم ايسر من مقاومة الاستعمار الفتى وكنت بعواطفني وفكري مع العالم الشيوعي املاً في ان يخلص الشعوب من الاستعمار القديم لا مع الاتحاد السوفييتي ولكن مع الضمير الشيوعي الانساني ، فقد كنت من الملايين التي اهتزت ثققتها من الاتحاد السوفييتي بعد توقيعه ميثاق عدم الاعتداء مع المانيا النازية . أما في الموقف الداخلي فقد كان الأمل الوحيد في رأيي هو أن يتطور الوفد نفسه الى حزب اشتراكي أو راديكالي على اقل تقدير كما تطورت الاحزاب الديمقراطية في الغرب عبر القرن التاسع عشر من الليبرالية الى الراديكالية بل والى الاشتراكية المخففة ، أو كما تطورت الديمقراطية الامريكية من الرأسمالية المعرّبة الى النيوديل في الثلاثينات من القرن العشرين . ولكن هذا الأمل انطفأ في ٤ فبراير ١٩٤٣ حين اصبح من العتمة السياسي انتظار شيء من الوفد أو الدفاع عنه ، رغم اني كنت من القلة التي استيقظت يومئذ الى اشتراك الملك والفاشست المصريين مع الوفد في المسؤولية عن كارثة ٤ فبراير بسبب رغبتهم في التوسط لدخول الالمان وربما تواصلهم سرّاً مع النازي لطعن الانجليز من الخلف كما كان يقال يومئذ .

ولكن الأمل في الوفد تجدد بعد الحرب مباشرة وهو في المعارضة لفترة قصيرة ، فقد ظهر فيه جناح تقدمي من الشباب المثقف بقيادة الدكتور محمد مندور والدكتور عزيز فهمي ينجح بصورة واضحة الى النظام الجمهوري والراييكالية ويدعو لها جهاراً بل ويؤلب القاعدة الوفدية على العناصر الرجعية السافرة في قيادات الوفد . وكلما ازداد إرهاب النقراشي ثم اسماعيل صدقي ثم النقراشي ثم ابراهيم عبد الهادي ازداد جنوح الشباب الوفدي الى اليسار وازداد التقارب بينهم وبين الشيوعيين ، بل والتعاون احياناً . هذه الفترة هي فترة جريدتي « الوفد المصري » و « صوت الأمة » ثم « مجلة البعث » ومجلة « رابطة

الشباب » التي كنت اغديها وحدها ببعض المقالات الثقافية . وهي ايضاً فترة تكوين اللجنة التنفيذية للطلبة والعمال عام ١٩٤٦ التي كانت التعبير السياسي عن التعاون العملي بين الطلبة الراديكالية من شباب الوفد مع الشيوعيين ، وقد كان لتكوين هذه اللجنة دوي عظيم أولاً لأنها كانت بمثابة اشهار رسمي لزواج المثقفين والعمال وثانياً لأنها كانت ذات سيطرة حقيقية على القاعدة الشعبية القادرة على العمل السياسي بين شباب الجامعات وبين البروليتاريا في المصانع . وكنت ادعو لتعميق هذا التعاون بين الشيوعيين والطلبة الوفدية بأمل « تمصير » الشيوعية المصرية وردها الى الواقع المصري والتخفيف من غلوها من ناحية ، وبأمل اشاعة الوعي الاشتراكي بين الشباب الوفدي حتى تتحول راديكاليته الهلامية الى اشتراكية واضحة المعالم . وكنت في كل ذلك آمل ان تمتص الشيوعية في الطليعة الوفدية بالاسموز السياسي على اعتبار ان الاقوى يتلغ لأضعف ، وبهذا يخرج في مصر تنظيم جديد اشتراكي الفكر الاجتماعي ، ديمقراطي في الفكر السياسي ، تنظيم يعمل على تحقيق « الاشتراكية الديمقراطية » التي كنت احلم بها . وقد كان استقلالي عن الفريقين بحالتهما القائمة مصدر ضعف وقوة معاً . فقد كنت في عرف الشيوعيين مفكراً بورجوازيّاً وكنت في عرف البورجوازيين بما فيهم الطليعة الوفدية مفكراً شيوعياً مما جعل الفريقين يرفضان حلول الفكرية التي اقدمها ومع ذلك فقد مكنتني استقلالي من ان ارى مواطن لضعف في الفريقين .

ولكن الايام والحوادث اثبتت خطأ تقديري . اثبتت ان ميسرة الوفد كانت اضعف من ميمنتها ، وقد كان التعبير العملي عن قوة اليمين الوفدي أيلولة سكرتارية الوفد من عبد السلام فهمي جمعة الى فؤاد سراج الدين الذي فعل كل ما في استطاعته لتجميد الطليعة الوفدية ولفض التعاون بينها وبين الشيوعيين . كذلك خسرت الطليعة الوفدية بوفاة الدكتور عزيز فهمي قائداً بأسلاً يتأجج

بموجب الحرية وتقديس حقوق الانسان . وكان عزيز فهمي متخلفاً سياسياً عن محمد مندور اذا قيس بالفلسفات الاجتماعية الشائعة في القرن العشرين ، فقد وقف عند حدود الراديكالية الرومانتيكية كأنه خرج لفوره من عصر الثورة الفرنسية من جيل دانتون وروبسبيسير ومارا .. وكان اعصاراً مكتسحاً . ولكن بغضه الاعمى السافر للملكية ، مطلقة كانت أو مقيدة ، جعل منه قوة طليعية ضخمة وسط شباب الوفد في تلك السنوات الحرجة من تاريخ مصر ، سنوات الغليان العظيم بين نهاية الحرب العالمية الثانية وقيام الثورة في ١٩٥٢ . كذلك جمدت حرب فلسطين الحركات الاجتماعية سنوات وامام الخطر الوطني انكشبت الدعوات الى اعادة تنظيم المجتمع المصري . ولكن النكبة عمقت من جديد الاحساس بان هناك شيئاً عفنًا في دولة مصر واشاعت هذا الاحساس على مستوى رجل الشارع ، ولم يعد الامر امر جماعات سياسية تخطط الاصلاح الاجتماعي على الورق أو تتجادل في حدود الدستور أو حقوق البروليتاريا بل غدا الأمر انقاذ الوطن كله من الفرغرينه التي دبّت في اوصاله . وبدأ واضحاً لرجل الشارع ان أم القيوح مصدر العفن هي الملك وكبار الملاك والرأسماليين . هم الذين خسروا حرب فلسطين وهم الذين في جزعهم من زحف الجماهير جمدوا غضب الشعب المقدس ضد الانجليز ست سنوات وأجلوا الثورة التحريرية من ١٩٤٦ الى ١٩٥٢ وكان لابد من البتر وتقدم الجراح العظيم جمال عبد الناصر واجرى العملية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، اجراها دون ان يريق قطرة من الدماء .

ولنعد الآن من العام الى الخاص ، عندما انجلى الحرب العالمية الثانية تجمع الغليان السياسي والاجتماعي حول نقطتين : اثناء معاهدة ١٩٣٦ واجلاء الانجليز من ناحية واعادة تنظيم هيكل المجتمع المصري من ناحية اخرى . وكانت القوى السياسية والاجتماعية الجديدة قد بدأت تصفي نفسها أما انصار المحور فقد خسروا المعركة بانتصار الحلفاء فتواروا ليعيدوا تشكيل صفوفهم وصياغة شعاراتهم بما يلائم المرحلة الجديدة ، ولما كان اكثرهم من فلول مصر الفتاة

والحزب الوطني القديم ، فقد استأنفوا عملهم السياسي من وراء واجهتين ، احدهما تسمى «الحزب الاشتراكي» والاخرى تسمى «الحزب الوطني الجديد» . اما «الحزب الاشتراكي» فكان اسماً مذهباً «للحزب الاشتراكي الوطني» ولما كانت الاشتراكية الوطنية هي المرادف للنازية (ناتسيونال سوسيا ليسموس) ، فقد كان الاسم الجديد المختصر أنسب لروح العصر . وتنادى هذا الحزب بنوع من الاشتراكية الوطنية هي في حقيقتها نازية مذبذبة أو رأسمالية الدولة . وأما الحزب الوطني الجديد الذي لم ينسأ ابداً مصر الحديوية ومحور عباس حلمي استانبول فقد جدد نفسه أيضاً بلون «الاشتراكية» هو في النهاية اشتراكية وطنية أو نازية مذبذبة لا سبيل الى تحقيقها الا عن طريق رأسمالية الدولة . والحق ان من المهم لدارس تاريخنا القومي ان يحلل هاتين الشعبيتين المتشابهتين ليدلنا على سبب انشقاقهما بعد ان التقيا في تيار واحد في الثلاثينات ، فلعلمها كانتا تمثلان قوى اقتصادية واجتماعية متشابهة في الظاهر مختلفة في الواقع . وائياً كان الأمر فقد لوحظ ان «اشتراكية» الحزب الاشتراكي كانت اكثر اشتراكية من اشتراكية الحزب الوطني الجديد . أما «اخوان الحرية» فقد اصبحوا غير ذوي موضوع بعد انتصار «العالم الحر» فقد كان هؤلاء الخدم مجرد ركنية من ركنات الحلفاء حين كانت الحرب دائرة ، ولم يعد لوجودهم الرسمي مبرر أو حتى امكانية بعد الحرب عندما اشتد الشعور الوطني ضد الانجليز الى درجة الغليان . والواقع أنه عندما وضعت الحرب اوزارها لم يعد لانصار النازي ولا لاخوان الحرية أية قوة حقيقية ، وذاب اكثر اتباع الاولين في الاخوات المسلمين وذاب اكثر اتباع الآخرين في احزاب الاقليات التقليدية . ولم يكن هناك من القوى السياسية والاجتماعية الفتية ما يحسب له حساب بين نهاية الحرب وقيام الثورة الا الاخوان المسلمون والشيوعيون ، تماماً كما كان الأمر في حقيقته في سنوات الحرب . وازاء كل تمدد شيوعي منذ بداية الحرب كان هناك تمدد معادي للشيوعية في زبي الاخوان المسلمين ، وبدأت الأحزاب التقليدية (الوفد والسميون والدستوريون والكتلة) اثناء الحرب وبعدها ، رغم ما بينها من

اختلافات وتناقضات ، وكأنها احزاب الوسط في مجتمع يستقطب بسرعة نحو أقصى اليمين وأقصى اليسار ، ولكنه كان وسطاً متناً كلاً آيلاً الى الانهيار بزوال سلطته وهيبته بقوة القصور الذاتي لاشكال ومؤسسات اجتماعية وسياسية تمخضت عنها ثورة ١٩١٩ ، ولكنها بعد ربع قرن غدت خالية من المضمون وتعيش بغير عقد اجتماعي ولعل آخر عمل انتحاري قامت به النازية المصرية كان اغتيال احمد ماهر باشا رئيس الوزراء في ٢٤ فبراير ١٩٤٥ غداة اعلان الهدنة في ٧ مايو ١٩٤٥ ، واغتيال امين عثمان باشا صديق الانجليز « السفير » رقم ١ في مصر في ٥ يناير ١٩٤٦ ، لتخلد الى السكون سنوات حتى حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

في نهاية الحرب اذن احس الاخوان المسلمون والشيوعيون بقوتهم الذاتية وأحس النازيون بسكرة الموت فجرفت البلاد موجة من الارهاب والدعوة الى الارهاب . فكانت هذه هي الشرارة التي ولدت «العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح» . اخذنا من ناحية نسمع بمعسكرات سرية في الصحراء يتدرب فيها شباب الاخوان المسلمين على السلاح وبمخابيء سرية يكبدسون فيها الاسلحة ، واخذنا نسمع من ناحية اخرى عن صولات في الطيران وغيرهم من افراد القوات المسلحة يضبطون بمنشورات شيوعية . وكانت الرصاصات التي اردت احمد ماهر وأمين عثمان ذات دوي عظيم زاد من قعقعته ان القاهرة كانت تعيش على لغم مكظوم .

تولى النقراشي الحكم في ٢٤ فبراير ١٩٤٥ بعد مصرع احمد ماهر نحو سنة كاملة تأجج فيها الشعور العام لان النقراشي حاول حل المسألة المصرية على الطريقة التقليدية ، فاعتبرها قضية يكفي فيها تبادل المذكرات وطالب فيها بفتح باب المفاوضات ، فهاجت البلاد وعمت المظاهرات . وسقطت وزارته في ١٥ فبراير ١٩٤٦ بعد مذبحه كوبري عباس المشهورة في ٩ فبراير ١٩٤٦ ، وفي ١١ فبراير ، عيد ميلاد الملك ، حطم طلاب الجامعة الزينة الملكية وكان هتافهم صريحاً « لا

ملك الا الله . وفي ٣٦ فبراير ١٩٤٦ تولى بعد النقرashi اسماعيل صدقي الذي اعلن للبلاد وبراءة الاطفال في عينيه انه لم يعد اسماعيل صدقي دكتاتور ١٩٣٠ ، ومد الى الناس كفاً من حديد داخل قفاز من حرير ، ووعد بتحقيق الجلاء العاجل الناجز ، فصدقه بعض الناس . وأتظاهروا بتصديقه ، حتى ان زعيمامن زعماء الطلبة من الاخوان المسلمين خطب في حرم الجامعة يقول : « ان اسماعيل كان صادق الوعد نبياً » . ثم لم يلبث اسماعيل صدقي ان اخرج مغالبه في مذبحه ٢١ فبراير ١٩٤٦ ثم اعتقل المئات في ١١ يوليو ١٩٤٦ ومن بينهم عشرات من كبار الكتاب وقادة الفكر زاعماً أمام البرلمان انهم كانوا اطرافاً في مؤامرة لقلب نظام الحكم . وكان في مقدمة من اعتقلهم صدقي باشا : سلامة موسى ومحمد مندور ومحمد زكي عبد القادر ورمسيس يونان وانور كامل وحسني العرابي وأحمد رشدي صالح ولطف الله سليمان الى جانب نفر من المدرسين في الجامعة . وقد علمت عند عودتي من باريس في نهاية صيف ١٩٤٦ أنه كان هناك أمر باعتقالي في هذه الحملة ثم صرف النظر عنه بسبب الافراج عن كل من اعتقلوا قبل عودتي من فرنسا . عرفت ذلك من وكيل النيابة الذي كان يحمل أمر القبض علي . وحين عاد صدقي باشا من لندن يلوح للمصريين بمشروع معاهدة صدقي بيغن جاءني صحفي من « دار الهلال » في حديث يسألني رأبي في هذه المعاهدة ، ونشر على لساني قولي « لقد اعتزلت التفكير الى أن يعتزل صدقي باشا الحكم » كانت التهمة الموجهة الينا أننا كنا اعضاء في جماعة شيوعية دولية مزعومة تسمى نفسها « الرابطة المناهضة للاستعمار » . وكانت التهمة مضحكة ومزرية بموجهها في وقت واحد . أما الجماعة المزعومة فلم يكن لأحد علم بها الا ما كانت ترسله من نشرات بالانجليزية الى مئات من المثقفين المصريين والله وحده يعلم ان كانت هذه الرابطة جماعة فعلية أم جماعة ملفقة تصدر منشوراتها عن الخابرات البريطانية . حتى المحققين وجدوا غرابة وحرماً في توجيه تهمة « مناهضة الاستعمار » الى اخوة لهم في وطن محتل يرسف في أغلال الاستعمار ، فأفرجوا عن المعتقلين جماعة

وحفظوا هذه القضية الوهمية « لقلب نظام الحكم » .

انما كان المراد من كل هذا ارهاب الكافة بارهاب الخاصة حتى يتاح لاسماعيل صدقي اقرار نظامه والاتفاق مع الانجليز بما يرعى مصالح الطبقة المالكة لوسائل الانتاج ولا سيما الرأسمالية الوطنية والرأسمالية الاجنبية المحلية التي كان صدقي باشا يمثلها بوصفه رئيساً للاتحاد المصري للصناعات حتى غدا رمزاً لزواج المصلحة القائم بينهما . وحين فشل اسماعيل صدقي انصرف ليليه النقراشي في الحكم من جديد في ٩ ديسمبر ١٩٤٦ فيجدد حكم الاقلية السياسية . وفي عهد النقراشي كانت كارثة فلسطين وقد دفع النقراشي حياته ثمناً للكارثة ثم دفع حسن البنا حياته ثمناً لحياة النقراشي .

كان هذا جو العنف وعدم الاستقرار الذي عاشته مصر بين نهاية الحرب وقيام ثورة ١٩٥٢ ، قنبلة في نادي الاتحاد المصري الانجليزي ، قنبلة في نادي محمد علي ، قنبلة في بيت النحاس باشا ، قنبلة في مركز الاخوان المسلمين بالحلمية الجديدة ، قنابل مبعوثه في السينات تحت المقاعد فتودي بحياة الابرياء من المواطنين . مخازن ذخيرة تابعة للجيش المصري تنفجر في جبل المقطم فتوقظ القاهرة المذعورة في الهزيع الاخير من الليل . حتى القضاة كالمستشار الخازندار يصرعهم رصاص القنلة السياسيين لأنهم يطبقون قانون العقوبات على القنلة السياسيين . رئيس وزراء يقتل في البهو الفرعوني بعد القاء بيانه في البرلمان . رئيس وزراء يقتل في قلعته بوزارة الداخلية . وزير خطير يلقي مصرعه وهو خارج من ناديه في قلب العاصمة . زعيم يلقي مصرعه بتدبير الحكومة وهو خارج من جمعية الشبان المسلمين . قائد البوليس يلقي مصرعه في فلب كلية الطب (القصر العيني) الملك ينظم الحرس الحديدي ويقتال معارضيه . انقلبت السياسة المصرية الى سلسلة متصلة الحلقات من أعمال الفنديتا وتفكك العقد الاجتماعي .

وفي ١٩٤٥ أحسست احساساً عميقاً بان انتهاء الحرب العالمية الثانية ينبغي

ان يقترن بتعبئة شاملة لطرد الانجليز ولم بالدماء . واعتقد ان شعوري يومئذ لم يكن يختلف كثيراً عن شعور المصري بين انتهاء الحرب العالمية الأولى وقيام ثورة ١٩١٩ . البارود لطخ الأرض سنوات وملايين البشر سيختلج للمسيرة البشرية باسم المبادئ الديمقراطية . العالم الحر ، الحريات الأربع ، حقوق الانسان ، الكل مشحون بالجراح . المنتصر ذاته قد نزف حتى اعماه التزييف . وفي الضائيق في كل مكان لا تزال هناك اصداء ذكريات لما كان يلقى من نبيل التفسيرات لتبرير الحرب ، فالرأي العام العالمي مهيم . هذه اذن فرصة الشعوب المظلومة لتطالب بحقوقها وتنادي بسيادة قانون دولي لا يستند الى شريعة الغائب . فان ضاعقت هذه الفرصة فلن تعوض . هذا وقت الضغط على الاستعمار فان استجاب تحررت البلاد وان مضى في عناده افتضح كذبه وحتى عليه الجهاد .

ولكن كيف يكون الضغط على الاستعمار ؟ كنت أكره العنف واعتقد أنه يخلق من المشاكل اكثر مما يحل . ولكني انتهيت الى فلسفة اخلاقية بسيطة : ان جنحوا للسلم فاجنح له ، أما ان كان من قدر الانسان الا يستخلص حقه وكرامته الا بالعنف ، فليحمل الانسان قدره في شجاعة ، واذا كان العنف لعنة على بني الانسان فقبول الذل ألعن وألعن وألعن .

هذا المنطق البسيط يبدو بسيطاً في الظاهر فقط ، ولكنه في ضميري كان مصدر معاناة عظيمة . فماذا كان مبعث المعاناة ؟ ربما مبعثها اني كنت احمل بعض روااسب المسيحية التي ربيت عليها ، فقد لقنت منذ طفولتي « من لطمك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر » . ولكن لا أظن ان هذا كان الباعث الحقيقي لأن طبيعتي ليست من الوداعة ولا من الدموية بحيث تقتل دون مناقشة هذا القانون الاخلاقي أساساً للعلاقات الانسانية . وانما كان باعث معاناتي شيئاً آخر : كان ادراكي ان قوانين الاخلاق ليست قومية بل انسانية : فليست هناك اخلاق مصرية واخلاق انجليزية واخلاق المانية واخلاق امريكية . وانما قوانين الاخلاق

لجميع البشر . فلو اننا سلمنا بالعنف جوازاً لحكم بين الانسان والانسان (والانجليز طبعاً من بني الانسان) وجب ان نسلم ايضاً بالعنف جوازاً كحكم بين الحاكم والمحكوم في أي وطن من الأوطان ، أقول جوازاً أي اذا اختلف حكم القانون : لا القانون الجهنمي المتمثل في عقود الازعان السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يفرضها شعب على شعب أو طبقة على طبقة أو شيعة على شيعة أو دين على دين أو مذهب على مذهب أو فرد على أمة ، ولكن عقود الاتفاق والتراضي المبنية على الأهلية والاقتناع . ومعنى هذا التسليم جوازاً بشرعية الثورة ، لا الثورة بمعنى التغيير الجذري لأسس الحياة وهو قد يتم بطريقة سليمة ، ولكن الثورة بمعنى الصدام المسلح أو استعمال العنف أو رفع السلاح على مصدر السلطة لاستخلاص الحقوق والحريات . ولا شك أن القضية تبدو واضحة لا اشكال فيها عند ٩٩ بالمئة من البشر اذا كان الكلام عن المستعمرين والمستعمرين - ذلك لأن الاستعمار حاله من الاغتصاب واضحة حيث يكسر شعب قوي واسع الحيلة ، ارادة شعب آخر عادة بالسلاح أو بالضغط المادي ليتسلط في ابنائه ولينهب خيراته . وحيث الاغتصاب واضح تسقط شرعية السلطة بصورة واضحة ، وتجاوز بل ربما تجب الثورة عليها قانوناً واخلاقاً . وهذا هو العرف المستتر في ضمير الانسان المتحضر منذ أقدم العصور : أن يسقط أي سلطة تفرض عليه لا تستند الى سند شرعي . ولولا ذلك لجاز لأي عصاة من الأشرار أو قطاع الطرق ان تفرض سلطتها على أية جماعة متمدنة آمنة بشوكة السلاح وحدها . ولولا ذلك لجاز لأي مرابٍ أو مستغل أن يكسر بالضغط المادي ارادة انسان محتاج فيتصرف في شخصه أو في متاعه بما يحب . والتاريخ البشري والمجتمع البشري يعرفان فعلاً وجود هذه الظواهر وتكررها من حين لآخر ، ولكن الضمير الديني والضمير الاخلاقي والعرف القانوني كلها تستنكر قيام هذه الظواهر وتحضّر على مقاومتها وابطالها بمختلف الطرق . فالسلطة لكي تقبل وتطاع ينبغي أولاً وقبل كل شيء ان تكون شرعية . وهنا يبدأ الاشكال .

ما الذي يسبغ على أي سلطة صفة الشرعية ؟ اذا كان الاغتصاب واضحاً في

حالة استعمار أمة لأمة ، فما الحكم في حالة اغتصاب فرد لأمة أو طبقة لطبقة أو فئة لشعب داخل اطار الأمة الواحدة ؟ لقد كان هذا جوهر الفكر السياسي منذ أقدم العصور ، وقد حاول فلاسفة السياسة أن يحلوا هذا الاشكال بنظريتين معروفتين هما نظرية الحق الالهي ونظرية الحق الطبيعي . ففي الحضارات لاستاتيكية القائمة على استقرار العلاقات حضارة مصر القديمة والحضارة البابوية في العصور الوسطى كان الملك هو « معبد الله المقدس » بلغة شكسبير ولذا فقد كان الاجتراء عليه درجة من درجات التحدي للارادة الالهية . وفي الحضارات الديناميكية كالحضارة اليونانية والحضارة الاسلامية قبل ظهور نظام توارث الخلافة والحضارة الحديثة منذ الرينسانس عامة ومنذ الثورة الفرنسية بصفة خاصة رفض أكثر فلاسفة السياسة ، وأيدتهم في ذلك الشعوب ، مبدأ الحق الالهي واخذوا بمبدأ الحق الطبيعي . واذا كان هنري بولنجبروك (هنري الرابع ١٣٦٧ - ١٤١٣) في انتزاعه العرش من ريتشارد الثاني ، وهو آخر ملك في انجلترا جلله حق الملوك الالهي ، بحسب ما ورد في شكسبير ، قد وضع يده على مقبض سيفه يقدس حقه في عرش انجلترا ، واذا كان المعز لدين الله الفاطمي (٩٣١ - ٩٧٥) بحسب ما تقول كتب العرب ، قد جمع علماء مصر في بلاطه حين استفسروا عن حقه في الخلافة وأشار الى ذهابه قائلًا « هذا حسي » والى سيفه قائلًا « وهذا نسي » ، فان هذا السند الوضعي لسلطة الحاكم ليس الا مظهرًا من مظاهر التمسك بنظرية الحق الطبيعي ، وهو بمثابة قولنا بلغة العصر ان شرعية السلطة التي تقلدها هنري الرابع وشرعية السلطة التي تقلدها المعز كانت على الأقل في تاريخ الأدب - مستمدة من قدرة كل منهما على حفظ الأمن في بلد اختل فيه الأمن ، ومن قدرة كل منهما على نشر الرخاء في بلد استشرت فيه الفاقة : وما نظام البيعة ، وهو لون من ألوان الاستفتاء أو الانتخاب بلغة العصر الحديث ، الا مظهرًا من مظاهر اسناد السلطة الى الحق الطبيعي لا الى الحق الالهي ، وما القول المأثور : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، وما قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « اني قد وليت عليكم

ولست بخيركم ، فان رأيتموني على حق فأعينوني ، وان رأيتموني على باطل فسدّدوني ، أطيعوني ما اطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لي عليكم» الاتقنيناً لثورة المحكوم على الحاكم واسباغاً لصفة الشرعية على الثورات العادلة . وما أعمال فلاسفة الفكر السياسي في القرون الخمسة الاخيرة من فورتسكيو وجان بودان وجروتوس وكلاوندين الى سوريل واللورد التون ولاسي وجان هاريتان ، عبر هوبز ولوك وروسو وهولباخ وكوندورسيه وكوندياك وبيرك ووليم جودوين وبنتام وجيمس ميل وستيوارت ميل وبرودون وهيجل وماركس وانجاز نيتشه وتريتشكي الخ ... المحاولات لدراسة مشكلة « شرعية » السلطة والطابع العام للفكر السياسي الديموقراطي والرايديكالي الحديث فهو أنه يبني نظرية الحق الطبيعي على نظرية العقد الاجتماعي ، أما الفكر السياسي الارستقراطي الحديث والفكر السياسي الشمولي (الشيوعي والفاشي) فهما بمثابة امتداد طبيعي لنظرية الحق الالهي (تأليه البروليتاريا وتأليه الدولة) .

ولكن بالرغم من كل ذلك يبقى السؤال الجوهرى في مشكلة السلطة والثورة على السلطة بغير اجابة واضحة . فأيما كانت غاية هذا العقد الاجتماعي سواء كانت حفظ الأمن (هوبز) ، أو حفظ الحرية والمساواة والاخاء (اعلان حقوق الانسان) ، أو تحقيق أكبر خير لأكبر عدد (بنتام) ... الخ فان قيام الدولة كتجسيد للسلطة التي يمكن بها تنفيذ العقد الاجتماعي ، مع الاعتراف التام بضرورته ، يحمل في احشائه نقيضه وهو مبدأ هدم الدولة كتعبير عن الثورة على السلطة اذا استحال عليها تنفيذ العقد الاجتماعي أو اذا اصبح المجتمع بحاجة الى عقد اجتماعي جديد ، اللهم الا اذا سلمنا بأبدية العقد الاجتماعي أو على الأقل بأبدية شروطه وبنوده ، وهو أمر مستحيل لأنه يعود بنا الى الغيبيات المتضمنة في نظرية الحق الإلهي . وما دمنا نسلم بشرعية السلطة اذا كانت مبنية على الحق الطبيعي أو على نظرية العقد الاجتماعي ، وما دمنا نسلم بشرعية الثورة على السلطة اذا كانت مجرد اداة من

دوات القمع والاعتصاب تبقى المشكلة بغير حل فلسفي : فمن ذا الذي يحق له أن يقرر ان السلطة شرعية أو ان الثورة على السلطة شرعية ما دمنا قد تخلينا عن نظرية الحق الالهي ؟ ان نظرية الحق الالهي تحمل مشكلتها بنفسها لانها تستند الى افتراض ميتافيزيقي ازلي ابدى غير قابل للمناقشة وانما يقبل بالايمان والتسليم . أما نظرية الحق الطبيعي التي تجعل من الانسان وغاياته ومصالحه الخ أساساً للوجود الاجتماعي ولفكرة الدولة التي لا كينونة لها بغير السلطة ، هذه النظرية ليس فيها أي مقياس موضوعي مطلق نستطيع ان نحكم به على سلطة ما انها شرعية أو معتصة ، وانما المقياس دائماً منسوب الى طبقة (مجموعة من المصالح المتجانسة) أو الى فئة (مجموعة من الظروف المتجانسة) أو الى جماعة (مجموعة من الغايات المتجانسة) أو الى حزب (مجموعة من المعتقدات المتجانسة) ، والتبرير الأوحده لشرعية الثورة على السلطة هو ان السلطة تعمل على احباط هذه المصالح أو الظروف أو الغايات أو المعتقدات .

والنظرية الماركسية تقولها في صراحة لتبرير الثورة على السلطة في أي مجتمع طبقي أن السلطة بكل ما تملك من قوانين وتشريعات وفقه دستوري وتقاليده وفلسفات وأجهزة تعليم وأجهزة دعاية وأجهزة قمع (الجيش ، الشرطة ، المحاكم ، السجون ليست في نهاية الأمر الا التعبير عن مصالح الطبقة أو الطبقات المالكة لوسائل الانتاج . وكل ما هناك موجود لحماية المالكين من غير المالكين أو لحماية القلة التي تملك كل شيء من الشعب الذي لا يملك الا قدرته على التناسل . فالبروليتاريا كلمة لا معنى لها الا انها الطبقة الغزيرة النسل ، أو بلغة أهل مصر من لا يملك « قوته ودس قرموطه » .

فالماركسية اذن تسبغ صفة الشرعية على ثورة البروليتاريا على أساس انها ثورة الكادحين على نظام اغتصاب فائض القيمة المتجمع من عمل العاملين (العمال ، الفلاحون الخ ..) . والمجتمعات التي تقدر الملكية ، كالمجتمع

البرجوازي ، ترى ان أي مساس بنظام الملكية الخاصة يعتبر مساساً بمقدسات الانسان ويدخل في باب السرقة أو السطو الاجتماعي ، وبالتالي فهو اغتصاب خالٍ من الشرعية ، ولذا وجب قمعه بقوة القانون وتداركه بقوة التربية والتعليم والدعاية . وقد كانت البرجوازية نفسها ايام ثورتها على الاقطاع والارستقراطية (الثورة الفرنسية) تعد الملكية الخاصة الوراثية وكافة الامتيازات الموروثة اغتصاباً سافراً خالياً من أي سند شرعي لان البرجوازية الثائرة لم تكن تعترف بأساس للملكية الخاصة غير العمل ، فطالبت بما يسميه الفرنسيون « المساواة » وما يسميه الانجليز « تكافؤ الفرص » وطالبت بالحرية كشرط اساسي لممارسة المساواة أو تكافؤ الفرص . وحين بلغ المجتمع الارستقراطي والمجتمع البرجوازي درجة اللاتفاهم اندلعت ثورة كرومويل في انجلترا عام ١٦٤٠ واندلعت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ . والنظم الشيوقراطية القائمة على نظرية حكومة الله تعد الشرائع السماوية القوة الحافظة للمجتمعات ، وتعد أي انتقاض للارادة الالهية المتمثلة في الشرائع اغتصاباً يتحتم رده بالقوة . والنظم الفاشية تؤله الدولة متمثلة لا في افراد ولا في طبقات ولا في فلسفات أو عقائد أو مؤسسات مدنية ولكن ممثلة في « الجنس » كله أو القوم أي العصبية القومية بلمغة ابن خلدون الجامعة لكل العصابات ، وتعد أي انتقاض لارادة الدولة القومية اغتصاباً وعصياناً يستحق الردع ولو بغرف الغاز ومعسكرات السخرة .

في هذا العالم المضطرب بالمصالح المتعارضة وبالمنناقضات الفكرية هناك منهجان لا ثالث لهما لاجراء أي تغيير اجتماعي : اما العنف (الثورة على الاستبداد) ، وإما الاقناع (الوسائل الديموقراطية) . ومن حين لحين يظهر منهج ثالث هو منهج الثورة البيضاء ، وهو منهج لا نعرف له امثلة في التاريخ إلا ثورة ١٦٨٨ التي وضعت حداً لحق الملوك الإلهي في إنجلترا ، وثورة ١٨٣٢ التي نقلت السلطة في إنجلترا من يد الارستقراطية الى يد البرجوازية بقانون الاصلاح الاعظم ، والثورة المصرية في ١٩٥٢ التي صفت الاستعمار والاوليجاركية المصرية دون اراقة قطرة من دماء . ولكن الثورة البيضاء هي الاستثناء للقاعدة

في تاريخ البشرية . وفي ١٩٤٥ لم يبدُ في أفق السياسة المصرية ما يوحي بان تغيير أسس الحياة فيها يمكن ان يتم بغير اراقة دماء ، لان اللاتفاهم بين المصريين والانجليز من جهة وبين المصريين والمصريين من جهة اخرى بلغ ذروته وكان كل شيء يشير الى ان الاحتكام الى السلاح كان المخرج الوحيد من هذا المأزق الوطني ومن هذا المأزق الاجتماعي .

وفي هذه الفترة أقدمت على أول عمل سياسي قمت به في حياتي ، وكان هذا العمل يتنافى مع واجباتي الجامعية كمدرس لا يفترض فيه انه يتدخل في السياسة العملية مهما كان من حقه ان يشغل بالفكر الساسي . فقد اعادت حكومة النقراشي اتحاد جامعة القاهرة (فؤاد الأول يومئذ) ، بعد ان عطل سنوات بسبب ظروف الحرب . وأعد الطلبة انفسهم لاجراء انتخابات الاتحاد في أوائل ١٩٤٦ وحشدت الاحزاب كل ما تملك من عدة لتسيطر على الجامعة من خلال مجلس اتحاد الجامعة : ووضع الاخوان المسلمون والشيوعيون كل ثقلهم في الميدان ، حتى ان الفريقين استقطبا كل ما حولهما من نشاط سياسي ، فاليمين وفلول الفاشية المصرية تجمهرت حول الاخوان واليسار والعناصر الديمقراطية تجمهرت حول الشيوعيين . وترسب في يقيني يومئذ ان الوطن في خطر بسبب تعنت الانجليز في الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، وترسب يومئذ في يقيني ان الشعب في خطر بسبب تحجر الاوليجاركية المصرية بقيادة الملك وازدياد الهوة بينها وبين الشعب واعتدال لهجتها نحو الانجليز . ورغم تحفظاتي الكثيرة بالنسبة للافكار السياسية المتداولة يومئذ وجدت ان من واجبي ان أقوم بعمل ايجابي يعبر عن ايماني بان الجامعة ينبغي أن تكون كما كانت دائماً عقل المجتمع وطلبة الشعب . وكان معروفاً ان الاخوان المسلمين قد حشدوا قوتهم للسيطرة على اتحاد الجامعة عن طريق الانتخابات . وهنا جمعت بين عشرة وعشرين طالباً من طلابي الذين كنت اشبه انهم من قيادات الشيوعية في الجامعة أو التقدمية بصفة عامة ، جمعتهم في داري ، وكنت يومئذ لا ازال أعزب أسكن في بنسيون بشارع

بستان ابن قريش خلف ميدان الاسماعيلية (التحرير حالياً) وطرحتم عليهم
 القضية على الوجه الآتي : بعد أيام يفتح باب الترشيح لانتخابات اتحاد الجامعة .
 خصوصكم في الرأي قيادتهم موحدة أما انتم فموزعون . ان اردتم ان تفوزوا في
 الانتخابات فيجب ان توحدا صفوفكم وتتفقوا فيما بينكم على
 اثنين أو ثلاثة ترشحونهم وتؤازرونهم . أما ان يتقدم عشرة منكم للترشيح فلن
 تصيبوا منه الا تفتيت أصواتكم بينا خصوصكم ملتقون حول قيادات موحدة .
 سأترك لكم الغرفة ساعة كاملة تسوون فيها خلافاتكم ، وتتفقون فيها على مرشحكم ،
 اذا كنتم مقتنعين بوجاهة رأيي . ووجدتهم بالفعل مقتنعين ، وتركتم ساعة أو
 بعضها وحين عدت اليهم وجدتهم قد اجمعوا رأيهم على طالب وطالبة : ع . أ .
 و . ل . ز . وبعد اسابيع كانت الانتخابات وكان انتصارها ساحقاً . ويبدو ان
 ماتم في كلية الآداب تم في اكثر كليات الجامعة : سيطر الشيوعيون الديمقراطيون
 على اتحاد الجامعة . وفوجئنا بعد ايام في ١٧ فبراير ١٩٤٦ بظهور منظمة سياسية
 جديدة خطيرة اسمها اللجنة التنفيذية للطبلة والعمال مكونة من ممثلين عن اتحاد
 الجامعة وممثلين عن نقابات العمال . وقد سيطر على هذه المنظمة الشيوعيون
 والطليعة الوفدية . أقول خطيرة لأنها كانت بمثابة وثيقة زواج رسمي بين المثقفين
 والبروليتاريا . ويبدو ان فكرة انشاء هذه المنظمة نبتت في النوادي السياسية
 الشيوعية العديدة كرد فعل لاختيار صديقي باشا رئيس الاتحاد المصري للصناعات
 رئيساً للوزارة . وكانت مهمة هذه اللجنة قيادة الجماهير في النضال ضد الانكليز
 والملكية . كيف خرجت ومن اخرجها الى الوجود ، هذا ما كنت اجهله فقد
 كنت لا اعرف ما يدور في كواليس الشيوعيين والاحزاب السياسية . المهم انها
 خرجت الى الوجود فكانت شيئاً خطير وقف بالبلاد بين يوم وليلة على حافة
 الثورة . قبل ذلك بأيام ، في ١١ فبراير ١٩٤٦ ، يوم عيد ميلاد الملك ، كنت
 اتطلع الى الحرم الجامعي من شرفة كلية الآداب فرأيت ع . أ . يتسلق جدران
 ادارة الجامعة ويحطم الزينة الملكية : مئات اللبات الكهربائية المعلقة في شكل
 تاج واعلام . ورأيت الفتاة الخجول ل . ز . تقف على درج ادارة الجامعة

وتخطب في نحو ثلاثة آلاف طالب وتحضهم على الثورة . وخرجت المظاهرات من الجامعة ومن كل مكان تنادي بطرد الانكليز وسقوط عملاء الانجليز : هذا كان رد طلاب الجامعة على مذبحه كوبري عباس في ٩ فبراير ، يوم فتح النقراشي كوبري عباس على آلاف المتظاهرين من الطلاب ليحول دون تغلغلهم من الجيزة الى القاهرة فسقط في النيل عشرات وقتل من قتل . وسقطت وزارة النقراشي في ١٥ فبراير ١٩٤٦ وتولى اسماعيل صدقي في ١٦ فبراير . ولم يضع صدقي وقتاً ، فبعد معسول الكلام لم يلبث ان كشر عن انيابه . وتجددت المظاهرات في ٢١ فبراير ١٩٤٦ وتجمعت في ميدان الاسماعيلية (التحرير) وكانت ثكنات الانجليز لا تزال في قصر النيل مكان فندق الهيلتون ومبنى الجامعة العربية . وأصيب الانجليز بالذعر فأرادوا ان يسدوا بسيارات الجيب واللولريات مداخل الميدان ، ولكن المتظاهرين اقتحموا واحرقوا سيارة أو سيارتين . وفتح الانكليز النار من نوافذ القشلاق وابلا على الميدان فسقط من سقط . كل ذلك بعد ان ثبت عجز البوليس المصري عن السيطرة على الموقف . وتنبه صدقي باشا بعد الأوان الى تدهور الموقف فأمر بنزول الجيش المصري لحفظ النظام ، ولكن بعد ان سمح جنود « الحليفة » لأنفسهم ان يتدخلوا برصاصهم للمحافظة على « الأمن » . وكان الموقف ينطوي على خدش صريح لسيادة البلاد حتى على شئون الداخلية ، مما اخرج رجال الجيش المصري وجعلهم ينقمون على الحاكم الذي ادت حماقته الى قيام قوات دولة اجنبية بحفظ الأمن في مصر ، ولم يخفوا عطفهم على المتظاهرين . وقد خرج الكل من هذا بدرس خطير وهو ان قوات البوليس لم تعد كافية منذ ١٩٤٠ لقمع الشعور الوطني ، وان نزول قوات الجيش لم يعد منه مناص لمواجهة هذا الغليان . وكنت ارقب كل ما يجري بقلب واجف من رصيف الميدان امام قهوة استرا ورأيت الدماء تسيل . ولم أكن قد رأيتها رؤية العين إلا يوم حوصرنا في مذبحه كوبري عباس الاولى عام ١٩٣٥ ايام ان كنت طالباً بالجامعة ووجدت نفسي وجهاً لوجه امام البكباشي ليز ومسدسات الانجليز عند مدخل الروضة ورفاقي من حولي مخرجين بدمائهم في ساحة الشهداء وفي شارع المقياس

عبد الحكم الجراحي وعبد الحميد وغيرهم كثيرون . كل هذا حدث في فبراير ١٩٤٦ . وندد صديقي باشا في بيانه « بالدماء » (يقصد الشعب) ، وعرفت البلاد ان صديقي هو صديقي رغم مرور ربع قرن على ديكتاتوريته الأولى .

وأراد صديقي ان يخذع البلاد بمفاوضة الانجليز وعاد من انجلترا بورقة اسمها مشروع معاهدة صديقي بيفن . وعند نزوله من الطائرة بالورقة قائلاً « لقد جئكم بالسيادة على السودان » وكذب ارنست بيفن رئيس وزراء انجلترا انه اعطى صديقي باشا شيئاً من هذا القبيل . وسقط صديقي وعاد النقراشي في ديسمبر ١٩٤٦ وبدأ من جديد يعد العدة لمناوأة الانجليز بالطرق «القانونية» : بشكواهم في هيئة الامم المتحدة . وهنا أقدمت للمرة الثانية والاخيرة في حمايتي على العمل السياسي دعيتني سكرتارية مجلس الوزراء لترجمة الخطاب الذي كان مزماً ان يلقيه النقراشي في هيئة الأمم المتحدة مطالباً بجلاء الانجليز وتعديل المعاهدة ومعه بعض الوثائق المتصلة بالموضوع . وكنت اعتقد ان النقراشي كان في صميمه رجلاً وطنياً ، ولكن كان معروفاً للخاص والعام انه لم يكن يمثل الشعب وانما كان يمثل فئة قليلة العدد من اوساط الرأسماليين . وهنا تأكد في نفسي هذا المعنى : في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ البلاد حين كانت جموع الشعب تنادي بالعودة الى الجهاد الوطني كيف يبيع زعيم اقلية لنفسه ، وهو لا يستند الى اية سلطة شرعية إلا ارادة العرش ، ان يخرج بمفرده لمواجهة الانجليز مواجهة دولية ؟ ان أي اتفاق أو وعد يعود به زعيم لا تظاهره البلاد كلها سوف يكون اتفاقاً أو وعداً مشوباً ينتقص من حقوق البلاد ، أو حلاً وسطاً نرضي به الاقلية السياسية لتأمين ظهرها من خناجر الانجليز حتى تطلق يدها في البلاد وتستمر في دست السلطة . وهنا وجدت نفسي اترجم اثناء النهار بيان النقراشي باشا في رئاسة مجلس الوزراء ، وأضع اثناء الليل في بيتي مذكرة بالانجليزية للرأي العام العالمي أوضح فيها مطالب مصر من وجهة النظر الشعبية ، كان المفروض ان تطبع على الاستنسيل ويقوم بتهريبها للخارج الطليعة الوفدية مع بعض الشيوعيين . وقد كان جوهر هذه المذكرة ان الجلاء وحده لا يكفي وانما ينبغي رفض أية

احلاف أو أي التزام دولي يقجم بمصر في النزاعات الدولية القائمة بين المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي .

وقد سلمت المذكرتين في الموعد المحدد لكل ما يخصه . لست اعرف ماذا كان مصير مذكرتي ، ولكنني اعرف ماذا كان مصير مذكرة النقرashi باشا . قال له الانجليز في هيئة الامم المتحدة في أغسطس من عام ١٩٤٧ : عد الى بلادك فأنت لا تمثل شعبك عد الى بلادك لتستجدي ببيانك تصفيق الجماهير فأنت بحاجة الى الجماهيرية . يا للعار .

(٢)

والذي يتأمل تاريخ كتابة « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » يجد انها كتبت في الفترة ما بين اكتوبر ١٩٤٦ وسبتمبر ١٩٤٧ ، اي من صميم الفترة الحرجة التي هزت وجداني هزاً عميقاً ، ووقفت فيها في مفترق طريقين . كنت بتكويني العقلي والنفسي ومعتقداتي الثقافية أو من ايماناً عميقاً بأن من حق استاذ الجامعة ان يشتغل بالفكر السياسي ما شاء ان يشتغل ولكن ليس من حقه ان يشتغل بالعمل السياسي بتاتاً « وكنت من جهة أخرى بحكم شعوري الوطني والاجتماعي وبحكم معتقداتي السياسة أو من ايماناً عميقاً بأن من واجبي كمواطن ان اعمل ما يمليه علي ضميري للمشاركة في تحرير البلاد واشاعة الوعي الاشتراكي الديمقراطي . وفي هذه الفترة فكرت جدياً في ان انهج النهج الذي انتهجه محمد مندور فأترك الجامعة واتفرغ للعمل السياسي . ولما اشتد ارباب وزارات صدقي والنقرash الثانية فكرت في خدمة القضية الوطنية في باريس ، وبحث فعلاً في صيف ١٩٤٧ عن عمل في العاصمة الفرنسية فلم اهتمد الا الى وظيفة صغيرة هي وظيفة مدرس

لغة الإنجليزية بمدرسة خاصة . ثم تخوفت من التجربة أي من تغيير مجرى حياتي جملة ، لأنني بدأت ادرك ان العمل السياسي سيقضي مني التعاون الوثيق مع الماركسية التي كانت وحدها تعطف بلا تحفظ على الحركات التحررية في البلاد المستعمرة ونصف المستعمرة ، وأدركت انه لا مجال في السياسة لرجل مثلي يريد ان يحافظ على استقلاله الفكري . ثم ان زواجي في ٩ أغسطس ١٩٤٧ من آنسة فرنسية لا تفهم شيئاً في السياسة ولا تكثر لها فت في عضدي وجعلني أرى الأمر على حقيقته ، وهو أنني لم أخلق للعمل السياسي لأنه يتطلب مواهب لا املكها . فعدلت عن خطتي وعدت الى عملي في الجامعة وقد عقدت العزم على الانصراف عن السياسة تماماً والتفرغ للعلم تماماً ، وفي يقيني ان انصاف الاعمال هنا أو هناك تضر اكثر مما تنفع .

هذه هي الفترة العصبية التي كتبت فيها مقدمة ديواني « بلوتولاند » وكتبت فيها « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » وكتبت فيها كتابين لا يزالان مخطوطين في ادراجي احدهما كتاب صغير اسمه « محاكمة ايزيس » وهو كوميديا رمزية من فصل واحد ، تصور في قالب اسطوري نهاية الفرعون فاروق والآخر كبير وهو رسالة في « الرد على انجلز » والماركسية بصفة عامة ، لا من وجهة نظر اقتصادية ولكن من وجهة نظر فلسفية ، وهي تشتمل اساساً على نقد للمنطق الجدلي ولنظرية الجبرية . كما ترجمت رواية رجعية كتبها صمويل جونسون اسمها (الرأس ايلاس) . وهي ايضاً الفترة التي كتبت فيها مقدمة « بروميثيوس طليقا » وكتابي « في الادب الانجليزي الحديث » وهما دراستان في علاقة الادب بالمجتمع . ويلاحظ اني اهتمت بنشر « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » و « محاكمة ايزيس » لسببين : أولهما ان نشرهما في عهد الملكية كان امراً بعيد الاحتمال في زمن صودرت فيه « المذبذبون في الأرض » وهي فيما أرى أقل استفزازاً للهدد البائد من هذين الكتابين ، وثانيهما اني بقدر اطمئناني الى عملي كمعلم وناقد ، كنت اخجل دائماً من عملي كفنان . ولولا ان الخلق الفني يأتيني عادة في الأزمات الروحية مرة كل عشر سنوات أو نحوها في صورة

فجارات لا قبل لي بكبتها لحنقت هذا الجانب الابداعي في شخصيتي خفناً
تماً . ويبدو ان الخلق الفني عندي - وربما عند آخرين غيري - وظيفة حيوية
سيكولوجية ، وأنه من الوسائل التي تتوسل بها النفس للمحافظة على توازنها
ومقاومة الانهيار . كذلك من مخطوطات هذه الفترة التي لم تنشر بعد ترجمتي
لرواية « استر ووترز » لجورج هور .

فالى جانب هذه الأزمة الاجتماعية العامة التي مررت بها سني ١٩٤٦ و ١٩٤٧
كما مر غيري من مثقفي ذلك الجيل ، مررت بأزمة نفسية خاصة اثناء سنوات
الحرب . فقد كان لي صديق عزيز اسمه حلمي رفاعي انتحر ذات صيف في ليلة
قمرء لاسباب مجهولة وهو على بعد ايام معدودة من زفافه . وكانت حلمي رفاعي
في نفس مكانة خاصة ، فقد كنا ثلاثة ربيناً سوياً في مدرسة المنيا الثانوية ثم في
الثانوية ثم في الجامعة ، حلمي رفاعي وعبد الحميد عبد الغني مستشارنا الآن في
الأمم المتحدة وأنا ، وكانت بيننا أخوة عميقة من ذلك النوع الذي يقيم بين ذوي
الاصلاب المختلفة قرىبى دونها قرىبى الاشقاء . وما زاد من عمق الصدمة عندي ان
حلمي رفاعي كان قبل انتحاره يقيم معي ويشاركني سريري نحو شهر كامل وهو
يتأهب للانتقال من حياة الاعزب الى حياة الزوجية ، واني كنت احفظ له في
داري بالمسدس الذي انتحربه . فلما انتحر حلمي رفاعي عاش شبحة معي في
البقطة والنام عدة سنين ، وكان يزعجني زيارته في ليالي الصيف ، ولا سيما في
الليالي القمرء ، بين الواحدة والثالثة صباحاً فأنهض من فراشي مذعوراً مشدوهاً
كأنما القيت على رقبة بغية وحبيبة في وقت واحد . وقد زودني انتحار حلمي
رفاعي بالاطار الخارجي لرواية « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » فحلمي رفاعي
في هذه الرواية يظهر في زي فؤاد منقريوس ، محرف الشخصية والاسطورة
بطبيعة الحال . والغريب اني ما ان فرغت من كتابة رواية « العنقاء أو تاريخ
حسن مفتاح » حتى عاد الى نفسي سكون عجيب وانقطع شبح صاحبي عن زيارتي
في ليالي الصيف القمرء كلما تجددت ذكرى مصرعه ، وعرفت السبات العميق كأنما
ارتقع غني طلسمه الفظيع .

الدم والبارود هذا كل ما ارقني في تلك السنوات الرهيبة. دم صديقي العالق بمسدسه الصدىء الصغير . دم الملايين من قتلى الحرب معجوناً في طين الوديان ورمال الصحراء وثلوج الشتاء . ثم هذه الشيع العجيبة التي ظهرت في مصر منذ الحرب العالمية الثانية من نازيين واخوان مسلمين وشيوعيين ، لا تكتفي بالدعوة الى تغيير الاوضاع ولكن تحتكم الى السلاح او تدعو الى الاحتكام الى السلاح . واطلق مصرع احمد ماهر فى ٢٤ فبراير ١٩٤٥ الشرارة الأولى فى نفسي . وحين سقط أمين عثمان مضرجاً بدمائه فى ٥ يناير ١٩٤٦ تجدد اللغز الحائر فى وجداني . ودم الشهداء يلطخ الارض من حولي فى كوبري عباس وفى ميدان الاسماعيلية برصاص المصريين أو الانجليز . ثم قنابل الأخوان المسلمين واسلحتهم المقدسة ، ثم وعيد الشيوعيين بحرب الطبقات . ما كل هذا ؟ عنف . عنف . عنف . لا بد من حل لمشكلة العنف لا بد من اجابة على هذا اللغز المحير . هل هى لعنة قديمة كتبت على بني الانسان منذ قابيل ؟ لا بد من تغيير الاوضاع . هذا امر لا يختلف عليه عاقلان . ولكن كيف السبيل ؟ الحاكم يلجأ الى العنف . المحكوم يلجأ الى العنف . المستعمر يلجأ الى العنف ، الثوار يلجأون الى العنف . الانجليز . الامريكان . الالمان الطليان . اليابانيون . الروس . هيروشيما ونجازاكي . من لا يعرف كالفرنسيين كيف يقاتل يداس بالاقدام . ما كل هذا ؟ محال ان يكون العنف هو الحكم بين الانسان والانسان . ومع ذلك من لا يعرف كالفرنسيين كيف يقاتل يداس بالاقدام . قضايا مقدسة وقضايا اثيمة . فليكن ولكن محال ان يكون العنف هو الحكم بين الانسان والانسان . ومع ذلك فكيف يقتنع اصحاب اوشفتر وبوخنفالد وكاتين والكعب الحديدي بغير لغة السونكي والبارود . لا بد من حل لهذا الاشكال . أين الخطأ وأين الصواب . اين الشر واين الخير .. سؤال يمكن الاجابة عليه . ولكن لا بد من حل لمشكلة العنف . طريق غاندي ؟ المقاومة السلبية ؟ كلمات شلي في ختام « برومئوس طليقاً » :

« انما الوداعة ، والعفة ، والحكمة ، واحتمال الخطوب .

هي الاختام التي يبرم بها ذلك الميثاق الاكيد .
ذلك العهد الذي يوصد ابواب القبر على قوة الدمار .
ولئن اطلقت الابدية ، ام الاحداث والايام ، بيد ترتجف .
سراح الشعبان الذي سيلتف حولها ويصرها هصرأ .
كانت هذه الفضائل الطلاسم التي يتم بها النصر .
على الموت الذي فك من اساريه .
فاحتمال الآلام التي يخالها الأمل ابدية ،
وغفران الخطايا وان تكن اسود من الليل وابشع من الموت ،
وتحدي القوة مهما بدت مطلقة في العالمين ،
والتضحية في سبيل الحب ، والتعلق بأهداب الأمل .
حتى يخلق الأمل المأمول من حطامه .
والثبات الذي لا يعرف الندم ولا يلين امام صروف الدهر :
هذه هي معاني الخير والمجد والسعادة والحرية ،
وهي جميعاً من سجايالك ايها المارد العظيم
هذه وحدها هي الحياة وبهجتها ، وهي النصر والسلطان .

ربما ، ربما ولكن أي ضهان؟ هذه هي الدراما الانسانية الحقيقية التي تجسدت
امام عيني بين ١٩٤٥ و ١٩٤٧ . قالت نفس : كفى دماء . أي شيء إلا العنف .
فلنخرج من الحلقة اللعينة . القاتل يقتل ولو بعد حين . ويوم ان ازهق حسن

مفتاح روح سيد قنديل لف حول عنقه حبل مشنقته بيده . وكتبت «العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح» رسالة رمزية ضد فلسفة العنف. ولكن الفن لا يعرف الدعوة المباشرة. من خلال المأساة وحدها يحدث التطهير الذي حدثنا به ارسطو، والمأساة لا تكون مأساة إلا اذا تناولت سيرة بطل. فالبطل وحده هو الذي يتوحد فيه كل انسان ويتقمص شخصه كل انسان فيذوق عذاباته ويصرع بمصرعه ويبرأ من ذنوبه ويلقى الغفران. البطل الحاطيء هو الرمز الحي لكل انسان ومأساته هي مأساة كل انسان .

كانت الامثلة الحية امامي كثيرة. كان هناك محمود العيسوي قاتل احمد ماهر الذي اقام من نفسه قانوناً وقاضياً وجلاداً . وكان هناك حسين توفيق قاتل أمين عثمان الذي اقام من نفسه قانوناً وقاضياً وجلاداً . وكان هناك الاخوان المسلمون الذين نشروا الذعر في الوادي بقنابلهم المبتوثة في كل مكان ودعوا جهاراً الى « الجهاد » بالسلاح . وكان هناك الشيوعيون الذين علمتهم الماركسية ان العنف جائز في سبيل الانسان ، مع انهم كانوا في صميمهم من المثقفين الوادعين الذين لا يستطيعون قتل بعوضة رغم دعاواهم المربضة . فكرت ان اختار لروايي بطلاً من الاخوان المسلمين . لم تكن مشكلتي ان اسأل : اين الحقيقة ؟ هل هي مع احمد ماهر ؟ هل هي مع محمود العيسوي ؟ هل هي مع أمين عثمان ! هل هي مع حسين توفيق ؟ هل هي مع حسن البنا ؟ هل هي مع النقراشي ؟ هل هي مع الباشوات ؟ هل هي مع البروليتاريا ؟ ماذا يهم ؟ فلنقل ان الحقيقة مع القاتل والقتيل معاً أو شيء منها على الأقل ، وإلا لما تجاورا معاً في الحياة أم النقائص . وليس معنى هذا الاستسلام لفوضى النسبية في القيم والمعتقدات والاحكام . فالحقيقة عندي لها مقاييس موضوعية تقاس بها ولو على سبيل التراجيح . ولكن مأساة الانسان هي في اعتقاد الخطيء انه مصيب مهما بدا خطوهه واضحا للغير . فلنقل : كلهم على خطأ أو كلهم على صواب أو بين بين ، ولكنهم بالقطع ليسوا من رسل الشيطان مهما كانت اخطاؤهم . هم على الاقل بالنوايا يؤمنون انهم

يفكرون بنطق الحقيقة ويعملون في سبيل الخير . هذا ليس موضوع البحث .
ثم موضوع البحث هو : كيف تحل نقائص الحياة . موضوع البحث على احسن
مقرر هو : كيف يزيل الخير الشر . والجواب عندي : العنف ليس المعادلة
نصحية .

لم يكن ممكناً ان اكتب روايتي عن الاخوان المسلمين لسبب بسيط هو اني
رغم معرفتي بفلسفتهم ودعوتهم لم أكن اعرفهم معرفة الحي للحياة . لم اخالط
أحداً منهم مخالطة شخصية حتى استطيع ان اعرف كيف يفكرون وكيف
يشعرون وكيف يتجادلون وكيف يفرحون وكيف يتألمون وما هونسيج حياتهم
اليومية وما هي مشاكلهم التنظيمية . وفي كل عمل فني لا بد من خامه تستمد من
الحياة وترسم على الطبيعة بأدوات الفن المعروفة . وكانت الموديلات أو النماذج
امامي بغزارة بين صفوف الماركسيين الذين كنت اعرف منهم عشرات وعشرات
واخالطهم مخالطة يومية واصطفي الاصدقاء واتابع اولاً بأول مشاكلهم العامة
والخاصة . وكان الشيوعيون خامه ممتازة لأن جرثومة العنف لها وجود في الفكرة
الماركسية ، لا أقول بالضرورة ولكن بالامكان على اقل تقدير . ثم انهم كانوا
يتحركون داخل تنظيات .

وهنا حدث حادث حدد اتجاهي ورسم امامي الطريق . ففي ١١ يوليو ١٩٤٦
قبض صدقي باشا على عشرات من الاحرار ، قيل يومئذ مائتين ، واتهمهم بأنهم
كانوا مشتركين في مؤامرة شيوعية لقلب نظام الحكم . وكنت اعرف ان هذه
كانت اكدوبة كبرى فقد كنت واحداً ممن صدر الأمر بالقبض عليهم ولولا
وجودي في فرنسا اثناء عطلة الصيف لقضيت معهم شهراً في سجن الاجانب .
فقياساً على حالتي لم يكن هناك اي رابط فكري صميم يربطني بمحمد زكي
عبد القادر الذي كان مجرد ليبرالي متفتح أو بمحمد مندور الذي كان وفدياً
راديكالياً أو بحسني العراقي الذي كنت اشتبه في أنه يحمل روااسب فاشية أو

بعضام الدين حفني ناصف الذي كان مجرد مثقف يحب الكلام . أو برميسيس يونان الذي كان ينجح الى التروتسكية ثم الوجودية ثم هجر السياسة نهائياً ، أو بأنور كامل رئيس جماعة الحبز والحرية أو بأحمد كامل قحطب رئيس حزب الفلاح .. الخ . ولو ان صدقي باشا قال ان كلا من هؤلاء كان يعمل على انفراد لقلب وزارة صدقي باشا لاقترب من الحقيقة درجات . ولكن هذه الحملة الارهابية زودتني بخامة ثمينة لروايتي . قالت نفسي : فلنتصور فعلاً كما زعم صدقي باشا ان الحزب الشيوعي المصري قد دبر مؤامرة لقلب نظام الحكم . وهنا طرحت هذا السؤال : هل صدقي باشا هو الذي اجهض هذه المؤامرة ؟ وجاء الجواب من اعماقي : كلا انما اجهضها مدبرها نفسه حسن مفتاح سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري .

(٣)

وبعد ان فرغت من كتابة « العنقاء أو تاريخ حسن مفتاح » كتبت عليها الاهداء الآتي : « الى اسماعيل صدقي باشا بطول ١١ يوليو ١٩٤٦ مع لعنات الاحرار » ثم سلمت مخطوطها الى استاذي طه حسين ليقرأه ويشير علي بملاحظاته ان وجد في روايتي قيمة فنية . وتركت الرواية عند طه حسين ثلاث سنوات من ١٩٤٨ الى ١٩٥١ ، ولم اشأ ان ازعجه لأن نشرها في ذلك الحين لم يكن موضع نظر على الأقل بسبب ما اشتملت عليه من عبارات مناهضة للملكية . فلما منحتني مؤسسة روكفلر زمالة في جامعة برنستون عام ١٩٥١ رأيت ألا اغادر البلاد إلا ومعني مخطوط روايتي فزرت طه حسين لأسترد كتابي - وكان يومئذ وزيراً للمعارف ، وعرفت منه انه لم يجد الفراغ الكافي لقراءتها . وكان

نعظمة الى ذلك ، فأزلت الاهداء الاصلي لان الموتى لا يلعنون في اهداءات
 كتب . وبعد ان قضيت عامين في امريكا عدت الى مصر وكانت ثورة ٢٣ يوليو
 قد قامت واهتت النظام الملكي والفت الالقاب وحطمت الأوليغاركية المصرية ،
 في حكومة الاغنياء ، بسلسلة من القوانين كان في مقدمتها قانون الاصلاح
 الزراعي وقانون حل الاحزاب السياسية واقامت محاكم للمستغلين والمتاجرين في
 قوات الشعب عمادها العدل والرحمة معاً على نقيض المحاكم التي تصورها حسن
 مفتاح حين كانت تنتابه نوبات الصرع . وكنت يومئذ اشرف على صفحة الأدب
 في جريدة «الجمهورية» فأخذت اعد العدة لنشر «العنقاء» أو تاريخ حسن مفتاح»
 ليرى الناس ما كان يمكن ان يحدث للبلاد لو ان جماعة مؤمنة بالعنف كالشيوعيين
 والاقحوان استولت على مقاليد السلطة في مصر ، وقد اثبت فيما بعد حادث
 المنشية وما جاوره من احداث ثم مؤامرة صيف ١٩٦٥ ، كما اثبت عهد
 عبد الكريم قاسم في العراق ان الأمر كان يدخل في حدود الاحتمال . ثم لم البث
 ان تركت الجامعة وعدت بروايتي الى امريكا حيث اشتغلت موظفاً بادارة
 المؤتمرات في الأمم المتحدة من أغسطس ١٩٥٥ الى ديسمبر ١٩٥٦ . ثم استقلت عند
 العدوان على مصر وعدت لأعمل في جريدة « الشعب » . وهنا تجددت في الرغبة
 في نشر هذا الكتاب ، فدفعت به الى من نسخه على الآلة الكاتبة وجرت
 مفاوضات بيني وبين دار النديم في نشره وسلمتها نسخة للاطلاع عليه . ثم عينت
 استاذاً للادب الانكليزي بجامعة دمشق فانقطعت الصلة بيني وبين دار النديم .
 وفي فترة اقامتي الوجيزة في دمشق تجددت المفاوضات بيني وبين الدكتور سهيل
 ادريس صاحب دار الآداب البيروتية لنشر الكتاب وارسلت اليه نسخة
 مكتوبة على الآلة الكاتبة عن طريق مكتبة اطلس بدمشق ولكنني عرفت منه
 بعدئذ انها لم تصل اليه . وعدت من دمشق الى القاهرة في ١٥ ديسمبر ١٩٥٨
 لأعمل مديراً عاماً للثقافة بوزارة الثقافة نحو اربعة أشهر ثم تغيبت عن القاهرة
 بين ٢٨ مارس ١٩٥٩ ويوليو ١٩٦٠ ، وبعد عودتي جاءني الصديق ابراهيم عامر من

دار النديم يحمل الى النسخة التي كانت الدار قد استعارتها مني لنشرها ، وكانت دار النديم قد صفت اعمالها .

وفي ١٩٦٥ قرأ احمد حمروش رئيس تحرير روز اليوسف « العنقاء او تاريخ حسن مفتاح » وتحمس لنشرها في مجلته وتحمس الهام سيف النصر المشرف على سلسلة الكتاب الذهبي لنشرها في سلسلته ثم عرضت علي دار المعارف نشر الكتاب فسلمته للجنة القراءة التابعة لها .

وهنا جاء الاستاذ عبد الحميد ناصر مدير دار الطليعة البيروتية ليفاضني على نشر كتابي . قلت خذه واقرأه . انه الآن بين دار المعارف ودار الطليعة وسلسلة الكتاب الذهبي وليكن الكتاب من نصيب من يتعاقد عليه قبل الآخر .

(٤)

هذه قصة هذه القصة التي يتاح لها الآن ان تصل الى ايدي القراء بعد ان ظلت مطوية زهاء عشرين عاماً . اما عن قيمتها الفنية فلست أنا الذي افتي في ذلك وانما يفتى فيه قرائي ونقادى . وانما يحذر بي ان اذكر ان المستشرق دنيس جونسون ديفيز ما ان قرأها حتى قرر ان يترجمها الى الانجليزية ، ولكني رجوته ان يترث في ذلك حتى يصدر النص العربي ، اذ ليس من المعقول ان تصدر لكتاب ترجمته في لغة اخرى قبل ان يصدر في لغته الاصلية . اما توفيق الحكيم فقد قال عندما قرأ هذه الرواية في اوائل ١٩٦٥ « لو ان هذه الرواية صدرت حين كتبت لغيت مجرى الرواية العربية » . وعندما قرأها

دكتور حسين فوزي قال: « هذه ليست رواية بل روايتين اختلطتا ، احداها تحفة فنية كبرى والأخرى وثيقة اجتماعية من طراز خطير » . والحق اننا في تشرق ينبغي ان نحذر من اطراء اصدقائنا ، فنحن لا نعرف اين يبدأ فيه النقد واين تنتهي المجاملة . بالضبط كما ينبغي ان نصفي لكلام اعدائنا فنحن لا نعرف أين تنتهي فيه البغضاء واين يبدأ النقد الموضوعي . وبعد ان استمعت نحو ساعة لآراء هذين الادبيين الكبارين شاعت في نفسي الطمأنينة ولكنني أصبت بانزعاج شديد . اطمأنت نفسي لأني تحققت ان لعمري الحد الأدنى من القيمة الفنية الذي يبرر نشره في الناس ، وهذا ما كنت اريد ان استوثق منه لمعجزتي التام عن الحكم على أي عمل من اعماله يقوم على الخلق ، ولا سيما بعد ان انقضت عشرون عاماً تغيرت فيها الاساليب وتجددت مدارس الأدب . امامصدر انزعاجي فهو ان هذين الأدبيين الكبارين قرءا في روايتي معاني لم أقصد إليها حين اقدمت على انشاء هذه الرواية . فقد كنت اعتقد وانا اكتبها اني انما كنت انشئ رواية « فلسفية » تعالج مشكلة « العنف » في المجتمع الانساني لا اكثر ولا اقل ، فإذا بتوفيق الحكيم وحسين فوزي يجمعان على ان روايتي سجل دقيق لمجتمع الشيوعيين المصريين في الفترة التاريخية التي تصورها الرواية ، فترة الحرب العالمية الثانية واعقابها مباشرة ، سجل ما كان لأحد ان يدونه الا اذا كان قد خبر الشيوعيين في مصر عن كثب وتغلغل في نفوسهم وعقولهم وتنظيماتهم .

قال توفيق الحكيم : « لو نشرت « العنقاء » اثرت عليك نائرة الشيوعيين لأنك تصورهم في صورة جماعة السفاحين المنحلين شيعة وافراداً » . وقال حسين فوزي : « لو نشرت « العنقاء » اثرت عليك نائرة اليمين واليسار في وقت واحد لأنهم سيعتقدون ان مثل هذا التصوير لا يمكن ان يوفق اليه إلا عضو سابق في الحزب الشيوعي المصري ، ولأنك في وصفك للحركة الشيوعية اسبغت عليها نوعاً

من العطف الانساني يحبب الناس فيها وفي اصحابها» . وحررت بين الرجلين لأني كنت في دخيلة نفسي اعلم اني لم قصد الى الاساءة الى الشيوعية أو الى العطف عليها، وانما كل ما قصدت اليه هو ان اتناول مشكلة العنف في ابعادها الانسانية . وزاد من حيرتي ان اخألي كنت احبه ويحبني من اعماق الاعماق هو المرحوم ابو بكر حمدي سيف النصر كان قد قرأ الرواية قبل ان يسجن في قضية من قضايا الشيوعية عام ١٩٥٣ سنوات ، فعاتبني عتاباً شديداً على كتابتها واوصاني بالآلا ادفع بها الى المطبعة لأنها تسيء الى الحركة الشيوعية . كذلك كانت لي سكرتيرة مثقفة تكرر اعتقالها بتهمة الشيوعية واعتقد انها قضت في السجون والمعتقلات ما يقرب من ثماني سنوات . وكانت هذه السيدة تجد صعوبة في العثور على عمل ، فاتفقنا على ان تعاونني ريثما تستقر احوالها وتجد المكان المناسب لكفائها . وقد رجوتها ان تنسخ الرواية على الآلة الكاتبة مرتين لاطمئن الى انها استوعبت كل ما فيها وهي تنسخها وقد رأيت الجزع يرسم في عيني هذه السيدة ، وابلغتني ان روايتي تحمل حملة ظالمة على الشيوعيين المصريين . أما زوجها الطبيب ، وهو ايضاً من خريجي السجون من الشيوعيين ، فقد عبر لي عن استمرازه مما سماه الصورة المنحلة لشيوعي الجيل الماضي وأكد لي ان شيوعي اليوم خالون تماماً من هذا الانحلال .

كل هذا التضارب في الآراء ناجم في ظني من قياس العمل الفني بمقاييس ليست مستمدة من العمل الفني ذاته . فأنا لم اقصد ان اندد بالشيوعية ولا ان انوه بانحلال الشيوعية وانما كنت احاول ان ارسم نماذج بشرية على الطبيعة . فحسن مفتاح وزملاؤه كان لهم وجود حقيقي ، وقد عرفتهم واحداً واحداً ، وربما وضعت رأس هذا على جسد ذاك أو قلب هذا مع عقل ذاك ، ولكن الخامة التي استخدمتها كان لها وجود حقيقي . اعدت صياغتها في الحدود المباحة للفنان وبالادوات المتيسرة له . كذلك لم اقصد ان ازين الشيوعية ولا ان امجد الشيوعيين .

وانما نظرت اليها لا كفكرة شريفة ولكن كفكرة شريفة الغاية ونظرت اليهم لا كبشر شرفاء ولكن كبشر شرفاء الغايات ، فأنا لست ممن يصمون كل مخالف في الرأي أو العقيدة أو المنهج بأنه خائن . ولو كنت اكتب عن حسن البناء بدلاً من حسن مفتاح لما تغيرت نظرتي الى الاشياء . انما المأساة الانسانية عندي في الوسائل قبل ان تكون في الغايات . فكلنا يؤمن بالحرية وبالمساواة وبالاخاء وبالتقدم وبالسلام وبالعدالة الخ . . . وكلنا يقتل في سبيل هذه الغايات . وما دمت اكتب عن « مأساة » الانسان فأوليات الفن تقتضي بأن اجعل ارتفاعه وسقوطه يدعو الى الالسى ، والالسى مستحيل بغير تعاطف ، والتعاطف مستحيل في عالم من الاندال .

هذا هو الاحساس الدرامي الذي يجعلنا نرقى لمصرع سفاح مثل ما كبث ومجنون مثل عطيل واحمق مثل الملك لير و فاجر مثل انطونيوس وبغي مثل كليوباترا وخائن مثل كريبو لاتوس وسفيه مثل تيمون الاوثيني وضعيف مثل ريتشارد الثاني بل ولص مثل روسكو لينكوف أو جان فالجان ومومس مثل غادة الكاميليا وجبار صواني الفؤاد مثل هيتكليف . نحن في الفن لا ندين الانسان ولكن ناسى لسقوطه لان فينا من البطل الخاطيء شيئاً كبيراً : .

وكل ما قاله ارسطو عن اخلاقية الفن لا يخرج عن هذا المعنى : كلنا بطل شامخ مثل حسن مفتاح بالفعل أو بالقوة وكلنا تنهشه الزبانية بعد السقوط ومن خلال القصص يتم التطهير . هذه هي الدورة الابدية في مأساة الانسان البطل : الجريمة ثم العقاب ثم الغفران . نعم لابد للجريمة من العقاب . والا لاختل ميزان العدالة الذي يحفظ الكون من الفساد ، في الارض وفي السماء . نعم لابد من الغفران . وإلا لكان العقاب آلة جهنمية تحكم الكون بالنطع والسيوف الى ابد الآبدين باسم العدالة العمياء . مهما رفع القدر أو فساد المادة مسئولية السقوط عن الاحياء فلا بد من العقاب . ومهما وضعت الحرية أو الاختيار مسئولية السقوط

على كاهل الاحياء فلا بد من الففران بعد العقاب . هذه مأساة الانسان البطل :
انه يحيا بالاختيار الاصفر داخل اطار من الجبر الأكبر . أما الانسان الوغد
فليست له مأساة .

لويس عوض

القاهرة ١١ مارس ١٩٦٦

بلغ حسن مفتاح كوبري الانجليز ، قادماً من الجزيرة ، نحو الساعة الخامسة والنصف . وبداله ان يتلكأ قليلاً بحكم عادته كلما مر على كوبري ، ولكنه عدل عن رغبته وتابع السير ، فقد كان بحاجة الى السير . ورفع بصره الى اشجار الجزيرة العالية والى ابراج المعرض الزراعي ثم غضه فرأى ماء النيل وشكر لكثرة ما به من الطمي ، ورأى بائع الغازوزة الثرثار وبائع السجائر الكسلان والشرطي الاسمر النعسان والسائل الاعور القذر . ثم رفعه مرة اخرى الى اشجار الجزيرة العالية ، فلم يبصر بينها الزينة الملكية ولا الغربان السود التي سكنت الاغصان وحطت على بعض الاعلام ، لأن شوارع الجزيرة الضيقة المتعرجة كانت تملأ خياله ، وتراها الموبوء يملأ انفسه ، وعفن مهملاتها يعشي نفسه ، وضوضاء الباعة والعربات الكارو فيها تملأ اذنيه ، وذكرى اوحالها تثقل خطوه . حتى الذبابة التي جاءت معه من الجزيرة وظلت تنتقل بين كتفه وخده لم يلتفت اليها حسن مفتاح . كذلك فاته ان السماء قد خلت من شمس السابع عشر من اكتوبر ومن قمره معاً ، وان جمرة الصيل اتقدت ثم انطفأت وهو بعد في شارع مراد بك يركل بقدمه الاحجار على شريط الترام . ولكن حسن مفتاح احس بشيء هو ركود الهواء وسخوته رغم الماء والخضرة واقبال المساء . وثقلت انفاسه حتى تخرج صدره ، وتخرج صدره حتى بدأ ينتبه الى الوجود فيدرك موضعه من الاشياء ويسمع جلجلة الترام رقم ١٥ تمزق الهواء ويتبين على البعد هاتفاً يهتف في الشارع المهجور : « تاكسي ... تاكسي » ، واخذ يطرد الذبابة الوحيدة ، ويتمعن في

الزينة الملكية وفي الغربان وفي الاشجار والابراج ، وببصر قافلة من لوريات الجيش البريطاني تعطف حول تمثال سعد زغلول: ولكن الذبابة الوحيدة عادت الى خده فعاتت معها الى خياله شوارع الجزيرة الضيقة المتعرجة وملأ انفه تراثها وعفن مهملاتها وانتشر في اذنيه صراخ باعته وقمقعت فيها عرباتها واثقلت خطوه ذكرى اوحالها .

فقد حدث في الجزيرة كل شيء . حدث كل شيء في الغرفة البسيطة بالطابق العلوي من ٢٢ شارع ذي اليمين . وكان رأس حسن مفتاح دوامة من الافكار المضطربة ، ووسط هذه تجلّت صورة الغرفة ، تجلّت صورة منقريوس ، قبل ان مات وعندما مات وبعد ان مات . وتسلسلت الحواطر في ذهن حسن مفتاح في غير ترابط كأنها شريط السينما ، ولكن الحجرة البسيطة وما فيها كانت تبرز بصورة رتيبة منتظمة ، وكلما تركز رسم فؤاد منقريوس في خاطر حسن مفتاح جملة ثوان اقشعر بدنه ثم تهدلت عضلاته وشرد باله من جديد الى دنيا الذكريات ، فرأى الفناء الخلفي في مدرسة المنيا الثانوية ، والعلمان فؤاد منقريوس الجميل الحيا الازرق العينين الكثير المزاح ، وحسن مفتاح الخجول حاد الملامح ، ومحمود مسلم صاحب العينين الضيقتين والاسنان البارزة والصوت الرخم ، وابراهيم نور الدين ، وسرهنك ، وغطاس كابتن الكرة الذي كان يضرب الصبيان ويفسدهم بالارهاب ، والملواني الحشاش ، وتوفيق احمد ، والثلاثة الريفين فلتس وملتس وعجوه ، وشوشة الذي كان يلعب الورق في الفصل ، وعبد الرحمن قزعه وهو صاحب صحيفة يومية اسمها « النذير » كانت تطلع كل صباح مكتوبة بالطباشير على سبورة السنة الثالثة ب وفيها اخبار التلاميذ الفاسدين وما تيسر من بنىء النكات ، وحمودة الشيوعي الوحيد في المدرسة ، وتادرس الملحد الوحيد فيها ، والفتى سعيداً ذا العجز الغليظ والبنطلون الوحيد المزق ، الفتى سعيد ابن الجاويش يس الذي كانت هوايته تمزيق بنطلونات الغير وشبك الورق بالدبابيس في جاككات المدرسين من الخلف ، وقد

سكب محبرته ذات مرة في جيب مستر تشابترن فأثلف سترته البيضاء ،
وكان من ذلك ان جمع الناظر من تلامذة الثالثة ب ثمن السترة .

وابتسم حسن مفتاح بين خواطره المحمومة حين ذكر الفتى سعيداً والاعبيه
الكثيرة ، ولكنه تجهم حين ذكر موسى افندي ضابط المدرسة الشديدة الوطنية الذي
كان يدعو المعلمان ذوي الوجوه الجميلة الى منزله فان ابوا ترصد لهم وارهمهم
بالعيش الخاف . وذكر ان فؤاد منقريوس امسك مرة بخناق موسى افندي لان
موسى افندي داعب خده ، ولكن غطاس كابتن الكرة تدخل في الامر وأبعده
وهذاً أثارتته . ترى اين موسى افندي الآن ؟ لقد مات فؤاد منقريوس هذا الصباح
وهو بعد في الثامنة والعشرين ، وبقي له جماله بعد موته رغم الشحوب الاخضر
العجيب الذي انتشر في محياه . وعجب حسن مفتاح لنفسه كيف لم تنفطر
أسى على فؤاد منقريوس وهو أقدم الخلان واشدهم وفاء . أهو بارد النفس ؟ أهو
شاذ التركيب ؟ انه لا يزال يركل طوب الشارع بقدمه كلما وجد في الشارع
طوبة . لعل صباه في مدرسة المنيا الثانوية قد تجدد فرد اليه بعض خصاله الصبانية
الأولى . انه يفكر في حاجته الى شيء من الجيلاتي ، وفي الاجتماع السياسي
الصاحب الذي قرر فيه ان يخلق شاربته او يطلق لحيته ، وفي الاجتماع السياسي
الصاحب الذي كان ينتظره في المساء ، وفي لون الهواء السنجابي الذي اكتنف
التمثال السنجابي واكتنف الرسوم المنقوشة على البازلت عند قدمي سعد زغلول ،
وفي بعض نظريات فؤاد منقريوس . ترى اين نظريات فؤاد منقريوس الآن ؟ اين
اين سطور الجبرتي التي كان فؤاد منقريوس يحفظها عن ظهر قلب ويتلوها على
اصدقائه ليسليهم بسذاجة تعبيرها . لقد كان فؤاد منقريوس يقول دائماً ان
الاغتيال السياسي مقياس وطنية الامم المستعبدة ، وكان حسن مفتاح يعجب له
كيف اهتدى الى هذه الفكرة فجأة وهما يمشان القصب على كورنيش النيل بعد
خروجها من الحصاة السادسة في مدرسة المنيا الثانوية . ولكن فؤاد منقريوس
ثبت على رأيه دائماً ، وكان ايام الطلب في الجامعة يقول جاداً ان من دواعي حزنه

انه لم يدرك ثورة ١٩١٩ ، ويقول هازلاً انه سيموت مشنوقاً لاغتيال رئيس وزارة ،
أي رئيس وزارة ، لأن رؤساء الوزارات يبيعون البلاد للانجليز . ولكن
فؤاد منقريوس لم يمت مشنوقاً كما كان يتمنى بل مات منتحراً ، ترى اين نظريات
فؤاد منقريوس الآن ؟ لقد كان فؤاد منقريوس يمجّد موسى افندي رغم ما كان
بينها ، لان موسى افندي كان يحض الطلبة على الاضراب . وحين اتسعت
مدارك فؤاد منقريوس كان لا يذكر زلات موسى افندي الا بالدعابسة ويعلق
ضاحكاً : « كلنا رهبان في دير المحرق » .

مات فؤاد منقريوس في الصباح . ولولا ان حسن مفتاح كان يعلم انه لا يدرس
ايام السبت فعاده مصادفة في شارع ذي اليمين ليقترض منه جنيتها لما علم بانتحاره .
فقد كان يعيش بمفرده لا يخدمه خادم ، وكان الطابق الاوسط خاوياً ومختوماً
بالشمع الاحمر منذ شهور لأن البوليس وجد فيه بعض طرب الحشيش . وقد
بلغ حسن مفتاح عتبة الدار حين سمع الدوى المكتوم فلم يلق بالاً لما سمع . وصعد
السلم على مهل يعد ما في جيبه من قروش فاحصى منها عشرين وعلبة سجائر كاملة
وشيكاً قيمته عشرون جنيتها ، وعدداً من طوابع البريد . وحين بلغ باب الطابق
وجده شبه مفتوح ، فدخل منادياً : « واد يا فؤاد ، واد يا فؤاد » ، فلم يجبه
محيب ولكن بلغته انه غامضة . فاجتاز المدخل العادي عاجباً ، ودخل حجرة
النوم فرأى فؤاد منقريوس مستلقياً على جانبه الأيمن بعرض السرير وقد تدلت
قدماه والغطاء الابيض فيه بركة صغيرة من الدم . وارتاح حسن مفتاح لما رأى ،
ولكنه لم يفهم الموقف الا حين وقع بصره على المسدس الملقى على الفراش . وثبت
في مكانه لحظة وقد سقط فكّه وجف حلقه ، وحين انتقل بصره من الوجه
المقلص الجميل الى بركة الدم اوشك ان يصيبه دوار . وبلغه الانين المكظوم
ثانية فتقدم وحاول الكلام فخانه صوته . ثم خرج من الغرفة يعدو ويهبط السلم
درجات درجات حتى بلغ عتبة الدار وهناك اصطدم بصبي الكواء فامسكه من
ذراعه وقال بصوت مضطرب بعضه غليظ وبعضه حاد :

- دكتور . دكتور .

فأجاب الغلام :

- انت اعمى يا افندي .

فقال حسن مفتاح بسرعة :

- ما فيش دكتور ؟ ما فيش دكتور ؟

قال الغلام :

- حملك علينا يا أفندي . اديك وقعت المكوة . والله العظيم ... دلوقت

فؤاد افندي ...

وادرك حسن مفتاح فوراً ان حديثه مع صبي الكواء مضية للوقت ، فتركه
واندفع الى حانوت الببدال المقابل زائع البصر . ولكن الغلام عدا وراءه صائحاً :
« استنى يا افندي . استنى يا افندي » ، ثم ادركه وتعلق بسترته وهو يصرخ :
« يا شاويش . يا هوه . » وقال حسن مفتاح للببدال :

- من فضلك ، فيه واحد بيموت . ما فيش دكتور قريب ؟

فأجاب الببدال بهدوء :

- لا حول ولا قوة إلا بالله . هومين الي بيموت يا بيه .

- فؤاد افندي منقربوس ، الي ساكن قبالك .

- فؤاد افندي ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله . سي فؤاد ؟ لا حول ولا قوة
الا بالله . دا فات عليّ امبارح بالليل بعد العشا واشترى بنص فرنك جبنة رومي
وكانت صحته زي البمب ، ايه الي جرى له يا سيدنا الافندي ؟ لا حول ...

- فؤاد افندي انتحر . بقى اسمع . ما فيش وقت . تعرفش دكتور

قريب .

- اصله لا مؤاخذه ...

- تعرف ولا ما تعرفش ؟

- اصل ما فيش في الحنة غير الدكتور البيطري اللي فوقنا ، وكان الدكتور سليم حكيم الاسنان اللي فوق الي فوقنا . لا حول ولا قوة إلا بالله .

- طيب اضرب تليفون للاسعاف على طول .

وبعد دقائق كان حسن مفتاح يسبق طبيب الاسنان الى طابق فؤاد منقريوس ، فقد كبر في نفسه ان يدعو بيطاراً لفحص صاحبه . ثم عاد الى حانوت البديل ليطلب الاسعاف بشخصه ، فقد كان قليل الثقة في الغير ، ووجد البديل في وسط الشارع يترحم على الميت قبل ان يموت ، ومن حوله بدالان آخران من اهل الجيرة وحلاق الشارع وصبيه والفوال . ورأى الذباب المتجمهر ، ورأى صبي الكواء جالساً على رصيف الشارع يمسخ دموعه فلم يدر أبكائه حزن على فؤاد منقريوس الذي كان يحزل له العطاء ام خوف من الاسطى الكواء لسقوط الثياب في وجل الشارع . والى جوار صبي الكواء وقع نظر حسن مفتاح على طفلين قد قعدا القرفصاء في صف واحد بجذاء رصيف الشارع وقد رفع كل منهما جلبابه القدر فكشف عن مؤخرته وذهب يقضي حاجته بين الذباب المتجمهر تحت اعين المارة . وفيما هو يسعى الى البديل ليطلب فتح التليفون رأى رجلاً يلبس ملابس السعاة الصفراء يقتحم الجماعة ويمسك بخناق قروي قدر اشقر الشعر وقف بين الجماعة يقول : « يلا بينا ع البندر » والآخر يجيبه : « انا مش فاضيلك دلوقت » وسمع اللفظ يرتفع وابصر الشرطي يدنو ويتدخل لحسم النزاع ، والرجل في ملابس السعاة يستشهد بالبديل ويصيح :

- اصله يا شاويش انا كنت مجوز اخت الراجل دا ، وكان جارر مني سجاير بواحد وسبعين قرش ما دفعش منها غير خمسة صاغ .

فقال القروي معترضاً :

- سبعين بس .

ومضى الرجل في ملابس السعادة يصيح :

- وبعدين رميت يمين على اخته وادى له شهرين مش عاوز يجيب الفلوس .
وعلت اصوات المتدخلين ، فمن قائل : « عيب الجرايب يعملوا كدا في
عض » ، ومن قائل : « انا شاهد يا شاويش » ومن قائل : « سيب الراجل
بترزق دلوقت وابقى خده البندر بعدين » . ولكن القروي الاشقر استطاع
رغم ذلك ان يسمع صوته للحاضرين :

- انا كنت عطيت اخي ٥٠ قرش ومالوش عندي غير ريال .

وبدا للشرطي ان يلعب دور القاضي فسأله قائلاً :

- انت عطيتها الفلوس قبل الطلاق والا بعد الطلاق ؟

- قبل الطلاق يا شاويش .

- يبقى خلاص ما عليكش الاريال .

ولكن الرجل في ملابس السعادة ظل ممسكاً بخناق القروي واصر على
الاحتكام الى البندر ، فسار الشرطي بالرجلين الى البندر ومن ورائهم صبية كثيرون
وبعض الرجال لابسي الشباشب والقباقيب . كل ذلك وحسن مفتاح يرجو
البدال ان يفتح له التليفون ، ففتح له البدال التليفون . ولما فرغ من طلب الاسعاف
خاطب البندر وعاد الى الدار ، ومن حوله تجمهر الناس وفي اذياله ارتقوا السلم ،
ولكن حسن مفتاح اوصد دونهم باب الطابق . ولاحظ ان الغرفة مضاعة ووجد
النافذة المغلقة لا تزال مغلقة ووجد طبيب الاسنان جالساً على حافة السرير بعد
ان ضمد جرح المستحضر تضميداً مؤقتاً . وقرأ حسن مفتاح في وجه الطبيب أمارات
اليأس ، وانتقل بصره الى وجه منقريوس فرأى فيه خضرة باهته ورأى فيه

شحبوا تحت نور الكهرباء . ولكنه رأى فيه هدوءاً غريباً لا يضيء الا في وجوه
القديسين ، والتقت عيناه الزائغتان بعيني فؤاد منقريوس فوجدهما جامدتين
ثقيلتين . وأوشك ان يحشش بالبكاء ولكنه لم يبكِ ، وطال التقاء النظرات ولم
يدر حسن مفتاح انه يتقسم فقال معاتباً :

- لم فعلت ذلك يا فؤاد ؟

لم يجب فؤاد منقريوس وابتسم حسن مفتاح وقال يائساً :

لقد جشك اقترض منك جنياً !

ثم تحول بصره الى طبيب الاسنان ، فقال الطبيب هامساً :

- الرصاصة طاشت ونفذت في الرئة ، ولكن النزيف غزير ولا أمل في
حياته .

- حتى ولو وصل الاسعاف الان ؟

- حتى ولو وصل الاسعاف الآن .

- كم بقي في حياته ؟

- انا اقدر ساعة .

- اهو في غيبوبة ؟

- لا اعتقد ذلك .

وانصرف طبيب الاسنان الى المكتب البني البالي وذهب يعبت بما فيه من
للمكتب ، يقرأ اسماءها ثم يضعها في سكون ، ودفع بعض الاوراق كأنه يبحث
عن شيء ولكنه لم يجد شيئاً . وفتح درج المكتب كأنه يبحث عن شيء فلم يجد
شيئاً ، او لم يجد ما كان يبحث عنه ، فقد وجد علبة سجائر وصورة يوزباشي

في البوليس وبعض الاقلام الحمراء التي كان فؤاد منقريوس يصحح بها موضوعات
لغة الانجليزية التي كان ينشئها له تلاميذه في مدرسة الفنون التطبيقية ، ثم
بعض ازرار القمصان بعضها صديء وبعضها مكسور . وبدأ له ان يسعى الى
لدولاب ويفتحه ويفتش ثياب فؤاد منقريوس ، ولكنه احس بأن في ذلك
تجاوزاً لحدوده فلم يفعل - وادرك حسن مفتاح ان طبيب الاسنان انما يبحث عن
مظروف به وصية أو تفسير . وخرج طبيب الاسنان الى المدخل وانشأ يدخن ،
وينصت الى لفظ القوم خارج الباب . ثم خطر له ان الاسعاف قد يتأخر ففتح
باب برفق وطلب الى الفوال ان يقصد الى عيادة الدكتور نظيف ويستدعيه
لعل وعسى . ثم اغلق الباب برفق وجلس يدخن على المائدة الصغيرة المستديرة
تتي تعمل كل ما في المدخل من اثاث ، فوجد عليها رغيفاً من الخبز الافرنجي
وتشيتاً من الجبن الرومي ملفوفاً في ورقة من ملف قضية مطبوعة بالفالودج .
ما حسن مفتاح فقد احتل مكان طبيب الاسنان وامسك بأنامل فؤاد منقريوس
فإذا هي رطبة . ورغبت نفسه في البكاء ولكن دمه عصية . قال :

- لم فعلت هذا يا فؤاد ؟

وتامل رأس فؤاد منقريوس وفتح فمه وقال شيئاً لا يفهم . قال حسن
مفتاح :

- هل اختلفت مع زكية ؟

قال فؤاد منقريوس ، وكان صوته ضعيفاً الى درجة جعلت حسن مفتاح يميل
اليه ليتبين كلماته :

- اسمع .

- نعم يا فؤاد .

- تحية تسلم عليك .

وسيت حسن مفتاح لأنه لم يعرف بنتاً اسمها تحية . وزاد من عجبه انه كان يعلم ان خطيبة فؤاد منقريوس كانت تدعى زكية ، واستعرض جميع البنات اللاتي عرفهن فؤاد منقريوس عن قرب او عن بعد فلم يتعرف بينهن على تحية ، وحسن مفتاح هو العليم بذلك ، فقد كان موضع سر فؤاد منقريوس لا تخفي عليه خافية ، فظن انه يهذي وقال مصححاً :

... تقصد زكية .

قال فؤاد منقريوس :

... اسمع يا حسن .

فأله حسن مفتاح :

... لم فعلت هذا يا فؤاد ؟

... اسمع يا حسن .

... نعم يا فؤاد .

... سأزورك الليلة .

فأيقن حسن مفتاح انه يهذي ، ولكنه ابتسم على كره منه وأجابه :

... انا سأقوم بالواجب . البراندي موجود .

... انت صديقي يا حسن .

... طبعاً يا فؤاد .

... لا بد ان احيا من جديد .

... طبعاً يا فؤاد .

... اتساعدني على ذلك .

- طبعاً يا فؤاد .

- لا بد ان انتقم .

- ممن يا فؤاد .

- من زكية .

وبهت حسن مفتاح فقد كان يحسب ان فؤاد منقربوس يخلط هذيانه بين
الاسماء ، وخيل اليه ان فؤاد منقربوس كان يخفي عليه جوانب من حياته لعله
لا يعلمها . قال مصححاً :

- تقصد من تحية ؟

ولم يجب فؤاد منقربوس بل تحركت شفاهه بكلام كثير متداخل خفيض لم
يسمع منه حسن مفتاح كلمة واحدة ولكنه عاد يقول :

- اترى هذا الحفاش الاحمر الكبير ؟

فاجاب حسن مفتاح مسائراً اياه :

- نعم اراه .

- وهذا الوادي بعضه زرع وبعضه رمال ؟

- نعم اراه .

- والشمس الغاربة اترأها ؟

- نعم اراها .

- ان قلب الحفاش كالجمرة العظيمة الحمراء . اترأه ؟ ان جلد الحفاس شفاف
يمر فيه نور الغروب . أترأه ؟ انه وردي جميل . اترأه ؟ اترى الجمرة العظيمة
الحمراء ؟ هذه هي الروح . انها تنفذ في القلب . عند الغروب . الغروب الاخير .

اترى النور الوردى ؟ هذا نور الحب الإلهي . وحين يقترب الموت يشف الجسد وتسطع فيه الجمرة الحمراء ، وينفذ فيه نور الغروب الاخير . انت تسمع عن الغروب الاخير . الم تسمع عن الغروب الاخير ؟ هذا هو الغروب الغروب الاخير . وباللوت ينطفئ القلب وتخرج الروح من الجسد وتطير الشرارة في الهواء وتظل حائرة اربعين يوماً تبحث عن مكان تسكن او تختبئ فيه ، فان لم تجده انطفأت واستراحت الى ابد الأبد . اذكر علي عباد الله ؟

- نعم يا فؤاد .

- لا بد ان تقتله .

- ولم اقتله ؟

- لتحل في جسده روحي . لا بد من رجل يشبهني تماماً . اقتله فوراً يا حسن .

- ألا تصبر حتى ينتهي اجله ثم تحل فيه ؟

- كلا . كلا . كلا . لا بد ان يموت قبل الاربعين . امامي أربعون يوماً يا حسن .

وارتجفت أوصال حسن مفتاح واكتفى بهذا القدر من الحديث مع فؤاد منقربوس ، وانشأ يحك جفنيه لعله يسحق الصور المرعبة التي اجتمعت أمام عينيه . ان فؤاد منقربوس يهذي ما في ذلك شك . وقد بدا حسن مفتاح يجاريه في هذيانه وفقاً به ، ولكنه ألقى اخيراً انه يدخل به في عالم مرعب مادته اشباح ويحدثه عن امور لا وجود لها الا في خيال المجانين ، بل ويحضه كذلك على الاجرام . وتأمل حسن مفتاح وجه فؤاد منقربوس فوجده أهدأ مما كان وأجمل ، ولكن الشحوب الاخضر المنتشر في محياه قد اشتدت تحت نور الكهرباء . واجتمعت الالوان في رأس حسن مفتاح فرأى الاحمر والاسود والازرق . ولم

تحتل اعصابه هذا الجو العصيب وبدا له ان يفر من الغرفة ، فترك اليد الرطبية التي كانت مسترخية داخل يده وتحول بصره الى الباب فرأى طبيب الاسنان وقفاً به ينصت لكل ما يجري . واستحى من خوفه قليلاً ، وأتت نفسه على تركه اليد الرطبية تسقط على الفخذ المتصلب . ان هذه خيانة بسيطة . ان لكل انسان الحق في ان يهذي مرة في حياته ، فكيف يرض على فؤاد منقربوس بهذا الحق ؟ الا يكفيه انه يعيش بين اشباح الجحيم ؟ الا يكفيه العذاب الذي سيلقى ؟ ان الدكتور سليم يقول انه ليس في غيبوبة ، ولكن الدكتور سليم حمار كبير . انه في غيبوبة ، وهو لا يتعذب . ولكن اهو حقاً في غيبوبة ؟ ان هذيانه لا يخلو من الانسجام . اليس جائراً ان هذه صحوة الموت التي يتحدثون عنها ؟ اذا كان الامر كذلك فهو يقف على تخوم العالمين ، وهو يرى ما لا تراه العيون . اذا كان الامر كذلك فالويل ثم الويل . ولكن الدكتور سليم حمار كبير ، وفؤاد منقربوس يهذي ما في ذلك شك ، فهو يتحدث عن اناس لا وجود لهم ، يتحدث عن تحية . وهو يطلب اغتيال علي عبدالله دون ان تصله به صلة غير ذكرى الزمالة الاولى . بأي حق يطلب اغتيال علي عبدالله ؟ انه شديد الشبه به حقاً ، ولكن من قال ان للانسان ان يزيل اشباهه من الوجود ؟ ان جرس الاسعاف يدق من بعيد ، لعل معه الفرج ، من قال ان الرصاص لا يستخرج من الرئة ؟ ان الرجل الواقف بالباب طبيب اسنان وعلمه بالجراحة الباطنية محدود ، وسوف يشفى فؤاد منقربوس ويعود الى التدريس بمدرسة الفنون التطبيقية والى الجلوس في قهوة البول نور ، واذا اراد ان يتزوج بنتاً غير زكية فليتزوج بنتاً غير زكية . ان بين الكتب الملقاة على المكتب البني البالي كتب مستعارة من مكتبة الجامعة . ترى هل يتولى هو ارجاعها ؟ ان هذا اجترأ على حرمة الموت ، فلتصير مكتبة الجامعة على كتبها . والنافذة الخضراء عليها غبار كثير ، ومرآة الدولاب قدرة ، وبقياء قصب قديم ملقاة في ركن المدخل . ان فؤاد منقربوس المدرس هو فؤاد منقربوس الطالب ، لم يصبه ادنى تغير ، وقد كان خليقاً به ان يفر من ذباب الجيزة . والنور متهدج على النافذة الموصدة الخضراء ، والخضرة في النافذة وفي وجه فؤاد منقربوس

تملاً الغرفة بالاشباح . ان اللفظ يكثر خارج البيت فلا بد ان الفرج قد جاء . واليوزباشي شحاته منقريوس وذوره ، كيف يكون حالهم عندما يعلمون بالحقيقة ؟ ترى لم التحر فؤاد منقريوس ؟ لا بد ان لزكية حنين دخلا في ذلك . لا بد انه ترك رسالة في مكان ما . ان زكية لا بد تساعد في المطبخ الآن ، أو لعلها تحيك ثوب الزفاف ، أو لعلها تتسكع في شارع فؤاد الاول بين الفترينات طول الصباح لتشتري بمض المناديل والجوارب كما تفعل قريناتها من البنات ، أو لعلها مختلطة في حجرتها ان كانت لها حجرة خاصة بها ، تبكي ندماً على ما كان في الليلة الفائتة . نعم ، لا بد انها تبكي الآن على ما حدث في الليلة الفائتة ، فقد حدث شيء ما في الليلة الفائتة لا شك في ذلك . ان الناس لا ينتحرون بلا مسوِّغ ، ولا بد ان حنين افندي قال لفؤاد منقريوس شيئاً أوجعه . ولا بد انه طرده من بيته . لا بد انه هدده بإبطال الزواج . لا بد ان شيئاً ما حدث في الليلة الفائتة . ان زكية حنين لا تعلم شيئاً عما آلت إليه حال فؤاد منقريوس ، ولو قد علمت لمزقت عليه الثياب ، وكل ما يبكيها هو رفقها باحساسه المحروح او خوفها ألا يعود . فإن لم يكن حنين افندي هو الجاني فلا بد ان زكية هي الجانية . لا بد انه رآها في السينما مع رجل آخر أو رآها في عربة شاب من أولئك الشبان الاثرياء الذين يبدؤون كل مساء رحلاتهم فرادى على فيض الكريم من شارع عماد الدين وينتهون في مشارف الهرم مع بنت من بنات البورجوازية الصغيرة .

ولكن محال ان تكون زكية من هذا الطراز ، فلا بد ان لها عشيقاً واحداً ثابتاً ، ابن عم لها مثلاً يسهل دخوله في بيتها وخروجه منه بحكم القرابة ، ولا بد ان فؤاد منقريوس قد اكتشف هذه الحقيقة . بل ان هذا ذاته بعيد الاحتمال وحسن مفتاح يذكر انه رأى زكية حنين مرة واحدة في صحبة فؤاد منقريوس وخيل اليه من مظهرها انها بنت وديعة اقرب الى البلاهة منها الى الذكاء حتى كاد ان يشير على فؤاد منقريوس بالعدول عن الزواج ، ولولا علمه بما بينها من حب

شديد لفعل . فلا بد ان حنين افندي هو الجاني . فان لم يكن حنين افندي هو الجاني فلم يبقَ إلا ان يكون فؤاد منقريوس قد اكتشف فجأة ان له ولداً من حدى خليلاته السابقات كما يحدث عادة في القصص ويحدث احياناً في حياة . زوجة ساعي البريد المطلقة التي كان يحج الى بيتها كل خميس منذ ان نقلته وزارة المعارف من الزقازيق الى القاهرة ، أو الفسالة الحسنة التي كان يعاشرها منذ ان كان طالباً في الجامعة ولم تنقطع صلته بها حتى بعد خطبته الى زكية حنين ، وكلما كان حسن مفتاح يلوم على سلوكه هذا كان يحجب مبتساً ان المجتمع ممثلاً في شخص حنين افندي هو المسؤول عن هذا الوضع الشاذ ، فهو لم ينفرد بزكية حنين منذ ان عرفها الا مرة واحدة مدتها خمس دقائق ، يوم قبلها تحت السلم والاسرة في طريقها الى السينما . ولكن هذا محال . ألم يقل فؤاد منقريوس في هذيانه أنه يرغب في الانتقام من زكية ؟ لا بد أن زكية هي علة انتحاره . ثم من تكون تحية هذه ؟ ان اسمها لم يرد قط على لسان فؤاد منقريوس ، وهو في هذيانه يتحدث عنها حديثه عن صديقة قديمة . ولكن كل هذا هذيان لا يقام له وزن وخلق بحسن مفتاح ان ينتظر نتيجة التحقيق . ولكن حسن مفتاح خطر له خاطر جعله يضطرب ايما اضطراب . ان الناس الذين يدبون الان على السلم ويتصايحون سوف يفتشون بعد قليل ثياب فؤاد منقريوس وسائر مخلفاته ، وقد لا يكون في مخلفاته رسالة او في ثيابه مالاَ فما اكثر ما كان ينفذ ماله ، وعندئذ سوف تضيع النيابة انه انتحز لضيق ذات يده لتبرر جهلها بالدوافع الحقيقية . ولكن محال ان ينتحز فؤاد منقريوس لضيق ذات اليد مهما ضاقت ذات يده . ولقد ينتحز لأن نكبة نزلت به او لانه انزل بغيره نكبة او هرباً من تبعة جسيمة او يأساً من غرام امرأة أو صوناً لشرفه من خدش يصيبه ، ولكنه لا ينتحز لضيق ذات اليد . ثم ما العمل لو لطخت النيابة اسمه ؟ اذن في جيب حسن مفتاح شيكاً لحامله ، فليخرجه في صمت وليتركه خلصة بين اوراق فؤاد منقريوس حتى لا يقال انه انتحز لضيق ذات اليد . ولكن حسن مفتاح كان يعلم ان النيابة سوف ترسل الشيك الى

اليوزباشي شحاته منقربوس مع بقية المخلفات في الوقت المناسب . وفكر في حاجته الى الجنهات العشرين ، فقد كان يعلم ان اللياقة سوف تمنعه من مفاتحة الاب في هذا الموضوع فتردد ثم انصرف عن التفكير في هذا الأمر .

وحين قرع القارعون الباب خرج اليهم طبيب الاسنان . وانتقل بصر حسن مفتاح الى وجه فؤاد منقربوس فرأى فكه قد سقط وعينه قد جحظتا والزبد قد اجتمع في ركني فمه المفتوح ، وشاهد العرق القديم يلمع تحت نور الكهرباء فأيقن ان فؤاد منقربوس قد اجتاز الباب العظيم ، ورأى حسن مفتاح فراشة بيضاء ذات نقط سوداء تحوم حول الوجه ثم تنطلق الى الخارج وتختفي في غيبش المدخل . ونظر الى ساعته فإذا بها الظهر تماماً . ودخل لفظ عالٍ . ودخلت وراءه محفة حولها حشد من الناس بعضهم في ازياء صفراء نحاسية الازرار وقبعات مألوفة حمراء وبعضهم في ازياء مدنية بعضها انيق وبعضها رث زري . وارتفع صوت مأمور الجيزة يسكت الا غطين بقاسي الكلام وأقفل الباب بعنف . كل ذلك وحسن مفتاح يقرأ الفاتحة ويصلي مستنداً الى الجدار خشية ان يتهافت . وحين اعلن الطبيب الجديد ان النبض قد توقف لم يكن حسن مفتاح بحاجة الى هذا الاعلان وقال مستعظفاً :

— ارجوك ان تغمض عينيه .

وكان حسن مفتاح يحب ان يغمض عيني فؤاد منقربوس بيده ولكن الشجاعة خائته . وكان حسن مفتاح يحب ان يقبل فؤاد منقربوس ولكن الشجاعة خائته . وتذكر أمه القوية الفؤاد التي تغمض عيون الموتى من الاقرباء وتسوي على السرر اجسادهم وكأنها تعد للنوم اطفالها . ومرت به لحظة رهيبة استعرض فيها صور الموتى الذين رأهم ، وتذكر صديقه الشيوعي على النشرتي الذي مات منذ عام في قهوة بور فؤاد بالسكتة القلبية ، وتذكر عمه الاستاذ رسلان عبد المجيد المحامي الريفي الرقيق الحال الذي مات منذ أشهر لأن ثمن البنسلين تجاوز قدرته المالية وتذكر صاحبه سرهنك الذي فجعه يومئذ على غير قصد منه حين روى له ان

كلبه ركس قد مات بالالتهاب الرئوي رغم ان البنسلين جاء بالطائرة من لندن. ان وجه عمه لم يكن عند موته صافياً كوجه فؤاد منقريوس في هذه اللحظة بل كان خليطاً من صفرة وخضرة وزرقة . وقد خيل الى حسن مفتاح يومها ان وجوه الاموات جميعاً ينبغي ان تكون كوجه عمه حين مات ، فلقد تجاوز الموت جسده ودب في شعره الاشيب كذلك . وارتجف حسن مفتاح لذكرى عمه ، فقد كانت تلك اول مرة يلمس فيها جثة اذ طلب منه ابن من ابناء عمه ان يعينه على تسوية الجثة على الفراش ، فاضطربت نفسه وخشي ان يرفض حتى لا يقال انه خائف من الموت او انه يرضن على عمه بهذا القليل ، ودخل الغرفة متكلماً الشجاعة وحمل عمه بين يديه وأراحه في مرقده ، ثم اراد ان ينصرف هارباً ، ولكنه تكلف الشجاعة مرة أخرى وانصرف في تؤده . ولكنها لم تكن اول مرة يرى فيها جثة ، فقد كان يسكن قبل عامين مع سيدة ايطالية قرب ميدان الاسماعيلية مع نزيل آخر من تريستا عجوز ضخمة البنية ضخمة الملامح له ساق خشبية ، وكان ذلك العجوز يسعى كلما انتصف الليل الى غرفة السيدة الايطالية ليعاشرها معاشرة الأزواج ، فلا يسمع حسن مفتاح الا وقع الساق الخشبية وهي تدق في الظلام على أرض الدهليز الطويل دقاً قوياً بطيئاً رتيباً ، فيخيل الى حسن مفتاح ان بالبت شبحاً يطوف بأرجائه في موعد منتظم . وذات ليلة قبيل الفجر استيقظ حسن مفتاح على طرقات سريعة متواصلة بباب غرفته وسمع السيدة الايطالية تنادي : « سنيور مفتاح . سنيور مفتاح . برستو ، برستو . » فقفز من فراشه وخرج اليها فاقتادته في الدهليز « الطويل حتى دخلت به غرفتها . وهناك رأى الاعرج العجوز جالساً على مقعد وثير وقد امتدت ساقه الخشبية امامه على الارض وتعرى بعضها وتهملت ذراعاها وتجمع الزبد حول فـه ثم شق وتدلّى رأسه فوق صدره وكاد ان يسقط لولا ضخامة المقعد . وبادرت اليه السيدة الايطالية تجس نبضه فعملت انه قد انتهى ، وأبعدتها حسن مفتاح الى غرفته وانتظر هو امام الجثة حتى الصباح. ثم اختلطت في خياله صور الموتى والمذبحين من رأيهم ومن لم يرهم الا بعين الوهم او في احلامه المضطربة ، فاصابه دوار

وأغض جفنيه وافاق على الحقيقة فأدرك انه لا يزال يجوار فؤاد منقريوس ذي الوجه الابيض المخضوضر الجميل .

ولم يجد ما يفعله فعاد الى صلواته الصامته وهو لا يعلم ان كان فيها غناء ، فقد كان شاكاً أصيلاً . ونظر الى سقف الغرفة واستغنى به عن السماء ، فلم يسمع في السماء رعداً يققق ولم يرَ فيها ملائكة يبكون بل رأى العوارض الخشبية الصفراء متفسخة تطل عليه في بلاهة ورأى بقايا من نسيج العنكبوت . ونظر الى الأرض فوجدها ثابتة لا تنشق ولا تميد وتطفح دماً ووجد السجادة الآسيوطية الخشنة الكثيبة ذات الصلبان المتداخلة المتكررة كما كانت منذ عام كثيبة ممزقة الشراريب : ولكن فؤاد منقريوس لم يكن بطلاً من الابطال حتى تعمل عليه النسور ويهيج النوء الغضوب او تذبل من اجله الازهار أو يفيض النيل الحزين ، فكيف يطمع حسن مفتاح في آلام الطبيعة ؟

وبلبل لفظ اللاغطين افكار حسن مفتاح وقطع عليه صلاته ، فأخذ يتساءل : « انه يتلو الفاتحة وبعض آي الذكر فهل تقبل شفاعته محمد لروح مسيحية ؟ وود لو انه تعلم كيف يتلو : « أبانا الذي في السموات » اكراماً لفؤاد منقريوس ، فلعل السماء تقبل لغة النصارى عن ارواح النصارى ولغة المسلمين عن ارواح المسلمين . ولكنه لم يتعلم كيف يتلوها ، فمضى فيما كان فيه . وكان توجهه زائفاً رغم اخلاصه وكانت صلاته باردة رغم اجتهاده . وامتلكه شعور قوي بأنسه يمثل دوراً لم يكتب له فكف عن التمثيل والأسف ينهش فؤاده نهشاً ، فهو يعرف كيف يخاطب القمر المكتمل الخجول حين يطل على حقول الحنطة الشاحبة ، وهو يعرف كيف يتوجه الى العباب وينادي الامواج الزرق أن خذيه الى صدرك الحنون ، وهو يعرف كيف يناشد الرياح ان تحمل على اجنحتها روحه التائه وتطير بها الى بلاد الجليل الدائم حيث الصفاء من ادران الحياة ، وهو يعرف كيف يتحدث الى النجوم ويستودعها اسراره وامانيه . ولكنه الآن بين متطوعي الاسعاف ورجال البوليس والنيابة وبين ذباب الجيزة وضوء

عربت الكارو ، فلا سبيل الى التفكير في الطبيعة . اما الملائكة فهو لم يآلف
صحبتهم ، واما السماء المفتوحة البيضاء التي لا افلاك فيها ولا تخوم لها فهو لا
يعرف كيف يلجأ لها في سعادته او في برحائه .

وسمع حسن مفتاح حديثاً عن المسدس وعن المشرحة فتنبه ليرى المحفة تخرج
فاستوقف حاملها لحظة وذهب يرجو وكيل النيابة والمأمور والطبيب
نشرعي وكل من بالغرفة ان يعدلوا عن ارسال الجثة الى التشريح فأفهموه ان
هذا اجراء لا يقبل المناقشة فسكت . ولما خرج رجال الاسعاف علا لفظ
اللاغطين فخرج المأمور اليهم ولقبهم بالفجر والبهايم وابناء الكلاب فسكتوا .
وأغلق المأمور باب الطابق وعاد الى الغرفة فوجد وكيل النيابة يستجوب
طبيب الاسنان الذي روى روايته وانصرف ، ثم تحول وكيل النيابة الى
استجواب حسن مفتاح ، فأدلى حسن مفتاح بكل ما يعرفه عن الحادث وذكر
انه لا يعرف لفؤاد منقربوس اعداء ولا يعرف لانتحاره سبباً ، واوشك ان يذكر
لوكيل النيابة ما عرفه عن رغبة فؤاد في ان يقتل علي عبدالله ولكنه رأى من
العيب ان يقص على وكيل النيابة ما سمعه من هذيان عن الارواح . فلما سأله
وكيل النيابة ان يوقع بإمضائه على صحة اقواله تردد بعض الشيء ، فعجب
وكيل النيابة لذلك وداخله الشك في امره واستوضحه سر تردده فاعترف له
حسن مفتاح خجلاً بأنه قد اخفى عنه بعض الوقائع التي يعلمها معترداً بانها
لا شك خارجة عن اختصاص النيابة . وسرد حسن مفتاح على وكيل النيابة كل
ما قاله فؤاد منقربوس عن فتاة لا وجود لها تدعى تحية . وعن رغبته في الثأر
من عدو لم يفض باسمه ، وعن توصيته بتدمير علي عبدالله بحجة التشابه بينهما في
الصورة ، وعن نظريته في تناسخ الارواح ، فهز وكيل النيابة كتفيه وأشار
بإقبال المحضر . ولكن حسن مفتاح رفض التوقيع إلا ان يدون كل ما قال في
التحقيق .

كذلك دل حسن مفتاح وكيل النيابة على ان الخمسين جنيهاً التي استخرجها

التفتيش من جيب السترة الكحلية المعلقة بالدولاب كان ينبغي ان تكون مئة .
وان هذا القدر كله كان ينبغي ان يؤدي لصانع اثاث بالسيدة زينب يحبل حسن
مفتاح اسمه وعنوانه ، لقاء صفقة تمت بين فؤاد منقريوس وبين صاحب الاثاث ،
فقد كانت فؤاد منقريوس على اهبة الزواج ولم يبقَ بينه وبين زفافه إلا اسبوع
واحد ، اما بقية الاثاث فقد اشتراه فؤاد منقريوس من مدرسته على ان يخصم
ثمنه من مرتبه مقسطاً على عام واحد ، وقد اودع كل ما اشترى من اثاث في شقة
بمنيل الروضة استأجرها منذ شهر ليتأهل فيها ، وحسن مفتاح لا يعرف موضعها على
وجه التحديد . كذلك قص حسن مفتاح على وكيل النيابة كيف ان فؤاد
منقريوس قد اضطلع منذ عامين بتدريس آنسة من أهالي السيدة زينب تدعى
زكية حنين اللغة الانجليزية فأولع بها وبعد ان نالت اجازة البكالوريا خطبها الى
ابنها وهو كاتب بالمساحة التفصيلية ، ولكن اليوزباشي شحاته منقريوس كان لا
يقر هذا الزواج بالذات لأنه زواج حب لا زواج مصلحة ، ولا يقر مبدأ الزواج
جملة لكنه سيقطع عنه الاعانة الشهرية التي يتسلمها الآباء ولأنه سيرغمه على
الانفاق من جيبه الخاص على تربية ولده الثاني جورجى . ثم ان اليوزباشي
شحاته منقريوس شحاته كان يساهم بعشرات الجنيهات في تأثيث بيت الزوجة على
كره منه ، ولولا خوفه من كلام الناس لرفض ان يعاون ولده على الزواج
اطلاقاً . وكان يقول دائماً ان المدنية قد عصفت بالزواج الصالح ، فرأس مال
الفتاة الحديثة لنها تتكلم الفرنسية وتعزف « افراح القبة » على البيانو ، وهو لا
يكفي ، لان الفتاة التي لا تملك عشرة فدادين لا ينبغي ان تتزوج ولو كانت
ابنته . اما منقريوس فقد كان ينظر الى الأمر من زاوية اخرى ، فزكية حنين
عنده واحة في صحراء الحياة ، وهذا كل ما يبغيه . واما حنين افندي فقد كان
يقم العراقيل المالية امام فؤاد منقريوس ويهظه بالمطالب ، وكثيراً ما ذكره في
خشونة واضحة ان موظفاً يتقاضى عشرين جنيهاً وليس له دخل خاص ينبغي ان
يتردد كثيراً قبل الاقدام على الزواج ابان سنوات التضخم ، وقد انذره مرة ان
يتخلى عن اخيه جورجى ان كان جاداً في رغبته في الزواج ، فخرج فؤاد

منقريوس عن طوره وأجاب قائلاً ان الحياة الزوجية اذا اتسعت لكاتب مثله يتقاضى في نهاية عمره اثني عشر جنهما شهرياً تدخل فيها علاوة الغلاء فهي ولا شك تسع اشاب يتقاضى في مستهل حياته عشرين جنهما. وكانت هذه آخر مشادة بينهما وقد وقعت منذ ثلاثة أشهر ولزمت البنت فيها الحياء الدقيق فلا يمكن ان تكون لها صلة بالانتحار .

ولكن الطبيب الشرعي اثبت في تقريره ان موت فؤاد منقريوس قد لا يكون انتحاراً، فمن الجائزانه كان يعبث بمسدسه فانطلقت منه رصاصة أردته، واستدل على ذلك بوجود الرغيف الافرنجي والجن الرومي على مائدة المدخل مما يثبت ان فكرة الانتحار لم تثبت إلا في الصباح ، بعد راحة الليل ، وهو امر بعيد الاحتمال فلو قد صادف فؤاد منقريوس ما عكر صفوه لقتل نفسه ليلاً . ثم ان من يعزم على الانتحار لا يضيره ان يموت عارياً او في البيجاما ، فلماذا ارتدى فؤاد منقريوس بدلته . ويؤيد ذلك أن فؤاد منقريوس لم يترك كلمة واحدة يدلي فيها بوصية او اعتراف . وحين فرغ الطبيب الشرعي من سرد خواطره ابتسمت عينا وكيل النيابة امتناناً ، أما حسن مفتاح فقد تهيجت اعصابه واستوقف الطبيب الشرعي قائلاً ان فؤاد منقريوس لم يكن طفلاً حتى يعبث بمسدسه هذا العبث القاتل وان واقعة الانتحار لاشك فيها وان اثبات الاصابة الحاطئة مؤامرة دنيئة تلجأ اليها السلطات لاختصار الطريق والاستراحة من عناء التحقيق وان دم القتل على رأس كل من يتواطأ لاهداره على هذا النحو، وان الطبيب الشرعي لا يستطيع ان يفسر كيف ان فؤاد منقريوس لم يفتح الغرفة حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً ولا يستطيع ان يفسر كيف ترك باب الغرفة شبه مفتوح ولا يستطيع ان يثبت ان فؤاد منقريوس قد نام اطلاقاً في الليلة السابقة لان فراش فؤاد منقريوس كان على فوضى دائمة في صحوه والمنام .

ونشبت مشادة عنيفة بين حسن مفتاح والطبيب الشرعي فتدخل وكيل

النيابة وحسم الجدل ، وانصرفت خواطر حسن مفتاح الى اليوزباشي شحاته منقريوس : ترى ماذا يفعل الآن ، انه في الفيوم قريباً من بلدته الاصلية اطسا وهو لا يعلم شيئاً عما حدث ، ولعله في هذه اللحظة بالذات يضرب المقبوض عليهم بعصاه الغليظة دون ما رحمة كما دون يفعل أيام ان كان معاون بوليس يندر المنيا ، حين كان البندر بشارع الانشاء ، فيعول بعضهم عويل النساء ويثن بعضهم كالكلاب المجروعة . او لعله الآن يصفع الشرطة كما كان يصفعهم في بندر المنيا حين يبلغه انهم ارتشوا بالطماطم او بالخيار او بزهد المال ليتجاوزوا عن مخالفات الباعة او ليتستروا على بيوت الدعارة ، ويذكرهم بأن اليوزباشي شحاته منقريوس لم يرق من تحت السلاح الا لأمانته ووجه للنظام . ان اليوزباشي شحاته منقريوس لا يعلم شيئاً عما جرى لولده ، ولو قد عرف فماذا تراه فاعل ؟ ان عصاه لن تسقط من يده وشاربه الكث الذي نبتت فيه شعرة بيضاء يجوار كل شعرة صفراء لن يهتز لهول الخبر ، فلا شك انه سيتم ضرب المتهمين او صفع الشرطة ثم يعود الى غرفته ويغلق بابه ويجلس وراء مكتبه كالمعتاد ثم يطأطئ رأسه حتى ترتاح على مكتبه ويحش بالبكاء الحار . ولكنه لا يعلم شيئاً عما حدث . ولم لا يعلم ؟ ولم لا تعلم زكية حنين ؟ لم لا تبدو في السماء علامة كلما انطفأت روح او انطلق سر كأن تنكشف الشمس مثلاً أو يهيج اعصار او تقتتل امواج البحر حتى يعرف الناس ان بشراً قد مات . ولكن هذا محال لان البشر يموتون كل دقيقة ولا يحمل ان تنكف الشمس بصورة متصلة او تعصف الرياح على الدوام او تتحطم سفائن الدنيا . ولكن لا تبدو علامة صغرى كالنذير تعلن للناس موت احبائهم وان كانوا في نهاية الارض كأن تذبل زهرة او ينكسر اناء او تضيق الصدور بالانفاس . ومن يدري ؟ لعل هذه العلامة تتجلى فعلاً فلا يلحظها الا اصحاب المهود .

واجتمعت في رأس حسن مفتاح الالوان من جديد: الاحمر والاسود والازرق ، وتجسمت في خياله حتى كاد ان يراها امام عينيه ، واوشك ان يصيح : « ابعدوا

عني الألوان .» ولكنه راجع افكاره وكظم مشاعره ولام نفسه على هجسها .
والقى حسن مفتاح ذاته مستسلماً لهذه الخواطر الغربية فثاب الى صوابه وادرك
نها لا تقدم ولا تؤخر .

واراد ان ينصرف الى عمل مجدي ، فرأى ان يبرق لليوزباشي شحاته منقريوس
وان يبلغ الاصحاب ولكن وكيل النيابة رجاء ان يترث حتى يحضر مندوب
تحقيق الشخصية ليصور البصمات ، وذكر له في ادب جم أن فكرة القتل لم
تستبعد نهائياً رغم أنهم وجدوا كل شيء في الغرفة على حاله ، فباب الطابق قد
وجد مفتوحاً ، وهذا امر غير مألوف . ولبت ثلاثتهم يدخلون في صمت لحظات
ثم ارتجفت أوصال حسن مفتاح قليلاً فقد خيل اليه ان وكيل النيابة يشبه فيه ،
واوشك ان يجادله في أمر بقاءه ولكنه عدل عن ذلك حتى لا يثير حوله الشكوك .
ثم عاد اليه اطمئنانه وامتلكه اعجاب قوي لوكيل النيابة الذي يفعل ما يفعل
صوناً لدم فؤاد منقريوس . ولم يطل انتظارهم ، فقد وصل رجلان من تحقيق
شخصية بعد دقائق وفرغاً من الاجراءات اللازمة في نصف ساعة او
نحوها ، وخرج الجميع من الطابق واغلق كاتب التحقيق الباب وختمه بالشمع
لاحمر .

وفي شارع ذي اليمين طار الذباب الى وجه حسن مفتاح وطارت اصوات
نباعة والعربات الكارو الى اذنيه وطار الغبار الى حلقه وطارت رائحة الطعمية
والكبات الى انفه ، ولكنه كان في شغل عن هذه الاشياء جميعاً بتأملاته .
ووقع بصره على الساعة القائمة في ميدان الجيزة فوجدها تقول الرابعة . ولم
يصدق ما تقوله ساعة من ساعات الحكومة فعنده بها ان تكون خربة اكثر
العام . واستوقف رجلاً من السابلة فأكد له الرجل ان الساعة الرابعة . ومضى حسن
مفتاح يرتب افكاره ليووجه تبعات الموقف فقصد الى مكتب التلغراف وابرق
لى اطسا والفيوم وهليوبولس ثم اتصل تليفونياً بابراهيم نور الدين في الصحيفة

التي يعمل بها ، وبمحمود الصواف ليعتذر عن اجتماع الليلة ولينبيه عنه في ادارة الاجتماع بنادي البعث بدلاً عنه ، وكتب كلمة عاجلة لسكرتير مدرسة الفنون التطبيقية وتركها في صندوقه بجوار مكتب التلغراف . ولم يدرك كيف السبيل الى الاتصال بعائدة علم ، صديقه المثلثة الهادئة الحاملة ذات الملامح العادية والاسنان الجميلة ، صديقه التي لا يدري ان كان يحبها او لا يحبها ولا تدري ان كانت تحبه او لا تحبه ، ولا يدري ايطلب إليها الزواج او لا يطلبه ولا تدري اتقبل الزواج منه او لا تقبله . انها في الصباح تعلم التلميذات في مدرستها ، وفي الصباح وحده يستطيع حسن مفتاح ان يطلبها في التليفون ، اما الآن فهي لا شك نائمة فهي من النومين بعد الظهر ، وقد نامت بعد الظهر كل يوم من ايام حياتها وهي تقدر بخمسة وعشرين عاماً . ثم خرج حسن مفتاح من جديد الى ميدان الجيزة وابتاع بعض اقراص الاسبيرين واختفى في قهوة المثلث حيث شرب القهوة مراراً ودخن طويلاً والقى على الصحيفة نظرة واحس بالاعياء الشديد وبجُمى آتية فمسح وجهه بقليل من الماء واصلح من هندامه فتجددت قوته فعلاً .

وبعد ان فعل كل ذلك الفى نفسه عاطلاً ، ولم يبقَ ما يربطه بالجيزة فعزم على العودة الى القاهرة ، وآثر ان يقطع الطريق سيراً فخرج الى شارع مراد بك . واحس بالحاجة الى صديق ينصرفه عن خواطره ، وتعزى عن ذلك بكل الاحجار التي صادفها في الشارع النقي المرتب وبقراءة الاعلانات وبعد الواقفين في محطات الترام . واستعرض ما كان بين القروي الاشقر والرجل في ملابس السهاة ، وتأنف لما آلت اليه حال الشعب من فقر مسخ كل العواطف الانسانية . وحين بلغ حدائق الحيوان ورأى باعة الكنازوزة والخدامات السمراوات الناضجات يحملن اطفال ساداتهن الموسرين قرب الباب الكبير احس انه بمنجاة من مدينة الموت والذبات والروائح المختلطة .

واطردت افكاره على نسق هادىء جديد . وطفق يستعرض محصوله من ذكريات النهار وقد تملكه خليط من العواطف الهادئة المتضاربة ، منها الحزن

لهادىء والعجب الهادىء والاشمئزاز الهادىء من الحياة جملة والخوف من الموت ومن عالم الارواح والاشباح الذي حدثه عنه فؤاد منقريوس ، ولكن هذه تعواطف الهادئة وسواها التفت في غلاف فلسفي كوني النطاق وكانت مختلطة بكثير من الذكريات التي طواها الماضي القريب أو الماضي السحيق . فهو لم يحزن على فؤاد منقريوس حزناً عميقاً ناهشاً لان الاسراف في الحزن على الموتى كان في نظره انفعالاً صبيانياً أو انفعالاً أنانياً لا يجوز للراشدين الذين يعلمون ان بأساء الحياة أكبر من نعمائها . وأن الموت يلغي حادث الميلاد فالحزن على الموتى اشبه بالحزن على من لا يولدون . ثم انه كان يرى ان الحزن على الموتى سفاهة لان نبلاغات الحرية تنعى كل يوم آلافاً مؤلفة من الشباب نصفهم أقدر من فؤاد منقريوس على الحياة وكلهم أحق بها منه ، فهم يموتون ليحققوا شيئاً من الاشياء أما هو فقد مات حتى لا يحقق شيئاً . بل ان العواطف الشخصية المحدودة في مجموعها لم يعد لها مجال في نفس حسن مفتاح منذ ان أخذ على عاتقه مهمة الكفاح لاجتماعي . ولولا بقية من حب الشعر فيه ومختلف من العادات الانسانية في الانفعال لاستقبل حسن مفتاح موت فؤاد منقريوس ببرود شيطاني . ولم يجد حسن مفتاح في الموت ما يخيف الا الدقائق المعدودات التي يتداخل فيها الوجود مع العدم أما ما تجاوز ذلك فقد رأى ان قهره ممكن وواجب . كذلك لام حسن مفتاح فؤاد منقريوس على انتحاره فقد كان يجب على من استغنى عن حياته ان يبذلها بذل مكافح شديد ، ولكنه ترفق في لومه اياه لأنه كان يعلم ان من هانت عليه حياته هانت عليه حياة الآخرين وهانت عنده اسباب الجهاد . وكان حسن مفتاح يعلم ان فؤاد منقريوس لا يعول أباً أو أمّاً ولا يتوقف على وجوده شيء في الحياة ذو بال فلم يجد في انتحاره مأخذاً بل وجد ان فؤاد منقريوس أعرف الناس بمصلحة فؤاد منقريوس ، فاذا كان فؤاد منقريوس قد خرق قوانين الطبيعة وآثر الموت على الحياة فلا بد أن لديه من الاسباب ما يبرر ذلك . فلئن كان قد أخطأ في حسابه فقد دفع ثمن خطئه بدمه وليس لأحد أن يناقشه في منسلكه الشخصي .

وحين دقت ساعة الجامعة تذكر حسن مفتاح ما كان ينبغي ان يحدث
لفؤاد منقريوس وتخيل الكنيسة وأجراسها وصور القديسين والقساوسة والمباخر
والصلبان والناس وقوفاً ثم قعوداً وألغاز اللغة المجهولة التي يتفنى بها الشماسة
العمي والمورفأحس بالراحة لأن فؤاد منقريوس سوف يعفى من كل هذه العلانية .
ثم أي أمل بقي لفؤاد منقريوس ، وماذا يملكه القساوسة لانقاذ روحه ؟ ان
فؤاد منقريوس قد فقد الايمان منذ سنوات حين دخل الكنيسة مصادفة يوم احد
الزعف ليشبع بصره بحمال المصليات وهن يخطرن الى باب الحريم أو يتفحصن
المصلين بعيون براقة من وراء المشربيات الخشبية ذات الخروق الكثيرة . فسمع
الكاهن يقول أن من صور النعم التي سيحظى بها الابرار في الجنة مرأى العذاب
الذي يتعذبه الخطاة في الجحيم ، فخرج ساخطاً قبل تمام المراسم ، وفي اليوم
التالي أذاع بين أصدقائه انه كفر لاسباب أخلاقية . ولولا خوفه من اليوزباشي
ومن حنين افندي لجهر بهذا الرأي في كل مناسبة . ثم ان فؤاد منقريوس كان
يقول إن القساوسة بحاجة إلى من ينقذ لهم ارواحهم فكيف ينقذون أرواح
الناس ؟ كل ذلك والأورمان الخضراء إلى يسار حسن مفتاح قد جففها الحر
القديم وخنقها ركود الهواء ، وقد جلس يجوارها على افريز الشارع قرب محطة
الاوتبيس قروي كهل مهلهل الشباب ، جلس القرفصاء وقد تعرى اسفله أو
أوشك وذهب يقضي حاجته قبالة المفوضية التركية أمام الملاء تحت الهواء الثقيل
الذي يحمل شذى الحضرة ولا يحمل عطر الازهار . ورآه حسن مفتاح فلم يلق
بالاً إلى هذا المنظر المألوف . ولما رأى الاورمان تذكر الطالبة سنية المنصوري
التي كان المراهق فؤاد منقريوس يقدها أيام دراستها في الجامعة ويود ان يعتنق
الاسلام ليتزوج منها ، وذكر كيف كان المراهق فؤاد منقريوس يقتفي أثرها من
بعيد بطول الاورمان إلى محطة الترام واجف القلب لا يرجو إلا ان يشبع منها
النظر ، فإذا ما ركبت سنية المنصوري ترامها دخل هو الاورمان وراح يشكو
غرامه الى أزهارها النضرة . كذلك تذكر كيف المراهق فؤاد منقريوس اهتدى
يومها الى نظرية سياسية كبرى تضمن لمصر وحدة دائمة أساسها أن يدخل

الاقباط جميعاً في دين الاسلام فوجاً واحداً فيحلوا بذلك مشكلة الاقلية . وكان يقول ان المسلمين لو نزلوا عن رأيهم في صلب المسيح ، نزل الاقباط عن رأيهم في رسالة محمد . وظل يروج لهذه النظرية بين زملائه من طلبة كلية الآداب حتى فقد عطف الاكثرين من الجانبين .

ثم تذكر حسن مفتاح أن هذه لم تكن أول مرة ينتحر فيها فؤاد منقريوس ، فقد حاول الانتحار من قبل ، من أجل سنية المنصوري ، فلم حسن مفتاح أن ما حدث كان جبراً مادياً في طبيعة فؤاد منقريوس . ثم ان فؤاد منقريوس كان آية من آيات الجمال ، وقد رأى حسن مفتاح ان من كان في جماله وجب أن يموت في عزة الشباب قبل أن تسطو عليه يد الزمن فتحفر بنحجرها الاخاديد في صفحة وجهه . فحسن مفتاح سوف يذكر فؤاد منقريوس بعد عشرين عاماً على حاله ، كما تركه منذ ساعة .

كذلك سنية وزكية وتحية ان كانت هناك تحية سوف يذكرنه على حاله ، وهو أكرم له من الذبول والضمور .

وعاد حسن مفتاح يفكر في الكنيسة وطقوسها ، وذكرته الكنيسة بالمقابر ، وذكرته المقابر بالارواح ، وذكرته الارواح بالاشباح ، فاستعرض كل ما سمعه من فؤاد منقريوس وأراد أن يهز كتفيه استخفافاً ولكنه عجز عن ذلك ، بل زدادت خواطره التهاباً ، واتضح له أخيراً أنه لا يستطيع أن يتجاهل ما جرى ، فقرر أن يناقش اعتراف فؤاد منقريوس على ضوء العقل وحده حتى يتخلص من أطيافه المزعجة . وأحس بالاختناق وهو يعبر كوبري الانجليز ، فأنشأ يتأمل الماء الرمادي وأشجار الجزيرة العالية وأبراج المعرض الزراعي والزينة الملكية والغربان السود الرابضة على الاعلام . ورأى في الغربان نذير شؤم ولكنه لم يتطير طويلاً ، وقرأ على السور الرمادي الطويل الى يساره اقوالاً كتبت بالطباشير بعضها يحض على الثورة وبعضها يحض على اخراج الانجليز

بالدماء وبعضها من بذاءات الجنس باللفظ وبالرسوم، بما رأى صلباناً كثيرة معقوفة وعددًا من المناجل والمطارق، فعاد بخياله إلى الفناء الخلفي في مدرسة المنيا الثانوية وتذكر الصبيان، وتذكر موسى أفندي المستهتر الذي كان يدعو التلاميذ ذوي الوجوه الجميلة الاضراب، وموسى أفندي الذي كان يدعو التلاميذ ذوي الوجوه الجميلة الى داره بأرض السراي، وتذكر اليوزباشي شحاته منقريوس الذي لم تترك ثورة ١٩١٩ في أسرته من اثر الا أسماء ولديه سعد ومكرم وبنته صفية، وقد ماتوا جميعاً ولم يبقَ له الا فؤاد الذي حمل هذا الاسم تيمناً بولاية السلطان فؤاد ثم جورجي وهو من مواليد الحكومة الائتلافية الاولى وقد حمل هذا الاسم تخليداً لعمه الذي ربه أباه. أما بقية عواطف اليوزباشي الوطنية فقد نزل عنها حرصاً على وظيفته، واشترك في تزوير الانتخابات وفي قمع المظاهرات الشعبية وفي مطاردة الجواسيس السياسيين أي المكافحين - بنشاط وقسوة قل نظيرهما. كذلك تذكر حسن مفتاح ابراهيم نور الدين ذا العقل الراجح بين التلاميذ ومحمد مسلم ذا العينين الضيقتين والاسنان البارزة والصوت الرخم، وتذكر فناء المدرسة الامامي ذا الحشيش الاصفر العطشان الذي كان الغلمان يضربون عليه دائرة في فسحة الظهر بعد الغداء ويجلسون وسطهم محمد مسلم ليغنيهم «انا انطونيو» ويجوّد لهم «يا جارة الوادي» فيجنوا طرباً، وترتفع أصواتهم في كوراس واحد طويل بعد كل مقطع قائلة: «آآآه» وتمنى حسن مفتاح لصباه أن يعود رغم أن صباه كان مريراً، فقد كان في صباه فؤاد منقريوس وابراهيم نور الدين ويحيى هاشم وفناء مدرسة المنيا الثانوية وحشيشها الاصفر العطشان.

ونعق غراب من على فظنه حسن مفتاح يقول: «هيهات، هيهات» ولم يحزن غير ان التمتع ادخله من جديد في عالم الارواح والاشباح. فاسرع في سيره لعله يخرج من هذا العالم، ولكنه لم يخرج منه بل تصبب وجهه عرقاً حين أشرف على تمثال سعد زغلول. وأخفى الليل التمثال، فبدا له كالحفاش الحجري الأسمر الجسم فتذكر خفاش فؤاد منقريوس الذي اشتعل قلبه كالجمرة ونفذ في جسده نور الغروب الوردي. وتذكر نظرية فؤاد منقريوس في تجسيد الأرواح

فخيّل اليه أن روح سعد زغلول قد تحجرت الى أبد الآبدين كما تحجرت روح
أطلس . ولعبت المردة بين الأشجار على يمينه وحول خيام المعسكر الهندي
المضروبة داخل الحديقة . وكانت أنوار كوبري قصر النيل لا تزال زرقاء رغم
تخفيف قيود الاضاءة فلم تهدى من روعه الا قليلاً ، وظلت صورة فواء
منقريوس ثابتة في رأسه فأحس بالضجر وقالت نفسه متأقفة : « ماذا تريد مني
يا فواء ؟ لقد اخترت الموت فدع الاحياء يحيون . ثم لام حسن مفتاح نفسه على
هذا الضجر حين تذكر ان فواء منقريوس في رأسه ولم يأتها من الخارج ، وقالت
نفسه معتذرة : « تريث يا فواء حتى نبلغ ايزافتش لنصفي الأمر معاً ، فأنا
متعب وحران حديث الأشباح في هذا الضوء الخافت بين الماء والقصور والظلال
المديدة حديث يزعج النفوس . »

وبلغ ايزافتش ، وجلس في ركن من أركانه ذات الضياء ، واستهلك شيئاً
من الجيلاتى ساغ له طعمه ، وأحس لأول مرة بمقدمات الجوع ولكنه لم يكثرث
وأجال نظره في أركان المكان فرأى نفرأ من الانكليز المجندين والمهندات ،
ورأى من الرواد الدائمين أنور وجدي وهو محامٍ شاب من شرباص يقرض الشعر
تزوج من أرملة تملك مائة فدان عليها ديون قليلة ، وتولى هو إدارتها ولكنه كان
يعرض قضاياه على الشعراء ويعرض شعره على المحامين فضاعت الأفدنة المائة
وبقي مغموراً في دنيا الناظرين . كذلك رأى محمود أبو سحلى وهو مهندس
مبتدىء أحب عذراء من عذارى الجيرة حباً لا نظير له ، ثم دعاه صديقان من اصدقائه
الى سهرة حمراء في دار أحدهما ، فلما دخل الدار وجد عذراءه عارية في السرير
تشرب الويسكي بلا حساب فأودت الصدمة بعقله ، وجافى الناس جميعاً واستغرق
في ذهول مقيم . ورأى الفتى الوسيم عصمت وهو صحفي ثانوي القيمة يتفجر
الذكاء من عينيه وتتفجر الحيوية من أعضائه عشقته زوجة لواء في الجيش تجاوزت
الحسين فعلته كل موبقة يتخيلها الخيال الشرقي حتى أصابه روماتزم القلب وهو
بعد في العشرين .

رأى حسن مفتاح كلا منهم يجلس في ركنه المفضل . وتكاثر من حوله

الزملاء واكتملت في أزافتش « جماعة البعث » أو مجلس إدارتهم : صفوان ونور الدين والسكرتيرة عنايات ممدوح والصواف والجيار وسعدية الطويل والسيد علي وبطرس قلادة وفتح الله ونعيم ، فاصطنع حسن مفتاح خلو البال ، وساهم معهم في أحاديث السياسة والنساء ، وهزل معهم على رجالات الدولة وعلى الانجليز ولكن وجومه كان ملحوظاً ، فسألوه عما به فأجاب باختصار أنه فقد صديقا وعاد إلى بيان رئيس الوزراء عن معتقل الطور يناقشه في خفة وعبث . وتوارى فوءاد منقربوس بارواحه وأشباحه تحت الأنوار الكثيرة الزرقاء وبين أكواب الجيلاتي وأحاديث السياسة والنساء ولكن وجوم حسن مفتاح سرى درجة درجة في نفوس الحاضرين .

وتحول بصر حسن مفتاح إلى الركن الأيمن فرأى كهلاً وقوراً أنيق الملبس بابيونه جميل الألوان ومنظاره ذهبي الإطار ، وقد رفع الكهل صحيفة « المقطم » وانصرف إلى قراءتها فعرفه حسن مفتاح ، وأشار برأسه مبتسماً في صمت ، وبعد ثوانٍ كان كل الحاضرين يتغامزون ويتهايمسون : « أطلنطي . أطلنطي . » فقد كانوا يلقبون كل جاسوس لبريطانيا أو لأميركا بهذا اللفظ نسبة الى ميثاق الاطلنطي . وكان حسن مفتاح يعلم أن الكهل الأنيق الوقور لا يقرأ الصحيفة وإنما يتظاهر بقراءتها ، وأراد أن يكسر هذا الهدوء المؤقت واستبدت به شهوة قوية للعبث والعدوان لم تكن في طباعه فرفع صوته الى طبقة يسمعها أكثر الجالسين وقال : « لا انا اعتقد ان رئيس الوزراء اكبر حمار في تاريخ مصر الحديث » . وضحكت « جماعة البعث » وكانوا عشرة ضحكة زلزلت المكان حتى تحولت اليهم أبصار الجالسين جميعاً . أما الكهل الأنيق الوقور فلم تنصرف عيناه عن صحيفته .

وقرأ حسن مفتاح في ساعة ميدان الاسماعيلية أن الساعة أشرفت على السابعة ، فنهض واستأذن بالانصراف ولكنه لم ينصرف . وانصرفت الجماعة لتشهد الاجتماع فتسلل حسن مفتاح وراءها ، فقد أخافته الوحدة . ولأم نفسه لوماً قاسياً على عبثه وخفته : انه يضحك وجسد فوءاد منقربوس الآن عارٍ على المشرحة بروتزي يفوح بالفورمالين ، وقد مزق صدره وأحشاءه مبضع

الطبيب ، فكيف يغفر له فؤاد منقريوس هذه الاساءة ؟ انه متعب حقاً ولكن عودته الى البنسيون حماقة كبرى ، فكيف يواجه فؤاد منقريوس والليل لا يزال وليداً ؟ ألا تكفي وحشية الليل وظلمة الأحلام ؟ ثم انه جائع أو سيجوع حقاً بعد ساعات فليتحمّل على نفسه . فليشهد اذن الاجتماع مع الشاهدين لعل ضوضاء الحضور تملأ وعيه وتصرفه عن أحاديث نفسه .

وبلغ حسن مفتاح الجماعة وأبلغها أنه عدل عن تغييره ، ثم بلغ مع الجماعة الدار رقم ١٣ بشارع سليمان باشا حيث « نادى البعث » فوجد نفراً من المستمعين يبلغ المائة قد تجمهر خارج نطاق ضربه رجال البوليس حول البناء ، وقد اندس بينهم بعض البوابين وباعة اليانصيب ورجال البوليس السياسي والبكباشي الأشقر الجميل الرهيب الشركسي الأصل مرعي بك ذو التاريخ الحافل بالقسوة والتلفيق على رأس ضباطه ينهرون الأفندية بالغلظة والامرة والشرطة يهشونهم بالمصي هشاً خفيفاً . ورأى وكيلاً من وكلاء النيابة يتعاون مع آخرين على ختم باب النادي بالشمع الأحمر . فعلم حسن مفتاح أن يومه ينبغي أن ينتهي عند هذا الحد ، وانصرف متسللاً لا يلوي على شيء ، وتوغل في الشارع الفخم ، شارع سليمان باشا ، حتى بلغ ناصية شارع الملكة فريدة ، وهم بدخول بار صغير ولكنه تذكر أن نقوده لا تكفي لشراء شيء ورده ذلك من عالم المحسوسات ، فتذكر أنه لا بد أن يتغذى وأن يتعشى وأن يدخل اليوم التالي ، وتنبأ بأن وفاة فؤاد منقريوس سوف تعرضه لبعض النفقات ، والمصرف لا يفتح أبوابه الا صباح يوم الاثنين . فعد قروشه من جديد ووجدها سبعا ، فقرر أن يفتح مدام ماريكا صاحبة البنسيون في قرض صغير . واستوقف بائعاً من باعة السميد واشترى منه ثلاث بيضات ، ثم انطلق في شارع الملكة فريدة حتى بلغ رقم ٢٢ فحيتا البواب ودخل .

كان حسن مفتاح يجلس في مدخل البنسيون يدخن بلا انقطاع ، وقد انهكه السهر في الليلة الماضية ، وانهكته كثرة الحركة في الصباح ، فلما أن فرغ إلى نفسه نحو السادسة أحس بأنه كتلة من اللحم المتهدل ، فقد ارتخت أعصابه المشدودة طول النهار وصعد الانهاك إلى رأسه حمى ودواراً . كذلك ارتخت عضلاته المشدودة طول النهار ، وأخذت أشواك داخلية دفينسة تحزه في أكثر مواضع جسده ، وخاصة في فخذه ، وهي أوجاع لم يحس بها إلا بعد أن استراح .

انه لا يرغب في لقاء عابدة علم ، ولكنها سعت الى هذا اللقاء سعياً . ان حاله تلزمه بالاعتكاف أسبوعاً كاملاً لو أمكن ذلك ، ولكنه غير ممكن . إن ورق الحائط مزعج كله أزهار ألوانها فاقعة تلهب الحمى في رأسه والكراسي الأسيوطية الثلاثة التي وضعتها مدام ماريكا في المدخل ليستقبل نزلاًؤها اضيافهم فيه جوزية اللون لا تتفق مع البساط الفستقي أو المائدة الفستقية ، وكانت تتفاوت حجماً وكان الكرسي المجاور للحمام على أيمن المدخل أضخم من سواه . فاثاث المدخل قد ابتيع في مزاد ، في أكثر من مزاد . ثم إن رأس القديس نيقولا في موضعها كانت مصبوبة في المصيص البارز معلقة على الجدار قبالة ، وهو لم يعترض على وجودها وانما اعترض على رداء الصنعة . وإذا كانت مدام ماريكا قد أخلفت وعدّها وأبقت رأس القديس نيقولا في موضعها فليخفها بنفسه . وهذا أيضاً أمر لم يفهمه حسن مفتاح . ان مدام ماريكا وأخاها جورج كانا يعطفان على جماعة أيام ، فكيف يزنان البيت بالصلبان وبرسوم العذراء في

أوضاع مختلفة . ثم كيف تقبل عايده علم أن تزوره في البنسيون ؟ ان هذه أول مرة تقدم فيها على هذا الأمر الخطير ، وهو لم يحتج الى مجادلتها طويلا ، بل لم يحتج الى مجادلتها أصلا ، وقد تمت الدعوة والتفاصيل والقبول في دقيقة . فقد كان في المشرحة بصحبة اليوزباشي شحاته منقريوس الذي جاء مع ولده جورجي بقطار الفجر ، وقبل أن يدخل الحانوتي بالصندوق الفارغ ليملاه وجد حسن مفتاح دقائق يتصل فيها بعايده علم ليعتذر عن موعد الامس ، فسعى الى حانوت بدال قريب ، وطلب بالتليفون مدرسة النجاح الثانوية للبنات بهليوبوليس ، وشرح الأمر لعايده علم باقتضاب فسألته لقاء قريبا . ودعاها الى زيارته بـداره نحو الخامسة مساء فلم تثر اعتراضاً . ولم يعجب هو لذلك لحظتها فقد كانت في شغل عن العجب بما كان سيكون من أمر فؤاد منقريوس .

ولكنه الآن عاجب . ان هذه أول مرة تطلب فيها عايده علم لقاءه . وقد كانت في الماضي تنتظر دعوته دائما . فهاذا جدّا يا ترى ؟ ثم كيف تعرض عايده علم سمعتها للقليل والقال بزيارته في البنسيون ؟ لا بد أن في الأمر شيئا . لقد تعود منها الاحتياط الشديد ، فكانت ترفض لقاءه في لوك لأن زجاجة المكشوف يطل على الشارع المزدهم ويعرضها لأنظار المارة ، وكانت ترفض لقاءه في جروبي أو صولت أو نوادي القاهرة لأنها مطروقة تكثر فيها العيون . كانت تؤثر من الأماكن مستورها ، فتحتمي بصالونات المتروبوليتان وشبرد ومينا هاوس حيث لا يحتمل أن يراها من يعرفها .

نعم ، لا بد أن في الأمر شيئا . أو لعل عايده علم قد سئمت كل هذا التستر واعتزمت أن تتحدى التقاليد . ولو قد حدث ذلك لتمت في قلب حسن مفتاح الثورة الكبرى ، واندفع الى حبها اندفاع المجنون ، فما حال بينه وبين ذلك الا شكه في صلابتها . وهو ليس في حاجة الى شريكة في الحياة رخوة النفس تتهيب من ظلها ، فهو مكافح لا يجب الا المكافحين ، وهو مشرد يواجه المشاكل في صبحه والمساء ، فكيف يأنس الى انسان قد يشبط عزمه أو يكسده عليه أثقال الحياة . وقد كان حسن مفتاح يعلم أنه لو تورط في حب عايده علم لخرج زمامه

من يده ، ولجاز أن تفتت طبيعتها الرخوة طبيعته الصلبة ، وهو مقدم على نضال العمالة ، فلسوف يهرب من الميدان أو يتحطم تماماً ان هو تزوجها . وقد كانت عايدة علم في نظره نموذجاً أليماً للتوسط المرذول كما كانت في نظره نموذجاً جميلاً للتوسط المحبوب ، فهي نموذج في الانسانية كما هي في الواقع بكل ما فيها من قوة وضعف : هي جميلة ولكن بمقدار ، سمرتها من الفلاحين وعيناها الضيقتان من الترك القدامى . ولم يكن لاسنانها نظير في الوادي ، ولكن بقية ملامحها كانت مألوفا يرى حسن مفتاح نسخاً تشابهها في كل مكان ، وخاصة أمام مدارس البنات الكبار في ساعات الانصراف وأمام دور السينما وفي مجتمع المرضات بالقصر العيني ، وهو يوءثر الجمال الوحشي الذي لا يتكرر كثيراً .

ولكن حسن مفتاح كان راضياً بنصيبه مكتفياً به ، فقد كان يعلم ان مقامه بين الرجال لا يزيد كثيراً عن مقام عايدة علم بين النساء : فهو قصير أو أقرب الى القصر ، وهو نحيل ما في ذلك شك وهو خشن الملامح فأسنانه بها بروز قليل وعيناه الحادتان متمعتان بلا انقطاع رغم ما يخرج منها من بريق نفاذ ، ولا يزينه الا شعر ناعم مرسل جميل بلون الزيتون الاسود ، وصوت صافٍ مرسل جميل ورثها عن جدة له كردية . وقد كان على كل حال مرغماً على الاكتفاء بها بحكم قانون العرض والطلب . فقد كان يقول إن نصف البرجوازية المصرية ، نصفها الحلو ، سجين البيوت يطهي الطعام للنصف الآخر سجين القهاوي أو يرتقى له جواربه أو يقرأ المجلات المصورة مستلقياً على السرير أو يسترسل في أحلام يائسة محورها رجال لا سبيل الى الوصول اليهم . وما شذ عن ذلك فقليل ، الزمتهن ظروف الحياة أو سنن التقدم بالخروج الى الشوارع والنواصي والدواوين . وقد كان لذلك يعد نفسه موفقاً بين الرجال وان كان شقيماً بين المحبين . وهو شقي بين المحبين لانه لا يعلم ان كان يحب عايدة علم أو لا يحبها . فهو شديد الولع بها حقاً بحكم الألفة وحدها على اقل تقدير . بل هو شديد الولع بها لانتزاعها الكامل الموجه وانسانيتها القوية الضعيفة فهي تستطيع ان تبكي لمصاب صديق . وهي تستطيع ان تجود بقرش لسائل جوعان . وهي تستطيع ان تزور حديقة

الحيوان لتتنزه فيها . وهي تتحمس كلما رأت فيلماً أعجبها . وهي تخاف كلام الناس خوفاً صيبانياً . وهي تصدع بأوامر ابها مها كانت مجحفة ولا تفهم كيف يشور الأبناء على الآباء . وهي لا تتأخر عن الساعة الثامنة ان كانت بمفردها . وهي لا تفهم السياسة ولا تحب ان تفهمها . وهي تتمنى ان تتعلم الرقص ولكنها لا تجسر ان تفعل ذلك ، ولقد تكذب احياناً ، فان اطلال حسن مفتاح اليها للنظر ارتبكت واحترخداها واعترفت له بالحقيقة . وهي تشتهي ان تقبل ولكن تجزع مما وراء القبلات . وهي تقدر حسن مفتاح تقديراً لا مزيد عليه منذ ان اكتسحتها عبقريته ، ولكنها لا تفهمه ولا تفهم مراميه في الحياة ، بل هي تخافه في سريرتها لا كما تخاف المرأة الرجل ولكن كما يخاف الطفل شيطاناً دماً عجوزاً يود ان يستدرجه الى مواقع النخيل ليفتك به بين الأحراش . وهي تتوجع كلما رأت الصبية نائمين عند اركان الشوارع في ليالي يناير المثلثة ولكنها لا تفهم كيف يحيط حسن مفتاح نفسه اختياراً بكوكبة من الجواسيس اينما توجه لأنه يريد نقاذ هوءاء الصبية من برد يناير الموضع ، وهي تشور حين تمنح حضرة الناظرة نبات كرم حمدي وشريفة وحكمت المانسترلي المجانية الكاملة وهن من صاحبات نبا كارثم تطرد صفوة تلميذاتها سنية عوض وانجيل ابراهيم من الثانية اول وزكية المليجي وخديجة سطوحى ومريم سدراك ونبوية محروس من بقية سنوات لعدم سداد الرسوم ، وهي تشور حين تختلي بها حضرة الناظرة ابان لامتحانات لتدافع عن تلميذة شرسة بليدة وتطلب رفع درجاتها ، وهي تشور حين تدعو حضرة الناظرة التلميذات الناضجات الى جناحها في المدرسة وتسبع عليهن من حنانها شيئاً كثيراً وتقبلهن قبلة العانس التي لا زوج لها ولا ولد ، بل لقد ثارت عابدة علم ذات يوم ثورة كبرى حين تخطاها معالي الوزير في الترقية واختص بها سميرة حسن مدرسة الجغرافيا الفاسدة الخلق التي تدير صالوناً يتردد عليه مراقب التعليم ، ثم ثارت مرة أخرى حين تخطاها معالي الوزير في الترقية مرة أخرى واختص بها عنايات مبروك مدرسة الرياضة لأن مبروك أفندي موظف بوزارة التموين قد مؤن سعادة وكيل الوزارة بستة اطارات لسيارته

الجميلة ، واخيراً أظلمت الدنيا في عينيها حين تخطاها معالي الوزير في الترقية للمرة الثالثة واختص بها نازك سلطان بنت صديقه العزيز وابن بلدته ورفيقي صباه وجليسه الدائم حول موائد البوكر عبد المجيد بك سلطان . ولم تدر عائدة علم ايها أربح لها ، أن تبصق في وجه الناظرة فتفقد عملها أو ان تسلم الى الله امرها وتقنع بما كتب لها ، وقد تخيرت اسلم السيلين ، وهي الآن سعيدة في عملها لأنها لم تعد تضطرب لفصل البنات الفقيرات المجدات أو لمحاماة البنات المجدودات الكسالى أو لتقويل البنات الناضجات العزولوات أو لترقية الملمات الفاسدات الراشيات المقربات . فهي لا تفهم اذن كيف يضحي حسن مفتاح وظيفته في مصلحة العمل لقاء كتاب غنيف يفضح فيه « الاداة الحكومية » .

ولقد كان يمكنها ان تحبه حقاً لو انه كان اطول قليلاً مما هو في الواقع . ولقد كان يمكنها ان تأمن اليه وتسلم له مستقبلها ومستقبل اطفالها لو انه كان من اوساط الناس يرضى بحاله ويطمئن الى عمل ثابت ، ويتنكب عن كل ما يهدده في عيشه وامنه . ولكنه لا يفعل ذلك . انه الآن يحرق صحيفة « المساء » ولكن الى متى ؟ انه الآن حر طليق ، ولكن الى متى ؟ ثم انها لا تفهم بعض عواطفه ويخيل اليها احياناً انه ابليس صغير . وكيف تنسى يوم قص عليها نبأ وفاة صاحبه على النشترتي بالسكنة القلبية في قهوة بور فؤاد منذ عام او يزيد . لقد حمل النبأ في مرح شديد تصاحبه عبارات السخرية بصاحبه المتوفى ، وعندئذ بدت اسنانه البارزة اشد بروزاً مما هي كعادته كلما ضحك ساخراً . وخيل الى عائدة علم انها تجالس الشيطان ذاته ، ولم تكن تدري ان حسن مفتاح قد فجع في علي النشترتي فجميعه قصوى جعلته ينكلف الهزل حتى يتجنب البكاء . ثم ان حسن مفتاح لم ينس نفسه مرة واحدة ويقول . « انا احبك يا عائدة ، احبك من اعماق قلبي ولا ارى السعادة الا بجوارك » . انه لم يقل من ذلك شيئاً حتى ليلة ان عرض عليها الزواج . لقد عرض عليها الزواج بعد خروجه من المعتقل فوراً ، منذ ستة اشهر عرضه عليها في جو عابث ، بكلمات عابثة كأنه يعرض عليها الخروج الى نزهة خلوية او قبول هدية تافهة . نعم ، انها لا تذكر انه اهداها شيئاً في يوم من

الأيام كما يفعل المحبون للحبات ، وما كانت لتنتظر منه أمراً عظيماً ، فالوردة تكفي ، والكتاب يكفي ، والصورة تكفي ولو كانت صورته . ترى ما خطبه انها لا تفهم من طبيعته شيئاً . انها لا تنسى يوم ان لقيته بعد أن خرج من المعتقل مباشرة ، فلم يشر بشيء الى ما لقيه من كبت وحرمان في محبسه ولم يبدأ حديث الأشواق ، بل ذهب يلغو عابثاً يهزأ بنفسه وبها وبأهله وبأهلها وبكل ما عن" له ان يتحدث فيه كأنه كان في زيارة بعض أقربائه . أترأه بارد العواطف ؟ هذا لا يمكن أن يكون لانه شديد الحيوية . ومع ذلك فهو لا يشكو كما يشكو الناس ولا يتلهل كما يتلهل الناس ولا يغضب كما يغضب الناس ، ولعله يتألم ويفرح ويضطرب ويفعل كل ما يفعله الناس ولكنه لا يطلع أحداً على دخيلة نفسه . فهو أبداً في حال سوية . ولولا حيويته الفياضة التي تظهر في دعابته المتصلة وفي نشاطه المتواصل لما شكت قط في برود عواطفه . ثم انها لا تنسى يوم أن اختلى بها وسط الظلمة في شارع السباق بهليوبوليس وقبلها قبلة قوية صعدت الى رأسه والى رأسها فأصابها دوار . انها لم تره قط جاداً الا ليلة القبلة ، فقد تهدج صوته وتقطعت كلماته وخرج عن طوره فأرسل نفسه على سجيتها ، فيما ان خرجا الى النور حتى زال عنه وجومه ومضى يثرثر في كل موضوع بأسلوبه الساخر . ولكنها رغم ذلك كانت تثق فيه ، وتعلم ان وراء هزله وفاء نادراً وشهامة عظيمة وصدقاً لا تشوبه شائبة ، وربما سذاجة اقرب الى سذاجة الأطفال الأبرياء . وكلما فرغ اليها ومضى يحدثها عن آرائه في الحياة كان صوته المخلص القوي ينفذ الى قلبها ويملاً وجدانها ، فتنسى بقربه مدرسة البنات وتفاصيل الحياة الجزئية واكدار الحياة الخاصة ، وكانت تحس بضاً لتها الى جواره ، وتندمج في وجود كلي يستغرقها جملة ، فتقرر انها سوف تتزوجة مهما كانت العقبات ، ومهما تكن النتائج ، وتقرر انها سوف تقف حياتها على فهمه ثم اسعاده . ان عايده علم لم تكن تطلب من الحياة شيئاً كثيراً فلم لا تقنع بحسن مفتاح ؟

كذلك لم يكن حسن مفتاح يطلب من الحياة شيئاً كثيراً ، فلم لا يقنع بعايده علم ؟ ان الحب قد فاته يوم التقى في معرض من معارض الرسم بمونا ربيع

فوجدوها دوامة تضطرب بالعواطف الصاخبة ، ووجدوها متزوجة . وحسين
تجادلا نصف ساعة على تراس الكونتنتال في اصول المذهب التعكبي ادرك كل
منهما ان السهم قد نفذ ، فشهقت مونا ربيع واطرق حسن مفتاح وجاء عبيد
السلام بك ربيع يقتاد زوجته الى الكريسلس السوداء التي كانت تلمع بين التاكسيات
الزرقاء في ميدان الاوبرا . وقد كان ميسراً لحسن مفتاح ان يتواعد معها في
حضرة الزوج وفي غيبة الزوج ولكنه تكهن بمستقبل عاصف فلم يشيعها حتى
بنظراته . ان عايده علم رقيقة لالون لها ولا طعم ولا رائحة ، فافه كازواج
العظماء ، ولكنها رغم ذلك قد احتلت من قلبه الفارع ركناً عظيماً . انه لا
يحبها ولا يستطيع ان يحبها ذلك الحب الهمجي الجبار الذي يصرع الملوك ويهلك
الأبطال ويتلف الشعراء ويلوث صحائف التاريخ بالطح الحمراء ويجعل من عامة
النساء اماء ذاهلات ، ولكنه ليس بحاجة الى هذا الحب الهمجي الجبار ، وكفاه
من نار الغرام دفء المودة ، فلقد كان يهيء نفسه لاعمال جسام .

وهو الآن ينتظرها ، ينتظر عايده علم في المدخل بين الكراسي الاسطوانية
الثلاثة تحت رأس القديس نيقولا ، ومن حوله أرخص الأزهار تترى على ورق
الحائط . ولقد كان يحب أن يأوي إلى فراشه ليستريح من وعاء النهار لولا خوفه
من أن يستيقظ بعد منتصف الليل فيواجه الظلام بمفرده ، وتستبد به هواجس
الوحدة . انه بحاجة الى انيس غير مدام ماريكا فهي لا تؤنس احداً ، انيس غير
عايده علم ، فعايده علم تطلب انتباهه على أقل تقدير ، انيس غير فؤاد
منقربوس فهو ينشر العفن والجهاجم والبرودة اللاذعة اينما دب . وحسن مفتاح
المحطم الأعصاب يستعرض ما كان له في أمسه الحافل وفي ليله الحافل وفي نهاره
الحافل .

ان فؤاد منقربوس لم يزره في الليلة السابقة كما كان قد وعد . فكيف كان
ذلك ؟ لم يزره فؤاد منقربوس وانما زاره شخص آخر ، زاره الصاغ ممدوح
الشربيني الضابط بالقلم السياسي ، وفلش غرفته وفلش غرف الزلاء الآخرين في
غيبتهم رغم احتجاجات مدام ماريكا . وقد الف حسن مفتاح هذه الزيارات

من الصاغ ممدوح الشربيني فأنس اليه في غير اسراف ، كما الف الصاغ ممدوح الشربيني تفتيش حسن مفتاح حتى لقد كف عن اقتحام مسكنه في حماية الشرطة ، وامسى يكتفي بوضع شرطي مسلح عند الباب الخارجي .

وفي الليلة السابقة بالذات ارتاح حسن مفتاح لهذه الزيارة ايما ارتياح . فقد تملكته الهواجس والذكريات حين اختلى بنفسه في حجرته ، واغلق من ورائه بابها ، وحاول ان يقرأ صحف المساء فلم تعنه قراءتها بشيء ، ثم اطفأ النور وعالج النوم ساعة أو بعضها فازدحمت تحت جفنيه الصور المزعجة والصور المقبضة والصور المضطربة ، فأدرك أنه بحاجة الى رفيق ، واثار الغرفة وارتدى قميصه وبنطالونه وحذاءه وأوشك أن يخرج طلباً للرفيق في القهاوي ، أو يهيم على وجهه في الطرقات ولكنه عدل عن ذلك . وقرر أن يقضي سواد الليل جالساً على الكرسي الاسيوطي الضخم قرأ أو لم يقرأ ، نام أو لم ينام ، لأن الظلمة كانت توحي اليه بكل مكروه . فلما زاره الصاغ ممدوح الشربيني نحو منتصف الليل لم يتملح كما كان يفعل في أكثر الأحيان ، بل رحب به وانزله أحسن منزلة ، بل وأعطاه شيئاً من القهوة بأن معداً له من قبل ، فقد أحس بأن زيارة ممدوح الشربيني أروح على فؤاده من زيارة فؤاد منقربوس .

وحين انتهى الصاغ ممدوح الشربيني من مهمته هم بالانصراف فاستبقاه حسن مفتاح ليجادله في امر التفتيش ، واستكبر ان يطلعه على حاله ، واستبحى ان يشكو اليه موت صاحبه وخوفه من الوحدة ، فذهب يناقشه في دواعي التفتيش وفي مصير اصدقائه المعتقلين وفي سلطات الحاكم العسكري . وادرك الصاغ ممدوح الشربيني بفطنته ان حسن مفتاح يتعذب فسأله عما به فروى له ما كان باقتضاب . وعلم حسن مفتاح من الصاغ ممدوح الشربيني انه يبحث عن منشورات . او اصول منشورات ضد الملكية ، تم توزيعها بين رجال الطيران وبعض فصائل الجيش ، فوضح له حسن مفتاح مبتسماً انها لا بد مدسوسة على الشيوعيين ، دسها على الشيوعيين الاخوان المسلمون حتى يستضيفهم البوليس اسابيع قليلة الى ان تنتهي معركة الاجور في مصانع العنابر والترسانة ، او دسها حزب الوفد الذي

يضرر للملكية العداء ولا يحسر على المجاهرة به ، فاعترض الصاغ ممدوح الشربيني عينيه شيئاً ما وقال بتهكم : « كل جماعة تتهم غيرها . وماذا يمنع ان يكون لكل نصيب ؟ »

ولكن الحديث بينهما لم يقف عند هذا الحد ، لأن الصاغ ممدوح الشربيني كان يتعذب كذلك . وقد بدا له ان ينهض اكثر من مرة لينصرف ولكنه لم يفعل ، فقد خشي الا يستبقيه حسن مفتاح ، وهو ليس بأقل منه حاجة الى رفيق . فحياته في الايام الأخيرة جحيم لا يطاق زوجته الطيبة البدينة ذات الفم الواسع والكفل العريض تنام الآن في فيلا الشربيني بشارع الهرم ، تنام منذ الساعة التاسعة فهذا دأبها ، ولو عاد اليها الان لاستيقظت ، فهي تستيقظ كلما عاد اليها ، ولو استيقظت امت ما قد بدأت من جدل في الصباح وفي كل صباح حول صلتها المريبة بالسيدة اليهودية البدينة استر منشة زوج الخواجة منشة ، وهما من اهل الجيرة ، ولو امت ما قد بدأت من جدل في الصباح ايقظت حماته ، وهنا الويل ثم الويل : فحياته سوف تسأله عما فعل بأسورة ابنتها وكيف استبدل ارض الهرم بثملها في المعصرة دون ان يستشيرها وهي تملك منها نصفها . والصاغ ممدوح الشربيني يحب ان يهنا ساعات قليلة من النوم القريب قبل ان يسافر غداً الى طنطا ليتحرى بنفسه عن حوادث الشغب التي استجدت فيها ابان زيارة النحاس باشا زعيم المعارضة ورئيس حزب الأكثرية ، حزب الوفد ، فلقد رأى الشربيني في نهاره ما كفاه من بذاءة رئيسه الجديد ودس زملائه الذين ينفسون عليه مكانته الحصينة وثقة مدير الأمن العام به . فإذا لم يتأت النوم الهنيء فلا اقل من ان يتجنب مواقع الشجار . وفوق هذا وذاك كان الصاغ ممدوح الشربيني معذباً لأن عمله يجشمه ما لا يتحملة ضميره . فقد صدر اليه الأمر في الصباح بان الممول البير روزنشتاين والطبيبة سميرة خلوصي والميكانيكي زعيتري في قهوة وستمنستر ، ويقسم امام النيابة حائثاً بأنهم كانوا يحملون منشوراً يحض الناس على قلب نظام الحكم ، وهو يعلم ان هذا المنشور من فبركة القلم السياسي . لقد فعل كل ذلك لا خوفاً من رئيسه الجديد ولكن معالي وزير الداخلية قد وعده

برئاسة البعثة المنتدبة الى الحجاز لتنظيم قلم المخابرات السرية على غرار القلم السياسي المصري ، وقد بدا في حديثه القليل المنتقى انه يعلق الشيء بالشيء .

لقد فعل ممدوح الشربيني كل ذلك وهو الرجل المسلم الصادق الاسلام ، المسلم الذي قاوم اغراء استر منشة رغم حاجته اليها ، وان كان قد استعاض عنها بالحشيش لان الحشيش لم يرد في كلام السماء ما يحرمه . ثم ان الحشيش لم يكن يكلفه شيئاً لانه كان يتسرب اليه والى زملائه مما تصدره الحكومة . وقد كان وازعه الاوحد عن منكرات الحياة وهي جميلة ايمانه بالله وبالرسول . انه يقبل ان يتجسس على الوطنيين والأحرار فهذا جزء من عمله . انه يقبل ان يزجج الناس بزياراته في الهزيع الثالث من الليل ، فيدخل مخادع النساء وهن نصف عرايا ويمزق بالسونكي المراتب والوسائد كلما أمر بالتفتيش فهذا جزء من عمله . انه يقبل ان يكتب التقارير المزيفة وهو يعلم انها مزيفة فهذا جزء من عمله . انه يقبل ان يزور في الانتخابات وان يختطف الناخبين الموالين لاعداء الحكومة ويقصمهم في السجون أو نائي البقاع حتى يتم الانتخاب أو يحرمهم تذاكرهم الانتخابية أو يعذب المشاكسين منهم او يوزع الرشى بين العامة ، فهذا كله جزء من عمله . انه يقبل أن يقتل الوطنيين والاحرار اذا لزم الأمر وقد فعل ذلك بيده ، لا يجنوده يوم ملحمة كبري عباس ، فهذا جزء من عمله . انه يقبل أن يشتري ضمائر الطلبة في الجامعات وفي غير الجامعات ليتجسسوا على زملائهم ويفسد الجيل بعد الجيل .

كل هذا يقبل الصاغ ممدوح الشربيني أن يفعله لقاء اثنين وثلاثين جنيهاً في الشهر وتاج نحاسي على منكبيه . اما ان يطلب اليه ان يحلف زوراً فهذا ما يضطرب له ضميره . لكم ندم على فعلته اشد الندم حتى لقد زهد في غذائه حين جاء وقت الغداء . ان ركناً من اركان اسلامه قد هوى ، ولن ينقذه من عذاب الضمير الا ان تدركه رحمة الله ، فليصل وليستغفر وليصم وليحسن الى الفقراء كذلك اذا لزم الأمر . ولكن ما حيلته وقد اغراه معالي الوزير بإيفاده الى الحجاز ، وبعثة الحجاز عنده مفتاح الخلاص الابدي . فهي سوف تباعد بينه وبين حماه أولاً ، وهي سوف تباعد بينه وبين رئيسه الجديد ثانياً ، وهي سوف تنقذه من

محيط الدسائس الذي غرق فيه منذ ان انتقل من قسم الوايلي حتى اشرف على الأربعين، وترىحه من اقتحام بيوت الناس بعد منتصف الليل، ومن التلقيق بل ومن شهادة الزور . واهم من هذا وذلك فهي سوف تحل له ما يشتهي من أجساد النساء وان كان قد شبع من جسد المرأة . لقد قاوم إغراء استر منشة عاملاً كاملاً أي منذ أقامت مع الخواجة منشة في الفيلا المجاورة ، ولم ينه عنها الا مخافة الله وخفير المنطقة فهو من أقرباء زوجته الفقراء . كذلك قد صان نفسه عن بائعة اللبن الحساء الناضجة الشديدة السمرة وعن زوجة صديقه الصاغ احمد سيد احمد الذي اتلفه الميسر ومن عدد لا يحصى من البغايا وانصاف البغايا اللائي كانت الشرطة يجمعونه بهن كل ليلة ايام ان كان ضابطاً بقسم الوايلي . كل ذلك فعله صابراً ، ولكنه الان لم يعد يصبر . لسوف يمضي الى الحجاز ، سوف يخلص في عمله حتى ينال رضى العاهل ، وحين ينال رضا العاهل سوف يشد العاهل على يده ويقول : شكراً يا شربيني شكراً ، لقد وهبتك هذه الجارية الحبشية ، فاتق الله فيها . ولسوف يقطع دابر اللصوص ويعلم البدو النظام ، ويحسن الى فقراء المدينة ، ويصلح ما بين العشائر ، فيصطفيه العاهل ويطلق يده فيمن نبذ من الحرم، ويطلق يده فيمن كره من الرجال ، ويعمره بالقلادة بعد القلادة ، ويستشيريه في كل كبيرة وصغيرة . وعندئذ يتاح له ان يلعب الدور الخطير ، فيحمي العاهل من وكلاء الانجليز والامريكيين وسائر الكفار ، ويوطد لمصر بين الاعراب ، ولقد يتوسط في معاهدات تأتية بشريف الأوسمة . وعندئذ يبيع ارضه في المعصرة ويشترى بعض آبار البترول ، فلا يعود الى مصر من هذا الانتداب الا وقد استحق تقدير الوطن . فان لم ينل تقدير الوطن فكفاه ما نال من جوار ، فان لم ينل الجوارى فكفاه ما ناله من متعة وما اكتسب من اختبار ، فان لم ينل متعة ، ولم يكتسب اختباراً فكفاه انه استراح من حماه ومن الحكومة المصرية .

هذه كانت احلام الصاغ ممدوح الشربيني ، وقد كانت شبيهة باحلام الاطفال الكبار ، كان آخر كتاب قرأه في حياته « الف ليلة وليلة » . ولم يكن في طبيعته العملية وفي حياته المضنية أثر للخيال الا هذا الحلم الرشيدى المزركش ،

وقد أمسى دائم التفكير فيه في الايام الأخيرة . حتى وهو يجالس حسن مفتاح بين ازهار الحائط الفاقعة المؤذية والكراسي الاسيوطية والسجائر المتصلة كان يعلى نفسه بهذا الحلم الذي يوشك ان يتحقق ، لعله ينسى ما كان في الصباح من شهدة الزور . ومدام ماريكا تجيئها بالقهوة بعد القهوة ، وهي تهجب لهذا الرجل كيف لا ينصرف . والاونباشي المعجوز المنتظر بالباب الخارجي قرب عربة نوايس يشتد قلقه على سعادة البية فيصعد للاطمئنان ثم ينزل مطمئناً . والصاغ مدوح الشريبي يروي لحسن مفتاح تفاصيل مغامرته السعيدة في قابل الايام ، ويحدثه في اكتساب عن سروره العظيم بهذا التحول العظيم ، ولكنه يكتف عن شوقه الى الاماء حتى لا يزدريه . ويكتف عنه قصة اليمين الحائثة خشية ان تمشي جنبها بين الناس صحيفة « المساء » ، فيضيع منه غده الذهبي وحاضره الشقي جميعاً . وسقطت رأس القديس نيقولا فجأة من مكانها على الحائط وتحطم المصيص عن البساط الفستقي ، فانقطع الحديث . وتبادل حسن مفتاح والصاغ مدوح شريبي نظرة طويلة ذات مغزى : فعزاها ان هنا يحسن السكوت . وهكذا صرف الصاغ مدوح الشريبي وهو يفكر فيما تقدم من أمره وما تأخر .

وادر ك حسن مفتاح بفطنته ان الصاغ مدوح الشريبي يتعذب ، كما ادرك صاغ مدوح الشريبي بفطنته ان حسن مفتاح يتعذب . وادر ك ان عذابه ليس عذاب الخفيف المألوف الذي ينسحب على سنوات بل العذاب العنيف المجتمع في زمة قائمة تهمر النفس وتطيش الحلم . فثيابه مهمة وهو ما رآه الا آية في الاناقة ، وظافره متسخة بعض الشيء . وهو نموذج النظافة ، وقامته الفارغة متهدلة على كتفيه العريضين اللذين لم ينسيا قط تعاليم مدرسة البوليس ، وعيناه البراقتان قد انطفاأت وانكسرتا وتورمتا في وجهه الاحمر الطويل الخليق . ولكن كيف يتعذب مثل هذا الرجل ؟ انما يتعذب صاحب الضمير . ولقد ظن حسن مفتاح ان الصاغ مدوح الشريبي ذا الجسد الصلب والكبد الصلب رجل بلا ضمير . كيف يتعذب الصاغ مدوح الشريبي وهو الذي فتح في باب الغش فتحاً مبيهاً وقت ان انتدبته الحكومة للاشراف على انتخابات دائرة الخليفة حين خلا

مقعدها في الشيوخ بوفاة الالفى بك . لقد جرت العادة ان يخط البوليس على ثياب الناخبين الموالين للوفد علامات بالطباشير لتمييزهم ثم اقصائهم ، ولكن اليوزباشي ممدوح الشربيني تولى بشخصه طبع تذاكر الانتخاب ، وبعد ان طبع ما يكفي لانجاح مرشح الحكومة زعم ان عدته من الورق الابيض قد نفذت وطبع البقية الباقية على ورق احمر . ولم يفتن الناخبون الى هذه الحيلة فقصدوا الى الصناديق غافلين . وكلما تقدم صاحب ورقة حمراء ابعد البوليس بالمكره أو ساقه الى صف البوكسفورد المنتظر في منعطف قريب ، ولولا هذه الحيلة لما غدا اليوزباشي ممدوح الشربيني الصاغ ممدوح الشربيني . فكيف يتعذب مثل هذا الرجل ؟

لقد شك الصاغ ممدوح الشربيني الى حسن مفتاح ضالة مرتبه ، كما شك له عمله المرهق . ولكن غيظه الأكبر كان من اليوزباشي حسان الذي كلفه سعادة المدير بتدبير المظاهرة العدائية في طنطا يوم زيارة النحاس باشا لهذه المدينة ، فقد تقاضى اليوزباشي حسان عنها من الأموال السرية الف جنيه عدداً ونقداً ، وقد كان في مقدوره هو أن يدبرها بمائتين . ان الهتافين لم يزيدوا عن العشرين ، وأجرهم معروف ، فهو جنيهان عن كل رأس ، وان المتظاهرين لم يزيدوا عن خمسمائة ، وأجرهم معروف ، فهو عشرين قرشاً عن كل رأس ، فالجموع الكلي اذن مائة واربعون جنيهأ تضاف اليها ستون اخرى للمواصلات وللإعلام وللمنشورات وغير ذلك من المصروفات النثرية ، فالعملية كلها لا تزيد بحال عن مائتي جنيه . ولكن قوائم اليوزباشي حسان كانت كالآتي : ٣؛ هاتفاً ٥٠ جنيهات حاصلها ٢١٥ جنيهاً + ١١٢٠ مظاهراً ٥٠ قرشاً حاصلها ٥٦٠ جنيهاً + ٨٣ جنيهأ ٧٤ قرشاً عن المواصلات (السكة الحديدية ولوريات وتاكسيات) + ١٨ جنيهأ و ١٠ قرشاً للمطبوعات (رقاع دعوة ومنشورات) + ٥٠ جنيهأ هي تعويض لأهل الشهيد عبد العزيز محمد الذي قتله المشاغبون من أنصار الوفد (لما كان الشهيد المذكور من أبناء الشعب الحقيقيين فهو بغير عنوان) + ١٠ جنيهات ، نفقات الجناز (أما ثمن الكفن فقد دفعه اليوزباشي

من ماله الخاص صدقة على روح الفقيد) فيكون المجموع الكلي بذلك ٩٣٧
جنيهاً و ١٤ قرشاً بالتمام والكمال تقاضاها اليوزباشي حسان لقاء مظاهرة لم تكلفه
أكثر من مائتي جنيه . اهكذا تبعث أموال الشعب يا أستاذ مفتاح ؟ ان لدافع
ضرائب حقوقاً يا أستاذ مفتاح . ان البلاد سائرة الى الخراب يا أستاذ مفتاح .
ثم ماذا يبرر أن تطلق يد الأبله حسان في أموال الدولة ؟ لا شيء . لا شيء الا
أنه صهر اخي الرئيس الجديد . لقد كان تدبير المظاهرات يوكل اليّ في الماضي ،
و كنت اتقى الله في اموال المسلمين (بعد استثناء فيلا الشربيني وثمنها نحو ثلاثة
آلاف جنيه و اراضي البناء في غمره والمعصرة وثمنها سبعة اخرى) حتى جاء هذا
الرئيس الجديد فنشر في المكتب الفوضى والدسائس والمحسوبية . لقد كدت
اؤمن بمذهبيكم جماعة الشيوعيين . وهم حسن مفتاح ان يعترض كما كان يفعل دائماً
امام البوليس بان جماعتهم جماعة اشتراكية لا جماعة شيوعية ، ولكن احزانه
غلبته فابتسم مظهراً العطف مضمراً السخرية وسكت . وكان يعلم ان الصاغ
مددوح الشربيني صادق فيما يقول ، فهو لم يختلس من اموال المسلمين شيئاً ، وكل
ما اختلسه في الماضي كان من حصة الأجانب والأقباط في ميزانية الدولة .
كذلك حدثه الصاغ مددوح الشربيني عن مرض ولده سليم وعن سيره في الدراسة
كما حدثه عن أرض المعصرة وما ينتظره من ورائها بعد كهربية خط حلوان . كل
هذا تحدث فيه الصاغ مددوح الشربيني قبل أن يترك سجاثره لحسن مفتاح
وينصرف حوالي الساعة الثالثة صباحاً من ٢٢ شارع الملكة فريدة .

فقد دقت ساعة البريد الثالثة بعد انصرافه مباشرة . وكان في وسع حسن
مفتاح ان ينام بعد انصرافه ولكنه خشى الا يستيقظ الا بعد الظهيرة فامتنع عن
النوم وانشأ يفكر فيما كان . ولم يدر ايغض الصاغ مددوح الشربيني ام يرثي
لحاله ، فهو لم يره قط أبأس منه الليلة ، فلا شك ان شيئاً ما قد حدث فزلزل
كيانه ، ولعله شيء يتعلق برئيسه الجديد . ولكن ما قاله الصاغ مددوح الشربيني
لم يكن فيه ما يدعوا الى كل هذا اليأس الذي برح به فبدا كالكلب المزجور واطفاً
بصره القوي المتحدي وجعله كالذاهل المصدوم . ان المسكين يمزقه صراع داخلي

لا عهد له به . أترأه عذاب الضمير ؟ أترأه يندم ندم يهوذا ؟ انه يتحدث عن الحجاز حديثه عن ارض الميعاد . ولا شك انه رجل متدين صادق الاسلام ولكن من كان في مثل فطنته لا يذهب احلامه بيده ، ولا يهذي بهذه الترهات كأنه ارتد الى طفولته من جديد . ومنها يكن من شيء فقد استعان حسن مفتاح بممدوح الشربيني على الليل واشباحه ، وحين شقق الفجر وبدأت موتوسيكلات الجيش البريطاني تققع في شارع سليمان باشا كان حسن مفتاح تحت الدوش يتأهب لغبار اليوم ، فقد كان يعلم انه سيخرج الى رحلة طويلة في عالم الاموات . في الثامنة يخرج الى المشرحة . في التاسعة يصل اليوزباشي شحاته منقريوس وولده جورجى وابراهيم نور الدين وربما جاء آخرون كذلك . ربما جاءت زكية حنين لتشق الثياب وتعفر وجهها بالتراب . وربما جاء حنين افندي وزملاؤه الاقربون في المكتب . ثم ينطلق نفر منهم الى وزارة التموين ليحصل على اذن بكفن ويخرجوا الى قماش ليبتاعوا الكفن وينطلق نفر آخر الى الحانوتى ليبتاعوا الصندوق المطلوب ثم يستأجروا التاكسي الذي تنقل فيه الجثة الى الفيوم ومنها الى اطسا ، لان آل منقريوس من الريف وينبغي ان يعودوا الى الريف . ثم ينطلق منهم من يشاء ليشهد مراسيم الدفن ويعود منهم من يشاء الى القاهرة بالقطار في ذات اليوم ، وحسن مفتاح من العائدين .

كل هذا تم طبقاً للخطة الموضوعة ، غير ان حسن مفتاح حين بلغ رمال الصحراء الشرقية واشرف من كثبانها الحمراء على المشرحة بعد الثامنة بقليل لمح بابها اليوزباشي شحاته منقريوس وولده جورجى ملتصقاً به متعلقاً بذراعه ، وقد علم بعد ذلك انها ينتظران هنالك منذ السادسة . كذلك وجد المرض الاعور ذا الطاقية البيضاء المتسخة والثياب البيضاء القذرة ورأى عينه المبصرة ثابتة تبرق كأنها عين من زجاج . وبعد قليل فتح المرض الباب واذا بابراهيم نور الدين بينهم فجأة .

وكان المرض شديد التأثير للمصاب ففتح قاعة المشرحة ودعاهم لوداع الميت قبل ان يجيء الطبيب المتعطر فيحول دون ذلك او يجيء المرض الآخر

فيشي به لدى الطبيب . اما ابراهيم نور الدين فقد جفل ولم يدخل ، بل ابتعد
في ركن الفناء وفي يده جورجي الصغير . ودخل الممرض ، ومن بعده اليوزباشي
شحاته منقريوس ثم حسن مفتاح ، فأصابها دوار لكثرة ما في المشرحة من
فورمالين . وحين اضاء الممرض النور الكهربائي تجدد فيها الدوار ، فقد وجدا
القاعة متراصة عالية السقف ، جدرانها شهباء ، ووجدوا في القاعة ستة عشر
حوضاً تحت النوافذ الرمادية المعلقة ، وبطول الجدران الشهباء ، وفي وسط
القاعة ، منها ستة بها جثث تسبح في الفورمالين وعشرة خاوية . ولم يكن يسيراً
لتمييز بين هذه الجثث فكلها عارية وكلها متصلبة وكلها بلون البرونز المشرب
بالبنفسج ، لولا ان واحدة منها كانت لغلام صغير فرمه الترام واخرى كانت
لامرأة . اما الباقيون فقد كانوا سواسية في الموت .

ووقف الممرض يحثه ما وانشأ يرثيها ، ولكن اليوزباشي شحاته منقريوس
نصرف عنه وذهب يبحث عن جثة ولده بشخصه حتى اهتدى اليها . فقد كان
فؤاد منقريوس الحليق الوحيد بين سكان المشرحة ، وكان يحمل في يمينه خاتم
خطوبة ، وكان في اذنه قضم صغير ، وبكى الاب في صمت فلم يدر احد انه
يبكي .

ووقف حسن مفتاح من ورائه بعد ان رأى ما رأى وهو لا يقوى على رفع
بصره من جديد ، فذهب يتأمل المربعات الكبيرة المنسوجة في ظهر سترة
نيوزباشي شحاته منقريوس المدنية ويمعجج لذوقه السقيم في اختيار الاقمشة .
وشك لولا حرمة الموت ومرارة الموقف ان يضحك لمراى الممرض الواقف
بخوار الجثة الاخرى ، وقد توقف عن الترحم حين ادرك انها لم تكن الجثة
منصودة ، ولم يبدُ عليه أي ارتباك فقد تعود امثال هذه المواقف ، ولكنه
وقف ثابتاً في مكانه لا يعرف ما خطوته التالية لان الزائرين لم يكونوا من اولاد
نبله الذين يفهمونه بل كانوا من الافندية .

وخرج اليوزباشي شحاته منقريوس وخرج معه حسن مفتاح ، واتجه الممرض
نحو الجثة بقدم مترددة . ولمعت عينه الزجاجية الثابتة اكثر من ذي قبل . وحين

فجمع فيها الضوء الكهربائي توهجت كأنها ماسة في بطنها حجر اسود . وحين
 اوشك ان يبلغ الجثة ناداه اليوزباشي شحاته منقوريوس برفق فلبى النداء وفي
 عينه الغيظ واليأس معاً . فهو لم ينزع الحزام من اصبع فؤاد منقوريوس ليلة
 الامس معوّلأ على الصباح الباكر ، ولكن هؤلاء الافندية الملاعين قد بكرؤا
 بالحضور فافسدوا عليه خطته . والاصبع منتفخ فنزع الحاتم يحتاج الى ربع ساعة
 ان لم يلجأ الى بتر الاصبع ، وهو لا يستطيع فلا بد أن يجيب النداء حتى لا يثير
 الشبهات . واليوزباشي شحاته منقوريوس ماكر وحازم معاً ، وهو قبل هذا وذاك
 من الجيل القديم ، فهو لا يتمجب لألا عيب المرض ولا يتفجع لها بل يتوقعها
 ويحسب حسابها ويعرف السبيل الى ابطائها . بل هو فوق هذا كله لم يكن الا
 نقرأ في البوليس ثم ارتقى فهو من أبناء الشعب وهو يفهم أساليب ابناء الشعب .
 لذلك لم يثر حين ادرك مراد المرض ولذلك ناداه برفق ، ولذلك اجاب المرض
 النداء في غير تردد . وانتهى الموضوع وكأنه لم يكن ، والساعة لا تزال النصف
 بعد الثامنة . واعلن المرض أن سعادة الدكتور لا يحضر الا بعد العاشرة ، ولقد
 يتأخر الى الظهر اذا خسر في البوكر كثيراً ، اعلن انه قد تعود أن يوقع على
 الشهادات والتصريحات في غيبة سعادة البيه ، فإذا كانت جماعتهم في عجلة فهو
 في خدمتهم . ولكنه لم ينبشهم ان اطلاق يده في تصريحات الاكفان قد عاد عليه
 ببيت صغير في بركة الرطل اشتراه باسم زوجته المولدة الحاجة نبيهة ، كما عاد على
 كاتب التموين الذي يمون عملاءه بالبقعة اثواباً ليبيعها المرض في السوق السوداء ،
 عاد على الكاتب بمصاغ لزوجته تربو قيمته على خمسية جنيه . كذلك لم ينبشهم
 بأن احصاء موثى المشرحة بمدينة القاهرة قد ارتفع في عام واحد من ١٥٣٢ الى
 ٤٧٥٠ كلهم قتلى لا وجود لهم في حوادث لم تقع الا في اوراق المرض . وكان
 اليوزباشي شحاته منقوريوس يعلم بخبرته ان المرض يدلي بمعلومات صحيحة ، وان
 استخراج شهادة الوفاة والتصريح بالدفن والاذن بالكفن ووزارة التموين والقهاشين
 وباعة الصناديق ومتعهدي النقل ، كل ذلك يقتضي وقتاً طويلاً فلم يثر اعتراضاً ،
 وحين نفخ المرض بريال لم يشمئز المرض كعادته مع الفقراء بل شكر . وفي

الساعة التاسعة كان اليوزباشي شحاته منقربوس يجوب طرقات القاهرة في تناكسي ، وما ان بلغت الساعة العاشرة والنصف حتى كان في المشرحة قد فرغ من آخر اجراء ، وهو دق المسامير .

وتحركت سيارة الموتى كبيرة وسوداء ، وكانت لموتى المسلمين ، لأن اليوزباشي شحاته منقربوس لم يجد لولده سيارة تحمل الصلبان وصور الملائكة وآيات الانجيل ، فلم ينزعج لهذا الأمر لأن فطرته العملية كانت لا تجحد فرقا كبيرا بين زورق اوزيريس وزورق آمون . وانطلقت السيارة في الشوارع تقول جوانبها للجالسين في القهواني : « يا ايها النفس المطمئنة عودي الى ربك راضية مرضية » ، ولم يكن بها غير فؤاد منقربوس ، واليوزباشي شحاته منقربوس وقد تسرى البياض في شاربهِ الاصفر الكبير سريانا ، والصغير جورجي تفيض دموعه انهاراً وحسن مفتاح وابراهيم نور الدين . اما زكية حنين فلم تأت ولم تشق الجيوب ولم تغفر وجهها بالتراب . كذلك لم يأت حنين أفندي وزملاؤه في المكتب . وارتاح حسن مفتاح لهذه النهاية ، فقد احس بأن اقرباء الميت وحدهم يشيعونه الى مقبره الاخير ، بل احس بأن اليوزباشي شحاته منقربوس وجورجي الصغير لا مكان لهما في هذا الموكب الخاص ، لأنها ليسا من اقارب فؤاد منقربوس ، فأسرة فؤاد منقربوس تتألف من ثلاثة اشخاص لا سواهم كانوا جميعاً يتناجون على الحشيش اليابس في الفناء الخلفي بمدرسة المنيا الثانوية منذ عشر سنوات ، وهم فؤاد منقربوس وحسن مفتاح وابراهيم نور الدين ، وهم الآن قد اجتمعوا ليتناجوا كما كانوا يتناجون في القديم ، وهم الآن يتناجون لآخر مرة وقد كان ينبغي ان يتركوا وشأنهم . ولكنه رغم ذلك سر لوجود اليوزباشي شحاته منقربوس ، فلولا له لما تيسرت له العودة في المساء ليحافظ على مواعده مع عابدة علم . ثم ان صاحب الشأن يحل المشكلات غير محاسب . فمثلا قد استحال العثور على تاكسي يرضى ان يسافر بالجثة الى الفيوم ، بعد ان تبين ان سيارات جمعية الرحمة القبطية تشتغل جميعاً بنقل الموتى الاقباط في القاهرة ولن تفرغ احداها الا قرب المغرب . فلما تعقد الامر لم يتردد اليوزباشي

شحاته منقريوس في استئجار سيارة من سيارات المسلمين . ولو ان الامر كان بيد حسن مفتاح لتورط في اشكال فني لم يدرك كيف الخروج منه ، لان نقل النصارى في عربات المسلمين قد يأذي النصارى والمسلمين جميعاً .

كل ذلك كان حسن مفتاح يفكر فيه وهو في مدخل البنيون ينتظر عايده علم بين الكراسي الاسيوطية والمائدة الفستقية والبساط الفستقي والازهار الفاقعة على ورق الحائط . واكثر من ذلك فكر في النسوة الفلاحات واشباه الفلاحات اللاتي خرجن الى الكوبري الصغير القريب من اطسا - فيوم سود الثياب طويلاتها حافيات الأقدام مكشوفات الوجوه محلولات الشعور معولات عويلاً فتت قلبه تفتيتاً وهو داخل السيارة وافهمه انه قد بلغ خاتمة المطاف . فلما خرج من السيارة اشتد دق الصدور واشتركت فيه البنات الصغار ذوات الجلايب القذرة الملوثة . ولما خرج فؤاد منقريوس سقطت امرأة مغشياً عليها (امه) وسقطت فتاة من فرط الضنى والاعياء (اخته) على أرض بعضها طين وبعضها رمل وبعضها احجار صغيرة ، وقال فلاحون مسلمون لا اله الا الله . لا اله الا الله . ولكن كل هذا بعد الصلاة ، والصلاة لم تكن في اطسا انما كانت في الفيوم ، ولم تكن في الكنيسة علانية وانما في الكنيسة خلصة ، فقد ساوم ابونا اثناسيوس قمص الفيوم اليوزباشي شحاته منقريوس على بيوت الله ولكنه يرضى المنتحرين كفار لا يصلي القساوسة على ارواحهم في بيوت الله ولكنه يرضى باستثناء ولده بعد الاحتياط اللازم وفاء منه للجوار الطويل لو ان اليوزباشي شحاته منقريوس قدر هذه المجازفة واعطى « الكنيسة » عشرين جنيتها . ولم يقاوم اليوزباشي شحاته منقريوس طويلاً ، فقد كان لا يفهم كثيراً في أمور الروح ، وهو حقاً رجل متين البنيان متين الاعصاب رفعته متانتة وحدها من تحت السلاح الى مصاف الضباط الملحوظين ، ولكن أربعاً وعشرين ساعة من الفجعة والتنقل المتواصل والتوتر الذي لا قبل لبشر به قد هدمه تماماً ففدا يسلم على طول الخط ، ولو أن ابانا اثناسيوس قد طلب اليه قميصه لنزل له عنه .

وحسن مفتاح لا يستطيع ان يلقي عايده علم بكل هذه الأكدار في وجدانه فلا بد له اذن ان ينصرف جملة عن هذه الذكريات وان يجدد نفسه استعداداً للشيء الوحيد المحتمل في حياته . وحين دقت عايده علم الجرس بعد اربعين دقيقة من موعدها استقبلها حسن مفتاح مبتسماً أشد الابتسام وأمسك بيدها وقبلها عابثاً وشدها وراءه الى المدخل حيث كانت مدام ماريكا ترفع جهاز التليفون وتضع الشاي على المائدة الفستقية الصغيرة، وهو شاي بلا لبن ولا كعك. وأخذ يلغو عن رأس القديس نيقولا الذي سقط وتهشم ، ويلغو عن المسكينة مدام ماريكا التي تزوجت لثلاثين عاماً خلت فرّاز اقطان توفي بعد شهر من الزفاف فعاشت مدام ماريكا من بعده في عفة مؤلمة ، تغزل البلوفرات في انتظار زوج جديد ، ويلغو عن البنسيون وكيف انه لا يدر على صاحبه اكثر من عشرة جنيهات شهرياً ، فهدام ماريكا امرأة شريفة عجز الضباط الانجليز عن اغرائها بالاجر المضاعف ، فهي تعلم ان الضباط الانجليز اذا سكنوا بيتاً تحولت الى ماخور كما حدث في بنسيون السيدة خرسيتينا بالطابق الاعلى . وهي تقول اخاها جورج وهو في الاربعين لان ضعف القلب أعجزه عن الكسب، ومن هنا جاء عطفها على جباة ايام . وقد كانت تعلم مباديء حسن مفتاح شيئاً كثيراً فكانت تسأله كلما فرغ اليها نصف ساعة يحدثها في مدخل البنسيون ، كانت تسأله بسذاجة دونها سذاجة الاطفال : « امتى الروس راخ تيجي هنا يا مسيو مفتاخ » ، فيضحك ويجيب : « بعد عشرين سنة . » فتقول مدام ماريكا : « يكون انا مات ، يا مسيو مفتاخ ، يكون انا مات » . وكثيراً ما كان حسن مفتاح يدخل المطبخ فيجد مدام ماريكا جالسة الى جوار الثلاجة تبكي احزانها كثيرة . كذلك ذهب حسن مفتاح يلغو عن زيارة الصاغ ممدوح الشريبي واعرب لعايده علم عن رثائه لحاله ، فهو يتعذب ، وعن خوفه منه ، ففي كل مرة يتردد على البنسيون للتفتيش يقوم حسن مفتاح بعد انصرافه فوراً يبحث دقيق في المدخل وفي غرفته خشية ان يكون الصاغ ممدوح الشريبي قد ترك وراءه قطعة من الحشيش أو نسخة من منشور ثوري أعد في القلم السياسي بقصد

ضبطها فيما بعد في بيوت المضطهدين .

كل ذلك قاله حسن مفتاح لعابدة . علم حتى يتجنب الحديث عن فؤاد منقريوس . وهي تستمع الى لغوه ودعاياته الخفيفة ، ولا تدري اتوقفه عند هذا الحد أم تتركه يسترسل فقد كانت تعلم أن فؤاد منقريوس من اخلص خلصائه ، وهي لا تفهم كيف لا يشير حسن مفتاح الى موته بكلمة . وتجدد فيها خوفها منه . ولكنها آثرت الا تفتح باصابعها جراحه فتركنه يهذي على هذا النسق حتى اذا ما جاء ذكر الصاغ ممدوح الشربيني بدا عليها قلق واضح . ولمح حسن مفتاح هذا القلق في عيניה فسكت ، وانتظر منها ان تتكلم فلم تتكلم ، فعاد الى هذره يقول :

— اتعرفينه ؟ لا بد ان أقدمه اليك . نعم لا بد ان أقدم اليك كل اصحابي . لقد صرنا ، ممدوح الشربيني وانا ، من اخلص الاصدقاء ، واعتقد انه لن يتركني حتى يضع يدي في الحديد . ولكن ممدوح الشربيني لا يزورني الا بعد منتصف الليل ، واعتقد ان عبد السلام بك علم ان يسمح لك بالسهر حتى الفجر . المهم ، اذا شئت زرناه معاً في مكتبه في الأسبوع القادم . سوف احمل اليه أي شيء ، قفازاً قديماً ، عصاً ، منديلاً ، سوف احمل اليه أي شيء وازعم أنه نسيه في داري . ياله من رجل مسكين . انه شقي في بيته ، شقي في عمله ، شقي في ضميره . انه راحل الى الحجاز لينسي متاعب مصر . هكذا يقول .

ولكن عابدة علم رأت ان تضع حداً لهذا التوتر الخفي وأن تستبدله بتوتر صريح ، فقالت :

— كلا . أشكرك ، فأنا أعرفه .

— اتعرفينه حقاً ؟ كيف ؟ هل شرفكم بزيارته ؟

— نعم شرفنا بزيارته .

وبدا الجد على وجه حسن مفتاح لأول مرة . فقد كان يحس احساساً باطنياً بأن في حياته عاصفة منذرة . ترى هل لمحى عابدة علم في البنسيون صلة بممدوح

شربيني؟ ولكن لا . ان ممدوح الشربيني لم يفه بكلمة واحدة ثدل على علمه .
وجود عايذة علم في حياة حسن مفتاح . قال حسن مفتاح :

آسف أشد الأسف يا عايذة . لا بد اني سببت لكم متاعب كثيرة . آسف .
آسف . ايعرف ممدوح الشربيني أباك؟

- كلا .

- لم زاركم اذن؟ أزاركم من تلقاء نفسه؟ متى زاركم؟

- في الاسبوع الماضي . الثلاثاء . ليلاً .

- للتفتيش؟

- كلا . لتقديم النصيحة . ففي الساعة الثامنة جاء ضابط طويل القامة
شقر الشعر احمر الوجه كبير الانف حسن الهندام . فاهم؟ وسأل عن ابي
فأدخلته غرفة الاستقبال . وفيما هو يدخل ابتسم وقال : عايذة؟ اليس كذلك؟
قلت : « نعم » . فاهم؟ وعجبت اشد العجب لاني لم أرَ هذا الرجل من قبل .
قلت لعله من اصدقاء ابي . فاهم؟ وحين دخل ابي عجبت كذلك لرؤيته . فاهم؟
قلت لعله رجل جاء ليخطبني للزواج ، فقد زارنا منذ عامين رجل لا نعرفه ثم
تبين بعد ذلك انه جاء ليخطبني . وجلست على السرير أفكر ، وبعد خمس
دقائق جاء ابي وناداني لاشتراك معها في الحديث . فاهم؟ ولما دخلت فاهم؟ قال
ابي : « هذا ممدوح بك الشربيني الضابط في القلم السياسي ، قد جاء ليحدثك
في موضوع ما » . قلت : « افندم » . قال : « نحن نعلم يا مدموزيل انك
مخطوبة لحسن افندي مفتاح » . قلت : « نحن لا نزال في مرحلة الكلام ، وانا
لم اخطب بعد رسمياً » . فأجاب : « على كل حال نحن نفكر في مصلحتك وفي
مستقبلك ، ونحن نعلم انك آنسة طيبة ومتعلمة ولا نحب ان يمسك ادنى
سوء » . فاهم؟ لهذا جئت لأخبرك ان وكيل الداخلية أقسم بشرفه منذ عشرة
ايام أن يطهر البلاد من الشيوعيين » فاهم؟ « وانت تعرفين بالطبع ان حسن

افندي مفتاح في رأس القائمة، وأؤكد لك انه اذا دخل هذه المرة فلن يخرج قبل عشر سنوات، ومن يدري فقد يحكم عليه بالسجن المؤبد، فنحن نعلم انهم يتآمرون الآن لقلب نظام الحكم، وانت تعرفين أن في البلد دستوراً وان وظيفتنا هي المحافظة على الدستور...» قلت: «وخلاصة الأمر، ماذا تريد؟» قال: «يؤلمني جداً يا آنسة أن اتدخل في شئونك الخاصة، لكن من المحزن. فاهم؟ من المحزن ان آنسة متعملة مثلك تحطم حياتها من أجل أفئاق كحسن مفتاح». فوقفت وقلت: «إن حسن مفتاح ليس آفاقاً. ان ظفر حسن مفتاح أحسن من القلم السياسي وكل من فيه». وكنت ارتجف. كنت ارتجف يا حسن. وبعد وبعد ان قلت ذلك ندمت على تهوري. فاهم؟ ولكن الغريب ان الضابط لم يغضب، بل ضحك وقال: «هذا جائر يا آنسة. لكن هدئي أعصابك. ارجوك ان تجلسي. انا أقصد أن هذا الزواج خطر عليك فاعدلي عنه، ونحن نفكر في مصلحتك وحدها». جلست وقلت: «انا أعرف منكم بمصلحتي ولست بحاجة الى من يدلني عليها، ثم ان هذه امور خاصة ليس لأحد أن يتدخل فيها». قال: «على كل حال فكري في الموضوع». قلت: «انا فكرت وانتهيت من التفكير». قال، فاهم؟ «لكن هذه ليست رغبة السيد الوالد». قلت: «قلت ان ابي لا يوافق على هذا الزواج ولكنه لا يعترض على تصرفاتي الشخصية فكيف يجوز لغريب مثلك ان يهددني». وكان الرجل بارداً كأنه لوح من الثلج. انا لا أعرف من أين لهم هذه الأعصاب يا حسن. المهم. قال: «بردون يا مدموزيل. انا لا اهدد. انا انصح». قلت: «على كل حال اشكرك على النصيحة، وانا لست بالقاصر فانا أقدر جميع اعماله». فنظر الى أبي كأنه يستنجد به. فاهم؟ فقال ابي: «انا أجد كلامه معقولاً يا عايذة. افرضي انك تزوجت منه بعد ستة اشهر ثم حكم عليه بعد ذلك بالحبس عدة سنوات، فماذا يكون الحال؟». فلما رأيت ابي ينتصر له ثارت ثائرتي وقلت: «لو حدث شيء من ذلك اعتقنت مثله الشيوعية ودخلت مثله السجن» فاهم؟ فلما رأى الضابط ان الكلام لا يجدي تناول طربوشه وصحيفته من على الكنبه ونهض قائلاً: «على

ن حال انا قمت بواجبي . ثم ان هناك مسألة أخرى يا مدموزيل . فاهم ؟
 ت مدرسة تحت اشراف الحكومة ، والحكومة يهمنها ان يبتعد موظفوها عن
 غير والقال . ثم ان عبد السلام بك قد بقيت امامه ثمانى سفوات من الخدمة في
 وزارة الاوقاف ، ويحسن ان يقضيها في سلام . انا آسف يا عبد السلام بك على ازعاجك
 - مخرج يا مدموزيل ، صدقيني ، صدقيني ، انا أنفذ اوامر علي . مخرج . مخرج .
 وبعد ان خرج دخلت امي واخي هدايت واجتمعوا علي في هيئة كونسولتو .
 فيه أجد أمامي الا البكاء . وحين انهكني البكاء آويت الى فراشي ونمت . وهكذا
 تسبحت ايامي كلها شجاراً في شجار . هذا هو صديقك الشربيني .

واستمع حسن مفتاح الى كل هذا في هدوء ، فقد اضطرب لحظتين حين
 سأت عابدة علم تروي روايتها وادرك نهايتها من مطلعها ، ولكنه وجد الوقت
 ملائماً لضبط نفسه . وعاد بخياله الى زيارة الصاغ ممدوح الشربيني التي بدأت
 بعد منتصف الليل وانتهت نحو الثالثة صباحاً ، وتذكر كل كلمة فاه بها فلم يجد
 في حديثه اية اشارة الى ما كان قد فعله مع آل علم . انه لم يكن يعلم انه على
 هذا القدر من الختل والدهاء . انه لم يكن يعلم انه على هذا القدر من الخسة
 وسوءة . انه يفعل كل ذلك باسم الواجب . ولكن لعله معذور في كل ما يفعل
 فهو عبد مأمور أو عبد المأمور . ولكن أي عذر له سوى حرصه على مرتبه ؟
 انه يفعل كل ذلك لقاء اثنين وثلاثين جنيهاً . أو ليس هذا عذراً كافياً ؟ ولكن
 عذره ممدوح الشربيني ليس بحاجة الى مرتبه ، فلقد نهب من مال الدولة ما يغنيه
 عن لقيام بمثل هذا الواجب الثقيل . ثم كيف يعلم حسن مفتاح ان الصاغ
 ممدوح الشربيني قد كلف بهذا الواجب تكليفاً ولم يتطوع لادائه طمعاً في نجمة
 وفي علاوة او في مكافأة ؟ اليس هذا هو الأرجح ؟ ولكن ما قيمة كل هذه
 افكار ؟ اليس الصاغ ممدوح الشربيني محض ترس صغير في الآلة الجهنمية
 كبرى ؟ نعم . ان حسن مفتاح يهد لتحطيم الآلة الجهنمية الكبرى ، فكيف
 يخاف بهذا الترس الصغير ؟

وابتسم حسن مفتاح حين فرغت عابدة من حديثها وقال :

مدوح الشربيني في بدلته العسكرية لقد فأتني هذا المنظر . إن مدوح الشربيني لا يرى الا في الملابس المدنية . لعله أراد أن يخيف عبد السلام بك علم بالازرار النحاسية .

وعجبت عايذة علم لهذه البساطة التي استقبل بها حسن مفتاح الموضوع . وغضبت غضباً شديداً مهدله انفعالها وهي تقص قصتها . ان حياتها المحدودة لا مجال فيها للبطولة ، ولكنها رغم ذلك قد دافعت عن حسن مفتاح دفاع الابطال ، وقد كان ينبغي ان يقدر ذلك فيها فيهب على يدها تقبيلاً ويمطرها بكلمات الوفاء وعبارات الامتنان ، ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً . لقد جشمها حسن مفتاح فوق ما تحتمل ، فهي لا تعرف صديقة من صديقاتها استطاعت ان تقول لأبيها : « اني احب فلان » . او « اني سأتزوج من فلان » ، فأقصى ما تعرفه صديقاتها من الحرية هو ان يقلن لأبائهن : « اني لا احب فلان » او « اني لن اتزوج من فلان » . وأبوها المسكين صابر عليها ، لا شيء الا الآن امها قد تارت منذ ثلاثين عاماً على اسرتها في ظروف متشابهة وتزوجته رغم انف الجميع ، فهو يعرف ما الحب وهو يعرف فورات الشباب . انها تعرض سمعتها ومستقبلها ومستقبل أخيها الغلام هدايت للضياع من أجل حسن مفتاح ، وكل ما تظفر به لقاء هذه التضحية الكبرى ابتسامة وعبارة عابثة . ان هذا لا يطاق . لقد كانت ابتسامة حسن مفتاح مريرة يشوبها يأس عظيم ، وفطنت عايذة علم الى ذلك ، ولكنها قالت غضبي :

— أنت لا تحبني يا حسن ؟

قال هادئاً :

— لم تقولين ذلك ؟

— يبدو عليك أنك لا تكترث بالموضوع .

فعاد اليه الجذ وقال :

— مطلقاً . لقد أساءت الفهم .

وامسك بيدها وضغطها ضغطاً مبرحاً وأضاف :

- وهل ينفع الكلام ؟

وقرأت في وجهه أنه يتعذب عذاباً دونه عذاب الجحيم ، واجتمع اليأس في عينيه فزاعتما ، وخيل اليها أنه لا يرى شيئاً ، فندمت على ما بدر منها ، وعاد اليها حنانها القديم ، وانتابها نوبة غريبة فاقتربت منه بسرعة وقبلته على شعره قبة عصبية قصيرة ثم تهاقت في مقعدها واجهشت بالبكاء . واطلت مدام ماريكا من باب المطبخ برأسها لحظة لتقف على ما يجري ثم دخلت واقلعت البسب . وسعى حسن مفتاح الى عايده علم وجلس على ذراع الكرسي الاسيوطي ومضى يضرب نفسها بعذب الكلام ويقبل شعرها الأسود الحشن بخدان لم تعهده فيه بدأ . وأحس بضعفه الشديد ، ولكنه لم يخجل من ضعفه فترك رأسه ملقى على شعرها زمناً حتى عاد اليها هدوءها وعاد اليه هدوءه ، فدفع برأسها الى الخلف ، قبل فمها قبله طويلة ثم عاد الى مقعده وبدأ يدخن . واخذت عايده علم تؤكد حسن مفتاح انها عنيدة اذا رغبت في العناد، وانها سوف تقاوم اسرتها والحكومة ونعالم اجمع اذا لزم الأمر لو علمت ان حسن مفتاح يحبها حقاً، وأنه سوف يحبها دائماً . وكانت هذه أول مرة يتحدثان فيها عن الحب صراحة ، فوجدت عايده علم لسانها يجري بهذه الكلمة في سر شديد ولم يحمر خذاها فيفتق دمها السمرة لاصيلة كما كان يحدث كلما تهيجت فيها خواطر الجنس ، فلقد تهيجت فيها خواطر جنس لغير ما سبب الا القبل ، واحست بانها في حضرة رجل قوي يثير غريزتها وينبه فيها الاشواق ، ولو انه احب ان يتزوجها في هذا المساء بالذات لما ترددت قط . ثم عادت الى حالتها الطبيعية ، وكانت تنتظر منه جواباً على قولها ، ولكنه لم يقل : « انا أعبدك يا عايده ، وسوف أكرس حياتي لاسعادك فلنتزوج غداً ولنفعل بنا المقادير ما تشاء » ، بل قال ان عايده علم اطيب البنات قلباً وأرقن نفساً ، وان عايده علم تستطيع ان تعطيه كل ما يطعم فيه من سعادة ون عايده علم تستحق ان ترى سعادة وهناء ، وان حسن مفتاح كان يتمنى ان يكون هذا الرجل الذي يسبغ عليها ما تستحقه من سعادة وهناء، ولكن حسن مفتاح رغم نواياه الطيبة مضطرب الحياة سيء الظروف ، وحسن مفتاح راضٍ

باضطراب احواله وسوء ظروفه لأنه صاحب هدف في الحياة، ولكنه لا يرضى لاحتياته ان تضطرب حياتهم وتسوء ظروفهم لقاء وفائهم له . حسن مفتاح وعائدة علم . كلا : ان هذين الاسمين لم يردا معاً في كتاب القدر .

وكانت هي تستمع الى حديثه بانتباه شديد . واطمأنت نفسها درجة درجة حتى استردت شيئاً من بشرها القديم . وكان حسن مفتاح يتوقع كل ذلك ، فقد قرأ صفحة نفسها من قبل كما يقرأ كتاباً مفتوحاً . كان يعلم ان عائدة علم تريد ان تلعب دوراً لم تخلق له ، ان تقدم على عمل من اعمال البطولة لا قبل لها به ، فهي قليلة الاختبار في الحياة ، وهي ذكية الروح تتمسك بالمثاليات كأنها لاتزال في دور المراهقة ، فلقد كبر في نفسها ان يقال انها غدرت بصاحبها تحت ضغط مادي أو أدبي . بل لقد كان حسن مفتاح يعلم انها لا تحبه كما ينبغي ان تحب الزوجة زوجها بل تحبه حباً كحبها لها ، ولقد اشتد اشفاقها عليه حين رأت الذئاب تتجمهر حوله ، فهو الآن احوج الى العطف منه في أي وقت مضى ، وهو العليم بذلك فهو لا يغتنم فرصة ضعفها . وهو يعلم انها تود سرّاً أن يعفيا من هذه البطولة التي لم تخلق لها لكنها لا تحب ان تعترف بهذه الحقيقة أمام نفسها . فليحرمها اذن من هذه البطولة غير المأمونة العواقب . ان يقنع منها بالعطف فهل تقنع هي منه بالعطف كذلك ؟ ثم الامّ يدوم عطفها عليه ؟ لو انه كان كاتباً بمصلحة المساحة سوي النفس محدود الفكر مألوف الاطماع لجاز ان يدوم هذا العطف الى يوم المات ، ولقد يتحول بعد حين الى حب مكين . ولكن حياته قلقه وعيشه مضطرب وامنه مهدد ومشاغله لا حصر لها وجهوده فذة لا تحتملها الا النفوس الكبار اذ لا تفهمها الا النفوس الكبار ، ولن ترضى بهذه الحياة الا امرأة تحبه حباً مدمراً عاصفاً يجعلها تستعذب العذاب في كنفه . فمن قال ان عائدة علم من ذوات النفوس الكبار ، ومن قال انها تحبه هذا الحب العاصف المدمر ؟ انها سوف تسقط في منتصف الطريق . وهل نسي حسن مفتاح ايام المعتقل ؟ لقد قضى فيه قرابة سنه منها ثلاثة اشهر متنقلاً بين تخشيبية المحافظة

وسجون الاقسام وسجن الاجانب دون تهمة واضحة، ثم اقصى اخيراً الى معتقل
نسيا بحجة خطرة على الأمن العام في سنوات الحرب . ان عايده علم لم تزره مرة
وحدة . كذلك لم يزره شركاؤه في العمل او اتباعه الاقربون ، وهو يفهم
متناعهم بل ويحضهم عليه حضاً فمن زاره اذن ؟ زارته ندى ، خادمتة القديمة
و على الاصح خادمة أسرته ، زارته بانتظام مرة كل اسبوع ولم تتخلف اسبوعاً
وحداً ، وحملت اليه الطعام كل يوم أو ارسلته اليه من مالها الخاص لتعفيه من
ضعام السجون ، وأرسلت اليه السجائر من مالها الخاص كذلك . ان عايده علم
فقر شجاعة من ندى . لكم حزن حسن مفتاح لهذا التخلي . ولكم غضب . ولكنه
كان يجد الراحة دائماً في الموازنة بين اخلاق البرجوازية واخلاق البروليتاريا ،
فيكشف عن ملامة عايده علم ويزداد ايماناً بصدق الطبقة العاملة . وحين افرج
عنه بعد اعتقاله الاخير ، من دفع كفالته ؟ ان عايده علم لم تدفع كفالته ، كذلك
. يدفع كفالته ابراهيم نورالدين أو صفوان أو الجيار أو قلادة أو نعيم ، فأكثرتهم
كان مشتتاً في الارض أو يكابد الحرمان . وانما دفعت كفالته البنت ندى .
بعت سوارها الوحيد الذي تجمع فيه عرق خمس سنوات من الخدمة المضنية ،
بعت بخمسة عشر جنيهًا . ولما اعيتها الحيلة باعت نفسها للسكاري الجنود
بريطانيين لتم الثلاثين وتشترى حرية حسن مفتاح . باعت نفسها مرة في ميدان
سكة فريدة تحت ساعة البريد ، ومرة في شارع فؤاد أمام الامريكيين الجديد ،
ومرة على ناصية شارع فاروق بجوار بائع اللبن العجوز . فأين عايده علم من كل
هذا ؟ لقد فكر حسن مفتاح في الزواج من ندى بعد خروجه من المعتقل
فوراً ، ولكنه عدل عن ذلك لعلمه بأن ندى لا تقرأ ولا تكتب ، وهي قد
فربت العشرين فتعليمها لا ينبت شيئاً . نعم . اين عايده علم من كل هذا ؟
ولكن حسن لا يحب ان يقسو على عايده علم ، فهو يعلم ان ظروفها دقيقة ،
وهو يعلم ان تخيلها عنه في محنته جاء ضعفاً منها لا غدرًا . وها هي ذي الآن

تعرض عليه تضحية لا قبل لها بها ، ولا شك انها سوف تتحامل على نفسها ما
امكنها ذلك ، ولكن نفسها رخوة لم تفتح لعظيات الحوادث ولا تطيق الآلام
الجبارة . ولقد ترضى عايده علم في قابل الايام بما قسم لها كما تفعل غيرها من
نساء الوادي وتشكو الى الله احزانها ، ولكن حسن مفتاح لا يرضى بان تكون
سعادته على حساب هذا الملاك الهش الوديع . ولقد تشي رخاوتها في صلابته
فيغير مجرى حياته ويلتمس السلامة ضناً بها أو حباً لها ، وهو لا يرضى أن
يخون قضيته لقاء هناء المحبين أو سلامة المسالين . حسن مفتاح وعايده علم .
كلا . ان هذين الاسمين لم يردا معاً في كتاب القدر . ولو قد وردا لوجب محوهما
تماماً .

وكان ما توقعه حسن مفتاح . استردت عايده بعض بشرها القديم ، وخيل
اليها انها اقتنعت ، وهي لم تكن بحاجة الى اقتناع بل كانت بحاجة الى اقناع .
ولو ان حسن مفتاح صرخ في وجهها قائلاً : « من تكونين يا ذات الطبيعة اللدنة
والافق الضيق والقلب الضعيف . ما انت الا حمل في وادي الذئاب ، فما عهدك
بالكفاح وما علمك بالمكافحين » ، لو ان حسن مفتاح قال هذا واكثر منه
لما غضبت عايده علم بل لاطمأنت نفسها ورجع اليها السكون . فلقد كانت
كالفأر السجين في مصيدة من العناد والكبرياء وشيء من المثاليات ، ولقد فتح
لها حسن مفتاح باب المصيدة ولكن حسن مفتاح رغم غرامه بالمرحيات
لم يقل من ذلك شيئاً ، وانما صرف صاحبه بالتي هي احسن ، فطوى حزنه
الجديد بين جنبه وتكلف خلو البال ، وعاد يلغو بما كان يلغو فيه حين اقبلت
عليه نصف ساعة أو يزيد ، ويداعبها بصوته الرخيم ويضحك ملء رثيه كأن
حياته قد خلت من الغيوم . وادركت عايده علم ان حسن مفتاح يتعذب عذاباً
بلا حدود تحت هذا القناع الثقيل من المرح والاستخفاف . وكانت هذه اول

مرة ادركت فيها عايده علم ان حسن مفتاح يحب ان يتعذب على انفراد ، بعيداً عن فضول الناس . فوخز قلبها الم ضارٍ كأنه سكين مشحوذ ، ولكنها تشبهت به فتكلفت المرح والاستخفاف ، وانفتحت قلبها له بعد حين واوشك ان يحتويه ، لولا انه نهض واقتادها الى الباب وودعها الوداع الأخير .

مر شهر ونصف شهر ، وحسن مفتاح في شغل عن الدنيا بالعمل ، فلم يذكر عايذة علم الالماما ، وان كان قد قابلها مرتين احدهما في شارع سليمان باشا أمام الناشونال هوتيل والاخرى في نادي سيدات القاهرة حيث كان على موعد مع السيدة منيرة منير سكرتيرة الحزب النسائي . وفي كل مرة كان شديد الادب يحبي ويحامل ولا يخرج . وفي كل مرة يتذكر ماضيه القريب ايام ان كانت السعادة تدنو منه ولا تدنو . انه الآن راضٍ بخلوّه المطلق من كل عاطفة شخصية . ولكنه يعلم كذلك أن الخلو من كل عاطفة شخصية سوف يفتت في قلبه معنى الحياة لو استطال .

وكان الليل قد تقدم حين دخل حسن مفتاح على اعضاء اللجنة المركزية وفي يده زجاجة من البرندي وفي الاخرى ملف فيه ارقام واسماء بلدان وكلام بعضه ذو معنى وقصاصات من الصحف وبعض الاوراق المطبوعة على الآلة الكاتبة . وكان يعتقد انه مراقب بصورة متصلة ، ولذلك تعدد ان يحمل الزجاجة نصف مكشوفة للناظرين . وحين بلغ ٤٠ شارع سليمان باشا توقف عن السير وتردد طويلا وهم بالدخول . ولكنه لم يدخل بل ذهب يحملق كالابله في رقم المنزل فقد جذب الرقم بصره بقوة سحرية ، ويقرأ اللوحات المعلقة على جانبي الباب

فلم يجد بينها ما يعرفه . وعجب لامره وعاد يفكر في افكاره الغريبة منذ الصباح الباكر ، بل منذ الفجر ، فقد استيقظ من نومه على لحم مشوش . رأى في المنام بونايرت يلبس قبقاباً و جلباباً ويسير في حديقة الصاغ مدوح الشربيني ويهيب بحسن مفتاح قائلاً : ان اربعين يوماً تطل عليك من فوق الاهرام ، ورأى ورأى الصاغ مدوح الشربيني في ملابس النساء يبكي بركن الحديقة ، ثم رأى علي بابا في ملابس محمد باشا يقتحم باب الحديقة شاهراً سيفه والاربعين لصاً يتسلقون جدرانها حاملين الخناجر ، ولم يعرف ان كانوا يطلبون بونايرت ام يطلبون الصاغ مدوح الشربيني . ثم استيقظ من نومه فزعاً وذهب يتأمل القط الأسود مصنوع من المصيص المطلي ، القط القابع على الكومودينو كأنه نمر صغير ، وذهب يتأمل صورة البنت العارية ذات الشعر المحلول والفخذين الوردتين المعلقين فوق الكومودينو فذهب عنه جزعه ، وخرج من فراشه ليستحم بمياه ديسمبر الباردة ، ولكنه قرر ان يعدل عن حمام الصباح .

واجتاز حسن مفتاح الطريق ودخل ١٣ شارع سليمان باشا وامر الخادم بان يبتاع شيئاً من الحلل فيه بصل كثير وشيئاً من الجبن وشيئاً من الثلج وان يدخل على الاساتذة المحتفلين بالمرزة والاكواب . وكان اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي هم مجلس ادارة « نادي البعث » إلا اربعاً : كانوا صفواناً وغايات ممدوح والجيار وسعدية الطويل وبطرس قلاده ونعيماً ، ومع هؤلاء حسن مفتاح . اما نور الدين والسيد علي وفتح الله فقد استبعدوا من اللجنة المركزية استبعاداً ، الاول لما ابداه من جبن حين اعتذر عن الترافع في قضية البرت روزنشتاين والثاني لثروته والثالث لادمانه الحشيش . اما المكافح القديم عزمي فقد ثبت بالدليل القاطع انه يعمل لحساب البوليس السياسي ، ولم يكن هؤلاء الاربعة علم بوجود اللجنة المركزية ، وكانوا يستبعدون بانتظام في اطراف القاهرة ان بالدعوات وان بالمهات كلما انعقدت اللجنة المركزية حتى لا يهبطوا الدار والاجتماع دائر ، فان لم يتيسر استبعادهم جميعاً انعقدت اللجنة المركزية أما في ٢٢ شارع الملكة فريدة ، وأما في الهرم بدار لعلي علوي ، وهو مدرس

بالجامعة ، يشرف مسكنه على ترعة المريوطية .

ومضت عنايات ممدوح تترجم الاجندا من الشفرة الى الكلام المفهوم ، فعرضت اقتراحاً لصفوان يضم ستة عشر خلية جديدة ، ثلاث منها في الحوامدية وثلاث في المحلة الكبرى واربع في القاهرة متناثرة ، فقررت الجماعة قبولها جميعاً بعد ندب الجيار لتنسيق العمل بين هذه الخلايا وتنظيم أرقامها ، وتحصيل الاشتراكات المتأخرة من الخلايا الأخرى . ثم عرضت عنايات ممدوح اقتراحاً تقدمت به للمرة الرابعة بضم أحمد عزمي الى اللجنة المركزية ، وكانت الجماعة تعرف ما تكنه السكرتيرة من حب لأحمد عزمي ، فاهتزت الرؤوس ورفض الاقتراح باجماع الآراء مع ابداء الثقة التي لاحد لها بالسكرتيرة ، (ضحك) فاحمر خدا عنايات ممدوح وطالبت بالكف عن هذه الدعابة ، ولكنها لم تحاول ان تدافع عن صاحبها أحمد عزمي . وفيها هم كذلك دخل الخادم حاملاً الثلج والجبن والمخلل والأكواب فتعالى اللفظ بين المجتمعين . وانصرف الخادم وذهب صفوان يوزع الشراب . فاذا الشاربون أربعة هم حسن مفتاح وصفوان الجيار ونعيم . ثم تلت عنايات ممدوح اقتراحاً لحسن مفتاح بفتح مدرستين جديدتين إحداهما في العباسية والأخرى في بولاق يدير الاولى الطيار مسعود وتدير الثانية الدكتورة سميرة خلوصي فوافقت الجماعة على الاقتراح . كذلك قررت الجماعة ندب الجيار للتحقيق في تقصير بعض الخلايا الجامعية في السيطرة على حركة التعليم المجاني ودعوة علي علوي وروزنشتاين الى الانضمام نهائياً وبصفة شخصية الى اللجنة المركزية ومفاوضة روزنشتاين في تحديد اعانته الشهرية ، وتكليف نور الدين بكتابة كراسة في الصهيونية ، ونقل اختصاص الصحيفة السرية وسائر شئون الدعاية من يد الجيار الى يد صفوان ، ورفع ثمن الصحيفة الى نصف قرش ، وتوحيد مكاتبات الاعضاء واخفائها في بيت علي علوي اذا كرر اعتذاره عن الانضمام الى اللجنة المركزية أو في بيت آخر يحدده

صفوان في حالة انضمام علي علوي . وكذلك قررت الجماعة دفع اعانة شهرية للجيار قدرها ثمانية جنيهات حتى يجد عملاً جديداً .

وكان حسن مفتاح يكثر من الشراب ويسرع فيه ، فما ان بلغت الجماعة هذه المرحلة حتى فتح الملف الذي يحمله وذهب يتصفحه بإمعان وقد تنبهت جميع حواسه ، وتركزت الانظار على حسن مفتاح ، وأخيراً رفع رأسه وقال ان علي علوي قد جاءه يسعى في سبيل الوحدة للمرة الثالثة . فأرنفع اللغيط ثم تلاشى ، وعاد حسن مفتاح الى ملفه لحظة وقال : إن الحزب الشيوعي لم يمر في يوم من أيامه بمرحلة أخطر من هذه المرحلة ، وإن شيئاً كثيراً من التسامح والمرونة وانكار الذات يلزم الجميع قبل القيام بالخطوة التالية . إن علي علوي على حق ايها الزملاء ، وهو لم يفاتحني في هذا الصدد إلا بعد ان استوثق من الجماعات الاخرى . ولو استطعت اقناعكم ايها الزملاء بضرورة الاتحاد لاحتفلت الليلة بأسعد يوم في حياتي . نحن مقبلون في القريب العاجل على أعمال جسام أيها الزملاء ، فالحرب توشك ان تنتهي والحزب ينبغي أن يخرج الى سطح الارض فهل عدتنا تكفي لذلك ؟ كلا ، لان عدتنا لا تتجاوز اربعمائة خلية فيها الفا عضو نصفهم ناقص الوعي ، وتخطيماً أهون من الهوان ونحن متفرقون . أنا لا أشك ايها الزملاء في قوتنا ، فالمستقبل لنا رغم أنف المقادير ، وسنة التطور الجبري سوف تجعل نصرنا محققاً ، ولكن النصر لا يكون إلا لاهله ، ولن نستأهل النصر الا يوم نتنصر على أنفسنا ، ولن نتنصر على أنفسنا الا اذا تناولنا الايدي الممدودة نحونا وطوينا أسباب الخلاف ، فما هي بأصيلة . وما تعزيز الخلاف الاصيل أيها الزملاء ؟ الخلاف الخلاف الاصيل ايها الزملاء لا يكون إلا بين اصدقاء الشعب واعداء الشعب ؟ فهل منكم من يستطيع ان يزعم أن علي علوي من اعداء الشعب ؟ كلا . ولكنكم رغم ذلك قد جافيتموه لانه ينقح الماركسية . هو عندكم شكاك منحرف وانتم عنده جهلة مزمتمون ولكن التنقيح لا يرادف الانحراف دائماً، والصلابة في

الرأي ليست من التزمت في جميع الاحايين . الخلاف الاصيل لا يكون الا بين اصدقاء الشعب واعداء الشعب . فهل منكم من يستطيع ان يزعم ان رامزاً وجماعة الأحرار من أعداء الشعب ؟ كلا . ولكنكم رغم ذلك قد جافيتموكم لانهم في ثورة دائمة ، يثقون بالطبيعة الانسانية اكثر مما ينبغي . هم عندهم حاملون وانتم عندهم خونة متهاونون ، ولكن الثورة الدائمة تفتت التحجر الاجتماعي والمهادنة تحفظ الأشياء طاقتها ، وكلاهما لازم ، فما السياسة الا أحلام عملية ، او هكذا ينبغي أن تكون . الخلاف الاصيل لا يكون الا بين اصدقاء الشعب واعداء الشعب . فهل منكم من يستطيع ان يزعم أن الصواف وجماعة التطور من اعداء الشعب ؟ كلا . ولكنكم رغم ذلك قد جافيتموهم لأنهم في حذر دائم ، لا يثقون بالطبيعة الانسانية الثقة الكافية أو يمتنون العنف مقتاً غريزياً . هم عندكم رعايد مبطون وانتم عندهم متوسون مخربون . ولكن هدفكم واحد وهو إقامة نظام لا يتسع الا لطبقة واحدة هي طبقة العاملين الكادحين ووسيلتكم واحدة هي تأميم وسائل الانتاج . نعم ، ايها الزملاء ، ان الخلاف الاصيل لا يكون الا بين اصدقاء الشعب واعداء الشعب ، وليس بين هذه الشيع المتفرقة من هو أقل ايماناً بالشعب منكم « ولن يكون للشعب بينكم اعداء ما دمتم خارج الحكم ، فاقطعوا معاً كل الطريق او فاقطعوا بعضه اذا تعذرت الوحدة الكاملة ، واذا ما وليتم الأمر بين الناس فليزيم كل مذهبه ، ولسوف يصنع التاريخ أهلوه ولسوف يصطفي الشعب ابناءه الواعين . والتقارير بيدي تقول ان للأحرار نحو مائة وسبعين خلية اكثرها بين المثقفين وان لجماعة التطور خمسين أخرى يقوى بها عضدنا حتى تكون الساعة الفاصلة . فاداً ما انضم علوي وروزنشتاين الينا نهائياً بلغ اعضاء الحزب الشيوعي اربعة آلاف عضو عامل على وجه التقريب ، وهكذا نستطيع ان نخرج الى النور ، وهكذا تتحول خلايانا إلى لجان تقول في وضح النهار ما تقوله الآن في الظلام . واني اطلب الآن تفويضكم لتحقيق هذه الجبهة ، بل هذا الكل المتأسك ، واقترح ان يكون الاساس في كل تفاهم اعلان المسائل المشتركة بين الجميع واغفال كل

تفصيل يثير الشقاق ، فاذا ما جد خلاف بعد تحقيق الوحدة خضعت القلة لرأي
كثيرة ، مهما تكن خطورة ذلك الخلاف ، مع احتفاظ الأقلية بحقوقها في الامتناع .
حتى لا تتصدع الجبهة في كل مناسبة . وبعد ان يوقع الجميع هذا الميثاق نعد
نعدة لظهور الحزب الشيوعي صبيحة الغاء الأحكام العرفية في البلاد .

كل ذلك قاله حسن مفتاح والجماعة من حوله صامتة ، وكان يتصبب عرقاً
ثناء الحديث فنزف اكثر ما شرب من البراندي وبدأ عليه الضيق الشديد وقلة
لاستعداد المناقشة رغم سماحته العظيمة . فقد كانت هذه هي المرة الثالثة التي
يشار فيها مرضوع الوحدة ، ولم يبدُ على وجوه زملائه ما يدعو الى التفاؤل .
فغنايات ممدوح قد طال وجهها وذهبت تخطيط في ظهر الاجندا رسوماً خرافية .
ونعيم قد انصرف عن الاستماع بنقر المائدة آناً وبقضم اطافره آناً آخر . وبطرس
قلاده قد ارتسم الشك على بحياه وحملق في حسن مفتاح كأنه يحملق في الفراغ
أبيض . وحين بدأ الزملاء يعترضون لم يجد حسن مفتاح في نفسه الرغبة في
مجادلة ، ولولا ان صفوان قد حل محله في الدفاع عن الوحدة لطلب تأجيل
مناقشة .

ولكن صفواناً لم يكن الظهير الوحيد فقد كان الجيار كذلك مؤمناً بوجوب
وحدة ، والجيار قوة كبرى اينما اتجه ، فهو قليل الكلام ولكن لكلامه وزناً
بحسب الجميع . وتشجع بذلك حسن مفتاح وعاد يدافع من جديد . قال ان هذه
خطوة مأمونة العواقب ، لان التمثيل في اللجنة المركزية سوف يكون بنسبة
خلايا أي ١ للتطوريين و ٣ للاحرار و ٥ للجنة المركزية ، فالأغلبية لا تزال في
يدهم اما علوي فهو لا يمثل إلا شخصه فهو عضو بلا صوت والخطر من انحرافات
منه محدود ، لان روزتشتاين اقرب اليهم منه . قال ان الوقت قد حان
ستحرش بالاخوان المسلمين واشهار افلاسهم بين الناس ، وهو لا يستطيع ان
يتحرش بهم بأقل من اربعة آلاف تابع . قال ان عضوين من اعضاء اللجنة

المركزية زائدان عن الحاجة في النظام الجديد ، وهو يرجو ان يتنحى العضوان بدلاً من عملية الاقتراع حتى تكون هيئتهم مضرب المثل في انكار الذات ، كذلك قال ان هذه آخر مرة يعرض فيها موضوع الوحدة ، فان اصرت الهيئة على التفكك فسوف يخرج الامر من يدها لان جماعة الاحرار تعد العدة لاعلان الحزب الشيوعي بمفردها بعد انتهاء الجرب . ثم شرب حسن مفتاح ما تبقى من براندي ونهض قائلاً انه يترك اللجنة طلباً للهواء المنعش وسوف يعود بعد ربع ساعة لشهود الاقتراع . وحين انصرف احتدت اصوات الزملاء ، فابتسم حسن مفتاح ، ولطمه الشتاء في سليمان باشا ، فزال عنه بعض الحذر وذهب يتحدث في سماحة الى بواب العمارة النوبي ، ويسأله عن اجره وعياله ، وكان يعلم ان عم حمدون هذا يتقاضى ثلاثة جنيهات كل شهر من القلم السياسي لقاء تقريراته الشفوية ، فزوده حسن مفتاح ببعض الانباء الزائفة عن الست عنايات وكيف انها ستزوج من شاب مسيحي ، لعله يحمل الانباء الى سادته ونفحه بعشرة قروش ثم دخل وتركه يلهث عجباً من فجور البنات في هذه الايام .

وعاد حسن مفتاح الى المجتمعين ، وبعد ان هدأ اللفظ اجرت عنايات ممدوح الاقتراع فاذا للوحدة اكثرية مطلقة . ووقف نعيم واعلن تنحيه راجياً الا يناقش ثم وقفت سعدية الطويل واعلنت تنحيها راجية الاتناقش ، فشكر حسن مفتاح لهما اخلاصهما الماضي وبالتهمما الراهنة بين الحماسة والضجيج ، وخطت عنايات ممدوح بعض الكلمات ثم طوت اوراقها وانصرفت ، وحين بلغت الباب الخارجي ألقت على البواب التحية ، فلم يجب عم حمدون بل دنا منها وامسك بذراعها قائلاً : « عيب يا ست عيب » قالت : « عيت ايه يا عم حمدون » ، فقال : « يعني المسلمين خلصوا من البلد ؟ يا رب كريم ، موتنا على دين الاسلام ، يا رب يا كريم » . قات عنايات ممدوح هازلة : « آمين بس انا مش فاهمة انت بتقول ايه » . فأخلى عم عبدون سبيلها ساخطاً وقال : « يا عيب الشوم . يا عيب الشوم » .

وفي اعقابها انصرف حسن مفتاح ، وقد اشتعل خداه ان بفعل الخمر وان
غريحة الظفر ، ومشى الى مأواه يصفر نشيد الانصار آنا ويغنيه آنا آخر ، ويمس
عمدة النور في حماسة صبيانية كانت تنتابه كلما اجتمعت حوله جلائل الامور .
ومضى يفكر في امر اللجنة المركزية . لقد ولدت بفضل من جديد ، بل لولاه لما
كنت هناك لجنة مركزية اصلاً ، فلقد كان زملاؤه من قبل جماعة تحكمها الفوضى
وربغت فيها الشقاق ، فما ان انضم اليها حتى طهرها من المتجسسين ثم طهرها من
سحلين ثم علمهم النظام كيف يكون ، ثم ضرب المثل في انكار الذات باعتذاره
عن ترئاسة كلما عرضت عليه ، ولقد اعتذر خمس مرات في مدى عام واحد ،
وكانت حجته في ذلك دائماً ان الحزب الشيوعي ليس بحاجة الى رئيس ففي
تعزيز الكفاية . وذكر مسلك نعيم في الاجتماع وابتسم ، فلقد كان نعيم في
- صي مضطرباً كأنه البحر الغضوب ، اهوج كأنه النوم ، وكان يحيد التعبير عن
سخطه القوي في المثل صباح كل جمعة مع فريق من الشعراء والرسامين
تمردين الى الهرم الاكبر ليبولوا عليه جماعة ، وكان يرسل الخطابات بغير
توقيع الى اقطاب البلاد يسبهم فيها بكلمتين من هجو القول ويستخدم التليفون
مع منتصف الليل ليزعج الوزراء بافحش الشتائم ، ويجلس في القهاوي ليله ونهاره
يجب البنات ازواجاً ازواجاً . لكم تبدلت حال نعيم بعد عام من الصقل
وترويض : انه الآن منتظم التفكير ملتصق بالواقع . انه الآن لا يثور ، ولكنه
- ر عصف . لقد اوشكت اللجنة المركزية ان تياس منه وتقصيه ، ولكن
حسن مفتاح لم يياس بل دأب على تشذيبه آناً باللين وآناً بالعنف ، فقد ادرك
عصته ان نعيماً وان كان مألوف الذكاء إلا انه نقى النفس لا حد لنقائه ، رقيق
حس لا حد لرقته آكل كالنار لو حسن توجيهه .

وما ان بلغ ٢٢ شارع الملكة فريدة حتى كانت الهواء البارد قد ازال عنه
خدر ، ولكن صحوة التامة كانت قصيرة فقد استولى عليه ضيق شديد حين
حتوته جدران غرفته ، واحس بوحشة ما بعدها وحشة فلم ينفعه النظر الى

صورة البنت العارية الوردية الفخزين المعلقة فوق الكومودينو. وعالج القراءة فلم ترد اليه طمأنينته ، وذكر انتصاره على اصحابه في نهاية الاجتماع فلم تنتعش بالانتصار نفسه ، بل رأى في البنت العارية فراغاً وفي الكتاب فراغاً وفي الاجتماعات فراغاً ، وطفق يحيل بصره على اثاث الغرفة دون ان يرى شيئاً إلا فراغاً اجوف قد ابتلع كل شيء ، فراغاً مطلقاً قد احتوى نفسه ثم احتوى العالم الخارجي ، ولولا شيء من الانزعاج في فؤاده ولولا الصليل الحاد المتقطع المؤلم الصاعد اليه من محطة البنزين حيث تغسل السيارات لمرت به لحظات من الخلو المطلق الذي تنتفي فيه كينونته وينتفي فيه العالم الأكبر . ولكن الانزعاج الخفي وصوت السيارات اثناء غسلها جعله يحس بوجوده . واشتدت على حسن مفتاح الكآبة فتحرج صدره وضابت أنفاسه وتسالت الى عقله خواطر الانتحار وخواطر القتل ورأى الدماء رؤية العين ، وأوشك أن يتهيج فيحطم الصورة العارية أو المرأة ، وأوشك ان يفقد سلطانه على نفسه فيصرخ مستغيثاً بمدام ماريكا . وأوشك أن يصلي الى القوى المستورة ان لم يكن بمفهوم اللفظ فبالتوجه الصامت العميق ، ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً واكتفى بفك ياقته وخلع ربطته بأصابع تشنج . وحين تنبه الى خواطره الانتحارية وخواطره الاجرامية ازداد انزعاجه لان هذه الخواطر لم تزره الا منذ خمس سنوات قبل اشتغاله بالسياسة أيام ان ماتت جارتة ملكة عبد السيد ، وهي فتاة قبطية جميلة اكل اهلوها الزيت عشرين قرناً فلم يطمس الزيت معالم نفرتيتي الأصلية فيها ، ولكنه جفف حيويتها واذبل بشرتها . وحين ماتت ملكة عبد السيد تركت حسن مفتاح يعصر قلبه في مرات رديئة الصياغة مشوشة المعاني يسطرها في سجلات مصلحة العمل مكان الاحصاءات والملخصات والتقارير ، مما الزم بسيوني بك آنذاك بأن يؤنبه ثانياً ويهدده بنقله الى مصلحة أخرى .

وفي وسط هذه الاحساسات القليلة المتلفة تركزت خواطره حول عابدة :

عم : و نشأ يراجع نفسه في شأنها ، فهو الآن يفقدها افتقاراً مبرحاً . وعلم ان
 خراج عظيم الذي ملأ قلبه وديناه هو فراغها . وعجب حسن مفتاح لأمره
 من احبها في يوم من الأيام ذلك الحب الذي تسود له الليالي البيضاء ويضرج
 حبة نون الدماء . فعلم ان عايده علم كانت الحيط الوحيد الذي يصل بينه وبين
 عمه . احياء . انه يتحرك في محيط الظلال . ان صفوان ظل من الظلال والجيار
 بسعية الطويل وعنايات ممدوح وبطرس قلادة ، كلهم ، كلهم ، من الظلال ،
 الكبيرة والظلال الصغيرة . إن المائدة التي يلتفون حولها كذلك من الظلال ،
 عم حمدون البواب والصاغ الشربيني ومحاضر الجلسات وهتافات الانصار
 بحر نصخب وكؤوس البراندي التي يشربها ليحتمل إرهاق العمل ، كل هذه
 حول فرغة لا مادة فيها . نعم . انه يعيش في عالم من الاشباح ، وهو بين هذه
 الشبح الشبح الأكبر ، بل حسن مفتاح صانع الاشباح يحفف الأعواد الناضرة
 ويجعل من الاحياء اشباحاً خاوية . ألم يغور دسوقي ابراهيم وطه الحكيم وحكمت
 حكيم وبسطوروس وأبا زيد وسنية زيتون وحيمي العبد وطلبة وكامل كالي
 وغيرهم وغيرهم ، ويزين لهم سبيل الكفاح ويعلمهم كيف يقرأون الكتب وكيف
 يتأثرون الصحف وكيف يملأون الدنيا عجباً بالمذهبيات ، ويتقنون الكلمة الكبيرة
 حروف ؟ كل هذا فعله حسن مفتاح باسم الانسانية ، فماذا اصابوا وماذا أصابت
 انسانية ؟ لقد جففهم حسن مفتاح كما تجفف الاسماك ووضع عليهم ملححه وتوابله
 وجبهم في احقاق محكمة . لقد كانوا اناساً هادئين متزنين فعلهم حسن مفتاح
 غضب وأودى بتوازهم ، لقد كان دسوقي ابراهيم وبسطوروس وابو زيد وطلبة من
 نر فتياناً جاءوا من الريف ، واحد من طما واثنان من أسبوط والرابع من
 برش مقبلين على الحياة يسكنون بيتاً واحداً في بين السرايات وراء الجامعة
 . حين بقذارتها ليقصدوا اجر الترام الى كلية الآداب . وكانوا يخرجون في
 حذائهم وقباقيبهم الى ناصية الشارع حاملين الصحف دون تخرج الى سر الختم
 مع نقول النوبي المرباط بجوار مصنع البيرة . وكانوا يطهون طعامهم بأيديهم
 انه لا يملكون أجر الطاهي ، ولكنهم ما تدمروا يوماً بل كانوا يجتمعون في

المطبخ حول الحلة يستذكرون تاريخ البطالة ويستظهرون ، المفردات اللاتينية ويتجادلون في مشكلات الفلسفة وفي عقد الاعراب دون ان يغيب عن الحلة بصرهم فيتلف الارز او تتفحم البطاطس . وكانوا يضاجعون بائعة اللبن سكينه السمراء ويحبون طالبات الكلية حباً افلاطونياً . وكانوا يقترضون القروش ويقترضون القروش ، ولقد يتعرضون للجوع أياماً فلا يعبأون . وكانوا لا يدخلون السينما الا مرة كل شهر ولا يركبون الترام الا نادراً ، فللقاهرة عندهم طريقان ، طريق قناة السويس وهو طريق بديعة - قصر النيل وطريق رأس الرجاء الصالح ، وهو طريق الزمالك - بولاق . نعم ، لقد كانوا راضين بماهم فيه من حياة شاذة اختلط فيها شعر شكسبير برائحة الطعمية واجتمع فيها الغرام الفرترى بالعفن القديم المتراكم على الجلباب الأسود الذي لم تخلمه سكينه السمراء في صحوها او في منامها ما يقرب من عام كامل . فما ان دخلوا في محيط حسن مفتاح حتى تبدلوا من حال الى حال ، فزال مرحهم الساذج وحلت محله سخرية مريرة متصلة وبرم بالواقع المحدود . فاذا العفن القديم المتراكم على جلباب سكينه السمراء يبدو أشد تعفنًا مما كان ، واذا حب بنات الجامعة اعتماد وعزيزة وبهية وانجيل يضحي بمعاييرهم الجديدة رومانطيقية مريضة ، فكفوا عن بائعة اللبن وعن حب بنات الجامعة جميعاً ، وخوت قلوبهم ثم صوحت فلم يعد فيها مجال الا لمشكلات النوع الانساني . ولم ينجُ من هذا المصير سوى طلبه الذي كان شديد التمييز بين مفهوم الانسانية وما صدقاتها فانصرف عن المفهوم وآمن بالمصدق ، واحب راقصة من الكيت كات تدعى لوليتا وفاز بحبها لأن حذاءه المفتوق لم يعم لوليتا عن جمال صدره وجمال عينيه . ولكن هذا الحب كلفه مستقبله ، فقد هجر الجامعة وهو في السنة الثالثة وتعلق بهامش المسرح حيث بقي وحيث هو باقٍ الى نهاية عمره . نعم ، لم ينج الا طلبه ، فقد استغرق كفاحه السياسي خمس دقائق ، وكان ذلك يوم توفي رمزي باشا رئيس الوزراء الرجعي وخرج جنازه من ميدان الاسماعيلية ، وكان طلبه يومئذ يشهد الموكب واقفاً

على كرسي في قهوة ايزافتش فسمع بعض المأجورين يهتفون في حزن مفتعل قائلين:
« النعيم يا رمزي . الى جنة الخلد يا رمزي . فتسبح طلبه وعجز عن ضبط
شعوره ، ومد عنقه خارج القهوة وصرخ بأعلى صوته : « الى الجحيم يا رمزي . الى
سرايا الآكله يا رمزي . » ثم نزل من فوق الكرسي وتسلسل من القهوة خشية ان
يقبض عليه الشرطة ، ولم يعد بعد ذلك الى الاهتمام بالشؤون العامة ، وترك الناس
في مربع الواقع بين ميدان الاسماعيليه وميدان التوفيقية وميدان الاوبرا
وميدان عابدين يتحدثون عن فعلته أربعاً وعشرين ساعة .

وهذا ما فعله حسن مفتاح بجماعة بين السرايات ، وما اراد بأحد ضرراً ، فهو
يخضع الناس على شاكلته . ولقد ملأ قهاوي القاهرة ونواحيها بفتيان لا حديث
هم إلا إضرابات العمال ، وغلمان يتشاحنون على ماهية التكتيك وماهية
استراتيجية بدلاً من ان يتشاجنوا على بنات الجيران ، وشبان يتخاصمون في
شورة العالمية والثورة الاجتماعية بدلاً من ان يتخاصمو في لقمة العيش .

هذا ما فعله حسن مفتاح بشخصه وبرجاله ، وما خفي كان اعظم .

فان بعض الراغبين في الانتحار قد عدلوا عن الانتحار انتظاراً للثورة
الاجتماعية .

وان عنايات ممدوح قررت ألا تتزوج البتة لتعد نفسها لحياة السجن ،
وكانت لا تفتأ تذكر حسن مفتاح بأنها قد كتمت هواها للجاسوس الجميل احمد
عزمي وسحقت قلبها وبصقت عليه لا لشيء إلا لأن اللجنة المركزية قد نهتها
عنه ، وهي تفعل كل ذلك رغم اقتناعها ببراءته .

وان نعيماً رغم برئه من الكثرة المطلقة من صبيانياته الاولى ما زال مقيماً
على تمرينه اليومي الرهيب : فهو لا يزال يصنع الرجال المصغرين من الصلصال ،
وهو لا يزال يشنق كل صباح رجلاً حتى يروض نفسه على القسوة حين يحل اليوم
حضير .

وهو فوق هذا وذاك مقيم على تشاؤمه الاول ، فقد كان الوجود عنده اول فاجعة كونية، فنعم يجد ان كل خلق جزئي. وكل خلق دنىء هو ابن التروي والتصميم ، اما الخلق الكلي ، الخلق العالمي ، فهو ابن الصدفة وحدها . ولكم كان يقول ان المثل لا يخلق التمثال إلا بعد تروء وتصميم ، والمهندس لا يخلق الكوبري إلا بعد تروء وتصميم ، والتاجر لا يدخل في صفقة إلا بعد تروء وتصميم ، أما الانسان فيخلق بمحض المصادفة ، ويقصد شيئاً فيكون شيء آخر ، بل هو لا يفكر في الخلق اطلاقاً ، ولو قد قصد الخلق وفكر فيه لما استطاع ان يتروى في الخلق او يصممه . فالبلشر عند نعم اعشاب شيطانية لم تغرسها يد عاقلة ، والحياة عنده غلطة من اغلاط المادة في الزمان والمكان . ولذا كان نعم يصاب بنوبات من الميلانكوليا العميقة قد تلازمه اياماً، وتتردد عليه بين حين وحين رغم صخبه الشديد وقوة اقباله على الحياة . ومع ان حسن مفتاح قد علمه الجبرية، جبرية الرقي العضوي والرقي المادي ، وهدها بالمنطق الى التفاؤل إلا ان نعماً اقام بالفطرة على تشاؤمه الاول . ولم يكن لنعم سخط سياسي قبل اربعة اعوام خلا السخط السياسي الخفيف المألوف المختلط الذي يدفع المصريين الى الثورة السائبة على كل حكومة تقوم بينهم ولا يعلمون لذلك سبباً ، حتى خرج صباح يوم من ايام الجمعة ليتنزه في حديقة الاندلس مع طالبة بالجامعة ، وكانا يأكلان الساندويتش ويتبادلان لغو التلاميذ ، فهي تحدثه عن اخبار كلية التجارة وهو يحدثها عن اخبار كلية الحقوق ، واذ بشرطي من بوليس الآداب يهبط عليها من السماء ، واذ بالشروطي يتهم كل منهما زوراً بتقبيل الآخر ، واذ به يطلب اقتيادهما الى قسم البوليس . وادرك نعم لفوره ان الشرطي انما يفعل ذلك طمعاً في عشرة قروش ، ففقد سلطانه على نفسه وهوى على الشرطي بالكف واوسعه ركلا . وتجمهر الناس من حوله من عشاق وباعة غازوزة وعمال في البستان ، وتقصوا الخبر ووجدوا فيه مناسبة تعبر عن عدائهم الكامن للسلطة فانصرفوا لنعم دون تحرر الحقيقة ماجرى ، وتجاوز بعض العاشقين حدود الانتصار الشفوي فأزروا نعماً بالأيدي وبالارجل ، حتى انسحب الشرطي بعد المجاهدة

وعسكر في مكان ما خارج الحديقة . وبعد ان هدا الموقف ثاب نعم الى نفسه فأدرك الهول الاكبر الذي نجما منه بأعجوبة . فلولا مؤازرة العشاق له لقلبه الشرطي ما في ذلك ، ولئن غلبه الشرطي لاقتاده الى القسم ، وفي القسم تبداً الفضيحة ان لم يبدأ القصاص ، فالبت بنت استاذ من اساتذته ، ونعم لا شك مفصول من الجامعة ان لم يسجن شهراً من اجل هذا « الفعل الفاضح » ، والبت لا شك مطاطة رأسها اربع سنوات حتى يتخرج كل من عرفها أو سمع بها في كليتها . أما الاعتداء على ممثل الحكومة فلا شك ان عقابه اشد وانكى . وكان نعم قد سمع من قبل بالشرطة يحرسون بيوت الدعارة السرية في الفجالة وفي عماد الدين لقاء اتاة شهرية يفرضونها على صاحبات البيوت ، بل سمع بالشرطة يقودون الزبائن الى بيوت الدعارة السرية لقاء شلن أو عشرة قروش ، بل لقد رأى بعينه شرطياً مسلحاً يقف بناحية الانتيكخانة نحو منتصف الليل ويجواره عربة فيها جندي بريطاني ومجندة بريطانية يستغلان البلاكوت الثقيل في حراسة الشرطي . وكان نعم في كل مرة يستبشع ما يسمع او يرى ثم يهز كتفيه ويحد التفسير في الشرطة وحقارة منبتهم . بل لقد سمع نعم بضباط البوليس الذين يستوقفون السيدات الجميلات في شوارع القاهرة ويزجون بهن في البوكسفورد بتهمة تصيد الرجال ليخلقوا بذلك مجالاً لمساومتهم في اعراضهن ، فلم يفضب ولم يثر حتى كان له حادث الحديقة فتفتحت جميع حواسه وتحول سخطه الفردي الى سخط اجتماعي شامل ، وغداً يتقصى عيوب المجتمع عيباً عيباً ، ويطيل التفكير في اسباب الاصلاح . ولكن حاجته الى منهج جعلته يرتجل الحلول ارتجالاً ، فلما ان عرف حسن مفتاح علمه حسن مفتاح الماركسية فوجد فيها كل ما يطلب من مفاتيح .

اما سعدية الطويل فقد كتبت هواها لبطرس قلادة وسحقت قلبها وبصقت عليه لان بطرس قلادة مثالي لا يؤمن بالمادية الديالكسية ، أو يؤمن بها نظرياً ولا يطبقها عملياً : فهو لم يتحرر بعد من قيود الدين فيشهر اسلامه ويتزوج منها .

اما بطرس قلادة فقد كانت له وجهة نظر اخرى : فهو لا يؤمن بالمسيحية ولكنه يؤمن بالمسيح ، وهو يقول ان الرأي العام لا يخيفه ولكنه لا يملك ان ينزل عن تراث لا اختيار له فيه ، فكما ان عينيه خضروان واذنيه كبيرتان فهو مسيحي اورثوذكسي كذلك . واذا كان اسلافه قد احترقوا في الزيت المغلي ودخلوا جبوب الاسود استمسكوا بتقاليدهم عشرين قرناً من الزمان فهو لا يتحمل تبعه التخلي عنها ، وهو مسئول امام الخلف عما تركه السلف . ولو رضيت سعدي الطويل ان تعبر إليه هذا الجسر الصوري لازدراها لأن في التنقل ذنبية إلا اذا توفر الاقتناع ، ومن تحول عن دينه من أجل الحب كن تحول عن دينه من أجل المال ، ومهما قيل ان الشكليات لا اهمية لها ، فالانسان عنده لا يموت في سبيل الماديات وحدها وانما يموت في سبيل الشكليات كذلك كالشرف إذن يؤمن بالمادية الديالكتيكية ويطبقها ، وسعدي الطويل يؤمن بالمادية الميكانيكية وتطبقها وهما لا يلتقيان . والحل عند بطرس قلادة ان يحتفظ كل طرف بشكلياته وان يتحدياً معاً اوضاع المجتمع وان يتزوجا بغير عقد الا كلمة الشرف ، وان يحرجا الدولة احراجاً باولاد لا دين لهم حتى يؤسس الزواج المدني في البلاد . فإن ابت سعدي الطويل ان تفعل ذلك كتم بطرس قلادة هواه لها وسحق قلبه وبصق عليه ، وعاش عزباً بقية حياته . وقد فعلا ذلك جميعاً . وهما الآن يعيشان بغير قلب . وهما الآن يلتقيان بحكم العمل ويقتضيان كل حديث لا يتصل بالعمل ، فيتكلفان الخلو المطلق ، ويقضيان كل حديث لا يتصل بالعمل ، ولقد يضعفان لحظة كلما انفردا فيمسك بطرس بذراع سعدي وتطرق سعدي امام انفاس بطرس المضطربة ، ولكنهما يثوبان فيفر كل منهما من الآخر مخافة ان ...

كل هذا فعلة حسن مفتاحها ملاً رأسهما بترهات قربت بين نفسيهما وابتعدت بين جسديهما ، ولولاه لاقربا نفساً وجسداً . لقد ملاً القاهرة بالشباح . فاتباعه لا يسرقون ولكن يدافعون عن اللصوص ، ولا يحبون ولكن يوزعون الحب فيما يوزعون من حقوق الانسان ، ولا يتعذبون ولكن يدبرون غذاء الشعب بالحبر

على الورق . غير أن جريمته الكبرى كانت نحو نفسه ، فهو قد تجاوز الثلاثين ولكن حياته الخاصة خاوية من كل ما يسعدها أو ينقصها ، او بعبارة أدق بيت له حياة خاصة . وحين تأمل حسن مفتاح هذه الحقيقة أدرك ماهية حساساته الخائفة . ان الصداع الذي يلهم رأسه ليس صداع الحب ، فهو ما أحب عابدة علم هذا الحب المتلف ، ولكن عابدة علم كانت الخيط الوحيد الذي يربطه بعالم الأحياء ، ولقد انقطع هذا الخيط ، وهو الآن يعيش بين الظلال التي صنعها بيديه . المادة . المادة . أين هذه المادة ؟ وما تكون هذه المادة ؟

الاحساس بلحم المرأة . انها طعم ام الخلول . انها الاحساس بلحم المرأة . انها زجاجة من عطر الورد . انها الاحساس بلحم المرأة . انها لون الحمرة على وجنة التفاحة . انها الاحساس بلحم المرأة . انها صوت العنادل في اعقاب الصباح . انها الاحساس بلحم المرأة ، انها لحم المرأة . وتحسس حسن مفتاح وسادته فقد كان غطاؤها من الحرير الوردى الفاتح ، ومضى يمسحها بكفه في عناية وحنان ، ثم ادرك انه يفعل ذلك لأن الوسادة كانت اقرب ما يملك الى لحم المرأة ، فنجل من نفسه قليلاً والقى بالوسادة الى مكانها . وهنا انكسر الحاجز الذي يكبت فكاره فانطلقت خواطره كأنها السيول بعد ان تتكسر السدود ، ولكنها كانت صريحة ليس فيها نفاق وليس فيها عابدة علم . وأطمأنت نفسه درجة درجة حتى زال عن صدره الضيق . عاد الى مونا ربيع وقبلها في الخيال . عاد الى ملكة عبد العزيز وأوشك ان يقبلها في الخيال ولكنه تذكر انها الان هيكل عظمي اقفر حتى من الدود . خرج من غرفته ودب الى الغرفة المجاورة التي تشرف على المطبخ فوجد بابها موصداً ففتحه ، ودخل فوجد مدام ماريكا كذلك ولكنه فعل كل ذلك دون ان يبرح مكانه على سريره ، وبرزت اسنانه وتسعت شفتاه ولاح عليه انه حيوان جائع يرى قطعة من اللحم يدبر طريق لوصول اليها . ثم عادت خواطره الى غرفته وتجمعت حول عابدة علم مرة اخرى ، ثم انصرف عن الصور الى الواقع الملموس ، وانتقل ببصره بين أثاث غرفة والوسادة الحريرية والبنت العارية المعلقة فوق الكومودينو ، فرأى ان

يقصد الى بار بديعة ويعود براقة تؤنسه بقية الليل كما كان يفعل ايام مصلحة العمل ، ولتفعل به مدام ماريكا ما تشاء في الصباح . وهم بالخروج ولكنه وجد ان الساعة قد بلغت منتصف الليل والحاكم العسكري يفلق جميع المحال العامة عند منتصف الليل . وبدا له ان يخرج الى منعطفات شارع عماد الدين ويعود بنبت من البنات اللاتي يتسللن تحت جناح البلاكاوت ، ولكنه تذكر ان اجورهن قد ارتفعت الى خمسة جنيهات بسبب جيوش جلالة ملك بريطانيا ، ثم ان هناك أجر الطبيب اذ لا بد من طبيب . وبدا له ان يطرق باب مدام خرستينا التي قالت مدام ماريكا انها تدير بنسيونها للدعارة ، ولكنه خشي ان تكون مدام ماريكا قد أختلقت هذه الاشاعة لنزاع بينها وبين مدام خرستينا ، فلم يجرؤ على الصعود . وعدل عن رأيه واطفاً النور وفتح خشب النافذة ، وعاد الى مكانه من النافذة ، ودخل عليه الهواء بارداً موجعاً منعشاً رده الى حالته الطبيعية او ما يشبهها . ولم تدخل مع الهواء إلا اصوات حوافر الخيل التي تجر العربات التي تحمل السكاري من جنود الديمقراطية الى ثكناتهم او الى طرقات الجزيرة الجميلة ان كانوا مصحوبين . وعاد الى تأملاته يفكر في حاضره المقفر بهدوء تام لعله أن يصل الى حل دائم لهذه العقدة القائمة ، فهو يعلم ان العقدة قائمة وان أزمة هذه الليلة سوف تتجدد ، فلقد حلت به في الماضي خفيفة هينة ولسوف تحل به في المستقبل جارفة مدمرة .

وابصر من النافذة بصيصاً من النور لم يحسن اخفاؤه في جملة نوافذ بالعمارة الشاهقة المقابلة المبنية بالطوب الاحمر ، فطارت خواطره الى ما يحدث بين جدرانها . منتصف الليل ، البورجوازية الكبيرة ، الزمالك . الهرم . المعادي . في سررها يقبل نصفها النصف الآخر . البورجوازية المتوسطة (هليوبوليس . العباسية . الدقي) لا شك قد فرغت من التقبيل . البورجوازية الصغيرة (شبرا . السيدة . الجيزة) كانت تحب ان تسهر في الخارج ولكنها لا تملك ثمن السهر في الخارج فتعزي نفسها بمكارم الاخلاق وتبدأ التقبيل في العاشرة . مواعيد منتظمة

يؤثر فيها التوقيت الشتوي والتوقيت الصيفي لأن البورجوازية بكافة درجاتها تتقيد بالساعة في كل ما تعمل . أما البروليتاريا (بولاق . باب الشعرية . المعصرة) فتتناسل في التاسعة لأنها تستيقظ في باكورة الصباح . ولم يبقَ إلا الارستقراطية (جاردن سيتي) وهي لا تبدأ الحب ان بدأته إلا بعد الثانية صباحاً في الشتاء والرابعة صباحاً في الصيف . وهكذا بوب حسن مفتاح المجتمع المصري طبقة طبقة تبويباً جنسياً ، ولكنه لم يكن يعلم ان نافذة من النوافذ المنيرة كانت لحياطة روسية طغى عليها العمل ، وان نافذة اخرى كانت لسيد عجوز اعزب يطبع على الآلة الكاتبة حساب شركة من شركات السينما ، وان النافذة الثالثة كانت لمعلم في اللبسيه فرنسية يصحح انشاء تلاميذه . ثم عدل حسن مفتاح عن افكاره . فقد رأى ان تقديره . مبالغ فيه ، فالبورجوازية لا تمارس الحب ولا تعرف كيف تمارسه ، لأن البورجوازية تشتغل بجمع المال وتحصي في السرير خسائرها بدلاً من ان تحصي القبلات ، وتخصص للحب ليلة واحدة من كل اسبوع ينبغي ألا تتجاوزها هي ليلة الجمعة ، ولان البورجوازية جيلان ، فالجيل القديم مهدم يجد سبيله الى الحب ولا يقوى عليه والجيل الجديد يقوى على الحب ولا يجد سبيله إليه .

كل ذلك كان حسن مفتاح يفكر فيه وهو واقف في النافذة يتأمل محطة البنزين والعمارة الجسمية المقابلة المبنية بالطوب الاحمر . كذلك فكر في سرهنك ، صاحبه سرهنك ، فسرهنك دكتور في الحب من جامعات فرنسا ، كان مثلاً للوداعة ايام التلمذة في مدرسة المنيا الثانوية ، ولكن ضابط المدرسة موسى افندي كان بحاجة الى سيارته الادلر ليجعل منها مسرحاً لغرامياته بين نادي سبورتنج وقرية الاختصاص ، فأشرك موسى افندي الغلام سرهنك في صباه وعلمه شرب الخمر وفتح حواسه الى اشياء ما كان ينبغي ان تفتح لها حواسه وهو بعد غلام ، ولقاء ذلك كان موسى افندي يزود سرهنك باوراق الامتحان . وكان سرهنك لأب يعجب للادلر كيف تمتلئ مقاعدها بالقمل ، ويعنف سرهنك الولد لأنه يدعو فقراء التلاميذ الى ركوب السيارة ، فما كان يعلم ان فلاحات الاختصاص

من علة ذلك . فلما كانت البكالوريا رسب سرهنك ثلاث سنوات بلاحقها ثم اختفى من الوجود خمس سنوات تنقل فيها بين معاهد باريس يدرس العطور ، لا صناعتها بل التمييز بينها ، وعاد ببعض الشهادات من بعض المحال التجارية تملؤه الحماسة لخدمة الوطن ، وكله عزم على ان يعلم ابناء النيل المبادئ الجمهورية وبنات النيل فنون الحب التي لقنته اياها بنات السين ، فابتاع ديملر ضخمة سوداء تسر الناظرين ، ووجد عملاً بمصلحة العمل في الغرفة المجاورة لحسن مفتاح . ولكن دراسته للعطور باعدت بينه وبين مكتبه فلم يزره إلا غيباً كلما عن له ان يطالب بالترقية ، أما اختصاصه فكان يزاوله في الطريق الصحراوي بين القاهرة والاسكندرية . ولكن سرهنك فجع في آماله بعد حين فقد تبين له ان محصول الديملر في عام واحد لم يتجاوز خمس بغايا مسرفات يعرفن بارتستات ، وخمساً من زوجات اصدقائه وخمساً من طالبات الجامعة يردن ان يتزوجن ، فسخط على الوطن ، وباع الديملر ، وحزم حقائبه وقرر ان يقضي بقية عمره في مونبارناس . غير ان الحرب اعلنت وسدت عليه الطريق ، ففك امتعته وقرر الاشتغال بالسياسة في فترة الحرب ، فتزوج من ابنة وزير بلا وزارة ودخل البرلمان ونزل عن مبادئه الجمهورية . كلا . ان البورجوازية ليست مسئولة عما كان حسن مفتاح فيه من حرمان . وكان حسن مفتاح يجب أن يلوم البورجوازية عما هو فيه من حرمان ولكنه لم يستطع فبدأ يلوم نفسه . لقد اعطته الحياة من فرصها شيئاً ، وهو الذي ركل هذه الفرص بقدمه في الماضي .

وارتدت خواطره اليه ، وانشأ يستعرض ماضيه ، فقد كان له ماض . وعاد بذاكرته الى ايام مصلحة العمل ، فذكر الديملر الضخمة السوداء ، ذكر الاوتوموبيليا كما كان يسميها وذكر كيف كانت تتردد به وبصاحبها سرهنك في الطريق الصحراوي بين القاهرة والاسكندرية مرة كل اسبوع . ألم يكن يومئذ سعيداً قالصحراء ونور القمر ونسيم مايو نحو منتصف الليل . كل هذه كانت له وكان له معها بنتان : بنت للنهار وبنت الليل ، ملكة عبد السيد يمارس معها عاطفة الحب وامراً مطلقة من رائدات حديقة جروني يمارس معها احساسات

الحب . ولكن كم دامت هذه السعادة ؟ انها لم تدم الا ستة اشهر ، لان ملكة
عبد السيد قضت نحبا ، فما ان جعله الحزن يهمل المطلقة أهملته المطلقة واتخذت
سواه . ولكن أكان سعيداً حقاً ايام مصلحة العمل ؟ انه ما احس بهذه السعادة
إلا الآن . بل انه يذكر كيف كان يضيق بالحياة ايام الطريق الصحراوي .
كذلك كان سرهنك دائم الشكوى من الحياة التي غبنته كل هذا الغبن فردته الى
مصر العابسة بعد ان كان ينعم في فرنسا المشرقة . وحسن مفتاح كان يحب
سرهنك حباً خفيفاً بحكم الألفة وذكريات الدنيا الثانوية رغم احتقاره اياه ، فقد
كان سرهنك يمثل عند حسن مفتاح ابغض ما في ابناء الارستقراطية وابغض ما
في ابناء البورجوازية من صفات ، منها العقم المطلق والاسراف الذي لا جمال فيه ،
والراحة التي لا يبررها عمل سابق ، والانانية البشعة التي تجعل صاحبها ينتظر من
انجتمع كل شيء ولا يجود على المجتمع بشيء . وقد كان في سرهنك شيء من
الدم الأزرق الباهت الذي ورثه عن أمه عصمت هانم ، فقد كانت أمه تنحدر من
شراف أترالك قدامى كانوا أشرافاً قبل قدومهم إلى مصر . وكانت لها في شبابه كلمة
مسموعة بين الأتراك المحليين لاصالتها في الشرف ، ثم زلت ذات ليلة مع حمام شاب هو
سرهنك الكبير لذي كان ابوه من أوساط تجار الصوف . وقد كان يمكن لهذه
الزلة ان تمر دون ان تؤدي الى شيء كثير لولا ان الزلة كانت مصحوبة بخطابات ،
والخطابات فيها ما يחדش السمعة . وقد استخدم سرهنك الكبير هذه الخطابات
بما ينبغي من المهارة حتى تزوج من الفتاة ، ولكن هذا الزواج انتهى بعكس ما
كان ينتظر ، فلم يدخل به سرهنك محيط الارستقراطية بل خرجت به عصمت
هانم من محيط الارستقراطية . ولقد كان سرهنك الكبير يحيد الاسهم والسندات
كثير مما كان يحيد المحاماة فتحولت اطياف عصمت هانم الى اوراق ، كما كانت
لسرهنك الكبير يد ميداس لا يمس شيئاً الا تحول الذهب ، فتحولت اوراق
عصمت هانم الى ذهب ، فسرهنك الصغير كان ثمرة الارستقراطية والبورجوازية
وقد أخذ من كل بطرف حقارة ولكنه لم يأخذ الا أخط ما في الجانبين . فلما
كان سرهنك الصغير في فرنسا نزلت الكارثة ومات الأب والأم في سيارتهما
نفي انقلب في التربة الابراهيمية ، فتحول ذهب آل سرهنك الى هواء . وضاع

ربع المليون في خمس سنوات ، ولولا ان الفدادين الالف الباقية كانت موقوفة
 لضاعت كذلك. أما كيف ضاع ربع المليون فسرهنك لا يخجل من التفصيل ،
 لقد كان سرهنك في ايام عزه يستخدم سكرتيراً خاصاً ليقامر نيابة عنه لا لأن
 الميسر عنده رجس من عمل الشيطان ولكن لان العالم المعطر الذي كان يعيش فيه
 لا يدع له وقتاً . لقد رأى سرهنك ذات مرة سيدة تجر كلباً صغيراً ابيض في
 شارع الشانزليزيه ، فاستوقفها وسألها عن اسرة الكلب ، فلما علم ان للكلب
 أخاً لا يزال على قيد الحياة في اسكتلندا استحضره بالطائرة الى باريس ، ثم زهد
 فيه بعد اسبوع واهدها لسكرتيه الخاص . ولكن أكبر عيب في سرهنك كان
 غرامه بشخصية يحمليون ، فقد كانت هوايته التقاط الخادومات والفلاحات
 والعاملات وكسوتهن بالفراء وتدريبهن على العطور ، وحين ترك فرنسا كان له
 في شامبيري شاليه تحتله البرتين (فام دي شامبر شقراء من بريتانيا) وفي
 الريفيرا شاليه تحتله فرانسواز (خادم في حمام عام بالحلي اللاتيني ، شقراء من
 سان كلو) ونصف طابق في الكابوسين بباريس كدس فيه ريموند وجانين
 وناتاليا البولندية ، فلاحه وغسالة وبائعة كبريت كلهن سوداوات الشعور .
 وكان هذا هو المظهر الوحيد لعطفه على الطبقات الفقيرة . كلا . كلا . ان حسن
 مفتاح لم يستطع ان يصب جام غضبه على البورجوازية . ان سرهنك معذب
 وهو يملك كل مقومات السعادة . وممدوح الشربيني ؟ انه معذب حقاً ، فهو لا
 يحب زوجته ولم يحبها في يوم من الايام وان كان يستخدمها كل ليلة ، فلقد
 تزوجها بوساطة الخاطبة . لا . ان ممدوح الشربيني لا يعرف كيف يحب . ونعيم ؟
 نعم معذب كذلك ، وهو من أوساط البورجوازيين ، فأبوه ، طبيب مشهور ،
 ولقد ضاعت منه أجمل سنوات حياته متنقلاً بين ابنة استاذة وزينب البورجوازية
 واخريات غيرها كثيرات فلم يظفر منهن بشيء مذكور ، فكلهن يطلبن الزواج ،
 وقد جاء حظه العاثر من طمعهن فيه ، فقد اتضح له من تكرار هذه العفة ان
 المراد بها طمأنته على شرفه حتى يفكر في الزواج . ان نعيماً ليست له حياة
 خاصة . بل ان نعيماً كان أشد من حسن مفتاح نقمة على النفاق البورجوازي .

كلا. كلا. ان حسن مفتاح لا يستطيع ان يغبط البورجوازية ، ولكنه يستطيع
 ان يغبط الارستقراطية والبرولتاريا ، فكلاهما يحيا حياة طبيعية ،
 ديمقراطية بشجاعتها التي تحل العقد والبرولتاريا بفطرتها التي لا
 تفهم العقد . كلا . كلا . ان حسن مفتاح لا يعرف احداً له حياة خاصة ، حتى
 صداقوه المتزوجون ليست لهم حياة خاصة . فهم يقصدون الى الديوان في
 صباح وهم يعودون الى دورهم في الثانية وهم ينامون بعد الغداء وهم يخرجون
 الى القهاوي ان اقبل المساء ولا يبرحونها حتى يحل موعد النوم . فاين هو الحب ؟
 وين هم المحبون ؟ ان حسن مفتاح يعرف انه لم يختص بهذا الحرمان من دون
 شبيب النيل . ان حسن مفتاح يعرف ان سرهنك قد بعث ربع مليون من
 خبيثات لتكون له حياة خاصة ولكنه فشل في ذلك فشلاً ذريعاً . ولقد كان
 حسن مفتاح يسأل نفسه كثيراً : « ترى ماذا سنفعل بسرهنك يوم الجيلوتين ؟ »
 ثم يبتسم وتبرز اسنانه ويتأمل عنق سرهنك الجالس الى جواره في الديلمر
 يتأملها جيداً ، يتأملها بشراهة ، يتأملها بغبطة ملحوظة ، ويتصورها محزوزة
 ومعلقة في حبل غليظ فلا يضطرب ويحيب على هذا السؤال قائلاً : « ترى ماذا
 سيفعل سرهنك بنفسه يوم الجيلوتين ؟ » وينزعج سرهنك امام نظراته المتصلة
 وبتسامته الشيطانية الساذجة ويسأله عما يغريه بالنظر الى عنقه فيضحك حسن
 مفتاح ويقول : « لا شيء . لا شيء . هو الحال في عنقك الابيض حسبته قملة » .
 ويضحكان وينتهي الموضوع . ونعيم ؟ عادت افكار حسن مفتاح الى نعيم . كان
 نعيم من قبل يشغل بمشاكل الفرد وحدها وكان يقيس الافراد بفرديته فيجعل
 من نفسه مفتاح المجتمع . ولم يكن في حياته ما يؤرقه إلا الجانب الجنسي ، فقد
 كان نعيم اعصاراً جنسياً ، لذلك حسب جميع الناس اعاصير جنسية خلعت حياتهم
 كل ما يؤرق الا سياط الجنس . ومضى يجمع الاحصاءات الجنسية ليدلل على فساد
 من نظام الحاضر . ولم يجد إلا الدين يصب عليه جام غضبه . ان جيلنا جيل هالك ،
 كان يقول . ان مجتمعنا مجتمع هالك ، كان يقول . ان انسانيتنا انسانية هالكة ،
 كان يقول . ان ادبنا استمراء . ان موسيقانا استمراء ، ان سياستنا استمراء ،
 كان يقول . ان الحياة قد افلست ، كان يقول ان الشيء الوحيد الذي يعوق

تقدم المصريين هو الهرم ، فنسف الهرم هو أول عمل وطني . أبولو بلغدير تحفة رائعة . الهرم أروع . الريفييرا جميلة . الهرم أحمل . الطباطم الانجليزية لذيدة . الهرم الذ . ان شعوب الشمال شديدة الامانة ، نحن بناء الاهرام . من أجل هذا نأر نعم على النظام الحاضر ودعا الى الثورة عليه . ولم يزل على رأيه هذا حتى اقنعه حسن مفتاح بان احصاءاته غير كاملة ، وعلمه ان ميزان العرض والطلب هو المسئول الاول عن حالة الحرمان الجنسي الذي يعيش فيه الجيل ، وافهمه ان المطروح في السوق من الرجال للعلم والعمل اضعاف اضعاف المطروح في السوق من النساء ولن تحتفي هذه الحالة الشاذة حتى يتعادل العرض والطلب . من أجل هذا كان نعم يقول دائماً ان الثورة القادمة لا بد ان تكون ثورة جنسية ، وكان له نداء يردده في مناسبة وفي غير مناسبة متشبهاً بكاتو الخطيب ، وهذا النداء هو « اسلخوا جنود الشيوخ » فقد كان نعم يحمل الشيوخ تبعة هذا الوضع الشاذ ويدعو الابناء الى سلخ جلود الابهاء ، والشيوخ عنده كل من تجاوز الثلاثين والشباب هم ما دون ذلك او بتعبير نعم : الشيوخ من يلعبون الطاولة والشباب من لا يلعبونها . وكان لا يجد في مصر ما هو أشبع من رجل تجاوز الثلاثين ، فكل من تجاوز تحجرت افكاره وبلبت نظرياته وفقد هياج الشباب وسماحته واخلاصه وسذاجته ومرونته وتسامحه فإذا به مخلوق بليد حاقد ماكر منافق متعصب شديد الجمود يترك في البيت زوجته واخته وبنته ليجلس في البول نور أو بور فؤاد أو ركس أو البوديجا يلعب الطاولة ويتمحدث في سير الغائبين ويتتبع سيقان الرائحات والغاديات من زوجات الناس واخوات الناس وبنات الناس دون ان يتحرك من مكانه ، فان رأى عاشقين يمران امامه نأر وندد بانهيأرا الاخلاق الذي جاءت به المدنية الاوربية أو جاء به الاستعمار البريطاني على وجه التعيين . وقد كان برنامج الإصلاح عند نعم معقدأ يتناول اشياء متعددة من الغاء الدين الى تحريم الطاولة ، ولكنه انصرف بعد ذلك الى جمع الاحصاءات الاقتصادية ونزل معها عن حياته الخاصة . كلا . نعم ليست له حياة خاصة . كذلك سرهنك ، رغم الديملر وخياراتها لم تكن له حياة خاصة . إلا احلامه كلما اختلى بنفسه بين عطوره وإلا ذكرياته كلما ردت الصباية الى ايام باريس .

ان حسين مفتاح لا يعرف احداً وهو الكثير المعارف ، له حياة خاصة .
نعم اذن شكواه ؟ ان القوانين الاجتماعية التي تطحنه تطحن الآخرين كذلك .
ولكنه لم يعد يحتمل . ان عايده علم رغم تفاهتها كانت تملأ فراغاً في نفسه . ان
عائده علم كانت تنشر الدفء في دائره ضيقة حقاً ، ولقد حرم حسن مفتاح هذه
-ائرة على ضيقها . ولم تكن لعائده علم قبيلات تلهب الحس ولا نظرات تلهب
وجودان ، ولكن مجرد وجودها الى جواره كان يغذى فيه براعم الحياة ،
كان يهدى اعصابه المتوترة ، كان يدمت كيانه كما يدمت الشحم الآلة فلا
تجرش تروسها بعضها البعض الآخر بفعل الصدأ او الجفاف . من يدري ؟ لعل
سبباً كان محقاً في نظرياته الاولى واوشكت روح حسن مفتاح ان تصرخ : « لقد
قتلني كارل ماركس . لقد قتلني كارل ماركس ، ولكنها عدلت غن ذلك
وقلت : « لقد قتلت نفسي . لقد قتلت نفسي » .

وحين بلغ حسن مفتاح هذه المرحلة من التفكير ارتاح : لقد اضاع حياته
بين المحابر والتقارير والجماعات الصاخبة والقراءات الجافة والمقابلات المقيمة ،
وقد وجد نفسه وحيداً بين جدران اربع ، جدران سميكة تمزله عن العالم
خارجي تماماً وترده الى التفكير في حاله . والآن قد خلا حسن مفتاح الى نفسه
فعلاً انتهى ؟ انتهى الى ان حسن مفتاح لا وجود له . انما الموجود شبح ،
شبح خاوي . انما الموجود اسم على اوراق . آلة في جهاز . مقعد في مجلس . رقم
في خلية ، اعلان في حائط . فكرة في اذهان . اما الانسان ، اللحم ذو الحقوق ،
-دة المشتاقة الى الحياة ، فلا وجود لها . وتحسس حسن مفتاح جسده فبدأ
خديه ثم هبط الى صدره الضامر ثم ضغط على فخذه ليتحقق من انه يحيا .
تحسس جسده في شوق وجزع معاً ، وحين تحقق من انه يحيا اطمأنت نفسه
و رتح جسده وغمرته لذة حيوانية اقرب شيء الى لذة الجنس ، لذة من لذة
نكسب حين يتمرغ على الحشيش في الصباح المشرق مستدفئاً بشمس فبراير السافرة .
-ة من لذة الهر حين يقبع الساعات الطوال قرب المدفأة الموقدة في زمهرير
-يز .

وبدا الحسن مفتاح ان يخلع عنه ملابسه قطعة قطعة ويتعري امام نفسه كأنه في حمام ويشبع بصره من رؤية اعضائه الحقيقية ويشبع حسه من نعومة جلده الناعم . ولكنه لم يفعل لأن البرد كان موجعاً . ثم عجب لهذه الخواطر الشاذة كيف تتردد عليه ، واعترف امام نفسه بان الحرمان يرهق اعصابه ويعرقل تفكيره المنتظم ويخرب عمله ونشاطه . ثم ماذا جنى من حياة العامة ؟ لقد فقد نفسه . لقد ضاع بين الجماهير ، وينبغي ان يسترد نفسه قبل فوات الاوان ، قبل ان يصوح ويقشعر وييبس كأعواد البوص . نعم ، ينبغي ان ينسحب من الحياة العامة وان يندمج في الحياة الخاصة . ولو الى اجل مسمى . انه لم يعد يحتمل ، ان كينونته مهددة . الرزق المهدد يهون . الحرية المهددة تهون . لكن كينونته ذاتها قد باتت في خطر . غداً يحيف كأعواد البوص . انه لم يعد يحتمل . غداً يتحول حبه للبشر بغضاً مريراً . انه لم يعد يحتمل . غداً تملأ الجماهير نهاره صخباً فان خلا الى نفسه بالليل اكتنف فراشه صمت القبور . غداً شيخوخته فكيف يجابه شيخوخته وحيداً ؟ ان اعضاء اللجنة المركزية لا شك يؤنسون . ان كئوس البراندي لا شك تؤنس . ان عمله لا يؤنس . ان الملل لا يخيفه . فالرفيق يقتله والكأس تقتله والعمل يقتله . ولكن ماذا يفعل بالتنين الجائع ؟ ماذا يفعل بالفراغ الذي ينهش من الداخل ؟ لا بحار الراح تملؤه ، ولا مقامرات الابطال ، ولا حديث شهرزاد . واسترسل في تفكيره . لا بد من الانسحاب يا حسن مفتاح . قبل ان يفوت الأوان يا حسن مفتاح . وبدأ يناجي مونا ربيع . اين انت يا مونا ربيع ؟ وبدأ يناجي عابدة علم . اين انت يا عابدة علم ؟ ان عابدة علم تكفي . عابدة علم وبندقية . لسوف يحارب كالأبطال . لسوف يحارب كالعاقلة . لسوف يرد العدو عن اسوار جرنيكا . ولكن لا بنادق بعد اليوم . ان عابدة علم لا تطيق مرأى البنادق . كفى كفاحاً . حسن مفتاح يريد ان يرى حوله عادل حسن مفتاح وكامل حسن مفتاح وسعيد حسن مفتاح ، واذا امكن فنادية حسن مفتاح . ان هذا حق من حقوقه الازلية المقدسة . ان هذا حق من حقوق الانسان . ومعهم امهم عابدة مفتاح تطعمهم بأناملها الرقيقة كما تطعم

خمامة افراخها . ان مونا ربيع جاءت من وادي الاحلام وعادت الى وادي
لاحلام كأنها قوس قزح . ان مونا ربيع طيف من اطياف السعادة وهو قد
سم الاطياف . انه يطلب المادة التي تخضع لحواسه الخمس ، يطلب
عديدة علم .

وفيا كان حسن مفتاح يفكر على هذا النسق اشتد به الضيق وعاد اليه
لاحساس بالاختناق . ولكن برودة الهواء اسعفته فلم يختنق . وحين نفدت
خوابه هداً باله ، واطمان جسده شيئاً ما ولكنه احس بالاغواء الشديد
والحاجة الى الراحة . انه ضعيف أمام الليل . انه يعلم تماماً ان هذه ترهات
لوحدة ، فهو لم يخلق ليشتري الكرنب لبيته أو لينجب عادلاً وكاملاً وسعيداً
وذو دية . بل هو لم يخلق ليكون له بيت اصلاً ، وهو يعلم ذلك قبل سواه . ولو
أنني بيتاً لهجره وعاد نزيراً في خان الحياة . ان اعصابه محطمة . انه يتحدث
عن الانسحاب لانه ضعيف أمام الليل . انه ليس ضعيفاً ولكنه ضعيف امام
ليل . انه يحتاج الى الراحة . انه يحتاج الى النوم . وحين تتجدد الحياة مع
الصباح فله أن يتدبر أمرة بما ينبغي من الهدوء ، وعندئذ يتاح له ان يختار بين
عديده علم واللجنة المركزية .

ومحطة البنزين تحت بصره حمراء مكبوتة وسط الظلام كأنها بقايا حريق
هائل ، وسط الظلام . وبصيص النور المتسرب من نوافذ العمارة الشاهقة المقابلة
قد خفتى اكثره ، ولم تبق إلا نافذة مضيئة واحدة . وانقطعت العربات من
سكة فريدة فلم يسمع حسن مفتاح الا حوافر عربة واحدة في شارع سليمان
ث خيل اليه انها تسير صوب قصر النيل . وزادت المصابيح الزرقاء سكوت
مير . وزاد سكوت الليل برودة الليل . فأقفل حسن مفتاح خشب النافذة ثم
حاجها ثم جذب الستار الاسود ليحجب النور حين ينيره ليقرأ قليلاً ، وتلمس
عريقه في الظلام الكامل الى مفتاح النور . وفي طريقه الى المفتاح وسط الظلمة

وقع بصره على المرأة الطويلة مرآة الدولاب فرأى نوراً غريباً مخنوقاً ضرب الى
 المحمرة يتجمع فيها كأنه قبس من نور محطة البنزين . وعجب لهذا النور كيف
 يصل الى المرأة الطويلة بعد ان أغلق النافذة وجذب الستار . و اراد ان ينصرف
 عن المرأة ولكن قوة مجهولة عاقته عن الحركة . فحصى يتأمل الغبش الأحمر
 فرأى في وسطه صورة فؤاد منقريوس «طلع اليه فيما يشبه العتاب ، فتلاحقت
 دقات قلبه حتى كادت ان تنفلت ، وارتفع لها صخب عال انتشر في الغرفة
 الساكنة السوداء فجعل كل ما فيها يرتجف فرقا حتى قطع الاثاث ، او خيل الى حسن
 مفتاح ذلك فقد سمع صريراً على الحشب الباركيه وطققة جاءت من السرير أو
 شبه ذلك . ووجد حسن مفتاح نفسه يقول بصوت مسموع ، « باسم الله الرحمن
 الرحيم » واحس بقطرات العرق تتحدر على جبينه وتبلل خديه . واندفع الى
 النور فأثاره وأغمض عينيه لحظة ثم فتحهما فرأى الغرفة تسبح في النور، وعادت
 تسبح في النور ، وعادت اليه الطمأنينة شيئاً قليلاً ولكنه لم ينس الغبش الوردي
 المجتمع في المرأة الطويلة من لا شيء في الغرفة الظلماء . ولم ينس فؤاد منقريوس
 الذي أطل عليه من الغبش الوردي . وكان يخشى ان يرفع بصره الى المرأة
 الطويلة فيرى ما كان قد رأى . فأطرق لحظات يرتب افكاره ويطمئن قلبه ثم
 تشجع ورفع بصره الى المرأة الصويلة ولكن فيما يشبه الخلسة . فلما رأى المرأة
 الطويلة بيضاء بلورية صافية ناصعة لا يعكرها غبش الا تتجمع فيها
 حمرة ولا يطل منها وجه ، اشتدت شجاعته وواجه المرأة الطويلة فوجدها لا
 تزال بيضاء بلورية ، ووجد النور الكهربائي قد تجمع في ركن من اركانها العالية
 وانعكس فبدا كبؤرة نورانية متفجرة يعشي سناها الأبصار اودرة جسيمة
 تمزقت كهاربها وضاعت في الفضاء بدداً . اما بقية المرأة فقد رأى حسن مفتاح
 فيها بعض اثار الغرفة معكوساً ورأى جزءاً من نفسه ، أكثر وجهه ونصف
 صدره وذراعه اليسرى فوق الفؤاد الأحمر المفروش على السرير ، ورأى

الكومودينو كاملاً وعليه القط الأسود كاملاً ورأى فخذى البنت العارية المعلقة
 فوق الكومودينو دون صدرها ورأسها . ولكل كل هذا لم يزل خوفه او عجبته
 تماماً . فقد كان يعلم ان الخروق في خشب النافذة قد يتسرب منها نور لحظة
 البنزين . اما الستار الأسود فيعزل الغرفة عن العالم الخارجي تماماً . ومشى الى
 الستار يتحنن لعله يجد به خرقاً ينفذ منه النور فلم يجد بالستار خرقاً . لم يبق
 اذن الا ان يكون الفبش الوردي والوجه المثل من نسج وهمه . ولكن حسن
 مفتاح كان قليل الأوهام . ثم انه كان يفكر بالنساء حين اغلق النافذة وجذب
 الستار . وبد له ان يجعل من فؤاد منقريوس موضوعاً للتجربة فيطفئ النور من
 جديد ويتطلع الى المرأة الطويلة ليرى ان كل الفبش الوردي والوجه المثل
 متبدين ام لا . ولكن قلبه اصطبق في صدره اصطفاً مروعاً فعدل عن هذه
 التجربة ، وازداد تشككه في حراسه . واختلطت في رأسه الافكار
 فحاول ان ينصرف الى التفكير في النساء مرة اخرى لعله ان يهدأ ، فجاءت
 افكاره قصيرة مشوشة مبتورة كأنها تنف من شريط السينما المقطوع تعرض
 عرضاً مختلفاً ، فيها لطح بيضاء وفيها بكتابة مقلوقة ، وفيها صور لفؤاد منقريوس
 بعضها مفرع وبعضها حزين وبعضها هادئ لا سوء فيه ، وفيها مدى مشحونة
 وفيها امطار غزيرة تبلل ، طلوح منازل قديمة ، وفيها جوارب صفراء ممزقة وفيها
 بنات كثيرات منهن عابدة علم ومنهن المرأة المظنقة ومنهن عظام ملكة عبد السيد
 ومنهن مونا ربيع ومنهن الخادم ندى ومنهن نسوة عرفهن في حفلات ساهرة ارتدين
 الحرائر الديكولتيه والحرائر ذات الذبول ، ونسوة يراهن كل اسبوع مصادفة
 ونسوة مجندات من « الإنسا » لا يعرفن زرق العيون صفير الشعور ونسوة
 بنطلونات رآهن في شارع فؤاد الأول ، وفيهن ليدي ماكيت وفيهن امرأة تدعى
 يولاندا روسي كان قد عرفها ببور سعيد معرفة حميمة وفيهن امرأة صعيدية
 عوراء لا يذكر ابن رآها . واختفت من هذه الرؤى المحمومة صور الرجال
 إلا صورة واحدة هي صورة فؤاد منقريوس التي كانت تتدخل بين هؤلاء النسوة
 بانتظام يوشك ان يكون ترتيباً . واشتد به الهجس فثقل رأسه واحس بحاجة

الى النوم تشبه حاجة من يتناول شراباً مخدراً . وتمدد بعرض السرير ولكنه لم ينم تماماً بل بقي بين الغيوبة والوعي . وانجلت صور النساء فما كان منها ملحاً خف وما كان منها عابراً لم يتكرر . ولم يبقَ في خياله إلا صورة فؤاد منقريوس ومن ورائه وقف الصاغ ممدوح الشربيني صاعراً في ملابس النساء ، ثم بعض المدى وشيء من الثلج المخطط بالآواحل .

ولكن فؤاد منقريوس بدا في زي بونابرت وقد دس يداً بين ازرار سترته واخفى الأخرى وراء ظهره ، وسمع حسن مفتاح فؤاد منقريوس يهمس مبتسماً : « إن أربعين يوماً تطل عليك من فوق الاهرام » ، ثم رأى علي بابا في ملابس محمد علي باشا شاهراً سيفه ومن ورائه اللصوص الاربعون حاملين خناجرهم . وخيل الى حسن مفتاح أنه قد رأى هذا المشهد من قبل . ولكن اللصوص اختفوا ثم اختفى علي بابا ثم اختفى ممدوح الشربيني بعد ان خلع ملابس النساء وقذف بها في الهواء فتلاشت ، ولم يبقَ إلا فؤاد منقريوس في ملابس بونابرت ، ثم بدأ فؤاد منقريوس في جلاب وجلاب ، وتلفت حوله فلماذا لم يجد احداً ضحك ضحكة عصبية جعلت حسن مفتاح يتصبب عرقاً وهو في غيبوبته ، ولكن فؤاد منقريوس هداً بعد ذلك وابتسم له بحنان وقال :

- السلام عليك يا حسن .

- السلام عليك يا فؤاد .

- اطفئ النور يا حسن .

فنهض حسن مفتاح وسار الى مفتاح النور متخشب الاطراف كأنه نائم يمشي في سباته وادار المفتاح وعاد الى مكانه في السرير فقال فؤاد منقريوس :

- السلام عليك يا حسن .

فاضطرب حسن مفتاح لتكرار التحية واجاب :

— السلام عليك يا فؤاد .

وساد صمت قليل واذا الصوت يتجدد قائلاً :

— السلام عليك يا حسن .

وكاد حسن مفتاح ان يهب مذعوراً فقد احس بما يشبه الاختناق ، ولكن
قوة خفية ثبتته في مكانه . أجاب :

— السلام عليك يا فؤاد .

وبعد ان سلم للمرة الثالثة أحس بطمأنينة عجيبة لا عهد له بها ، وصفت نفسه
كأنما ارتفع الى مواقع الملائكة ، وسمع رفيف اجنحة ولكنه لم يرك إلا وجه
فؤاد منقربوس تحيط به هالة من النور الدري ، وسمعه يقول :

— حاولت ان اذكرك منذ الصباح .

وبهم تذكرني ؟

— بالاربعين . اليوم اربعيني يا حسن .

وتذكر حسن مفتاح احلام الفجر واخطأ النهار وقال :

— عفواً . أنا لم افهم .

— أنت حائق يا حسن ؟

— كلا . ولكنني انتظرتك في الليلة الاولى فلم تزرني كما وعدت .

— نعم . نعم . اعلم ذلك . وقد رأيتك تنتظر ، ولكنني لم اجرؤ على
الدخول .

— ما السبب ؟

- الا تعرف السبب ؟

- هل اخافك ممدوح الشربيني ؟

فضحك فؤاد منقربوس وقال :

- كلا . وانما ردني القط الأسود .

- وما شأن القط الأسود .

- هو الذي ردني . نحن ندخل مكاناً فيه قط اسود .

- ولم لم تطلعي على هذه الحقيقة يا فؤاد .

- لم ؟ لم ؟ لان المنية لم تمهلني .

- ليتني كنت اعرف .

- ما فات فات .

- لو انني عرفت لأبعدت القط الأسود .

- ما فات فات .

- اتحب ان ابعد القط الاسود .

- كلا . كلا . لقد فات الاوان .

- ماذا تقصد ؟

- أنسيت ان هذه ليلة الأربعاء ؟ لسوف ينتهي اجلي غداً عند منتصف النهار . انت تعلم ذلك يا حسن . ولكنني لا ادري ما مصيري بعد ذلك . من يدري . قد أسجن في قبري الى الأبد . قد اطيروا الى عالم ثانٍ . من يدري ؟ ولكن اربعيني تنتهي غداً اذا انتصف النهار . نعم ، هذا شك فيه . قلت ان لم اراك قبل مطلع الفجر فلن اراك ثانية . قلت لا بد من المجازفة ، ولو حبست ألف سنة .

- من يحبسك يا فؤاد ؟

- الملسان .

- ولم يحبسانك ؟

- محرم على الأموات أن يزوروا الاحياء .

- اهذا هو العقاب ؟

- نعم يا حسن . الف سنة في جذع شجرة الجميز . أو اه ! سوف أحبس
الف سنة في شجرة الجميز . في شجرة الجميز . ولكن لا تخف شيئاً يا حسن .
لن يمسك سوء يا حسن .

- اي سوء يا فؤاد ؟

- لن يمسك سوء . القط الاسود يحميك . قلت لن يمسك سوء .

- اي سوء يا فؤاد ؟

- من زارته روح مات في شبابه . فان كانت روحه طاهرة مات غريقاً ،
وان كانت تحسه مات مخنوقاً . ولكن لا تخف . لا تخف . لا تخف . القط
الأسود يحميك . نعم القط الاسود . كان ينبغي ان أحطم القط الأسود .
ولكن لا . انا لا أرضى ان يمسك سوء . لا تخف . لا تخف . لا تخف .

- انا لا أخاف يا فؤاد . ولكن لم حكمت على نفسك بالسجن ؟ الف سنة .
في شجرة الجميز . ما اقسى الجزاء .

- لم حكمت على نفسي ؟ انا لم أحكم على نفسي . انت حكمت علي .
انت . انت . انت .

- كيف كان ذلك ؟

- ألم اسألك ان تقتل علي عبد الله ؟

- نعم ، سألتني .

- لو انك قتلتته لحلت فيه وكتب لي أجل جديد . ولكنك لم تقتله . لا بد
ان أحيا من جديد .
- ولمَ تريد ان تحيا من جديد .
- لكي انتقم .
- آه تذكرت . نعم . تنتقم . ولكنك سألتني ان أرتكب جريمة .
- نعم . وانا الآن أسالك الآن .
- انت مجنون يا فؤاد .
- أأست صديقي ؟
- طبعاً يا فؤاد .
- هيا اقتل علي عبدالله .
- هذا محال يا فؤاد .
- أأست صديقي ؟
- طبعاً يا فؤاد .
- هيا أقتل علي عبدالله .
- هذا محال يا فؤاد . كيف أقتل بريئاً ؟
- هيا اقتل علي عبد الله .
- محال يا فؤاد . محال . محال .
- لا بد ان أنتقم .
- ولمَ اقتله انا ؟ لم لا تقتله انت ؟
- العاجز يسأل القادر .
- أتقصد اني مجرم ؟

- كلا . ولكن الناس نوعان : القادرون وانت منهم ، والعاجزون وانا منهم .

- من اين لك هذا ؟

- لو انني استطعت ان أقتل لما انتحرت . نعم كان ينبغي ان اقتل زكية فقتلت نفسي .

- ولم اردت ان تقتل زكية ؟

- لانها خاتني .

- ألم تقل ان زكية « واحة في صحراء الحياة » ؟

- انها قطعة من قلب الجحيم . انها حرية في ضمير الانسانية . انها ...

- ماذا جنت ؟

- اسأل تحية .

- تحية ؟ من تكون تحية ؟

- تحية بنت الحفير مدبولي .

- ومن يكون مدبولي ؟

- الا تذكر المنيا الثانوية ؟ الا تذكر غرفتي في شارع باك ؟ الا تذكر أن أبي

قد ارسل إليّ بنتاً صغيرة عمرها تسع سنين لتخدمني ، شعرها أصفر وعيناها

زرقاوان ، وكان ابراهيم نور الدين يشدها من شعرها دائماً ، وكنت انت

تكايدها دائماً بقولك : « يابت انت لازم جايه من دير مواس ؟ »

- نعم ، اذكرها . أكان اسمها تحية ؟

- نعم ، هذه كانت تحية بنت الحفير مدبولي .

- وما لتحية وما لزكية ؟

- كنت في اليوم السابق بالذات أنجول صباحاً في ميدان السيدة فقابلت سيدة جميلة شعرها اصفر وعيناها زرقاوان تلبس افخر الثياب ويفوح منها عطر يكفي لعشرين امرأة . رأيتها ترمقني وتضحك ثم قالت : « انت مش عارفني ؟ » قلت : « لا » قالت : لكن « انا عارفاك » . قلت : « حضرتك مين ؟ » قالت . « حضرتي ؟ جرى ايه يا سي فؤاد ؟ » فارتبكت وقلت ، « انا آسف قوي لكن انا مش فاكرك . » قالت « انا تحية » ولكني لم افهم وازداد ارتباكاً فضحكت من جديد وقالت : « تحية بنت الفقير مدبولي ، خدامتك تحية بتاعت المنيا ، تحية اللي من دير مواس ، افكرت يا سي فؤاد ؟ تخونك العشرة . تخونك الخدمة يا سي فؤاد . » فأمسكت بذراعها وقلت : « انت اتغيرت قوي يا تحية ، لكن ازاى بقيت كده ؟ انت بتمشي مع الانجليز ؟ » . قالت انها خدمت بعد ان مات أبوها في بيت مهندس من مهندسي الري انتقل الى القاهرة فانتقلت معه اليها ثم حدث ان اخفت أساور سيدتها فاتهمت تحية بسرقتها وطردت وقبض عليها البوليس بضعة أسابيع ثم اطلق سراحها لعدم توفر الأدلة ، فاشتغلت ببيع اليانصيب ثم رآها شاب يدعى سرهنك . أنت تذكر الولد سرهنك الذي كان معنا في المنيا الثانوية ، سرهنك صاحب العربة الأدلر . رآها سرهنك ونظفها وجعل منها سيدة ووضعها في جرسونيرة له بشارع شموليون بجوار الانتكخانه .

- ولكن ما لتحية وما لزكية ؟

- في ذلك اليوم سألتني تحية عنك وأرسلت اليك معي سلامها ، وسألتني عن أحوالي فقلت لها اني مقدم على الزواج من آنسة تدعى زكية حنين صفاتها كذا وكذا ، وإذا بتحية تضرب كفيها عجباً ثم اقتادتني في صمت الى الجرسونيرة . وكنت اسأله في الطريق : « على فين بس يا تحية ؟ » فتجيب : « صبرك يا سي فؤاد . حاتعرف كل حاجة » . فلما وصلنا اخرجت المفتاح وفتحت الباب ، فهب في وجهي عطر غريب ، ودفعني تحية الى الداخل وقالت : « خش يا بطل . »

ودخلت فرأيت زكية حنين تسير في المدخل حافية القدمين وقد لبست روب دي شامبر من أرواب الرجال على اللحم، ورأيت صاحبنا سرهنك يجلس في مقعد عظيم ويدخن سيجاراً . وجمد الدم في عروقي فلم أفه بكلمة وانسجبت ورجعت الى بيتي حيث استخرجت مسدسي وعدت الى دار زكية ، وهناك انتظرتها تحت السلم حتى عادت وقت الغداء . ولكنني عجزت عن قتلها . بل اني عجزت عن إخراج المسدس . ونظرت الى زكية نظرة احتقار وهي تصعد السلم ولم تقل شيئاً فانتابني دوار واستندت إلى الحائط . وحين أفقت رجعت إلى بيتي وأشرت في طريقي شيئاً من الجبن ولكن نفسي زهدت في الطعام طول اليوم وفي الليل لم يغمض لي جفن ، وظللت معتكفاً حتى مجيئك في اليوم التالي .

— مسكين يا فواد .

— أجب . أتستحق زكية ان تموت ام لا ؟ .

— مسكين يا فواد .

— اجب . تستحق زكية الموت أم لا ؟

— كان ينبغي أن تموت .

— ينبغي ان تموت الآن .

— كان ينبغي ان تموت ساعتها . اما الآن ..

— لا أرى فرقاً .

— جازن يا فؤاد .

— مؤكداً يا حسن .

— ينبغي ان تموت زكية . لا بد ان تقتلها انت .

— محال يا فؤاد .

- ائعجز عن قتلها ؟

- انا ارفض ان أقتلها .

- اذن فأقتل علي عبدالله لأحلّ فيه واقتلها بيدي . انا اطلب مهلة . انا لا اطلب إلا مهلة .

- محال يا فؤاد .

- اقتل علي عبدالله .

- أنا لست بالمجرم .

- أنا لا اطلب إلا مهلة .

- محال .

- لقد جازفت وجئتك .

- محال .

- سوف احبس الف سنة في شجرة الجميز .

- محال .

ورأى حسن مفتاح الهالة النورانية تنطفئ فجأة ولم يبقَ امامه إلا وجه فؤاد منقربوس مختلطاً بالغبش الوردى ، وقد احمرت عيناه ولاح فيها غضب صريح . فاصطفق قلب حسن مفتاح وعلا لفته فقصد رأى نذر الشر توشك ان تنقض عليه . وعاد اليه احساسه بالاختناق ، وسال العرق على شعره الناعم الجميل وجرى على جبينه وسمع فؤاد منقربوس يقول :

- كان في امكاني ان احطم القط الأسود .

فارتجف حسن مفتاح ارتجافاً متصلاً . ارتجف كل ما فيه ، ارتجفت اذناه ،

ارتجفت أصابعه ، ارتجفت ساقاه ، ارتجفت شفتاه . اما قطرات الفرق فصارت
جداول بللت الغطاء الاحمر تحت رأسه ، واما قلبه فقد كف عن الحققان فلم يعد
له همسة الماضي كأنه في عداد المائتين . ولكنه رغم ذلك جمع البقية الباقية من
شجاعته وقال :

— محال . محال . محال .

وما ان فرغ من كلامه حتى سمع زمزمة كأنها الريح تقطع لها الفراش الهادى .
ونظر الى القط الأسود فإذا عيناه الخضروان تتسمعان وتحترقان في الظلام الكامل
كأنها شعلتان من البوسفور . واذا القط الأسود يهوي على الارض ويتمحطم ،
ومن بعده صورة البنت العارية المعلقة فوق الكومودينو . فشق حسن مفتاح
ونفض من مرقده مذعوراً وافلقت منه صرخة مرعبة ، واندفع نحو الباب
يلتمس النجاة وسقطت كفه على مفتاح النور فأداره ، وعادت الى قلبه ضرباته
المضطربة ، ونظر الى ارض الغرفة فرأى القط الاسود مهشعاً ايما تهشيم ،
فشق مرة اخرى ونظر الى المرأة الطويلة فرأها بيضاء بلورية صافية ناصعة
لا يعكرها غبش ولا تتجمع فيها حمرة ولا يطل منها وجه فؤاد منقريوس .
وفتح باب غرفته ونفذ منه الى المدخل واناذه على عجل ، ومضى يقرع باب مدام
ماريكا قرعاً متوصلاً حتى استيقظت ونادت فزعة : « من الطارق ؟ » ، وحين
اجابها خرجت إليه مضطربة عاجبة مستفسرة ، فجذبها من يمينها دون كلام
 واجلسها على كرسي من كراسيها الاسيوطية الراضة في المدخل . ولما استفاق
 قليلاً جمع محصوله من اللغة وصاغ منه اعتذاراً غير مفهوم ، والسيدة صابرة عليه
تسوي من شعرها الابيض المنقوش وتنتظر اليه في ذهول واشفاق حتى استرد
 اكثر طمأنينته بمطلع الفجر وروى لها طرفاً من حلمه المزعج ، طرفاً تسمعه
السيدة ولا ترتاب في عقل راويه .

وبالقهوة والسجائر والصبح العريض هدأ حسن مفتاح اتم الهدوء. ودفع باب
غرفته بثبات فوق على القط الاسود المهشم ورفض ان يتذكر ، ولكنه
علم انه من الهالكين . كذلك اطفأ النور ثم سعى الى النافذة بثبات
وأزاح عنها ستارها ثم فتحها فتدفق منها الصباح في الغرفة الساهمة .



توارى حسن مفتاح من القاهرة اذ كان لا بد ان يتوارى . كان مرهق
الاعصاب مهدود البناء . كان مرهق الاعصاب اكثر مما كان مهدود البناء . لقد
رأى وسمع اكثر مما يطيق . خرج من داره في باكورة الصباح ما ان سمع
الموتوسيكلات تقف في شارع سليمان باشا وقوافل اللوريات ، لوريات الجيش
البريطاني ، تجلجل في شارع الملكة فريدة . خرج على عجل . خرج بلا
وجهة معينة . خرج . خرج . فاراً من داره . خرج . وسار في الطرقات بخطى
واسعة كأنه ساع الى موعد ، ولكنه وجد نفسه بعد ساعة يدور حول مربع
واحد يبدأ بالناشونال هوتيل ويصل الى ميدان سليمان باشا ويمر بالبنك الاهلي
ويصل الى تقاطع الملكة فريدة بشريف باشا وينتهي حيث بدأ في الناشونال
هوتيل . وكان في الصباح ما يسر خاطره ويهدئ نفسه ولكن خاطره لم يسر
ونفسه لم تهدأ . فصحو مصر الابدی قد تجمع في شارع قصر النيل ، ولكن
حسن مفتاح لم يلتفت حتى الى اشعة الشمس المنعكسة على زجاج الصالون
الاخضر فاستحال بها المكان الى مروج الذهب ، وخطرت عرائسه الخشبية ناقصة
التياب تفتسل في الشروق الجديد كأنها حور تحلت بماسات كبيرة يتفجر منها
الضياء ، وتهادت على السندس المفروش في احلام الشعراء .

ولم يلتفت حسن مفتاح الى قلة السابلة وقد كان ينبغي ان يلتفت لان هدوء

شارع قصر النيل لم يكن هدوءاً موحشاً . وقد كان ينبغي ان يحس بأن القاهرة في بواكير النهار قد خلقت له ولسيارات الجيش البريطاني وحدهما . وقد كان ينبغي ان يحس بالدفع رغم ان عرائس الصالون الاخضر الباسمة وراء الفترينات وتمائيل بونتريمولي ورؤوس البنات التي يعرض سقراط عليها أساليبه في قص الشعور وتزيين الاهداب كانت تكويها سهام الشمس الباردة فتتشعر رغم نضارتها واستبشارها . كان ينبغي ان يحس حسن مفتاح بالدفع لانه كابد الليل الطويل في اعجاز ديسمبر المتلفة ، ولكنه لم يحس به ، ولم يحس بشيء ما الا عقارب الساعات العامة وهي ترتعش سواء في التقاطع او في الميادين . لم يستول عليه عجب ولم يستول عليه فضول ، ولكن استولى عليه انزعاج من الداخل ، ولولا السماء الضحوك ذات الاطلس الغزير الذي شف عن الشوارع الجميلة المشبهاء ذات البقع الصفراء والبقع الحمراء لاستولى عليه انزعاج من الخارج كذلك .

ان كل ما رآه وسمعه اثناء الليل كان محض خيال ، فهذه الاشياء لا وجود لها الا في خيال المحمومين ، وهو لا شك محموم . كله باطل . اسمعت يا حسن مفتاح ؟ باطل . باطل . اسمعت يا حسن مفتاح ؟ ولكن القط الاسود قد تحطم . ألم يتحطم القط الأسود ؟ نعم تحطم القط الأسود . فكل ما رآه وسمعه اثناء الليل كان حقيقة إذن ، وهذه الأشياء لا وجود لها في عالم الايقاظ . ولكن من قال ان القط الأسود تحطم ؟ نعم ، تحطم القط الأسود ، وقد رأته مدام ماريكا مبعثراً على أرض الغرفة ، وفي هذا فصل الخطاب . اهرب ايها الرجل . اهرب ايها الرجل . ان لعنة فؤاد منقريوس قد حلت به ولسوف يموت مشنوقاً . مشنوقاً ؟ لا . لا . لسوف يموت غريقاً . اهرب ايها الرجل . ولكن ... ولكن ماذا جنى حتى ينزل به فؤاد منقريوس هذا القصاص ؟ ان روح فؤاد منقريوس لا شك روح آثمة . ولسوف يموت مشنوقاً . ان روح فؤاد منقريوس تطلب اليه ان يقتل ، بل ان يقتل رجلاً بريئاً . ان روح فؤاد منقريوس لا شك روح شريرة . ولكن حسن مفتاح يعرف ان فؤاد منقريوس كان اثناء حياته مثلاً للوفاء ، لا

يحمل من الشر الا ما يحمله طفل في الثالثة ، فلا بد اذن ان روحه قد غضبت وحطمت القط الاسود في لحظة حمقاء .

يا لها من روح ناعسة . لقد كانت تتعذب . لقد تعذبت اربعين يوماً ،
ولسوف تتعذب الآن الف سنة كاملة في شجرة الجميز ، فلا بد ان لديه سبباً
قويّاً . لقد حطم فؤاد منقربوس القط الاسود ورضى لحسن مفتاح ان يموت ،
فلا بد ان لديه سبباً قويّاً ، انه يريد ان ينتقم ، ان ينتقم من زكية حنين . نعم .
ان هذا سبب قوي عند فؤاد منقربوس ، ولكن حسن مفتاح لا يفهمه . ان
حسن مفتاح يفهم الحقد كيف يكون اهوج جباراً . وهو يفهم الانتقام كيف
يكون مدمراً كالصواعق مهلكاً كمياه الطوفان . هو يفهم ان يقتل رجل رجلاً
بل ان يقتل رجل الف رجل اذا حقق ذلك خيراً عاماً ، ولسوف يقتل بيده
السنوسي باشا ورؤوف باشا وخيرت باشا وشوقي باشا حين يأتي اليوم العظيم . نعم ،
سيشققهم بيده لو امكن ذلك واحداً واحداً : في ميدان العتبة الخضراء وواحد
في ميدان باب الحديد وواحد في ميدان الاسماعيلية وواحد في ميدان الجيزة ،
سيشققهم على مرأى من الجماهير الهائجة الظأى الى الدماء ، كل في مكان جريمته ،
الاول حيث اباد مائة رجل يطالبون باحياء الدستور ، والثاني حيث اباد نحو
خمسين عاملاً مسالماً يوم تظاهر عمال النقل طالبين رفع الاجور ، والثالث
حيث سقطت جموع لا حصر لها تنادي بسقوط الانجليز والرابع حيث سقط
خمسون طالباً يوم تظاهر الطلبة منادين بتنفيذ الدستور .

ولسوف يجد حسن مفتاح لذة في شققهم . ولكن حسن مفتاح لا يفهم كيف
يقتل رجل رجلاً لأنه فر مع زوجته أو لأنه طعنه في كبريائه أو لأنه غشه في
البوكر . ان حسن مفتاح ليست له حياة خاصة فهو لا يفهم هذه العواطف
الخاصة . ثم ما شأنه هو بكل ذلك ؟ اذا شاء فؤاد منقربوس ان يقتل زكية
حنين فليقتلها بشخصه أو فلينس ما كان . اما ان يزج بحسن مفتاح في جريمة
لا شأن له بها فهذا ما لا يقبله حسن مفتاح ، وهذا ما لا يفهمه حسن مفتاح في

فؤاد منقريوس . انه لن يقتل علي عبدالله ولو جاء بذلك أمر من السماء . ان روح فؤاد منقريوس لا تزال حائمة ، ولعلها الآن تتبع خطاه (هنا يلتفت حسن مفتاح مذعوراً ويحلق في الفضاء الابيض) ، ولكنها سوف تدخل شجرة الجميز عند الظهيرة ولسوف يرتاح حسن مفتاح منها الى الأبد ، أو على الأقل حتى يلقاها في عالم الارواح . فلو ان حسن مفتاح قتل علي عبدالله لما انتفع فؤاد منقريوس بذلك . وهبه ينتفع بذلك فان حسن مفتاح « لن » يقتل علي عبدالله ولو عذبه الالبسة . لن يقتل حسن مفتاح علي عبدالله ولو علم ان في ذلك الخلاص لروح فؤاد منقريوس . لن يقتل حسن مفتاح علي عبدالله . لن يقتل ... لن لن يقتل يقتل يقتل لن لن لن . لن يقتل . لن . ثم ما أدراه ان فؤاد منقريوس سينتفع من قتل علي عبدالله لو تجسد فيه ؟ ان فؤاد منقريوس مخلوق وديع لا يملك ان يقتل دجاجة فكيف يقتل زكية حنين؟ ألم يعترف له ليلاً بأنه ترصد لها تحت السلم بعدوقوفه على خيانتها ولكنه عجز عن قتلها فانتحر؟ وما الدليل على انه لو اتاحت له فرصة أخرى سيقتلها؟ أليس الأرجح انه سيجعل مسدسه ويتعقبها فترة من الزمان بباب سرهنگ وبباب ابها وبباب الحياطة وبابواب السينات وفي الحوارية الضيقة دون ان يحسر على قتلها .

وحين يئأس من قتلها قد ينتحر مرة أخرى ويعود من حيث بدأ أو يأوى الى معتزله في شجرة الجميز يبكي احلامه الضائعة . ليس هذا هو الأرجح بل هذا هو المؤكد . فما جدوى قتل علي عبدالله ؟ ان فؤاد منقريوس قد قالها بنفسه . ان في العالم اناساً يقتلون واناساً لا يقتلون . وحسن مفتاح من الفريق الاول وهو لا يعلم ذلك ، وفؤاد منقريوس من الفريق الثاني وهو يعلم ذلك ايضاً . لعل لأرومته التي اكلت الزيت ألفي عام دخلاً في ذلك اذ كسرت فيه ناب الشر ودمشته على طريقة الاقباط .

ولكن لا . ان اليوزباشي شحاته منقريوس شرس غضوب خليق بأن يبديد قرية بأكملها . ان اليوزباشي شحاته منقريوس لا أثر فيه للأجيال آكلة الزيت ، وما

من مرة رآه فيها حسن مفتاح الا وخيل اليه أن مثله يأكل في كل وجبة أقة
من اللحم النيء . ترى كيف أنجب اليوزباشي شحاته منقريوس فؤاد منقريوس؟
كيف ؟ كيف ؟ كيف ؟ فؤاد منقريوس قاتل . ها ! ها ! ها !

وحين بلغ حسن مفتاح هذا القدر من التفكير خطر له خاطر غريب . خيّل
اليه ان فؤاد منقريوس قد ابتكر هذه القصة الشيطانية ليكتب له اجل جديد .
ولكنه انتحر ، فلا بد أن لانتحاره سبباً . ان حكاية زكية حنين حكاية متأسكة ،
وهي حكاية تتكرر كل يوم عشرات المرات ، وحسن مفتاح يعلم انها ظاهرة
مألوفة في المجتمع المصري حيث يتم الزواج بالوسيط او بالضغط الخارجي ،
وحيث يحيد الفتيان والفتيات بعض المشقة في التخلص من غرامياتهم السابقة ،
حيث الخيانة ان لم تحدث بالفعل فهي حادثة بالفكر لمن لاحيلة لهم او للزاهدين .
ولكن من قال ان فؤاد منقريوس قد انتحر ؟ ان الطبيب الشرعي قد احتمل
الرصاص الطائشة ولو من قبيل الفرض . نعم . ان الرصاص التي أردت فؤاد
منقريوس كانت رصاص طائشة ، فزكية حنين لم تخن ، وفؤاد منقريوس لم ينتحر
اما حديث الانتقام فخرافة اختلقها فؤاد منقريوس لانه يجب الحياة ويود أن
يكتب له فيها أجل جديد . ان روح فؤاد منقريوس روح مأكرة ترعج الهادئين
وتوعز بالقتل لتعيش من جديد . انها روح لعينة . انها روح لعينة ، ولو لم تكن
روحاً لعينة لما حطمت القط الأسود ورضيت لحسن مفتاح الوفي الأمين أن
يموت في شبابه وأن يموت مشنوقاً . أغربي ايتها الروح للعينة ! أهرب ايتها
الرجل ! أغربي ! أهرب !

ما هذه الترهات يا حسن مفتاح ؟ ان عقارب الساعات لم تعد ترتعش ،
وعرائس الصالون الاخضر وبونتريمولي وسقراط قد استدفت بالشمس التي ارتفعت ،
ورائحة الصباح الجميلة قد اختفت وحلت محلها رائحة القهوة في الريتز ، وفي
الافريكا وفي بار مترو وفي الامريكين ، وهدوء الصباح بدده باعة الصباح
الهاتفين : اهرام اهرام . جبشان ميل ميل . جببت الجببت . والسيارات

الخاصة السوداء والخضراء والصفراء والداكنة الصفرة من كل ذات كلاسون مزعج او نفيير ، واقدام السابلة المهرولين ، ودخل العالم الخارجي في نفس حسن مفتاح رويداً رويداً حتى هدأت نفسه وكاد ان ينصرف عن التفكير . وابتاع بمض الصحف وسمى الى الامريكين القديم ليشرب شيئاً من القهوة ويأكل بضعة من الكرواسان ، وسار بين الناس كالأبله لا يعلم ما نزل به . ان خصلة من مفرقه الابيض الجميل قد ابيضت . ولكن حسن مفتاح لن يعلم ذلك لانه لن يتطلع الى مرآة بعد اليوم ، الا ان يدلّه عليه صديق من اصدقائه . ولكن حسن مفتاح قد هدأ الان بعد ازعاج لان السابلة قد ملأوا الشوارع ، واكثرهم من الاجانب يحمل كل بورقنيولو جسيمة كأنهم ذاهبون جميعاً الى المحاكم . ولكن لا مفر من زيارة علي عبد الله فحسن مفتاح لن يطمئن قبل ان يتأكد من صدق حواسه او كذبتها . ان علي عبد الله لا شك يحمل السر . ان فؤاد منقريوس الذي ازعج الصديق لا بد ان يكون قد ازعج الفريسة . فان أيد علي عبد الله مزاعمه فقد وجب عليه الفرار ، الفرار حيث لا تطارده هذه الروح اللعينة ، وان نفى علي عبد الله مزاعمه وجب عليه ان ينسى الموضوع تماماً . ووجد حسن مفتاح ان كل تفكير سابق لذلك يضير اكثر مما ينفع فهدأ باله . وبعد ان هدأ باله قرر ان القط الاسود قد تحطم فعلاً ، ولكنه قرر كذلك انه لا بد قد حطمه بيديه وهو قائم يتلوى تحت كابوسه المزعج .

وفي الامريكين جلس يتناول افطاره ، وهو شيء من القهوة وعدد من الكرواسان ، ويقرأ الصحف . وكان أول ما وقعت عليه عيناه الشارة السوداء التي تجلجل الركن الأيسر من الصفحة الاخيرة . وتحت الشارة السوداء قرأ : « يقيم اليوزبائي شحاته منقريوس مأمور مركز الفيوم قداس الاربعين عن روح ولده بكنيسة مارجرجس » فارتجف حسن مفتاح وكادت ان تسقط الصحيفة من يده وحسب ان هذا صوت الفال . ان فؤاد منقريوس يطارده حتى في القهوة ذاتها . ولكن هدوءه عاد إليه حين ذكر ان الناس يعلنون دائماً عن الاربعين

وان ورود الخبر في « الاهرام » امر طبيعي ، بل وجد انه من غير الطبيعي ألا يرد الخبر في « الاهرام » . ومضي يقرأ البلاغات الحربية ثم انباء الداخل ثم نسى نفسه جملة في مقال يحصي ضحايا التيفوس والمالاريا الحبيشة في الصعيد .

وفيا هو يتناول فطوره اذ لمح رجلاً يتناول قهوته بين البار والخزنة ، وارتجف لمرآة : فقد كان الرجل علي عبدالله . أي قدر هذا الذي يسوق الرجال كأنهم قطع الشطرنج . ان حسن مفتاح لم يكن يرى علي عبدالله إلا غراراً منذ انفصالهما بعد البكالوريا . مرة كل عامين او ما يشبه ذلك . ترى ماذا ساق علي عبدالله الى حسن مفتاح يوم الاربعين ؟ لعل روح فؤاد منقربوس قد همست في اذنه صباحاً وقادت خطاه الى حسن مفتاح ليم فيه حسن مفتاح الأمر العظيم . وزاغت عينا حسن مفتاح وأحس بالجريمة تملأ جو الامريكين تحت الخيمة الداكنة ، ورأى الهواء الاشهب يتمزق أمام بصره وتتطاير منه ذرات لامعة كأنها الكهارب الهاربة . ثم رأى سواداً : حلقة كبيرة سوداء حجبت عنه البار والخزنة وعلي عبدالله وكل شيء . ولكنه استرد رشده بعد قليل . ان فؤاد منقربوس لا شك آثم وملعون ولا يستحق ان يقام على روحه قداس في كنيسة ، فقداسه الحق بين القتلة والخونة والكذابين والأمارين بالسوء ينبغي ان يقيم الابالسة حول الجيف البرصاء بين القبور لتهلك روحه أبد الأبدين . ان فؤاد منقربوس قد حطم القط الأسود وفي هذا الكفاية .

ولكن حسن مفتاح كان يعلم ان هذه فرصة نادرة للقاء علي عبدالله . فهو لا يعلم له مسكناً ولو افلتت منه الآن لاقتضاه ذلك ان يقصد الى وزارة الاوقاف ، حيث يعمل علي عبدالله بادارة الجماعات الخيرية ، لكي يحصل منه على موعد وفي هذا مضیعة لنهارين . كذلك ادرك ان تروده صبياني ليس له ما يبرره . ودرس يده في جيبه باحثاً عن الآلات الحادة ، مبرأة أو موسى أو اي شيء ، فلم يجد من هذه الآلات شيئاً فاطمأنت نفسه وأمنت شر الوسواس ؛ كل ذلك

وعلي عبدالله في شغل عنه بقهوته وفطيرته بين البار والحزنة ، لا يبدو لحسن مفتاح منه الا الجانب الايسر .

واخيراً نهض حسن مفتاح وتقدم من علي عبدالله وحيّاه ودعاه الى مائدته فأستجاب . وسأله عن أحواله فهمهم علي عبد الله بما لا يفيد شيئاً . ولم يعجب حسن مفتاح لذلك ، فقد رأى جفنيه متورمتين ورأى الزرقة ضاربة فيما تحت عينيه ، ورأى الشيب قد امتد الى بعض شعره قبل الأوان . وقال علي عبد الله انه ما كان ليتعرف على حسن مفتاح فقد شاب مثله قبل الأوان في الناصية . فلما سمع حسن مفتاح هذا الكلام تحسس رأسه بأصابعه وحك ذقنه حكاً متواصلاً ، وتجمع في عينيه ما يشبه اليأس . وقال علي عبد الله انه كان دائم التفكير في حسن مفتاح منذ أكثر من شهر لغير ما سبب معلوم . ثم كان سكوت واطراق طويل . ولكن حسن مفتاح لا يحتمل الصبر . ولم يدر كيف يبدأ المناورة ، انه لا يستطيع ان يكشف علي عبد الله بخواطره وشكوكه خشية أن يهزأ منه علي عبدالله ويظن بعقله الظنون . ان حسن مفتاح يرى القرائن تتواتر ولكنه لا يجرؤ على اذاعة هواجسه . وأخيراً طبق حسن مفتاح الصحيفة بعناية وناولها لعلي عبدالله فقرأ علي عبدالله الخبر في انزعاج واضح . وسأله حسن مفتاح قائلاً : « اتذكره ؟ » اجاب : « نعم » . وكان صمت جديد . قال : « لقد كان شديد الشبه بك » . اجاب : « نعم » . ولم يصف الى ذلك شيئاً ولكنه ابتلع لعابه ، فعلم حسن مفتاح انه يعرف شيئاً كثيراً . وكان لا بد لاحدهما ان يكسر الصمت فتأهباً للكلام في وقت واحد . ثم نظر كل منهما الى الآخر واطرق ولزم الصمت الطويل . واخيراً قال علي عبد الله :

- اتعتقد في الأرواح ؟

اجاب حسن مفتاح :

- لا ادري . اتعتقد انت فيها ؟

- نعم .

وحين اطمأن الى ان حسن مفتاح لن يهزأ اضاف :

- انا الآن اعيش في جحيم يا حسن ، ففي كل ليلة أحس باختناق شديد وأصحو نحو منتصف الليل على صوت قعقة كأن يداً خفية تحطم أثاث غرفتي ، أو صوت حشرة كأن رجلاً يكابد الموت في غرفتي ، أو صوت نحيب موجه متصل كأن رجلاً يبكي خطاياه في غرفتي . ولقد صحت ذات ليلة على رياح شداد تعصف بغرفتي رفعت عني الغطاء واطاحت بالصور المعلقة فهشمت بها المرايا ، وحملت كتابي الذي أقرؤه قبل النوم الى أقصى الغرفة وملأت البيت صغيراً أيقظ النائمين .

- ومتى كان ذلك ؟

وسكت على عبد الله سكوت من يراجع نفسه ثم قال :

- كان ذلك منذ اربعين يوماً .

وشخص حسن مفتاح اليه ببصره ثم تطلع الى النعي في الصحيفة الملقاة على المائدة الخضراء ذات المفروش الخطط . وتنبه علي عبدالله الى ما يفعله حسن مفتاح ، والتقى بصراهما .

قال حسن مفتاح :

- أي يوم مات فؤاد منقربوس .

- اظن ذلك ...

- ألا تستطيع ان تربط بين الحادثين ؟

- ولكن ما شأن فؤاد منقربوس . ان صلتنا ايام المنيا الثانوية لم تتجاوز التحية ، وما آذيته في حياتي وما حملت له حباً ، فقيم يزورني فؤاد منقربوس ؟

- لعل شدة الشبه بينكما جعلته يأنس اليك يا علي .

ولم يعرف علي عبدالله بم يحبب ، ولكنه قال بعد سكوت طويل :

— هذا جائز ، واعجب منه ان اراك انت في منامي شاهراً مدية تلعب في الظلام تطعن بها رجلاً يلبس بعض ثيابي ، ولكني لا اتبين له وجهه . لقد رأيتك تفعل ذلك ثلاث مرات .

— لعل الذي اطعنه في احلامك هو انت شخصك .

واوشك علي عبدالله ان يضحك رغم جفنيه المتورمتين ، ولكنه لم يفعل بل اجاب :

وفيم تقتلني ؟ أنا ما رأيتك منذ عامين .

وصمت حسن مفتاح ، فقد خشى ان يتكلم فيفضح سره . الساعة قد جاوزت التاسعة . ولم يبق أمام فؤاد منقربوس إلا ثلاث ساعات يسجن بعدها داخل شجرة الجميز فيريح ويستريح . وخير لعل عبدالله ان يجهل الكيد الذي كادته له القوى الخفية حتى لا يصيبه مس أو تنهشم اعصابه الى يوم يموت . ثلاث ساعات بعدها يستطيع علي عبدالله ان ينام ملء جفنيه فلا تزعجه المدي المشحوة في الظلام ولا الرياح العاوية بين جدران اربع ولا قوى الجحيم وهي تحطم اثاره تحطيماً لتضع له منه نعشاً وتابوتاً . ان علي عبدالله يقول انه فكر في الانتحار واوشك ان يقدم عليه لولا حسن المصادفات . خيراً فعل علي عبدالله ، ولقد كتبت له السلامة . ان علي عبدالله يؤمن بالارواح فلو وقف على ما كان يجري في الحفاء للازمه اضطرابه بقية عمره ، لانتحر أو لجن دون ضرورة . فليخف حسن مفتاح عنه السر ، فلم تبق إلا ثلاث ساعات . ولكن علي عبدالله لا يزال مضطرباً ، وهو ينظر الى حسن مفتاح نظرات غريبة بعضها صريحة وبعضها مختلطة بعضها مطمئنة وبعضها هربتة . واوشك حسن مفتاح ان يسأله عن مسكنه ، ولكنه عدل . ان روح فؤاد منقربوس لا تزال حائمة في الهواء ، ولعلها واقفة بالباب بين البار والحزنة ترقبها ، ولعلها جالسة بينها الى

المائدة الخضراء ذات المفروش الابيض المخطط تصني الى حديثها . واطلمت الدنيا لحظة أمام حسن مفتاح فرأى الدائرة السوداء التي كان قد رآها من قبل ، ورأى في وسطها سكيناً يلعب . ورفغ يمينه في الهواء ليمسك بالسكين وأوشك أن يمسك به ولكنه افاق على قول علي عبدالله :

— ماذا انت فاعل ؟ ابك دوار ؟

ولكن الذعر كان مرتسماً على وجه علي عبد الله ، ورغب في النهوض فوراً ولكنه خجل امام نفسه ، وادرك حسن مفتاح ما يحول بخاطره ، وسمع الصوت الأول يقول : « اهرب ايها الرجل » ، فنهض على عجل . لم يبق الا ثلاث ساعات حقاً ، ولكن الافلاك قد تتصادم والدنيا بأسرها تصير ناراً ودخاناً في هذه الساعات الثلاث . أهرب أيها الرجل . ان الروح الآتمة لا تزال تحوم في جنبات المكان . الا أهرب ايها الرجل . وبدأ لحسن مفتاح ان ينصرف بغير تحية ولكنه خجل امام نفسه وقال ؟

— اسمع يا علي . أنت في أمان بعد انتصاف النهار ، فبانتصاف النهار تنقضي أربعون فؤاد منقريوس وتأوي روحه التائبة الى قبره حيث تقيم الى الأبد بعيداً عن عالم الاحياء . لن تعصف بغرفتك الرياح بعد اليوم ولن يتحرك فيها ركز ، فطب نفساً ودع عنك هذه المخاوف . ولكن عدني بشيء واحد . قال علي عبد الله وهو يحملق كالأبله :

— ماذا تريد ؟

— لا يزال امامك ساعتان او ثلاث قبل ان يزول عنك الخطر تماماً ، فلا تهرج هذا المكان . ان حياتك مهددة . مهدد من الداخل . مهددة من الخارج . اتفهم . لسوف تحس بالاختناق . لسوف تحس بالاختناق . لسوف تتعذب . لسوف تضيق بالحياة ، وتشتهي الموت . ولكن كل هذه سيزول اذا ما انتصف النهار . لا تقترب من النيل فقد تغريك امواجه الهادئة بالراحة الكبرى . لا تهرج مكانك

حتى الظهيرة . أفعل ما أوصيك به تسلم ، والا كنت من الهالكين . وفوق هذا وذلك لا تجزع ، فكل ما في الامر ان روحاً شريرة تكيد لك ولسوف تحتفي هذه الروح عند انتصاف النهار .

ثم انطلق حسن مفتاح مسرعاً . انطلق ولم تكن له غاية الا ان يتعد عن الامريكين . واصطدم بالمارة . واصطدم بأعمدة النور . واوشك ان يصطدم بالسيارات الخارجة من وراء الناشونال هوتيل . وكان يعلم ان روح فؤاد منقريوس لا تزال تحوم بالامريكين لتغري علي عبد الله بالموت فتحل فيه ، لذلك لم يكن في سيره جزءاً ولكنه كان يطلب الهرب . وكان بين حين وحين يتحسس مفرقه كأنه يريد ان يزيل منه الشيب وكان يحك ذقنه . ترى ماذا يفعل بشعره الاشيب ؟ لا بد أن يصبغه حتى يتجنب الاسئلة والتفسيرات والنظرات . ولكن اين يصبغه ؟ الى الحلاق اذن قبل ان يراه من يعرفه . كلا . انما يكون الحلاق بعد انتصاف النهار ، لأن الحلاق يستخدم الموسيقى ، والروح اللعينة الغاضبة التي حطمت القط الاسود قد تكون باقية على غضبها فتزين للحلاق ان... اين تراه يمضي ؟ الى الجنوب ما في ذلك شك ، لان الجنوب يباعد بننه وبين الامريكين . وحين بلغ مقابل قاعة نويليس لمح نعيماً يسير في نفس الاتجاه امام الحانوت فادار وجهه ناحية الشبان المسيحية . ترى هل رآه نعيم ؟ ان لم يكن قد رآه فهو لا بد رائيه . ودخل حسن مفتاح جماعة الشبان المسيحية وسال عن ماجور دنكان فيليبس ، صاغ في الجيش البريطاني لا وجود له إلا في خيال حسن مفتاح . كل ذلك ليطيل المسافة بينه وبين نعيم ، وقد اطالها ، فما ان خرج حتى كان نعيم قد اختفى . الى ٢٢ شارع الملكة فريدة . كلا فلعل القط الاسود لا يزال مبعثراً على الباركية . ايان ؟ ايان ؟ كان ينبغي ان يقف ليفكر ، ولكنه لم يحسر على الوقوف . الى الجنوب . نعم ، الى الجنوب . لولا موعد الليلة هرب الى الجنوب ، الى الصعيد ، الى الاقصر ليستجم فهو بحاجة الى الراحة . انه لا يخاف الروح ، انه لا يهرب من الروح ، فالروح سوف تقيد عند الظهيرة .

انما هو بحاجة الى الراحة . الراحة . الأقصر الجميلة القدرة . الأقصر . الراحة . ان حسن مفتاح لا يزال أمام قهوة وستمستر فليدخل اذن وليرتب افكاره ، وليكتب خطابه وتقاريره فلا بد من الاختفاء من القاهرة شهراً كاملاً على اقل تقدير . نعم ، لا بد . وفي وستمستر كتب حسن مفتاح خطابين ، واحداً لعائدة علم والآخر لمندوب اللجنة بطنطا يشرح له فيه السياسة الجديدة . ثم انطلق الى مكتب تلغراف عدلي باشا وارسل خمسن برقيات الى رامز والى الصواف والى علوي والى روزنشتاين والى عنايات ممدوح يدعوهم الى الاجتماع به . فلما فرغ من بعض مكالماته التليفونية كانت الساعة قد اوشكت على الظهر . فسمى متلصصاً الى دكان حلاقة في ميدان الاسماعيلية . وارتجف لمراى المرأة ولكن المرأة لم تلبث ان ردت إليه هدوءه ولم يأخذ مكانه توأ بل انتظر بعض الوقت متظاهراً بقراءة الصحف . كل ذلك وعينه تختلس النظر الى الساعة المعلقة ، فلما ان تطابق عقرباها تنفس الصعداء ونظر الى ساعته وكان لا يثق بها ، فاذا عقرباها متطابقان ، واطل برأسه من الدكان ليقراً ساعة الميدان فإذا عقرباها متطابقان كذلك . وعاد الى مكانه الاول ، ونقل بصره في ارجاء الصالون كأنه ينتظر علامة ، فلم يرَ علامة ولم يسمع علامة وطفق يلغو مع الاسطوانات عن ساعته وكيف انها تضله احياناً ، وخلعها وادارها عليهم ، ثم فتحها وألصقها بإذنه ثم اقفلها وربطها حول معصمه . كل ذلك ليطمئن الى فوات الظهر بشهادة جميع الساعات ، ولقد استهلك في كل ذلك التسويف نحواً من عشر دقائق . وقبل ان يأخذ مكانه من الحلاق سأل الزبون الوحيد الجالس عن الوقت فأجابه بما طمأن نفسه . ثم وضع نفسه اخيراً تحت تصرف الحلاق .

وتصفح في المرأة العظيمة وجهه فراى الخصلة البيضاء في مفرقه ومسحها بيمينه ، ولم يكن الشيب كثيراً ، ولكنه كان شيئاً على كل حال . مسكين علي عبدالله . انه الآن في الامريكين لا يحسر على مفادرتها . انه يفرك المفرش الابيض المخطط أو يحرش اسنانه كلما أصابه احساس بالاختناق أو اسودت

الدنيا أمام عينيه . ولكنه الآن احسن حالاً ولا شك . انه الآن يفكر في الانصراف ولا شك . انه قد نجا ولا شك . نجا؟ من قال انه نجا؟ من قال انه لم يضعف؟ لعله الآن في قاع الليل أو في القصر العيني . وارتجف حسن مفتاح تحت الصابون الذي كسا سالفه . ان الحلاق يتكلم بلا انقطاع وهو لا يسمع كلمة واحدة مما يقول . لعله يتحدث عن شعره الذي شاب قبل الأوان . ولكن لم هذه الأفكار السوداء؟ ان علي عبدالله قد قاوم اربعين يوماً بلياليها فالأرجح انه لم يضعف في اللحظة الاخيرة .

النوم ، القطار . اللجنة المركزية . نعم ، اللجنة المركزية ، فلا يزال أمام حسن مفتاح تحضير كثير لاجتماع المساء . أما النوم فيمكن اجراؤه في القطار . لا بد اذن من العودة الى ٢٢ شارع الملكة فريدة ، لتحضير بعض التقارير ولتنسيق بعضها الآخر . ولتشكيل اللجان على الورق في الضوء الجديد . ان القط الأسود لا يخيفه الآن . أما القطار فقطار الليل ، قطار الساعة العاشرة . ولكن ماذا تراه يصنع في الاقصر؟ انه ليس بحاجة الى الدفء فليذهب اذن الى الاسكندرية ، فهو لا يعرف احداً في الاقصر ، ولسوف يحتاج في جو الوحدة المطلقة . ولم لا يذهب الى مسقط رأسه دماريس ، مركز سمالوط ، سوسنة الاودية . ولكن ليبدأ بالاسكندرية فهو بحاجة الى ان ينغمس في تيار الحياة ، وان يصير الى قطرة في ذلك التيار تدفع غيرها من القطرات وتدفعها غيرها من القطرات ، قطرة لا تحس بنفسها ولا يحس بها احد انه بحاجة الى الهواء الملح يملأ به رئتيه . انه بحاجة الى الزنك البارد السائل المتموج الذي تشرف عليه نوافذ اثنيوس لعله أن يعيد إلى نفسه الهدوء . انه بحاجة الى تصفح افخاذ الراقصات في التريانون حيث يستطيع ان يأكلها بعينه غير ملحوظ . انه بحاجة الى عروس البحر يخاصرها ويقبلها ويسكب الراح بين ثدييها . انه بحاجة الى مرأى الغيوم لان صحو القاهرة البشوش قد أمله إملالاً . فان اصاب بعض المطر فيا لسعاده حين يتخلل ماء السماء شعره ويلذغ اذنيه ويجري على عنقه رطيباً بارداً . انه يحب

ان يجلس على صخرة في ستانلي او سيدي بشر، صخرة من تلك الصخور الخضراء التي كساها البحر وجوفتها امواجه في الف موضع ، انه يحب ان يجلس على صخرة من تلك الصخور الخضراء التي كساها البحر وجوفتها امواجه في الف موضع ، انه يحب ان يجلس على صخرة من تلك الصخور ويدلي قدميه العاريتين في الهواء ، ويحرق على الشاطئ البعيد ، ويحرق في الأفق البعيد ، يحرق حتى تتعب عيناه من التحديق ، وتتجمهر الطبيعة البكر في وجدانه فيأخذه الوجد ويتحد مع الوجود ، فيستلقي على الصخرة ذات الطحلب ويعري صدره للسماوات ويفتح فؤاده لهمس النسيم وشقشقة الموج وزقزقة الزوارق السابحة واللفظ العلوي الجميل الذي يأتي مع الصباح من الأرخبيل الايجي البعيد ، حيث بانثيا تمشط غدائر أيون الزرق عند شواطئ سريفوس وبروتيوس العجوز بساحل صاموش بيت زفير شجوه على محارته التي خرجت منها فينوس ام الغرام .

كل ذلك يحبه حسن مفتاح . ولكنه قبل كل شيء يحب ان ينام . فالآن قد هدأ باله وهو متمدد على الكرسي الاسيوطي بداره يشرب البراندي ويأكل الزيتون الاسود ويحلم بالسعادة . ونام حسن مفتاح بعد ان ثقل رأسه . نام نوماً قريراً . نام كما ينام الأطفال . نام .

وصحبا في الوقت المناسب ، نحو الخامسة . وأعد حقيبته الصغرى أولاً ، ثم انصرف الى أوراقه يدرسها ويعلق عليها حتى كانت السابعة ، وفي السابعة توافد المدعوون حتى اكتملوا عدداً : وكانوا عنايات ممدوح وبطرس قلادة وصفواناً والجيار ورامزاً والصواف وزيادة ومنصوراً وعلي علوي وروزنشتاين . وتكدسوا جميعاً في المدخل الصغير وتناول بعضهم الشاي وتناول بعضهم البراندي . ثم اعلن لهم حسن مفتاح نجاحه في ضم الصفوف ، وشرح لهم الأسس التي وضعتها اللجنة المركزية للاندماج فوافقوا عليها . وتجادلوا في تشكيل اللجنة المركزية الجديدة ، فانتمهوا الى ضم رامز وزيادة ومنصور عن جماعة الأحرار والصواف عن جماعة التطور بالاضافة الى روزنشتاين وعلي علوي . وتنحت عنايات ممدوح عن

السكرتارية وتسلم روزنشتاين امانة الصندوق . و اجرى انتخاب السكرتير الجديد فاذا به حسن مفتاح باجماع الآراء ، ولم يشذ عن الاجماع إلا صوته هو فقد اعطاه لعنايات ممدوح . ثم انتقل المجتمعون الى موضوع الخلايا فاعادوا تنسيقها الاجمالي واطلقوا يد الجيار في امر ربطها ، وطلب الصواف الاشراف على الدعاية فأعطي له ما طلب على ان يحتفظ بالصحيفة لصفوان . وتحذثوا في ان تكون للجنة المركزية رئاسة فخريّة نائمة وان تكون الرئاسة لعلي علوي . وتحمس حسن مفتاح لهذا الرأي تحمّساً شديداً مما لفت انظار زملائه الأولين ، فلقد كان ابداً يقول ان اللجنة المركزية ليست بحاجة الى رؤساء . ولكنهم لزموا الصمت حتى لا يثيروا الشقاق في أول اجتماع . ولقد فطن حسن مفتاح الى المعاني التي ارتسمت في عيونهم فلم يطلب الموافقة بل سأل ان كان هناك من يعترض ، فلم يعترض انسان . وقررت الجماعة اقامة حفل بدار روزنشتاين ابتهاجاً بالوحدة الجديدة ، وقررت اصدار بيان عام يوزع في جميع انحاء البلاد ليذف للناس نبأ هذه الوحدة وقررت الاحتفاظ بالمراكز والنوادي القائمة احتفاظاً صورياً حتى اعلان الحزب اعلاناً رسمياً ، لكي تجدد اللجنة المركزية واجهات متعددة تعمل من ورائها كلما اشتد عليها ضغط الحكومات . ثم اوصاهم حسن مفتاح بانتخاب رجال الصف الثاني على وجه السرعة استعداداً للطوارئ . وبعد ان فرغ اعضاء اللجنة المركزية من بحث هذه الأمور رجاهم حسن مفتاح ان يأذنوا له بالسفر شهراً يجدد فيه اعصابه ، وبعد لحاج قليل اذنوا له بذلك ، وفوضوا عنايات ممدوح في ان تتولى اعمال السكرتيرية في غيبته . وجمعت عنايات ممدوح اوراقها وانصرفت . وانصرف من بعدها روزنشتاين ثم تفرق الباقي ولم يبق منهم سوى بطرس قلادة وصفوان .

وسار الثلاثة الى باب الحديد . واخذ حسن مفتاح يداعب بطرس قلادة طول الطريق ويفتت قلبه برق . اسمع يا بطرس ، حرام ان تفعل كل هذا بسعدية الطويل . ان كنت يا بطرس لا تجد الشجاعة الكافية للزواج منها فتخلّ

عنها لغيرك . يا بطرس ، اسلم تسلم ، يؤتك الله اجرک مرتين . انت يا بطرس لا تزال بورجوازيًا متعفنًا . يا بطرس ، طلقها فلست لها بكفء . ولكن القطار ينتظر والناس يهرولون . ومدام كلاداكيس صاحبة بنسيون رويال المطل على البحر لا شك تنتظر ، تنتظر أى حسن مفتاح . واغمض حسن مفتاح جفنيه على عايذة علم حتى صبحا في اليوم التالي فلم يجد عايذة علم الى جواره أو تحت جفنيه بلى وجد نفسه قد شبع من النوم الجميل في السرير الجميل بنسيون مدام كلاداكيس الجميلة بجوار البحر الجميل .

وفي الشاطئ جلس حسن مفتاح على صخرة من تلك الصخور الخضراء التي كساها عفن البحر وجوفتها امواجه في ألف موضع . جلس حسن مفتاح على صخرة من تلك الصخور ودلى قدميه العاريتين في الهواء فوق الشج الأبيض ذي الخوار المتصل والراذذ المتطاير ذي الفقاقيع البراقة ، وحدث في الشاطئ البعيد ، حدث حتى تعبت عيناه من التحديق وتجمهرت الطبيعة البكر في وجدانه فأخذته الوجد واتحد بالوجود ، واستلقى على الصخرة ذات الطحلب وعرى صدره للسماوات ، وفتح فؤاده لهمس النسيم وشقشقة الموج وزفزة الزوارق السابحة واللفظ العلوي الجميل الذي جاء مع الصباح من الارخبيل البعيد حيث بانثيا تمشط غدائر ايون الزرق عند شواطئ سريفوس وبروتوس العجوز بساحل صاموس ييث زفيره على محارته التي خرجت منها فينوس ام الغرام . وفي اتنيوس شرب الشاي عشرين مرة ورأى من زجاجة الكثير المتكرر الزنك البارد السائل المتموج . ولقد أصاب بعض المطر فاكتملت سعادته حين تخلل ماء السماء شعره ولذع اذنيه وجرى على عنقه رطيباً بارداً . وفي التريانون تصفح افخاذ الراقصات كل مساء . واستطاح ان يأكلها بعينه غير ملحوظ . ولقد رأى عروس البحر وناصرها وقبلها وسكب الراح ما بين ثدييها . ولقد ملأ حسن مفتاح رثميته من الهواء الملح . ولكنه فعل ما هو اكثر من ذلك . لقد انغمس في تيار الحياة وصار الى قطرة في ذلك التيار تدفع غيرها من

القطرات وتدفعها غيرها من القطرات ، قطرة لا تحس بنفسها ولا يحس بها أحد .

وأوشك الشهر ان ينقضي وحسن مفتاح يؤجل التفكير في مسألته الكبرى عامداً . وكلما اختلى بنفسه ساعة وسنحت له فرصة استعراض ماضيه ومستقبله انصرف عن ذلك الى استعراض حاضره ، كأنه يخشى ان يؤدي به التفكير الى البت . ان الحياة جميلة ، وهي رغم الشتاء دافئة زاهية الألوان . ففيم افسادها بالتفكير الرشيد . ليدع المقادير تجري في أعنتها ، فإن قضت عليه بالبقاء بقي وان قضت عليه بالعودة عاد ، اما هو فلن يتحمل تبعه شيء . ولكن حسن مفتاح لم يهبط الاسكندرية فراراً من فؤاد منقربوس ، فهو يعلم انه الان سجين في شجرة من أشجار الجميز ، وخطره قد بات محدوداً ، اللهم إلا اذا كان قد... ولكن التفكير في هذا ضرب من الحماقة . انه الان في الاسكندرية والحياة في الاسكندرية جميلة دافئة زاهية الألوان رغم الشتاء ، فلا داعي لتعكيرها بالهواجس النكراء . أما الان فلا بد من البت ، فانما هبط حسن مفتاح الاسكندرية ليبث في مآله . ان العودة الى القاهرة معناها العودة الى الحياة العامة ، العودة الى الحرمان المطلق ، الى الوحدة المطلقة ، الى الخلو المطلق . ان عايده علم قد أعرضت عن الحب الا أن تجاب مطالبتها . ومونا ربيع قد تبخرت في الهواء . فلم يبق له اذن الا الخادم ندى ، المخلوق الوحيد الذي يقبله بلا قيد ولا شرط وهي محال . انه يعرف ما يقرب من مائتي آنسة وسيدة ، يعرفهن جميعاً على مبعده . ولكن حياته الخاصة انطوت على ثلاث لا رابعة لهن ، عايده ومونا وندى . ان مونا ربيع تحل سائر عقد الحياة . هي مركب الموضوع كما قد يسميها اعضاء اللجنة المركزية . الموضوع : حياته الخاصة . نقيض الموضوع : حياته العامة . مركب الموضوع مونا ربيع . ففي مونا يلتقي الحب والكفاح . ومونا ربيع ينتهي الاشكال . لسوف تحبه ولسوف تكافح معه . ان عيني مونا ربيع قد نفذتا الى اغوار قلبه ، وفي اغوار قلبه انغمست اهدابها ، وفي اغوار قلبه

استقر هواها حيث يرقد الان طي اكداس من أنسجة الحرير . كل ذلك -حدث في نصف ساعة على تراس الكونتنتال . وحسن مفتاح يعلم ان صوته الجميل وشخصيته الناجمة قد استقرأ كذلك في أغوار قلب مونا ربيع . هو يعلم ذلك لانها شهمت . ولكن أين هي مونا ربيع ؟ ان بينه وبينها يقف التنين الأبله ، عبد السلام بك ربيع . لماذا لا يموت التنين الأبله ؟ ان التناين الذكية قد تحتمل رغم انها ضارية ، اما التناين البله فلا عذر لها في البقاء . ان سرهنك بك (جاءه الانعام الملكي في الاسبوع الماضي) قد يحتمل ، فهو على الأقل يحيد العطور . اما ربيع بك فماذا يتقن ؟ لا شيء . بل انه يتقن شيئاً ، وهو مضايقة مونا ربيع وتعذيبها . ان العالم ملئ بالتناين . وخاصة التناين البله . لم لا تموت التناين البله ؟ لم لا تموت جميع التناين ؟

ولكن التفكير في مونا ربيع غير مجدٍ ، وهو ما جاء الى الاسكندرية ليفكر في الاحلام ولكن ليمسك الواقع من فخذه ، وليتحسس الحقيقة بيديه . ان التفكير في الخادم ندى لأقرب الى الواقع من التفكير في مونا ربيع . ان ندى يمكن كذلك ان تكون مركب الموضوع ، يمكن ان تعطيه الحب والكفاح مندجين . هي تحبه وهو يعطف عليها عطفاً شديداً (كان يمكن ان يحبها لو كانت تعرف القراءة والكتابة) ، وهي ترضى أن تشترك معه في الكفاح . ولكن اي كفاح يمكن ان يكون كفاحها . ان دورها في حركة البروليتاريا سيقف لا شك عند مسح حذائه وتنظيف ثيابه وطهو طعامه ومحاسبة الكواء . ان الأقدار تسخر من حسن مفتاح ، فهو في هذا العالم العريض يتأرجح بين كريسلر مونا ربيع ومكنسة الخادم ندى . في الخادم ندى . ولكن التفكير في الخادم ندى غير مجدٍ ، وهو ما جاء الى الاسكندرية ليفكر في الاحلام ولكن ليمسك الواقع من فخذه ، وليتحسس الحقيقة بيديه .

انه جاء الى الاسكندرية ليفكر في عايذة علم ، فعايذة علم ، هي أقرب شيء في حياته الى الواقع . بل ان عايذه علم « هي » الواقع ، وكل ما خلاها

احلام معسولة او احلام مزعجة . ان الحياة العامة تضيق بالحياة الخاصة ، كما ثبت بالتجربة كذلك ان الحياة الخاصة تضيق بالحياة العامة . وعائدة علم هي الواقع الكبير ، الواقع بجروف التاج ، المادة في حالتها الطبيعية بعيدة عن الاوحال بعيدة عن سحر الخيال . وعائدة علم طوع بنانه لو انسحب من الحياة العامة ، وحدد اهدافه ببيت من ثلاث غرف (مفروشة) ، ومطبخ لا يخلو من الطعام ، وأطفال يجدون ما يلبسون ، ومكتب ذي ادراج يحيطه بالرزق في الأول من كل شهر . وعائدة علم لا تلام على ذلك ، فهي نموذج حي للبنات ، للكثرة المطلقة من البنات ، اللاتي نين في ظروف طبيعية ، او بتعبير ادق في ظروف متوسطة ، فكل ما هو موجود من الطبيعة . وما جاء حسن مفتاح الى الاسكندرية الا ليدرس هذه المسألة بعيداً عن صخب الجماعات ، بعيداً عن جو الذي يسود مخدعه كلما جن الليل ، ويقرر الانسحاب من الحياة العامة أو الزهد في الحياة الخاصة . وهو اذا كان قد تجنب التفكير في هذا الأمر هذه الأسابيع الثلاثة الماضية ، فهو لا بد حازم امره قبل انقضاء الشهر ، فاما الى عائدة علم وحدها وأما الى اللجنة المركزية وحدها .

أن أول ما سوف تقتضيه منه عائدة علم هو ألا يطلق لحيته وان يبقى كسائر مخلوقات الله ، ولقد تطلب إليه أن يطلق شاربه كسائر مخلوقات الله وعليه اذن ان يحتمل . ولكن حسن مفتاح لن يحزن كثيراً ، ثم انه لن يحتاج الى لحيته مع عائدة علم ولكنها سوف تطلب إليه الأمان كذلك ، والأمان عندها وظيفة ثابتة وحياة رتيبة سالبة لازعازع فيها (سجون - اجتماعات - جواسيس) . بعبارة مختصرة سوف تطلب إليه عائدة علم ان يخون فإن لم يرضَ بالخيانة فليرضَ اذن بالابالسة تجلده بالسياط جلداً وتكوي فخذه بآسياخ النار وتجلس على صدره الليل بعد الليل حتى يختنق . ليرضَ بالحلوا المطلق ، بالوحدة القاتلة . ولكن امستطيعه عائدة علم ان تنفي عنه الوحدة ؟ ان حسن مفتاح كان يعلم انه يخدع نفسه . الخيانة لا عيب فيها ولا مؤاخذه عليها ، فالملايين تحون ، كل يوم ، اذا كان السلب

خيانة. ولكن كيف تزيل عايده علم الوحدة من نفس حسن مفتاح انها سوف تزيلها في شهر العسل لا شك في ذلك ، وربما ازالتها فيها بعده بقليل . ولكن كيف تملأ عايده علم كل هذا الفراغ الرحيب . ان نفس حسن مفتاح واسعة كالهاوية الفاعرة . ان نفس حسن مفتاح كبيرة تضم الانسانية وتشمل كل ما في الوجود . ان حب حسن مفتاح قوي كال محيط جازف كالطوفان فأتك كالنار الحمراء . كذلك حقه غضوب كالبحر مدمر كالسيول آكل كالشعلة الموقدة . ان حسن مفتاح ينظر الى الزهرة ويقول يا اختاه ، وينظر الى البجعة ويقول يا اختاه ، وينظر الى الحمل ويقول أي اخي الصغير ، وينظر الى الجبل ويقول أي اخي الكبير ، وينظر الى الأرض الرحيمة ويقول يا اماء ، وينظر الى البحر العظيم ويقول يا ابتاه ، انا ابن زفاف جيا واوقيانوس . انه يستطيع ان يمسك سنابل الحنطة ويقبلها في حنان . انه يستطيع ان يعبد الشمس وان ينجي القمر وان يحتضن الرياح وان يبت نجواه لروح الانسان. فكيف تملأ فراغه عايده علم؟ كلا. ان حسن مفتاح كان يعلم انه لم يخلق ليلعب هذا الدور الصغير ، وانما خلق ليصارع العمالق ول يقتل مع الارواح الشريرة التي سوت الليالي وملأت الارض بالغيلان . ان عايده علم لن تغنيه عن نعيم وسعدية الطويل والجيار وصفوان واحبائه الذين يشقون ليمحقوا الظالين ويوزعوا الخيرات على بني الانسان . ان حسن مفتاح خارج المجتمع كالسمكة خارج الماء.

ان عايده علم سوف تقول : « كفى قراءة يا حسن ، لقد تعبت عيناك فاسترح » أو تقول : « ان ايجار بيتنا كبير فابحث لنا عن دار اخرى » أو تقول : « لقد نزلت بالولد الحصباء ، فاذهب وادع الطبيب » أو تقول : « كفى كتابة يا حبيبي فليل الشتاء يضيئي » . كل هذا ستقوله عايده علم . واكثر منه . ستحدثه عن سعر الطماطم ، وعن الكواء الذي احرق الشميزيت ، وعن البواب الذي لم يرد بقية الريال ، وعن السباك الذي لم يحضر لیسد ماسورة الحمام . وعندئذ سوف يحس بالوحدة الكبرى ، بالخلو الذي ما بعده خلو . عندئذ سوف يحس

بالعزلة الروحية تنهش وجدانه نهشاً . ولكنها يومئذ وحدة لا مهرب منها وهو عندئذ خلو مقيم الى يوم الممات ، وعزلة لها انياب كالأفاعي الجائعة . كلا . لتتزوج عايدة علم من موظف في مصلحة البريد . اما هو فليرض بما قسم له . ليعد الى اللجنة المركزية . وليتم ما بدأ ويرض بالابالسة تجلده بالسياط جلدأ وتكوي فخذه بآسياخ النار وتجلس على صدره الليل بعد الليل حتى يختنق . فان احب ان يملأ الفراغ الضارب في نفسه فالخمر تعرق الاحزان وتؤنس البائسين ، وليتسلل تحت جناح الليل وليسع الى اللحم الذي لا يكلف الاتحية المساء وبعض الدنانير .

واستمع حسن مفتاح الى هذا الصوت ووجد انه صوت الرشاد . فهو الآن ليس بجائع ولا محروم ، واما اعصابه فقد تجددت . فالقرار الذي ينتهي اليه الان قرار لن يحله منه شيء . فغدا سوف يتقلب في فراشه مناجياً النعاس فلا يأتيه النعاس . وغدا سوف يتقلب في فراشه مناجياً عايدة علم فلا تأتيه عايدة علم . وعندئذ سوف تسود الدنيا أمام عينيه ، ولقد تمر به لحظات يكره فيها البشر من اعماق اعماقه . ولكن مهما ساءت حاله فينبغي عليه الا يضعف تحت سياط الجنس او يتخاذل امام مشنقة الوحدة . كل هذا حسب حسن مفتاح حسابه وادركه بوضوح لا لبس فيه . وهو الآن يحدد سبيله بمحض اختياره فلا نكوص بعد اليوم . ولقد كان يعلم انه في واقع الامر لم يكن مختاراً ، فلقد ولد يوم ولد سكرتيراً للجنة المركزية ولم يولد ليكون زوجاً لعايدة علم . وهكذا خضع حسن مفتاح للضرورة الكبرى ، خضع لها مختاراً ، وهكذا ثار على الضرورة الصغرى ، ثار عليها مختاراً ، فقد فهم الضرورتين ورجح اقلهما وبالأعلى مختاراً . ربما . ربما . اياً كان الامر فهو لن يطالب احداً بثمن بطولة لا يد له فيها .

كذلك خضع حسن مفتاح للضرورة ساعة ان خرج من موناخوس حول التاسعة مساءً ، ووقف امام الحديقة الصغيرة المقابلة حائراً لا يدري اين يقضي

سهرته ، وخيل اليه انه يستقبل رشاش البحر وهو لا يستقبله . ولكنه في واقع الأمر لم يكن حائراً بل كان خاضعاً للضرورة لا يتبينها . فقد لمح في الظلام الكرايسلر السوداء بين بعض الضباط الانجليز السكارى امام المونسنيير . ولعله لم يلمحها قط . لعل الكرايسلر السوداء كانت كحجر المغناطيس تجذب ما يدخل في مجالها بفعل ناموس ازلي . مهما يكن من شيء فان حسن مفتاح وقف أمام الحديقة الصغيرة يتطلع الى محطة الرمل ونورها الازرق المكبوت الذي ذكره بمحطة البنزين الجائمة بقرب داره ونورها الأحمر المكبوت ويتطلع الى المصابيح العالية الزرقاء المتكررة في شارع الرمل كأنها رؤوس اشباح حزاني ، ويتطلع الى الى أرض الشارع السوداء اللامعة بعد أن بللتها الأمطار ، ويتطلع الى الفراء البيضاء والفراء السوداء والفراء الشهباء التي تحب فوق الحرائر ذات الذبول صوب المونسنيير . وعندئذ فقط رأى الكرايسلر السوداء رؤية واضحة وأحس بضيق غريب كأنه في حضرة غريبة لا يفهمها . ثم سار الى باب المونسنيير وقد تم في نفسه الترجيح . ولكن ما إن اقترب من الباب حتى وقف يجوار السيارة ثابتاً يتطلع اليها . انه يعرف هذه السيارة أنه رآها من قبل . انها سيارة المناستري . كلا . انها ليست سيارة المناستري ، فسيارة المناستري كرايسلر حقاً ، وسوداء حقاً ، ولكنها تحمل اللوحة القائلة « هيئة سياسية » . ان في مصر الف كرايسلر ، وكلها بحاجة جيدة ، فماذا يحمله على التمسح بهذه بالذات ؟ وأوشك حسن مفتاح ان يضحك سخرية من نفسه . ثم دخل المونسنيير ، وحيداً . وكان ينبغي ان يكون في زي السهرة . وكان ينبغي أن يكون مصحوباً ، ولكنه لم يعد يكثرث . وفيما هو يجتاز المدخل بلغته اذبال « تريستيس » شوبان ، فوجم وكاد الدمع ان يجتمع في عينيه ، فقد كانت لهذه التانجو في نفسه ذكريات . ولكن هذا شيء مألوف يجمع الذكريات في آلاف النفوس ، وهو لا يجمع الدمع في كل العيون . أخص من ذلك أنه يطابق وهو يدخل حائراً لا رفيق له . وسار متثدأ الى رفيقه الوحيد في هذا المكان ، سار الى المائدة الصغيرة .

واختفى النغم ولكن بقي بعده جوّه. ولم يصفق أحد فما كان هناك أحد يصفق. لم يكن في المكان الا ثلاثة أزواج كلهم من الأجانب وكلهم في ثياب السهرة، وواحدة من المجنّدات البريطانيّات تنتظر صاحبها، بريجادير من تحت السلاح. نعم. انه سيرقص الليلة مع المجنّدات. بل ان هناك امرأة اخرى جلست بمفردها الى جوار الاوركسترا. ووثب حسن مفتاح من مكانه ثم خجل من نفسه وأوشك ان يعود الى الجلوس. انها مونا ربيع. ولكنه سعى الى السيدة مضطرباً، فلما أمسك يدها وجدها تضطرب كذلك. ولما قبل يدها استرخت في يده كأنها لا تريد أن تنسحب. ووقف حسن مفتاح الى جوارها لحظة لا يقول شيئاً، فأمرته بالجلوس. ولما جلس عادت اليه طمأنينته. وأراد ان يتكلف المرح فلم ينجح في ذلك. وسألها عن حالها فلم تجب. وسألها عن زيارتها للاسكندرية فأجابت بأن عمه ربيع بك معلقة بين الحياة والموت. وسألها عن زوجها فأجابت بأنها تنتظره بين لحظة وأخرى. وأمسك حسن مفتاح بيدها الملقاة فوق المائدة ومضى يعبث بأناملها، وجذب اليه اليد قليلاً ففهمت انه يريد تقبيلها، وتركته يفعل بها ما يشاء، ولكنه لم يفعل شيئاً، واكتفى بأن ضغطها فيما يشبه التشنج. وفتح فاه، واوشك أن يقول: « تعالي معي يا مونا تعالي معي، هيا نفر من هذا المكان، ها نفر، ولكن الأوركسترا عادت الى العزف فعاقته عن الكلام. وكان للحن « الأرملة الطروب » فنظر اليها وابتمت ونظرت اليه وابتمت. وتفاهما. ونهض فنهضت، وأقتادها من يدها الى الحلقة، وذهب يدوران مع الفالس العجيب. دار حول الحلقة جملة مرات، ولما اقتربا من الباب كفّ عن الرقص، وساقها من يدها الى المدخل فدق قلبها دقاً عنيفاً، ولكنها تبعته، وبلغها الأمانات وقال: « اطلبي اشيائك » فطلبت اشيائها. كل ذلك ويده لا تفارق يدها. كل ذلك ويده تضغط على يدها في تشنج. ولكن صفارات الأنداز انطلقت فارتبكها لحظة ثم قالت: « هيا نخرج من هذا المكان. خذني أينما تشاء. » ولكنه تردد كثيراً ثم أشار عليها باعادة اشيائها، وسار بها الى مخبأ المونسنيير. ولم يكن في المخبأ سوى الأزواج الثلاثة والمجنّدة. وساد الخبأ السكون. ثم

جاء افراد الاوركسترا وبعض الخدم والموظفين فعلا لغط اللاغطين ، واختلطت النكات العصبية المرة بصلوات المصلين ببكاء الخادومات بأوامر رئيس الخدم فكان منها ضجيج لا يحتمل ، ولم يعد في الخبا مظهر واحد من مظاهر الانتصار الا الشيخ الضئيل لاعب الكان الذي انتحى مكاناً قصياً وذهب يعزف « آنى ماريا » والابتسامة لا تفارق شفثيه . ولما اشتد الضيق بحسن مفتاح أو شك ان يجذب مونا ربيع من يدها ويفر من هذه الإنسانية الضعيفة التي لا تريد ان تموت في صمت . ولكن صوت القنابل التي كانت تنفجر قرب الميناء البعيدة بلغ الخبا واضحا ومكتوماً معاً فتعلقت الأنفاس ، وجلس على الأرض أكثر الواقفين . وحين تواترت القذائف ذات الدوي والأصداء ، قذائف المدافع المضادة ، الفتها الأذان ، وجلس حسن مفتاح على الأرض مع الجالسين ليكون عند قدمي مونا ربيع . وأمسك بيدها وذهب يقبلها بلا انقطاع ، وما قبلها ولكن عبث فيها بشفثيه . وكانت مونا شاحبة وكان حسن ضعيفاً . وكفت المدافع المضادة عن الزجرجة وظهر في الجو أزيز . فاخذت مونا تذكر الله بالفرنسية وأوشكت أن تستنجد بالقدسين المسيحيين ولكنها أمسكت . أما حسن فقد ستر ضعفه ، ورفع وجهه اليها مبتسماً ، وحاول أن يسري عنها بالهزل فلم يستطع ، لأن حلقه كان جافاً . ولكن حلقه الجاف لم يحفف كلمات الحب ، فمضى يصارحها بحبه همساً فيما يشبه الثرثرة . أنا أحبك يا مونا . منذ يوم الكونقنتال يا مونا . أفقهمين يا مونا ؟ أنا شقي يا مونا . انا أشقى الناس يا مونا . انا أتعذب فيك يا مونا . تعالي معي يا مونا . انا اشقى للناس يا مونا . انقذيني يا مونا . كل ذلك ومونا ربيع صامتة لا تجيب وقد ألقت برأسها الى الخلف ، فبدا وجهها في النور الشاحب أبيض لا دم فيه ، وارتسمت أهدابها الخرافية الطويلة المسبلة على خديها أطول مما هي فأكدت في وجهها معاني الموت . وحين كف حسن مفتاح عن الثرثرة وقبل ركبتها ثم اعتمد برأسه عليها كطفل لا ينقصه إلا البكاء ، شقت مونا ربيع ورفعت رأسها وفتحت عينيها وأجالتها في الوجوه اليائسة أمامها ثم انحنت وقبلت رأسه قبلة طويلة لم يقطعها إلا أزيز الطائرات الذي اقترب

وارتفع حتى بلغ أشده فوق المكان ، فارتفعت كل العيون الى سقف الحبأ في هلع عظيم . وأعقب ذلك دوي هائل اهتزت له جدران المونسنيير اهتزازاً ثم تلتها أصوات صغيرة متفرقة من نافذة هوت وزجاج تحطم ، وأفلتت في الحبأ صرخات وسقطت امرأتان في انغماء مفجع ، وخفأ اليها عازف الكمان العجوز وبعض زملائه . فقد سقطت قنبلة في البحر مقابل المسكان فرفعت الماء ليجأ واللجج رشاشاً وبعد الرشاش كان خوار ثم ساد السكون ، ولم يبق إلا أزيز القاذفات والطائرات القاتلة ، ولقد تلاشى درجة درجة . وادرك حسن مفتاح قبل سواه ان الغارة قد انتهت فذهب يهون الأمر على مونا ربيع ، وأمكنه ان يهزل ، ونهض وأخذ يمسح شعرها بيده ويتخلله باصابعه ويقبله في خفة ، حتى عادت اليها شجاعتهما ، فنظرت اليه وابتسمت وقالت :

— كان ينبغي أن نموت معاً .

فضحك وأجاب :

— بل ينبغي ان نعيش معاً .

وفيا هو يقول ذلك انطلقت صفارة الأمان فعلاً فعلاً اللغط في الحبأ، ثم تسابق المختبئون الى الباب ليأخذ كل مكانه من المكان ، وتريث حسن مفتاح ومونا ربيع حتى خف الزحام ، وتسلا الى الخارج لا يشعر بهما أحد ، قالت : « كم أنا متعبة » . قال : « لا بد أن تكوني . » قالت : « الي بأشياءني . » قال : « سأصل بك الى دارك » . قالت : « لم أعد أحتمل يا حسن » . قال : « تعالي غداً عند الغروب » . قالت « نحن ننزلق يا حسن » . قال : « هي المقادير لنا أو علينا ، فكوني شجاعة » . قالت : « وكيف الخلاص من زوجي ؟ » قال : « وهل أمامك الا الطلاق ؟ » قالت : « انه لن يرضى بتسريحي » . قال : « انت طالق منذ يوم الكونتيننتال » . قالت : « ليت هذا يغير الواقع » . قال : « أنت طالق امام النجوم . انت طالق في كل شريعة . أنت طالق » . قالت : « ليت

هذا يغير الواقع» . قال : « لقد أفلت مني مرة ولن تفلتي مرة أخرى » .
قالت : « حلّ عقدتي وأنا أتبعك إلى أطراف الأرض » . قال : « وفي السجون؟ »
قالت : « وفي السجون » . قال : « تعالي إذن عند الغروب . أنا في بنسيون
رويال يجوار الكاراتون » . قالت : « سوف آتي عند الغروب » .

وكفت عن القيادة أمام بيت أحمر في مصطفى باشا . ونظر حسن مفتاح الى
البيت الأحمر فهزت مونا ربيع رأسها وأشارت الى فيلا صفراء تقع بعد ناصيتين ،
فأدرك انها تفضل أن تصل الى بابها منفردة . فتناول ذراعها البعيدة وقال .
« يا لك من سائقة ماهرة » وضمها اليه في وحشية ، وقبلها حتى أدار رأسها .
ثم تركها وعاد الى ترام الرمل فركبه ، وعاد الطريق كله وهو أشبه بالذاهلين .
وفي فراشه أفاق الى الواقع . لقد وعدّها بأن يحلّ عقدتها ، فكيف يفعل ذلك ؟
الويل لك يا حسن مفتاح . لقد تعودت الكلمة الكبيرة الجوفاء فهانت عليك
الوعود . انك قد تكتب التاريخ من جديد ، ولكنك لا تملك ان تمحو وثيقة
زواج . ان ما ربطه الماذون في الأرض لا يكفه بكاء الملائكة في السماء . الويل
لك يا حسن مفتاح . ماذا أنت فاعل . ماذا أنت فاعل . إن حسن مفتاح لن
يفعل شيئاً لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً . إنما الأقدار تفعل كل شيء . إن
حسن مفتاح لن يفعل شيئاً لأنه نائم ، لأن السعادة جاءته كمنقود من العنب
مذوب في كأس من البلور شربها ثم نام .

ثم حدث له حادث تافه :

ففي الصباح صبحا حسن مفتاح وخرج في نزهة بحرية . وخرج مع الجميلة
مدام كلاداكيس صاحبة البنسيون والجميلة مدموازيل كابتناكيس ابنة إختها
الجميلة مدام فوتيس من زوجها الأول الجميل الذي كان ضابطاً بحرياً ثم أكله
السّمك في المنطقة ما بين داكار وجزائر الخالدات . وكان الجو جميلاً طبقاً للخطة
الموضوعة . فخرجوا في العاشرة طبقاً للخطة الموضوعة ، واشتروا الساندويتشات

الجميلة من تورنارا كيس الجميل طبقاً للخطة الموضوعية ، وبلغوا الميناء الجميل طبقاً للخطة الموضوعية . وركبوا الزورق الجميل طبقاً للخطة الموضوعية . ولكنهم لم يعودوا طبقاً للخطة الموضوعية . لم يعد إلا النوتي الجميل الذي لم يشترك في وضع الخطة .

فقد ارتطم الزورق بالصخور فامتلاً بالماء ثم توارى . وعرف النوتي واجبه فسمح إلى أقرب صخرة وتثبت بها . أما حسن مفتاح فلم يكن يعرف العوم ، فضرب الموج بذراعيه جملة مرات ثم اختفى تحت المياه ، ثم طفا مرة أخرى وضرب الموج بذراعيه جملة مرات وسعل سعالاً ملحاً جملة مرات ، وكان آخر ما رآه مونا ربيع جالسة بين الصخور ، ثم اختفى تحت المياه ولم يعد إلى الظهور . اما كلادا كيس فقد سبحت متراً ثم تحسبت ساقها اليسرى في مياه يناير ، واستغاثت باليونانية جملة مرات ، ولكن النوتي الجالس على الصخرة لم يكن يفهم اليونانية فظل جالساً على الصخرة ، ثم تحسبت بقية أعضائها واختفت تحت المياه . أما كابيتناكس فلم تضرب الموج ولم تسعل ولم تتخشب ولم تستغث باليونانية لان ثوبها كان مشتبكاً بالزورق فغاصت مع الزورق الى الأبد . اختفى كل شيء تحت المياه ، الا بعض الساندويتشات واشارب مدام كلادا كيس وصحيفة حسن مفتاح والنوتي الجميل الذى لا يفهم اليونانية . لقد انتهى كل شيء في عشر دقائق . انتهى بأقل جلبة ممكنة . ان البحر أزرق وجميل ، والسماء زرقاء جميلة ، والصخور سوداء جميلة . وبقي لكل شيء جماله رغم ما حدث ، وهل حدث شيء ؟ جلس النوتي على صخرته يتأمل ما حدث . ولم يبدُ عليه أنه يتأمل حطام الدنيا . ولم يبدُ عليه انه يفكر بتاتا . لقد نازعته نفسه مرتين أن يقفز في البحر لينقذ الفارقين ، ولكنه غالب نفسه الامارة بالخير حتى غلبها ، ومنذ ذكر أنه أوشك أن يهلك منذ شهر لأنه أراد ان ينقذ سيدة تفرق . إنه

زاهد في بطولة لا يشهدها أحد . بل هو زاهد في البطولة ولو شهدها جميع الناس بل هو زاهد في الخير الذي يورد موارد التهلكة . لقد كان يحسب ان انقاذ الفرقى امر هين فلما اختبره وجد ان الفريق لا يحب ان يفرق وحده . ان عباس الصعيدي بادر في الصيف الماضي لانقاذ تلميذ رسب في الامتحان فألقى بنفسه في الماء . فأين عباس الصعيدي الآن ؟ أت أرملته تتسول الآن بعيالها الأربعة . هلك عباس الصعيدي ونجا التلميذ . إن مشيئة الله عجيبة لا يفهمها أحد . (ولكن النوتي الجميل وأرملة عباس الصعيدي وإخوانه جميعاً لا يعلمون أن التلميذ قد رسب في الدور الثاني ، ولو قد عرفوا لزاد عجبهم من الله) . جلس النوتي الجميل على صخرته السوداء يتأمل ما حدث . ولم يبدُ عليه انه يتأمل حطام الدنيا . ولم يبدُ عليه انه يفكر بتاتاً . ولكنه كان يفكر . كان يفكر في نفسه وفي عباس الصعيدي ، في المرأة التي أوشك أن يهلك في انقاذها وفي الأرملة التي تتسول بعيالها الأربعة . أن النوتي الجميل ليس له عيال أربعة ، ولكنه قد تزوج البنت خديجة الحلوة بائنة الفجل في درب المحاميد ، وهو الان يذوق عسيلتها وهي الان تذوق عسيلته . حسناً فعل النوتي الجميل .

ولكنه هز رأسه أسفاً على الشباب . ونظر الى البحر فرآه أزرق ولكنه لم يفهم أنه جميل كذلك . ونظر الى السماء فوجدها زرقاء ولكنه لم يفهم انها جميلة كذلك . ونظر الى الصخور السوداء فاذا هي لا تزال سوداء ، ولكنه لم يفهم انها جميلة كذلك . ونظر الى الشمس فهي في السماء باردة ، ولكنه لم يفهم انها جميلة كذلك . لقد بقي لكل شيء جماله رغم ما حدث . وهل حدث شيء ؟ قال الموج الودييع : لم يحدث شيء . قالت السماء الضحوك : لم يحدث شيء . قالت الصخور السحرية : لم يحدث شيء . واحمرت الشمس

البيضاء وقالت من سمّتها : لم يحدث شيء ، لم يحدث شيء ، لم يحدث شيء البتة . أنا هنا منذ الأزل ، وعيني ترى كل شيء . انا أقول لم يحدث شيء ، لم يحدث شيء البتة . قطع منا وعادت إلينا . فلا تزعجوا سكون الطبيعة بنقيق الضفادع . وزال عن الشمس غضبها فزالت حمرتها ، وعادت بيضاء تشرق في صمت على العالمين .

هكذا انتهى حسن مفتاح . أما روح كلادا كيس وروح كابيتيا كيس فقد حومتا في يأس وغباوة أربعين يوماً على وجه المياه ثم انطفأت فيهما الذكريات فأنطفأتا الى الأبد . ولكن روح حسن مفتاح لم تفعل ذلك ، بل انطلقت في جنون الى الشاطئ تبثت ، تبثت عن مونا ربيع ، فلم تجد لها أثراً في دارها أو في مستشفيات المدينة حيث العمة معلقة بين الحياة والموت أو بين المقابر . فلم يكن بد من انتظارها حتى الغروب . وقبعت روح حسن مفتاح في غرفته بقية النهار تبكي في رفق حتى لا يسمعها أحد ، بكّت حتى نزفت كل ما معها من حشرات ، فقبعّت في سكون تفكر وتنتظر .

أهذه لعنة فؤاد منقربوس ؟ ان كانت هذه لعنة فقد تحققت اللعنة . لم حطمت القط الأسود يا فؤاد ؟ لم فعلت بي ذلك يا فؤاد ، وأنا هل أضمرت لك إلا الود ؟ اني أغفر لك يا فؤاد ، وهل أملك إلا الغفران ؟ تعال إليّ يا فؤاد لتؤنس وحشتي ، فالليل بارد والظلام شديد وأرواح المدينة لا تفهم شيئاً مما أقول . تعال يا فؤاد نطلق بين المروج الخضر والفلوات الصفرة والحقول التي توشك ان تكتسي بالقمح السعيد ، حتى نبلغ المنيا الثانوية فنجلس على الأعشاب في فنائها ونتبادل الذكريات ، او نجلس قرب ترعة دماريس نخاطب الجن الساكن في مجواها ونقطف ذقن الباشا ريحان صباناً الذي اختفى مع العمران . قد غفرت لك يا فؤاد فتعال . أوّاه .

ما أبرد الشتاء وما أحلك الليل وما أقسى الوحشة على نفسي الحزينة . ولكن
فؤاد منكربوس لم يسمع هذا النداء فقد كان سجيناً في شجرة الجميز ، ولو قد
سمعه لما استطاع ان يستجيب ، بل لهمهم قائلاً لا تبتئس يا حسن . ان هي إلا
الليلة الأولى ، ولسوف تألف بعدها زمهرير الموت وظلام النهار . أواه . أين
أنت يا فؤاد ، وابن شجرة الجميز ، شجرتك ، فأطير اليك اناجيك في نخبك
وأهون عليك سجنك المديد . اين شجرة الجميز شجرتك ، فأسكن الشجرة
المجاورة ، تنهams الليل والنهار الى يوم الدينونة . كلا يا فؤاد ، لن افعل ذلك ،
فشجرتي شجرة مونا ربيع . ولسوف نخبس فيها الى الأبد سوياً ، وكلما أنقضى
الف عام تجددنا الفاً آخران بالضراعة وإن بالجرائم النكراء ، فقد كان ينبغي أن
تتحد أيام الدفء بين ورود الربيع . أما انت فلتبق في شجرتك وحيداً تبكي
حظك التاعس وتبكي عزلتك الخيفة جزاء ما انزلته بي من دمار عاجل . لقد
اغرقني يا فؤاد وأعفيتني من جبل المشنقة ، فشكراً لروحك الظاهرة . ولكن
أبقى حيث أنت واندب حظك التاعس وأعو كالدئاب في عزلتك الخيفة جزاء ما
انزلته بي من دمار عاجل . أما انا فباق هنا حتى اتحد مع مونا ربيع .

ولكن روح حسن مفتاح لم تدر كيف الاتحاد بمونا ربيع . ان مونا ربيع
لا تزال حية ترزق ولا سبيل الى الاتحاد معها إلا ان تموت . فهل ترضى روح
حسن مفتاح الموت لمونا ربيع ؟ كلا . ولكن روح حسن مفتاح سوف تتعذب
عذاباً ما له نهاية ، سوف تنهشها الوحدة ، سوف تتعب على قبور المحبين أربعين
يوماً بلياليها ، ثم تخرج من عالم الأحياء الى عالم الظلال الأبدية ، حيث تنعب
على غرامها الفقيد الى أبـد الابدن . فلتمت إذن مونا ربيع أو فليعيش حسن
مفتاح من جديد . أما موت مونا ربيع فمحال ، محال . محال ان ترضى روح
حسن مفتاح الموت لمونا ربيع . ان روح حسن مفتاح لا ترضى ان يـُخـدش
لمونا ربيع إصبع فكيف ترضى لها الموت ؟ ان روح حسن مفتاح لتقبل ان
تـُحترق ان كانت نارها تدفع عن مونا لذعة برد . انها لتقبل ان تكون روحاً

ملعونة بين الأرواح الملعونة، وان تقيد دهرأ بعد دهر بسلاسل الصوان الى جوار بحيرة النار والكبريت، ان كانت اللعنة والاغلال تعود على مونا بالسعادة. ثم أن مونا من لحم جميل منفتح لافراح الحياة. انها تحب ان تنعم بالألوان التي حرمت منها روح حسن مفتاح، آه الألوان التي كانت تزين الدنيا، خضرة الغبت، سمره الأرض، زرقه البحر، حمرة السحاب وقت الأصيل، صفرة اللارنج وذهب البرتقال وقوس قزح الذي انتشر بين أزهار الوادي وجدران المنازل. والعطور. والطعوم. والأصوات. وكل ما يثير الحواس. فيها حياة اللحم ولو كانت اليممة. ان روح حسن مفتاح قد آضت الى نفس حائر، الى قبضة من رياح، وغدأ تصير الى خلو كامل، الى ربح ساكنة خارج الزمان وخارج المكان، لا قدرة لها حتى على الحركة. وروح حسن مفتاح الى الحياة. لتسكن بيتاً من بيوت اللحم ان أحبت ان تتحد بمونا ربيع. فليس يتحد باللحم إلا اللحم. آه، اللحم.

واني لروح حسن مفتاح بيت آخر من اللحم غير ذلك الذي غاص تحت الصخور السوداء؟ ان هذا جائز. بل هو ميسور. فروح حسن مفتاح تذكر ان لحسن مفتاح ابن عم قروي يدعى سيد قنديل لا يزال يعيش في ارباض دماريس يفلح الأرض ويطعم الماشية ويمشي وراء المحراث، وهو شبيه بحسن مفتاح شهباً يذهل الجميع وان كان يصغره بعامين ويتجاوزة طولاً بأقل من القليل. ولعله الان عائد من حقله قبيل الغروب بزمام دماريس في جلبابه القذر على حماره الصبور، وقد عقد منديله الكبير الملون حول عنقه بعد ان أتى على ما فيه من جبن وبتاو في وجبة الغداء. الموت لك يا سيد قنديل. ان الاقدار قد خلقتك لتكون ضحية. انت العابر الذي يسعى في أمان فيسقط عليه منزل دائر. انت الحاصد الذي يحصد في أمان فترديه رصاصه طائشة كان ينبغي ان تردي البط البري. انت المحارب الذي كتبت له السلامة ليموت في الهدنة. انت العوبة القدر التي يعرضها القدر بين الحين والحين حتى لا ينسأه الناس. ولكن لا؛ البشرى لك يا سيد قنديل،

فسوف تعيش طويلاً . ان روح حسن مفتاح روح لا ترضى بالجريمة . ان روح حسن مفتاح فيها الخير وفيها الشر ولكن خيرا كلي وشرها جزئي ، والكلي يقهر الجزئي . ان روح حسن مفتاح ترضى ان تقبّع في ركن الغرفة وتتعب على حبها الفقيد ولا تقبل ان يصاب سيد قنديل بخدش . لسوف يعيش سيد قنديل فما أذنب . انما الذي اذنب هو عبد السلام بك ربيع ، فينبغي اذن ان يموت . ينبغي ان يموت عبد السلام بك ربيع لانه عذب مونا ربيع اولاً ، ولأنه حرم منها حسن مفتاح ثانياً . فليتهشم ولتتهشم معه الكرايسلر السوداء وليتهشم وراهما كل أثر من آثاره في العالم المادي وأكثر من ذلك إنه لم يعذب الحبيبة فحسب . وانما سيعذبها بحفلاته الاسبوعية التي لا يتردد عليها إلا السفهاء والسفهيّات من كل صاحب كرايسلر ومن كل صاحبة سوليتير . سيعذبها بمعاقباته العليلات اللائي يتن ويعتّن كل يوم مرات . سيعذبها بجهل العظم وتقاهته العظمى . نعم ، سيعذبها بتقاهته العظمى فهو في مجتمع التفاهة أمام التافهين . ليته كان يقامر ، أو يحب سباق الخيل ، أو يستطيع عشرة النساء . اذن لاستراحت منه نصف النهار واكثر الليل . اذن خلّت بعده الى معارضها وكتبها ، الى الموسيقى التي تحب أن تعيش لها . ان مونا ربيع من ذوات الاهداب الفاحمة الطويلة والوجه الذي لا هو شاحب ولا هو ناضر ، والأعصاب الحية دائمة التوتر التي لا تهدأ الا بمرأى الآفاق الزرقاء ، لا تهدأ الا بمرأى الآفاق ، والبدن الضئيل الذي يوحى بذات الرنة ، فكيف يحرمها إنسان من الموسيقى ؟ إن مونا ربيع مازوركا تسير على قدمين ، انها حورية مصدورة ثائرة على روتين الفردوس . ولكن ربيع بك لا رذائل له ، وهو لا يغادر بيته الا غراراً ليشبع مونا بتقاهته . أما حفلاته وهي المبرر الأوحده لحياته ، فهو يقيمها لأسباب مالية ، يقيمها بانتظام . انه شاب ، وسامته لا شك فيها ، ولكن رأسه كجوزة الهند الفارغة ، وحياته قد انكشت الى عمود البورصة في الأهرام ، وطريقته في التودد الى زوجته كلما أحس بأنه لم يعد يطاق هي أن يشتري لها فراء جديدة او بعض اسهم شركة الحرير الصناعي . ان ربيع بك ينبغي ان يختفي من الوجود ، لا لانه عذب مونا ربيع ، فمافات ،

- لأنه سيعذبها لأربعين سنة قادمة . ولو ان نعيماً كان يعالج هذا الموقف لقال : ينبغي على جميع نساء القطر ان يدسسن السم لأزواجهن . ينبغي ان يختنق ربيع بك الى ان يطفح الدم من فمه ، حتى تسلم مونا ربيع ، بل حتى تسلم عفتها . أو اه ، لولا هذه الطفلة لفرت منه مونا ربيع فهي تستطيع ان تفر . سوف تعذب روح حسن مفتاح عبد السلام بك ربيع حتى تدفعه الى الانتحار . سوف تطلعه على اسرار الجحيم حتى تدفعه الى الانتحار . لسوف تجلس على صدره اثناء الليل حتى تدفعه الى الانتحار . لسوف تعلقه من أذنيه في سقف غرفة حتى يصيح : وارحمته . لسوف تنقص له في زي سحلية وتتسلل الى فراشه وتمضع خشب السرير بين المساء والصباح ، بين كل مساء وصباح ، وتصرخ في أذنيه صراخها الحاد المتواصل حتى يحن ويقذف بنفسه من النافذة . لسوف يتقص له في زي فأر يتكلم حتى يبيض شعره هلعاً .

ولكن ما بال روح حسن مفتاح لا تفكر إلا في الجريمة ؟ أهى ظلمة النهار وبرودة الموت ؟ ان حسن مفتاح ابان حياته لم يرضَ بقتل علي عبدالله لأنه بريء . أما ربيع بك فليس بريئاً ، وهو يقتل مونا ربيع كل يوم الف مرة . ولكن حسن مفتاح أبان حياته لم يرضَ ان يقتل زكية حنين وهي مذنبه ، فحسن مفتاح لم يكن يقر الانتقام ، لم يكن يقر الجريمة الفردية مهما كبرت الدوافع اليها . أنه احتقر فؤاد منقريوس لأنه اندفع الى الاجرام لدوافع شخصية ، فكيف ترضى روح حسن مفتاح الآن بقتل ربيع بك . لو انها فعلت ذلك لاستحقت اللعنة الى الابد . ان ما بين ربيع بك وحسن مفتاح مسألة تسويها الالهة . وان ما بين حسن مفتاح ومونا ربيع مسألة تسويها مونا ربيع ثم ان الوقت قد فات . فحسن مفتاح الآن روح لا يمكن ان ينتفع باللحم ولا بصحبة الاحياء . اما مونا ربيع فهي تعرف كيف تدافع عن سعادتها ، فان لم تفعل استحقت كل ما ينزل بها كما استحقت كل ما نزل بها حين اخطأت وتزوجته . ان روح حسن مفتاح لا تملك ان تقتل ذبابة ، فالقتل قتل ولكل جريمة عقاب والعقاب سلاسل الصوان

يجوار بحيرة النار والكبريت . لا . لا . لا . سوف يعيش ربيع بك . سوف يعيش سيد قنديل . سوف تعيش مونا ربيع . سوف يعيشون جميعاً . سوف يعيش الجميع إلا حسن مفتاح . الموت للموتى والحياة للأحياء . للموتى الظلام البارد اما الأحياء فلهم النور والدفء وأطياب الجنان .

فلتبقي إذن روح حسن مفتاح قابعة في ركن الغرفة تنتظر قدوم الاصيل ، فمونا ربيع لا شك قادمة عند الاصيل . ولترض روح حسن مفتاح اذن بما كان من نصيبها في الحياة ، ولترض كذلك بنصيقتها في الموت . لتقبع في صمت ، ثم فلتحوم أيامها الاربعين في هدوء حتى ينقضي اجلها فتنتقل الى الهاوية حيث المادة ممتعة . أما الآن فسوف تأتي مونا ربيع ، وسوف تدخل الدهليز الصغير فلا تجد أحداً ، وسوف تدق الجرس من المدخل الصغير فلا تجد أحداً ، وسوف تدق الجرس من المدخل الصغير فيخف اليها الخادم النوبي او الخادمة ذات الوجه المبثور ، فهما في المطبخ يتعاونان في قشر البطاطس أو يتناجيان تحت رائحة البفتيك أو يتخاصمان في توزيع القرش التي يتركها النزلاء المسافرين هبة للخدم . ولكنها لا يعلمان بما كان من امر مدام كلاداكيس او من امر مدام كاييتاناكيس أو من أمر ذلك النزيل صديق البنسيون الذي لا يعرف له أحد اسماً على وجه التحقيق . وسوف تجلس مونا ربيع في مقعد من المقاعد الصغيرة في المدخل ، وسوف ترتاح قدمها على البساط الأسويطي الصغير الحسن؛ سوف تنتظر مونا ربيع حتى ينفذ صبرها . وكلما فتح نزيل باب غرفته شخصت اليه في لهفة ثم ارتد بصرها الى صلبان الارض في خجل ووجوم . وحين ينفذ صبرها سوف تفهم . سوف تفهم ان حسن مفتاح قد صحا الى حقيقة الموقف بمقدم الصباح ، فأثر ان يضع حداً لهذه المأساة التي توشك عناصرها ان تتجمع فتعصف بالجميع . آثار النسيان ، ولعله الآن ينسى في حانة من حانات المدينة فوق كؤوس النبيذ . وسوف يزداد اعجابها بشجاعته وتجمله ورجاحة عقله . انها لن تفضب لأنه اخلف الموعد . انها ستفهم . انها ستتشبه به فتطلب النسيان .

ولكن حسن مفتاح يستطيع ان ينسى بالشراب الذي يحبه ، ويستطيع أن ينسى باللجنة المركزية التي يحبها ، أما مونا ربيع فكيف تنسى ؟ ان غصتها تجلس دائماً على الفوتيل الرمادي قرب المدفأة التي لا تدخلها نار في الشتاء او في الصيف ، وتدخن الببية في صمت وتقرأ « الاهرام » صباحاً و « المقطم » مساء . ولكن مونا ربيع سوف تفهم وسوف تنصرف اقرب الى الراحة منها الى الشقاء ، وسوف تعود الى غرفتها وتغلق من وراءها بابها ثم تحتضن طفلتها ماجدة وتقبلها الف قبلة وقبلة . انها اوشكت في وقت من الأوقات ان تمقت ماجدة لان في دمها آثاراً من ربيع بك ، ولكنها عدلت عن ذلك واسرفت في حبها إسرافاً فعلقت عليها آمالها وسعادتها وحقوقها في الحياة . بل علقت عليها حقها في رجولة الرجال ، فغدت تجدد في تقيلها وفي عناقها وفي مناجاتها وفي المسح على شعرها راحة تبعث الحذر في جسمها ولذة الامومة واشباعاً فيه من إشباع الجنس شيء كثير . وبعد ان تفعل مونا ربيع كل ذلك سوف تروض نفسها على انسيان ، سوف ترضى بربيع بك على علاقته ، سوف ترضى بببية ربيع بك التي تثير فيها الحنق وتجعل اسنانها تصطك غيظاً .

فلتبقى اذن روح حسن مفتاح قابضة في ركن الغرفة تنتظر مونا ربيع . فمونا ربيع لا شك قادمة عند الاصيل . وعند الاصيل سوف تتسرب روح حسن من ثقب الباب أو من تحت الباب حتى تبتلع برؤية مونا ربيع . ولكن روح حسن مفتاح لن تطيل المكث حتى لا تشيع في المكان برودة الموت . ولن تمر أمام المرايا او ألواح الزجاج قبل ان يضاء النور حتى لا تفزع الأمنين ، ولن تتحرك في عنف حتى لا يحس بوجودها أحد ، فلو أحس بوجودها ، سجنها السجان الاعظم الف سنة في شجرة الجميز . وفوق هذا وذاك لن تتحدث روح حسن مفتاح الى مونا ربيع خشية ان تنزل بها ما أنزلته روح فؤاد منقريوس بحسن مفتاح . لن تتحدث روح حسن مفتاح الى أحد فهي لا ترضى الموت لأحد . انما تستمع روح حسن مفتاح في صمت واحتراس الى قدمي مونا ربيع حتى اذا ما بلغت

قدميها قبلتها في صمت كذلك لتقول : الوداع ايها الحبيبة ، ومن ثم تنصرف الى ابد الآبدين ، ومن ثم ترفرف على المياه وتحوم على اليابسة حتى تستهلك اربعينها وتنزع جملة عن عالم الاحياء .

كلا . ان روح حسن مفتاح لن ترفرف ولن تحوم ولن تستهلك ولن تنزع . لن تفعل شيئاً من هذا روح حسن مفتاح . لقد كانت روح حسن مفتاح تفكر في الجريمة تفكيراً متصللاً ولا تدري لذلك سبباً . اما الان فهي تفهم السبب . ان اللجنة المركزية في انتظارها ، ولئن غابت روح حسن مفتاح عن اللجنة المركزية تفكك عقدها بعد حين وتشاجر اعضاؤها في المذهبيات وهم في واقع الأمر يتشاجرون على النفوذ فخرّبوا المذهب والحركة جميعاً . نعم ، ان القادة اذا تنافسوا أو تحاصموا خربوا المذهب وعددوا البرامج واعضاء اللجنة المركزية لا شك متنافسون ثم متخاصمون . ان الزملاء زملاء بالمعنى الصحيح . خلقوا ليكونوا زملاء متساوين لا أكثر من ذلك ، وسيتسابقون من بعده الى النفوذ لأنهم زملاء متساوون ، فهم بحاجة الى شخصية ناجعة ومرنة معاً ، شخصية أقوى من شخصياتهم يلتفون حولها ويرضون بالولاء لها ، شخصية تتقدمهم في تحمل التبعات فتقدمهم في نيل الجزاء . هم بحاجة الى حسن مفتاح . ولسوف يعود اليهم حسن مفتاح . نعم ، لسوف يعود حسن مفتاح ولو مشى على اجداث الملايين . لا مفر من الجريمة يا حسن مفتاح . ان مصير الشعب في خطر فلا بد من انقاذ الشعب . ان هذه اول توضحية جدية يطلبها الشعب اليه فكيف يبخل على الشعب بهذه التوضيحية . ان هذا أول امتحان عسير يجتازه ، ولسوف يثبت جدارته في الامتحان . انه ليس بقاتل . ولكنه سيقتل . اقاتل هو ؟ كلا . فلو قد كان قاتلاً لقتل علي عبدالله وفاءً لفؤاد منقريوس . اقاتل هو ؟ كلا . فلو قد كان قاتلاً لقتل ربيع بك وفاءً لمونا ربيع . ولكنه لم يقتل علي عبدالله ولن يقتل علي عبدالله ولن يقتل ربيع بك ، فما هو بقاتل ، وانما هو منقذ . انما يسمع زحار العبيد في شعاب الارض ويسمع نحيب الملائكة في رحاب السماء فيستجيب .

ذمير من الجريمة يا حسن مفتاح . سوف تبحث روح حسن مفتاح عن جسد تحل
 به ليكتب لها اجل جديد . سوف تجوب مشارق الارض ومغاربها بحثاً عن
 شبيه تسكن فيه . في الصين . في بلاد البيض . بين الزوج . في جزيرة النار .
 سوف تنقب روح حسن مفتاح عن شبيه تسكن فيه . وحين تجد روح حسن
 مفتاح هذا الشبيه سوف تجده حياً يسمى بين الأحياء ، فتتأمر به حتى تصرعه
 ثم تحل فيه . سوف تستدرجه الى الغابات الصنوبرية وترديه قتيلاً على اكداس
 وراقها ، على مشهد من السناجب والعصافير ، أو تقتاده الى الرابية الصخرية
 حيث يلطم الموج الغاضب صوانها السحري فينقش عليه عبر المجهول ، أو تحنقه
 في فراشه بأنامل من هواء ثقيل ، وتجلس على صدره جلوس قيظ اغسطس حتى
 تزهق انفاسه على مرأى من زوجه وعياله ، أو تطارده كما طاردت ابو ذبابة
 الأساطير ، كل هذا ستفعله روح حسن مفتاح ، وأكثر منه . كل هذا ستفعله
 روح حسن مفتاح من اجل الشعب لأن النهاية قد اقتربت وآن يوم الخلاص . ان
 موته كان خطأ من القدر . فليصلح هو ذلك الخطأ . ان هذه ارادة الشعب ،
 و ارادة الشعب من ارادة الله ، فهذه ارادة الله . انه يقتل بأمر من الله ، بتكليف
 من السماء القوية ام الجميع .

هو لن يقتل بل سيهب الحياة . ولكن بحثه لن يطول . فهو يعلم اين يجد
 الشبيه ، فله ابن عم قروي لا يزال يسير حافياً وراء المحراث في رباع دماريس
 مسقط رأسه ، هو سيد قنديل . وابن عمه نسخة منه تحير الناظرين ، فهو يعرف
 فريسته منذ الآن . لسوف يقتل سيد قنديل اذن . ولكنه سيقتل على كره منه .
 هو لا يحب القتل ، ورائحة الدم تزعج انفه . ولكنه سيقتل ، بل سيشرب الدم
 الاحمر اذا لزم الأمر . هذه ارادة الشعب ، و ارادة الشعب من ارادة الله ، فهذه
 ارادة الله . واذا لم تكن هذه ارادة الله فلم باح له منقريوس بهذا السر العظيم ؟ ان
 الملايين والملايين تقيم الاربعين وتقدس الاربعين ، ولكنها لا تدري لم تقيمها ولم
 تقدسها . اما هو فيدري . وهو يدري بإذن من الله . أم بأمر من الشيطان ؟

أليس جائزاً أن روح حسن مفتاح روح نجسة لعينة ؟ نعم انه الشيطان الذي رسم له الطريق من مبدئه الى منتهاه ليقوده من رحاب الله الى عرصات الجحيم . أليس جائزاً أن روح حسن مفتاح روح نجسة لعينة ؟ أليس جائزاً أن روح حسن مفتاح تحب الحياة وتتشبث بها فتبحث لها عن اجل جديد ؟ ان روح حسن مفتاح تقشعر في ركن الغرفة تحت ظلام النهار . ولكن لا . ألف مرة لا . ان حسن مفتاح لم يكن بالقاتل وما روحه بالروح النجسة التي تخرب وتمشي بالفساد . انما هي تفعل كل ذلك لأن السماء قد استودعتها امانة ينبغي ان تؤدى فتصل بالشعب الى مصيره المحتوم ، وهي الآن تصلي الى السماء وتستغفر عما تقدم من ذنبها وما تأخر ، وتسلم امرها لمشئته الدافع المجهول .

وجاء الاصيل وجاءت مونا ربيع ، ووقفت بباب المدخل الصغير ، ودقت الجرس ؛ وخرج إليها الخادم النوبي من مطبخه وهو يمسح كلتا يديه في بنطلونه الازرق المرقوع . فلما لم تهتد الى شيء معلوم جلست في المقعد الصغير واراحت رجليها على البساط الصغير الحشن ذي الصليبان المتداخلة .

وانتظرت . ولكن انوار المدخل كانت مضاءة ، ولم يكن لروح حسن مفتاح بدءاً من الخروج فخرجت الى المدخل في احتراس شديد ، تتلمس طريقها في أناة خشية ان ترتطم بالمشجب الواقف فتلقي به على الارض او تحتك ببائدة التليفون فتحدث ضجيجاً يلفت اليها الانظار . ووجدت المدخل مظلماً لا حداً لظلمته فزحفت على البساط الاسيوطي زحفاً حتى بلغت قدمي مونا ربيع ، وهناك وقفت . وغلبها الشجن فكادت ان تجهش بالنحيب ولكنها غالبت احزانها حتى انتصرت عليها . وانتشرت في المدخل برودة غريبة جعلت مونا ربيع تلتفت الى ممر الهواء . وتقدمت روح حسن مفتاح من خدي مونا ربيع فمستها مساً رقيقاً ، واحست مونا ربيع بريح باردة تعبت بجديها فاقشعرت . ثم انسابت روح حسن مفتاح الى الخارج . وعاد المدخل كما كان آمناً لا تفكره الاشباح .

وفي لحظات كانت روح حسن مفتاح تضرب في مهامه المدينة ، فزارت
موقع الغرام موقعا موقعا . زارت المونسنيير فوجدته لا يزال خاوياً ، وترسمت
عريقها الى مصطفى باشا وتوقفت حيث توقفت الكرايسلر ، وهناك لم تحتمل
عصاة الذكرى فأجهشت بالبكاء . وسمعت اشجار الشارع الخالي نواحها فارتعشت
وسمعت امواج البحر انينها فخارت خواراً يفتت القلوب . وتقدمت روح حسن
مفتاح من الفيلا الصفراء مودعة ثم انطلقت في الفضاء ، انطلقت الى الاعالي
كأنها تبغي النجوم ، ولكنها كفت اخيراً عن الطيران ، وحلقت فوق المدينة ذات
نغمة الجميل والانوار الزرقاء الداكنة التي تغشى النفوس ، فقد خرجت روح
حسن مفتاح من نطاق النور المظلم الى نطاق الظلمة المنيرة . ههنا لن تزعجها
روح الارض المظلمة ، فههنا الظلام منير يعشي سناه الابصار . هنا لن تزعج
حداً برياحها الباردة وجوها الرطيب ، ولن يزعجها احد باللعنات أو
بتعاويذ .

وانطلقت روح حسن مفتاح الى الجنوب على جناح الريح ، وهي لا تدري فيم
طيرانها الى الجنوب مع ريح الشمال . نعم . انها تنطلق الى الجنوب لتهرب من
موتها ربيع . لا . إنها تنطلق الى الجنوب لتجج الى مولدها . وبلغت روح حسن
مفتاح ارباض دماريس قبيل الفجر رغم انها تلكأت في مواضع عدة . وعلى قمة
بتلال قرارة جلست ، وذهبت تصغي الى السكون الأبدي شرق التلال حيث
الوادي المتدرج ، وتتأمل منازل قرارة التي تناثرت في الغرب بين الرمال وعلى
حافة النبات اليابس بيضاء حجرية أو شهباء من طين جاف ، ومن حولها ومن
بعدها غابة سوداء من احراش النخيل القصير الغليظ العقيم الذي ينمو كما ينمو
الصبار ، رمز الحياة . وبعد احراش النخيل القصير الغليظ العقيم رمال ، وبعد
الرمال يبدأ الوادي ، يبدأ بغابة سوداء من احراش النخيل الطويل ، النخيل
المشعر الذي يرضع الماء من جذع ممتلى ومن بعده حشائش المراعي ، ومن بعد
المراعي أفدنة من الطماطم تبتهج بحمرتها العيون ، ثم افدنة من البرسيم المترعرع

الشديد الخضرة ، ثم قصب عالٍ ما له نهاية ثم فلوات فيها بالث الشياطين فأنبتت
 حشكاً شائكاً ، ومن بعدها زمام دماريس الذى اكتسى قصباً واكتسى ذرة
 من تخوم الجزيرة الى تخوم الجرابيع ، ومن وراء ذلك كله انساب النيل ثقيلاً
 كالرصاص المصبوب ، ما فيه موج وما فيه رياح ، وانما عليه قشرة من ضباب
 الصباح . وفي التخوم الشمالية غابة سوداء من احراش النخيل الطويل النجيل المثمر
 التفت غزاراً فضربت حول الأكواخ نطاقاً يدرأ عنها الخماسين كل ربيع . وكانت
 الجن تسير بين نخيل الغاب وأطفالها تتقاذف بالحصرم المر الذى نبت قبل
 الألوان ، وكانت الجنيات يتباهين بشعورهن الطويلة البيضاء ويمشطنها تحت جذوع
 النخيل بأمشاط من عاج وأمشاط من أبنوس ، او يغتسلن في الضباب تحت
 الجرف العميق حتى لا تصل اليهن عيون الجان ، يغتسلن قرب الشط جماعات
 وقد تماسكن خشية ان يفترسهن التماسح العظيم ، او يتحلين بين اعواد الذرة
 الهيفاء بعقود من حبها الابيض المفروط . فلما رأت روح حسن مفتاح كل ذلك
 تسالت الى مشارف الغاب ، ووقفت بين نخلات ثلاث متعانقات تسمع الى ما
 يقوله الجن فلم تفهم من لغة الجن شيئاً ، ومضت تتأمل اجساد الجنيات وهي
 نورانية وراعتها شعورهن الطويلة التي تنسدل غزاراً الى العقبين كأنها اسلاك
 البلاطين . فلما ان صاح الديك كثر الهرج بين جماعة الجن فبدت كأنها جماعة من
 الفجر تتأهب فجأة للرحيل . واجتمعت الجنيات حول النخلات الثلاث وتماسكن
 في هيئة العقد ورقص حولها رقصة الوداع سبع مرات ، ثم حملت كل صغارها
 وانصرفن الى كهوف الجان بين التلال . وانصرف في اثرهن الجن يتسابقون .
 وبقيت روح حسن مفتاح بين النخلات الثلاث وحيدة تنتظر الفجر الاحمر وهو
 يتدفق رويداً رويداً بين قمم المقطم فلما تدفق الفجر الاحمر رويداً رويداً بين
 قمم المقطم اظلمت السماء رويداً رويداً حول روح حسن مفتاح حتى لم تعد
 تبصر الأكواخ ولا مياه النهر القريب ولا غابة النخيل . فلما اكتملت الشمس
 فوق القمة الحمراء باتت روح حسن مفتاح في ظلام دامس .
 لقد رأت روح حسن مفتاح ما كفاها . وانها لتأنس الى هذا العالم الجديد .

- مدمها أربعين يوماً تستطيع فيها لو أحبت ان تتسلل اينما شئت : الى
خدع ، الى مجالس الانس ، الى مجامع الاشباح ، الى قيعان الانهار ، الى
كس السحاب ، الى بلاد الثلوج والى بلاد القيقظ الاحمر ، وبعد ذلك تنزح
رأبداً عن عالم الأحياء ، ولعلها تجد في الملكوت النوراني السعادة التي فاتها
في بيت الصلصال . ولكنها لم تزر دماريس لتستمتع بمراى الجان او لتناجي
ذقحي البرية او لتتمنى عذب الاماني ، وانما زارتها لقضاء امر عظيم ، زارتها
لتؤدي رسالة ، زارتها لتحقيق نبوءة . زارتها لترى مولدها ، وتلعب في الدرب
سعيد مع الدجاج اللاغط ومع العنزة ذات الاجراس . كلا . انها ما جاءت
زيرة مولدها ، وما جاءت لتلعب في الدرب السعيد مع الدجاج اللاغط ومع
عنزة ذات الاجراس ، وانما جاءت لتزور سيد قنديل ابن عمها الغالي . لتطمئن على
صحته الغالية ، فصحة سيد قنديل هي الآن اثنان ما في الوجود .

ان سيد قنديل سوف يخرج مع الفجر ، ولعله الان قد صفا من نومه في الدوار
لصغير بدرب المفاتيح ، وليس خفية وغسل وجهه بلا صابون بالانجر والابريق
ثم تناول عصاه من وراء الزير وسعى الى حمارة يفك وثاقه ، ولقد خرج سيد
قنديل على حمارة وسار في الدرب المتعرج الفقير ، والقى السلام جملة مرات على
القرويين المتعرجين الفقراء ، وتجاوز بيت الخواجة عبد الملاك ابو عازر وهو
البيت الوحيد المبني بالحجر بعد بيت العمدة .. وحين بلغ الحمار الكوم العظيم ،
كوم الروث ، القائم خارج القرية في مدخل الدرب لم يقف لأن رائحة الحثالة
اوقفته . فقد الف رائحة الحثالة منذ ان كان جحشاً وليداً ، بل وقف لأنه كان
عطشان فرأى الثقل . ورأى سيد قنديل في اقصى يساره البيت الحجري الاخر ،
بيت طه ابو عبد الصمد ، البيت الوحيد الذي يحتوي على آلات غريبة لا وجود
لها الا في البنادر . ففيه راديو ببطارية ، وفيه تلفون يبلغ به العمدة حوادث دماريس
الى بوليس سمالوط ، وبه صندوق من الحديد يغني ، أهم من هذا وذاك به دراجة
يركبها ابن طه ابو عبد الصمد ويختال بها بين اطفال القرية ، ولا يأذن لاحد منهم

ان يركبها إلا بأمر من أبيه ما خلا السيد ابن شيخ البلد . ان ابن سيد قنديل لا يزال يأكل الدراجة بعينيه كلما رآها في زقاق من الأزقة ، وقد بدا له مرة ان يسكها ليحس بجديدها تحت اصابعه ويفرح قليلا ، ولكن ابن العمدة نهره نهراً موجماً والقى به على الأرض ، فكان ذلك عظة كافية لأطفال القرية . وسيد قنديل لم يطلب قط لنفسه راديو ولكنه كان يحب ان يسمح طه ابو عبد الصمد للفلاحين ان يدخلوا حوش داره ، ظهر الجمعة ليستمعوا خطبة الجمعة في الراديو وان تكون لولده دراجة . ولكن سيد قنديل كان يعلم ان هذه ارادة الله ، فانه يعطي الدراجات لمن يشاء ، ولو شاء ربك لأعطى كل من في القرية دراجة ، ولكنه لا يفعل ذلك ، وهو لا يفعل ذلك لأن له في ذلك حكماً ، فأصابع اليد ليست متساوية . وهنا ينظر سيد قنديل الى اصابع يده فيرى انها غير متساوية ولكنه لا يرى انها جافة متشققة قدره رغم غسلها بالماء كل صباح . ثم يركز حماره ويصعد به ما بقى من كوم الروث العظيم . ثم يهبط من الكوم الى المقات الممتد بطول دماريس محاذياً للنيل ، ويقود حماره بين رؤوس الطماطم الى الشاطئ حيث يمد الحمار عنقه ويشرب من دموع ايزيس . ويحس الحمار بغبطة ما لها نهاية ، وكذلك يحس سيد قنديل بغبطة ما لها نهاية ، ويحمد الله لأنه لا يزال في الدنيا أشياء لم يملكها احد بعد : الهواء والماء ورائحة الصباح . فهو يحب رائحة الصباح التي اختلطت فيها انفاس الروث وانفاس الطماطم شتاءً ، وأنفاس الروث وانفاس البطيخ صيفاً . ثم يسوي سيد قنديل اللبدة على رأسه المحلوق ويهش على حماره بعضاه ويسعى نحو ميل الى الشمال على الجسر الطويل اولاً الى القراريط الخمسة التي استأجروها بجوار القيراطين اللذين ورثهما عن أبيه ، وبعد ان يتفقد قراريطه يجمع أكواز الذرة ساعة او بعضها حتى تأتي زوجته بفظوره ، بتاوتين وقطعة من الجبن ، ملفوفة في المنديل الملون العريض (اما الفول الاخضر فهي تسرقه من الحقول) . ولكن زوجته قد تأخرت ، وهو لا يستطيع ان يترك اكوازة على الارض في متناول السارقين . ثم انه جائع . ثم ماذا يقول الحاج سيد احمد الذي كراه ليقطع له قصبه . لا شك ان بقية الجدعان

فد وصلوا الى غيط الحاج سيد احمد، وبدأوا العمل فعلاً فالشمس قد ارتفعت
 ودُفَت الكون . كذلك لم يأتِ مقصوف الرقبة عبد السميع (ولده) ليجمع
 معه كواز الذرة . لعل مقصوف الرقبة قد خالف امره . وذهب الى الكتاب
 سداً من ان يأتى الغيط ويعينه في العمل . ترى ما نفع هذا الكتاب ؟ انه يمنع
 غم عن العمل ، وقد كان خليقاً بهم ان يعملوا . ان عبد السميع يجمع
 سرّة شتاء ويحني القطن صيفاً لقاء ثلاثة قروش يومياً ، وهي ثمن طعامه وبعض
 صعام اخته الصغيرة سيدة . وذهابه إلى الكتاب يحرم سيد قنديل من هذا الدخل
 ساعداً ، ويجعل من مقصوف الرقبة عائلة على سيد قنديل لا تحتل .

ولكم امر سيد قنديل مقصوف الرقبة عبد السميع بالكف عن الذهاب الى
 كتاب ليعاونه في طلب الرزق ، ولكن مقصوف الرقبة لا يجد فرصة
 يتسلل فيها الى الكتاب إلا واغتنمها . ترى ما نفع هذا الكتاب ؟ انه يعلم
 مقصوف الرقبة القراءة والكتابة والقرآن والحساب . ولكن ما نفع هذه
 الاشياء ؟ ان حفظ القرآن نافع لأنه يقرب الاسرة من الله ويرفعها في نظر الجيران
 ويظهر البيت من العفاريات . وقد يدعو الجيران مقصوف الرقبة بعد ان يكبر
 ليقرأ عدية يس فيخرج من بيوتهم الشياطين او ليقرأ ما تيسر على ارواح موتاهم .
 ثم انهم حين يخرجون الى القرافة لزيارة المرحومين من اقرباء الاسرة فقد يوفر
 مقصوف الرقبة اجر الفقى اذا اجاد تلاوة القرآن . ولكن ما نفع هذه الاشياء ؟
 انها لا تجعل مقصوف الرقبة يجمع الذرة أو يحني القطن بأسرع مما يفعل الآن .
 انها لا تعلم مقصوف الرقبة ان يزرع الأرض بأنقن مما زرعا اجداده . وهبها
 علمته ان يفعل ذلك فما الارض بأرضه وما الغلة بغلته .

وغداً يتعلم مقصوف الرقبة القراءة والكتابة والقرآن والحساب ثم يعود الى
 الارض فيفلحها ويزرعها ويرويها ويحصدها ثم يسلم ثمارها للحاج سيد احمد أو
 للشركة او للعمدة أو لأي مقصوف الرقبة يملك الارض . ثم ينسى مقصوف الرقبة
 عبد السميع القراءة والكتابة والقرآن والحساب كما نسيها يونس ابن نبوية العمشاء

بائعة البيض ، فما نفع الكتاب . ان الكتاب يقتضي سيد قنديل جنيهن كل عام ينفقها على حذاء مقصوف الرقبة وجلبابه الجديد ولوح الارتواز والكتابين اللذين يصوران الأسد والجل والفرد بالالوان ، ومع الجنيهن كيلتان من الذرة يغتصبها الشيخ اغتصاباً رغم ان الحكومة تأجره على عمله . كل ذلك ضائع في الكتاب ، وضائع كذلك اجر مقصوف الرقبة في كل يوم ينقطع فيه مقصوف الرقبة عن العمل . ما نفع الكتاب ؟ ان زوجته مقصوفة الرقبة فاطمة تقول انه نافع . ولكن مقصوفة الرقبة فاطمة لا تفهم ما تقول ، وهي تشجع مقصوف الرقبة عبد السميع على العصيان ، وتقول ان الكتاب سوف يؤهل الولد لأن يكون صرافاً اذا اتم علومه في المدرسة الكبيرة بسالوط ، فإذا استحال ذلك فهو يؤهله لأن يكون ساعي البريد (سيد قنديل لا يعلم ان مقصوفة الرقبة فاطمة كانت تحب ان تتزوج من ساعي البريد) فإن لم يصبح عبد السميع ساعي بريد فقد يعفيه حفظه القرآن من الجهادية حين يبلغ سن التجنيد ولا يجد البديل الذي يفدى نفسه به ، فان كان قد نسي القرآن عندئذ فسوف يجعله المامه بالقراءة والكتابة بلوك امين محترماً بدل ان يكون نقرأ بسيطاً ، ولقد يدخل البوليس بعد تسريحه من الجليش ويعود الى دماريس او نباشيا يهرب الاهلين . كل هذا كانت تقدره مقصوفة الرقبة فاطمة كأنها تقرأ الغيب .

اما سيد قنديل فكان لا يفهم كيف تتحدث زوجته عن المستقبل بهذا اليسر العظيم ، وهي تعلم انه ما من خطوة تخطوها إلا بإذن الله . وهو لا يزال بعد هذا كله يسأل نفسه : وما نفع الكتاب ؟ ان الكتاب قد ينفع ابن العمدة لأن الشيخ يهرب العمدة فلا ينتظر منه قمحاً ولا ذرة ، ولأن الاسكافي والقماش وجميع من في القرية يهربون العمدة فلا يكلفون العمدة مليماً واحداً ، بل يهدون ولده كل ما يريد . ان الكتاب قد ينفع ابن العمدة لأن ابن العمدة يستطيع بعد تعليمه الازامي ان يعبر الى الضفة النيل الغربية ويتم تعليمه في مدرسة سمالوط الكبيرة (يقصد الابتدائية) فإن اتم تعليمه في مدرسة سمالوط الابتدائية

نضع ان يركب القطار الى بندر المنيا ليم تعليمه في مدرسة المنيا العالية
بقصد الثانوية) امكنه ان يسافر الى القاهرة او بلاد بره ليم تعليمه (هنا
نحصر خيال سيد قنديل عن تتبع مستقبل ابن العمدة) . وبعد سنوات يعود
عصباً او محامياً او وكيلاً للنيابة أو طبيباً ، ويصبح واحداً من الحكام . اما
مثل مقصوف الرقبة فالكتاب لا ينفعهم بشيء .

وفيا كان سيد قنديل يفكر في ولده ابصر زوجته على البعد تقطع الجسر
مسرعة فكف عن قطع اعواد الذرة وذهب يتأمل السيقان الجميلة الفارعة
ويتأسف على ما كان . فقد كان سيد قنديل يتمنى ان يكون موضع الذرة قصب
في قراريطه الخمسة ، ولكنه كان يعلم ان زراعة القصب لا تدخل اصحابها في
صلات مع شركة السكر إلا اذا كانت على نطاق واسع فمحصول قراريطه الخمسة
لا شك راجع الى وسيط والوسيط لا شك سوف يغشه في مال كثير ، سواء اكان
نوسيط الحاج سيد احمد ذاته ام المقدس عبد الملاك ابو عازر .

وما ان وصلت البنت فاطمة حتى فرشت المنديل الملون العريض امام سيد
بو قنديل ، فلما اتى سيد ابو قنديل على كل ما فيه انصرف مهرولاً الى الغيظ
كبير ليقطع قصب الحاج سيد احمد ، فكان يشق طريقه بين عيدان الذرة آنأ
وبين عيدان القصب آنأ آخر فيحدث جلبة كبرى اشبه بتمزيق آلاف الاوراق مرة
واحدة ، أو بنش آلاف الفيران في دولاب مقفل ، تتبعه روح حسن مفتاح التي
كانت تلطم الزعازيع كأنها قبضة من رياح . وهي تتحرق الى لحمه تحرق الجوعان
الضاري . لقد رأت روح حسن مفتاح كل شيء . رأت سيد قنديل يجمع اكواز
الذرة ويتحدث اليها ، وقرأت افكاره كأنها تقرأ كتاباً مفتوحاً ، ورأت
مقصوفة الرقبة فاطمة على الجسر تحمل الفطور مسرعة خشية ان يضربها زوجها ،
ومن ورائها نساء ومن امامها نساء كلهن فرادى وكلهن في جلابيب سود قدرة
تجر في الارض جراً ، وكلهن حافيات وكلهن مسرعات بالفطور الى ازواجهن
خشية ان يضربهن ازواجهن او يرموا عليهن الطلاق . ورأت كذلك مقاصيف

الرقبة غلمان القرية في اول الجسر ساعين الى الكتاب في جلاليتهم المخططة القذرة ،
أو ساعين وراء الجاموس حفاة يغنون المواويل . ورأت مقصوف الرقبة عبد
السميع متسللا بين التلاميذ الى كتّابه على تخوم القرية قرب غابة النخيل . وعلى
الجسر رأت القرية وقد احاط بها النخيل من كل جانب ، فبدت كأنها القبر
الكبير ، ولكنه قبر لم يصنع من المرمر ولا من الصوان بل صنع من الطين
الأشهب المجفف) ورأت للقبر بابين كلاهما حجري وابيض ، واحد في الجنوب
واحد في الشمال ، واحد يقيم فيه العمدة والآخر يقيم فيه الخواجة عبد الملاك
ابو عازر .

وفي القبر الكبير رأت روح حسن مفتاح اربعة آلاف جثة راقدة ما لبثت
ان نهضت ببزوغ الشمس وسعت كالأشياء الغبراء ، وانتشرت في الربوع لتدرف
العرق الأسود تحية لرع العظيم . وادركت روح حسن مفتاح ان خيمي الناضجة
السوداء التي اختفى صدرها الاسمر تحت اعواد القصب والذرة وزوجها حابي
المعجوز الذي لمعت غداثه الرصاصية من وراء الجروف تحت الزوارق الآمنة
هما الحقيقة الوحيدة في هذا الوجود القديم ، وكل ما عداها بدا كأشخاص
الاحلام او كعرائس البانتوميم . حتى الحقائق الأليمة كالعمدة والخواجة عبد
الملاك ابو عازر وشيخ الكتاب الذي نهب فقراء القرية نهبا وضاجع نساءهم وأفسد
عقول ابنائهم ، حتى هذه الحقائق المؤلمة قد بدت لروح حسن مفتاح كأنها
الاشباح . ففي دماريس وقف الزمن منذ اربعة آلاف سنة فبطلت عناصر الهدم
والبناء ، وثبت كل شيء على حاله . فالقبر الأشهب الكبير الذي رآته روح حسن
مفتاح هو شبح القبر الأشهب الكبير الذي بني يوم بني قبر خوفو ، والمعجول
الساعية على الجسر المتعرج ومن وراءها الغلمان هي المعجول المنقوشة على جدران
المعابد ، والمحاريث رقدت في الحقول كأن لم تمسها يد انسان منذ ان وضعها تحت
رب الزراعة هنالك ، والسواقي ناحت كما كانت تنوح في القديم ولعلمها لم تقطع
قط النواح . حتى الجعارين ذات الألوان الزاهية طنت كما كانت تطن في
القديم .

و عواد الذرة هزت رؤوسها للنسيم كما كانت تفعل في الماضي . كذلك تحجر نخيل ، وبدا كل شيء بين التلال الشرقية والتلال الغربية وجوداً ذا بعدين ، به طول وله عرض ولكن لا عمق له . شكل بلا قالب ، ظل بلا لون ، قوة مثولة ، اشارة بلا حركة .

وفي دماريس فهمت روح حسن مفتاح الروح الأكبر الذي يسيطر على نوادي . ان الابن قد اندمج في الأب وان القلب قد خضع للعقل وطأطأ اوزيريس رأسه منذ ان أصبح تحت كبير الالهة في الدولة الحديثة . قال تحت : انا الالف انا الياء ، انا البداية انا النهاية ، انا الكل انا الواحد ، انا الكل في واحد . وحين سمع اوزيريس هذا طأطأ اوزيريس رأسه أمام تحت . وحين طأطأ اوزيريس رأسه أمام تحت طأطأت الاشجار رؤوسها ، وطأطأت الابقار رؤوسها وسجدت المنازل ودخلت الجرذان شقوقها حتى تهرب من نور النهار ، وسكت الهواء وتعلقت انفاسه رهبة وخشوعاً ، وغاصت تماسيح النيل الى الأبد فانتهى عصر الخيال وعبد الخلف السلف . أما ثعابين الوادي فقد هزت اعناقها للمساء سخطاً ، وزحفت حانقة الى رمال الصحراء حيث تضع بيضها الذهبي بعيداً عن جور الآله الحكيم . وتحجر كل شيء فخرجت منه الحياة . ولما شاهد تحت كل ذلك اطمأنت نفسه وسكن المومياء واستراح الى الأبد . وقد كان المحرات قبل ذلك أخضر يانعاً يجرس كفرس النبي بين النبات الاخضر اليانع ، فقد خشبة يابسة برصاء وثبت في مكانه حيث هو يقيم الآث . وقد كان البشر قبل ذلك مرده وعمالقة وأبطالاً وتياقين ، لكل منهم أسطورة ، وفيهم من اوزيريس شيء كثير ، ففدوا بعد محنة اوزيريس أقواماً خانعين ، وصار الخلف نسخة من السلف ، وقنعوا بما عندهم وانطوا على أنفسهم كأنهم القواقع المحتومة ، واغلقوا تخوم بلادهم فلا هم خرجوا ولا هم اذنوا للداخلين . وأغلقوا نفوسهم فلا هم اعطوا ولا هم اخذوا من المعطين ، ولم يحدث في الوادي جديد . وهو الآن باقٍ على عهده الأول حتى يخرج المخلص حوريس . وارادت روح حسن مفتاح ان تتقمص شخص

خوريس المخلص، وأن تهيب باوزيريس قائلة : « انهض ، انهض يا أوزيريس انا
ولذلك مفتاح ، جئت ارد اليك الحياة ، لم يزل لك قلبك الحقيقي ، قلبك الحقيقي ،
قلبك الباقي » ، ولكنها أدركت أنها روح جوفاء لا تملك لأحد نفعاً إلا ان تلبس
ثوب المادة ، وعندئذ تجاب الصلاة ويرفع أوزيريس رأسه الكبير ، وتطفو
التماسيح من جديد ، وتخرج الجرذان من شقوقها ، وتضطرب أنفاس الهواء
فتهتز لها الاشجار والأبقار والمنازل ، ويخضوضر الحراث فيخضوضر معه
النبث ، وتعود الحياة الى الوادي لتتراقص حول النيران لمسمع الأرغول في
محراب انوبيس كما كانت تفعل في القديم ، وتدب في الحجر الحياة فيثور الأبناء
على الآباء ويهزأوا من طغيانهم وجحودهم وصلفهم وخوفهم المزري من لعنة
الاجساد ، وينسلوا بعد عقم فيملأوا الوادي بالمردة والعمالقة والابطال
والتياتين .

واقترب سيد قنديل من الحرف الذي يجري تحته النيل بعد أن انحسر عما
يشبه الجزيرة . وكان لا بد لروح حسن مفتاح ان تبت على وجه السرعة ، فقد
رأت الفرصة النادرة . ترى ماذا يحدث لو كان النيل عميقاً ؟ ولكن نيل ينائر
لا يمكن ان يكون عميق الشطآن . إن سيد قنديل لا يختلف عن أعواد الذرة
التي ينبتها في قراريطه الخمسة ، فهو لا يهتز الا أمام الريح . أن سيد قنديل وجود
قديم متكرر ، نسخة من فلاح أزلي في عالم المثل ، ولعله ليس سيد قنديل إطلاقاً
بل جابي حورتيب الذي كان يتجول هنا قرب هذا الجرف منذ أربعة آلاف
سنة . فاذا كان الأمر كذلك فقد عاش أكثر مما ينبغي ، وإذا كان الامر كذلك
فينبغي أن يموت ليفسح المجال لجيل جديد . ان سيد قنديل ظل ثابتاً في ملتقى
الزمان والمكان ، فينبغي أن يصير الظل الى مادة ، وان تتعلم المسادة الحركة في
الزمان والمكان . ان سيد قنديل شبح خاو ذو بعدين فينبغي ان يكتسب بعداً
ثالثاً ، والا فمكانه الطبيعي داخل اطار تزين به جدران المتاحف لا بين الأرض
والشمس والهواء . إن سيد قنديل رمز عتيق لعشرين مليوناً من الاسياد القناديل

فينبغي ان يزول هذا الرمز ليحل محله رمز جديد ، ولو مات سيد قنديل لعاش
 عشرون مليوناً من الأسياد القناديل . ان ثمانين ألفاً من الاسياد القناديل قد
 قتلوا في نجاد أبي حمد وفي فيافي كردفان دون ان يسألوا جزاءهم فيم نموت .
 فإن قتل حسن مفتاح سيد قنديل واحداً قليل جريمة ؟ ثم ماذا يفقد سيد قنديل
 لو أنه سقط من حافة هذا الجرف العميق ؟ لا شيء . انه الان يأكل البتاو
 ولجن نهاره وليله ، ولسوف يصاب بالبلاجرا بعد جملة أعوام ، ولو سقط من
 جرف العميق لاكل البفتيك والبطاطس البورية بعد أن يخرج من النهر في
 شخص حسن مفتاح . انه الان ينام في القبر الأشهب الكبير على حصير يابس
 فوق مصطبة من الطين المجفف يحلم بنحوار الثيران وكيد الحاج سيد أحمد ، ولو
 سقط من الجرف العميق لنام على السرر المنمقة . وبات يحلم بالغيد الحسان وبعظائم
 لأمور . إنه الآن لا يرى الا الماء والطين وثر الماء والطين ، ولو سقط من الجرف
 لعميق لرأى الآفاق والآفاق . انه الآن يحيا بين احضان أمه العجوز خيمي
 وأبيه العجوز حابي ، ولكنه لا يعلم بأن أمه خيمي لم تعد العذراء السمراء التي
 كانت يوم أن زفتها الآلهة الى النيل بل اكتهلت وشحب وجهها وتشقق جسدها
 وأشرف على الجفاف ضرهاها ، فهي لا تطعم كل بينها وترجو لاكثرهم
 ان يموت . وان أباه حابي لم يعد الفتى القوي الجياش ذا الذوائب السمراء الذي
 كان يوم زفته الآلهة الى مصر بل شاخ وابيضت غدائره فهو لا يخصب كل عام ولا
 ينجب من صلبه المردة والعمالقة والابطال والتياتين . ولكن الاسياد القناديل
 لا حول لهم ولا ارادة يعيشون على الكفاف في كنف الوالدين ولا يخرجون الى
 الدنيا العريضة ليغازلوا العذارى الناضجات وينتزعوا اللقمة من أفواه الأسود .
 ثم إن حسن مفتاح اذ يقتل سيد قنديل انما يتيح له وجوداً اسمى من وجوده .
 إن حسن مفتاح يأكل الأحياء كل يوم ، يأكل الثيران والخراف ويأكل الكرمب
 والفاصوليا . وهو حقاً يبغيض العنف ولكنه يبغيض العنف الذي لا مسوغ له .
 وهو رغم أسفه على الثيران والخراف والكرمب والفاصوليا يأكلها كل يوم فلو لم

ياكلها لمت . وهو لا يضرب عن أكلها احتجاجاً على وحشية الطبيعة ، بل هو لا يلوم الطبيعة لوماً يفهد عليه حياته ، لأنه يفهم ان الثيران والحراف والكرمب والفاصوليا انما تتحول الى كائنات أرقى في الوجود وأفعل ، فتتحول الى انسجة ودماء وأعصاب في جسد الانسانية ، وتتحول الى أفكار وسيمفونيات وتابلوهات في عقل الانسانية ، وفوق هذا وذاك تتحول الى أعمال إرادية . إن التناسخ سنة الوجود . إن التناسخ رأس التطور فأبي خطأ اخلاقي اذن ان يتناسخ حسن مفتاح في سيد قنديل أو سيد قنديل في حسن مفتاح ؟ فلتدخل اذن روح حسن مفتاح في جسد سيد قنديل ، وليتجدد بهذا الاتحاد كلاهما . نعم . ان التناسخ سنة الوجود . التناسخ ؟ كلا . كلا . أليس هذا ما يقوله الانجليز حين يفترسون المصريين والهنود وزنوج افريقيا العذراء . كلا . كلا . كفى تردداً ، فالتناسخ سنة الوجود . وحين وقف سيد قنويل على شفا الجرف العميق خيّل الي روح حسن مفتاح انه يستنجد بها لتنقذه من حياته الخاوية . ولكن سيد قنديل لم يكن يفكر في شيء من ذلك ، وانما كان يفكر في كيلة الذرة التي ينبغي ان يدفعا المراكبي في المساء لقاء انتقاله طوال العام الماضي بين دماريس في البر الشرقي وسعالوط في البر الغربي يوم الاثنين من كل اسبوع ليشهد السوق .

وكان النهار محافاً ، ولكن روح حسن مفتاح لم تخطيء قط طريقها الى سيد قنديل . واقتربت روح حسن مفتاح من سيد قنديل فأحس سيد قنديل فجأة بأنه في حضرة غريبة لا يفهمها . وارتجف قلبه لغير ما سبب ظاهر . وتلفت وراءه ، فقد خيل إليه ان رجلاً يتبعه فلم يرَ إلا الارض المكشوفة ومن ورائها افدنة الذرة . وتلفت حوله فقد خيل إليه انه ابصر ظلاً يتبعه فلم يرَ إلا ظله ممدوداً على الارض المكشوفة ، بما يقرب من ضعف حجمه الطبيعي . فعاد يتأمل النيل ، ويفكر في حماره المقيد في قراريطه الخمسة ، وفي زوجته التي تقطع اعواد الذرة . وخيّل إليه انه يرى في الماء البعيد خياله . ولكن الماء كان بعيداً

فمستضع ان يجزم بذلك .

و خيراً جمعت روح حسن مفتاح كل ما بها من عزم وغلظة ودفعت بسيد قسبر من فوق الجرف العميق فاختل توازنه ، وارتفعت منه صرخة أليمة وهوى من حلق ثم ارتطم رأسه بالماء فأحدث دويًا عظيمًا أعقبه خوار عالٍ ثم رشاش عريض . وافقدته الصدمة وعيه او كادت ، واختفى تحت سطح الماء ما يقرب من دافئة ، ولكن سطح الماء توجهه فقاقيع عالية تسير مع التيار نحو الشمال بلا غصاع حتى خرجت من الجرف العميق ودخلت في منطقة الشاطئ المبسوط . وسمعت الجعارين التي تطن بلا انقطاع فوق الأرض المكشوفة والغربان التي تحجل بين البوص الأصفر المنشور صراخاً صامتاً اختلط فيه الرعب والعناد فكفت جعارين عن الطنين وثبتت الغربان بين البوص الأصفر المنشور ، وتعلق كل شيء تنظراً لنتيجة المعركة .

فقد كانت روح حسن مفتاح وروح سيد قنديل تقتتلان تحت الماء لتحل لأولى مكان الثانية . واخيراً ارتفع رأس الغريق فوق سطح الماء ، وكان يلهمث . وكان يضرب الماء بيديه عبثاً كأنه لا يعرف السباحة ، ولكن شطآن نيل يناير ضحلة الهادئة لم تكن تقتضي معرفة بالسباحة . وسرعان ما استرد الرجل توازنه فوجد رأسه وعنقه ونصف صدره فوق الماء ، ووجد قدميه ترتاحان على غرين رائق ، ووجد التيار الضعيف يجذب ساقيه في قاع النهر الى الشمال ، ولكنه لم يلبث امام ، بل سعي الى الشاطئ ، الى الأرض المكشوفة ذات البوص الأصفر المتناثر . ووقف يمسح رأسه المحلوق ويعصر جلبابه المبلول . وطنت حوله الجعارين وحجلت إليه الغربان ، ولكنها لم تستطع ان تثبتن ان كان الرجل سيد قنديل م حسن مفتاح . وعلى الماء طفت اللبدة تحت الجرف ولكنها كانت ثابتة في الماء لنذي عاد إليه ركوده . وخلع الرجل جلبابه ومضى يعصره بقوة ثم خلع قطنيته ومضى يعصرها بقوة . ورأى الألوان في وجه السماء ومن وجه الأرض فميز بينها

رغم ان الشمس كانت في أوج الفضاء . واوشك ان يخلع عنه سرواله الطويل الذي يبلغ الكاحلين ذا الرباط المزدوج الغليظ الذي يتدلى الى القدمين . ولكنه استحي . ثم سعي الى حزم من اعواد الذرة ملقاة على الأرض ففشر عليها ملابسه . وجلس تحت الشمس عاري الصدر يستدفئ .

وذهب يتأمل صدره فاذا سمرته قد اشتدت ، واذا عليه وشم . وهاله ان يرى الوشم . وشم ؟ ماذا أفعل بهذا الوشم ؟ كيف أزيل هذا الوشم ؟ وتمعن في يديه ظهراً وبطناً فوجدما آية في الحشونة . ولكن باله هدأ حين هبت نفحة من النسيم فحملت اليه رائحة الذرة والقصب وصوت كروان بعيد . كذلك هدأ جسده حين تسلطت عليه الشمس زمناً فجففته وادفأته ومشت في أوصاله بالكسل الجميل . وتجاوبت في خاطره انغام قديمة ، انغام رعوية تصف الطبيعة في بلاد التيرول من باستورال بيتهوفن ، واستنام الى الانغام واحس بحال الحياة ، ولكن قدمه لم تتحرك مع الانغام . ان قدمه قد تعودت ان تتحرك مع الانغام . ان قدم حسن مفتاح تتحرك دائماً مع الانغام . ولكن هذه القدم لا تتحرك مع الانغام . وتذكر ان هذه القدم قدم سيد قنديل . وتلكه رعب قاتل جعله يوشك ان ينهض من مجلسه ، ولكنه عاد الى مكانه وثبت فيه . وبدأ يشك في هويته . اهو حسن مفتاح ام سيد قنديل ؟ ومضى يتحسس حسده الحشن باصابعه الحشنة . اهو حسن مفتاح او سيد قنديل ؟ ان سيد قنديل لا يعرف انغاماً رعوية تصف الطبيعة في بلاد التيرول ، فهو اذن حسن مفتاح . ان سيد قنديل لا يتفتح هذا التفتح العجيب لرائحة الذرة والقصب ولا لصوت الكروان البعيد ، لأنه قد ألفها جميعاً ، فهو اذن حسن مفتاح . ان سيد قنديل لم يكن يستحي ان يخلع سرواله ويقف عارياً امام المأ فهو اذن حسن مفتاح ما في ذلك شك . ولكن الجسم بوشمه وغلظته وسمرته لا شك جسم سيد قنديل . انه روح حسن مفتاح في جسم سيد قنديل . ولكن ترى هل حدث خطأ ؟ ان جسم سيد قنديل لا يطيع

روح حسن مفتاح . ترى هل بقيت لجسم سيد قنديل مدركات حواسه ؟ ان
 . انعام لرغوية التي تصف الطبيعة في بلاد التيرول كانت من قبل تمشي في أعصاب
 حسن مفتاح ، وتنتشر انتشار الدم في خلاياه فتفهم قدمه الانعام وتتحرك لها ،
 وتستجيب أصابعه للانعام فتنبض لها وتنسبط . اما هذه القدم فهي تروح على
 أرض في غباوة ، كأنها لا تعي بما يجري داخل الروح . ان حسن مفتاح قد تعود
 . يد يده الى عنقه بين آن وآخر ليصلح رباط رقبته ، ولكن هذه اليد الغليظة
 . تمنع الان من ذلك شيئاً . ترى هل بقيت لجسم سيد قنديل عاداته الاوتوماتية ؟
 نعم كان ينبغي ان يكون هذا الاندماج كاملاً . ترى هل حدث خطأ ؟ ترى
 ماذا يحدث لو ان الروح لم تندمج في الجسد ؟ لسوف تتداخل الاحساسات
 . تتداخل فتكون منها فوضى يضطرب لها وجدانه ويشذ سلوكه . ترى ماذا
 يحدث لو أن الروح لم تندمج في الجسد ؟ لسوف يكون منه مخلوق عجيب لا
 يفهم الناس تماماً ولا يفهمه الناس تماماً . لسوف يفتضح امره بين الناس فيفر
 منه الناس اينما يكون ، فان مر بالمسلمين استعاذوا بالله من الشيطان الرجيم وان
 من بالنصارى رسموا علامة الصليب .

ولكن حسن مفتاح رغم ذلك كان يعرف انه حسن مفتاح . كذلك كان
 يعرف انه سيد قنديل رغم الوشم الكبير الذي يملأ صدره ، ورغم يديه الغليظتين
 ورغم رأسه المخلوق . فمن أين لسيد قنديل بهذه الأفكار المرتبة الدقيقة التي
 تتبع نهجاً علمياً . ان حسن مفتاح ، يعرف انه حسن مفتاح وفي هذا الكفاية . ان
 سيد قنديل فطري ان اراد ان يقول : « تسعة وتسعين » قال « مائة الا واحداً » . ان
 سيد قنديل جلف قد يحسن التمييز بين رائحة القصب ، رائحة الذرة او بين روث الحمير
 ، روث الخيل ، ولكنه لا يستطيع ان يستحضر فلاحه فان جوخ كما يفعل حسن
 مفتاح الان ، ولا يستطيع ان يستحضر اقوال الزملاء ، في جلسات اللجنة المركزية
 كما يفعل حسن مفتاح الان ، ولا يستطيع أن يفكر بالفرنسية كما يفعل حسن
 مفتاح الان . اما مدركات سيد قنديل الساذجة فلم يبق منها شيء ، فقد خرجت

بمخرج روحه ، ولئن بقي منها شيء فهو اصداء بعيدة لذكريات بعيدة لا تزال تعيش في حواسه بحكم العادة ، وليس لأن لها نظائر في النفس . فهو الآن يستطيع ان يرفع الفأس الثقيلة الملقاة بين البوص الأصفر المتناثر ، دون ان يحس بثقلها فما زالت في يده الغليظة ذكرى أوزان قديمة ، ولكن غدا سوف تنسى يده الغليظة موازينها الاولى . ولعله الآن يتحدث فيخلط لهجة القاهرة بلهجة الصعيد ، فما زالت في حلقة الحشن وشفتيه الحشتين آثار اصوات قديمة . ولكن غداً ينسى حلقة الحشن وشفته الحشتان تلك الآثار . غداً يُعلم حواس سيد قنديل ما تعلمته حواس حسن مفتاح . غداً يصير الى كل واحد متمسك .

ولكن غداً بعيد ، فلا يزال امامه ان يعود الى « زوجته » مقصوفة الرقبة فاطمة ليسوي حسابها معها ، ولا يزال امامه ان يخرج من دماريس ليعود الى اللجنة المركزية . ان شهره لم ينفذ بعد ، ولقد بقيت فيه أيام تربو على الاسبوع ولقد كان يجب ان يقيم في دماريس هذا الاسبوع لولا خوفه من ان يفتضح امره بين أهل القرية . ولو انه بقي بينهم لوجب عليه ان يمارس كل ما كان يمارسه سيد قنديل . وهل يستطيع حسن مفتاح ان يملأ هذا الفراغ الذي خلا ؟ الأرجح انه لا يستطيع . فماذا يعرف حسن مفتاح عن مجرى الحياة في بيت سيد قنديل ؟ انه يتسلم الدور في منتصف الطريق بلا تحضير . ان عليه أولاً أن يتكلم كما يتكلم أهل القرية ، فهل هو مستطيع ان يفعل ذلك ؟ انه قد يتكلم كما يتكلمون دقيقة او دقيقتين ، ولكنه لن يستطيع ان يتم ما بدأ . ترى ماذا يحدث لو انه خاطب مقصوفة الرقبة ام عبد السميع فأخطأ في نحو القرية ، او حدثها بما لا تألفه من الكلام ؟ بل انه لا يعلم كيف يخاطب سيد قنديل زوجته ، ايناديه بفاطمة أم عبد السميع ؟ نعم ، انه يعلم انه يناديه بمقصوفة الرجبة ، كما ينادي اكثر رجال القرية زوجاتهم وبناتهم وابنائهم واخوتهم الصغار . ولكنه لا يستطيع أن يقصف رقبتها باستمرار ، فلا بد ان هناك تعارفاً آخر على النداء . ام ترى ان قصف الرقبة عند أهل دماريس دلالة الاعزاز ؟ ولو انه أخطأ في نحو القرية

سمعت فيه مقصوفة الرقبة وظننت ان به مساء . نعم ، لا مهرب من ذلك . سوف
 تص ان به مساء . وسوف يذيع امره من طرف القرية الى طرفها الآخر ، من
 بيت طه ابو عبد الصمد الى بيت عبد الملاك ابو عازر ، وسيتناقل الناس ان به
 مساء ، وسيتحدث الناس عن المس الذي اصاب المسكين سيد قنديل اسبوعاً كاملاً
 حتى يخرج من القرية ، وربما تحدثوا به عن موسم القطن ، فالقرية ضيقة والقرية
 لا يحدث فيها جديد اللهم الا جرائم القتل واحراق المحاصيل وسرقة الماشية ،
 وهي تتجدد كل مساء ، كل مساء ، منذ ان انقرضت اسرة الالهة من وادي النيل ،
 ولكن القرويين لا يتحدثون فيها في الصباح لأنهم الفوها حتى زهدوها . انها
 جزء من روتينهم اليومي فكيف يتحدثون في ترديدها لذة ! ثم ان الأيام (أو
 المراتك ؟) قد علمت القرويين شيئاً من الحصافة وشيئاً من الحيطنة ، فهم لا
 يتحدثون عن جرائم القرية خشية ان يغضبوا سادة القرية ، خشية ان يغضبوا
 عمدة وخصوم العمدة واصدقاء العمدة ، فأكثر الجرائم من سادة القرية . ولقد
 يرى القرويون القتل يسقط بين أعواد الذرة أو على الجسر المتعرج الطويل
 ويعرفون قاتله معرفة العين ، ولكنهم قد تعلموا ان الصمت أمام وكيل النيابة
 خير وأبقى . فان كان للقتيل دم فليثار له اهله ، أما ان تنحسر الحكومة
 عن بصلته وقشرتها فهذا ما لا ترضى به تقاليد القرية . ان القرية في
 غربة كاملة منذ ان انقرضت اسرة الآلهة من وادي النيل ، وقد الف سادة القرية
 هذه العزلة واحبوها ، وهم لا يرضون للحكومة المركزية ان تبدل نهج
 حياتهم .

ولكن ماذا ينال من حسن مفتاح ان يتحدث الناس يجنون سيد قنديل ؟
 نعم ، ماذا ينال منه لو تبعه صببة القرية الملاعين حاملين صفائحهم وملاعقهم
 صابرين صفائحهم بملاعقهم كأنهم يدقون الطبول ؟ ماذا ينال منه لو سخر منه
 رجل القرية وجعلوه موضع سمرهم طوال الاسبوع ؟ انه سوف يختفي من القرية .
 ونحن نتحدثه مقصوفة الرقبة عن زيارة علي عبد المتعال وعن دين موسى ابو صبرة

وعن قيراط البرسيم المجاور للمقابر وعن غير هذا من الشؤون التي تتألف منها حياة سيد قنديل ، فهو يستطيع ان يحملق فيها عندئذ باطمئنان ولا يحجب ، أو لعله يحجب بما لا تنتظره مقصوفة الرقبة . لسوف تنسب كل شيء الى العفريت المصراوي الذي ركبه . وأهم من هذا وذاك ، لسوف يستطيع ان يتخلف معذوراً عن قطع القصب في زراعة الحاج سيد احمد .

ولكن هذه الخواطر الغريبة انقطعت جميعاً حين ذكر حسن مفتاح ان قصة جنونه قد تعرقل خروجه من القرية . ان المراكبي سيعرف مجنونه ولن يسمح له بأن ينتقل في مركبه الى سمالوط . فان سمح له المراكبي ان ينتقل في مركبه الى سمالوط فلا شك ان تليفون العمدة سوف يثير بوليس سمالوط عليه . ولن يعتب يومئذ على أحد الفجانين لا يتركون وشأنهم . ثم ان اسبوعاً كاملاً بدرب المفاتيح الى جوار مقصوفة الرقبة قد يتجاوز قدرته على الاحتمال ، فهي لا شك تنتظر منه ان يقوم بواجبات الزوجية عاقلاً كان ام مجنوناً . كلا . ان مقامه في دماريس لا ينبغي أن يطول . ولم لا يهرب الآن . في التو واللحظة . ان النقود التي وجدها في قطنية سيد قنديل تتجاوز الريال بقليل ، ولكنه بحاجة الى خمسين قرشاً يركبها القطار الى القاهرة في الدرجة الثالثة ، فمن اين له بالثلاثين الباقية ، لا بد اذن من مواجهة مقصوفة الرقبة فاطمة وهب مقصوفة . الرقبة لا تملك الثلاثين الباقية ، فماذا يكون الحال ، اتبيع حلة من حلل البيت ، تقترضها من الجيران ، ام يكتسبها حسن مفتاح بالعمل في قصب الحاج سيد احمد ثلاثة ايام ؟

ان الشمس قد ارتفعت والظلال قد قصرت وثقلت بعد ان كانت طويلة وخفيفة ، وسرواله قد جف أو كاد فلا بد أن يكون جلبابه قد جف كذلك . وسعى حسن مفتاح الى ملابسه فارتداها وكان بها بلل خفيف . ثم عاد يقطع ارض الجرف العميق حافي القدمين ويطأ كسر البوص الأصفر المتناثر فلا يوجعه ملمسها . ان قدميه سميكتان لا توجههما اسياخ الحديد ، ولسوف يبقى لهما

حكيمها زمناً طويلاً حتى يترهفا ، فعليه اذن ان يقبل هذه الحقيقة . ومن
يـري ؟ لعله موفق في هذه الصفة . ان كبده الأول لم يكن على أحسن حال ،
وكـم نهـاء الطـيب عـن الشـراب ، فلمـل كبـده الجـديد صـاغ سـليم . ولكن مـن
يـري : لعله قد ورث بلهارسيا سيد قنديل وانكلستوما سيد قنديل ، فـتسـعون
في ثـمـانة مـن الأسيـاد القـناديل يشـكـون مـن البـلـهـارـسـيا والـانـكـلـسـتـوما . ان التـفـكـير
في هـذه الأـمـور لا يـجـدي ، فالواقـع هو الواقـع ، ولـن يـغيـر الـقـلق ما قـد كان . ان
عـواد الذـرة جـمـيلة . ان اكـواز الذـرة جـمـيلة . ان دـفـاء الـريـف جـمـيل . ان
سـماء خـيـمة مـن الاطـلس الأملـس اللـبـني ضـربت فـوق الآفـاق المـسـتـديـرة . ان حـسن
مـفـتـاح يـضـرب الاحـجار الصـغـيرة بـقدمـه العـارية فـتوجـعه الاحـجار الصـغـيرة ولـكنـه
رغم ذلك يفرح . انه سائر الى التماسك السـكـامـل . ان الطرب يستخفه فيلمس
عـواد الذـرة بـيـمـينه كما كان يلمس أعمدة النور في شوارع القاهرة . انه يرى التلال
شـرقيـة عـلى مـدى البـصر فلا يـجـد فـيـها الغـباوة الـتي تـلـازم التـلال بل يـجـد فـيـها
نـخـامة الـتي تـلـازم الجـبال . حـتى الجـامـوس السـائر عـلى الجـسر امام العـلـمان قـد خـرج
فـجأة مـن اللـوحة الصـامـتة ودبت فـيه الحـياة ، والـثـيران المـتـناثرة في الحـقول الفـارغة
تـند كالـثـيران الـتي حـفرها الكـهـنة عـلى جـدران المـعـابد بل بدت لـعينـه لـحـماً ودمـاً .
و لأرض السـمـراء تـحت قـدمـيه بدت سـمـراء ناضجة كأنها عذراء حبشية يحلى جـيـدها
لـعـاري شـراريـب مـن الحـب الـابـيض المـقشـور ، بـعد ان رآها صـفـراء عـجـفاء شـققـتها السـنـون .
ان حـسن مـفـتـاح كان يـرى صـورة الـريـف ذات بـعـدين لأنـه كان المـشـاهد مـن الخـارج ،
مـا الآن فـحـسن مـفـتـاح جـزء مـن هـذه الصـورة يـتـحـرك داخـل اطـارها فاذا يد سـحـرية
مـشت في كل ما حـوله بالحـياة . وأوشـك حـسن مـفـتـاح ان يـلقـي بـنـفسـه عـلى الأرض
خـشـنة ويـعـانقـها ويـقبـلـها صـائحاً : « تـباركت يا خـيـمى يا أم العـمـالـقة ، تـباركت يا
زـوج النـيل السـعيد ، تـباركت يا أرض المـيعـاد ، تـباركت تـباركت تـباركت ،
وتـبارك ضـرعك الأبـدي الغـزير ، وتـبارك رـحمـك القوي الخـصـيب ، وتـبارك بـنوك
الـأحـياء مـنهم والـراحلون » . ولـكنـه لم يـفـعل لأنـه ألقى نـفسـه في قـرار يـطـه الخمسة

بين ذرته العزيزة أمام زوجته . ونظر الى فاطمة فوجد لها قوة وقذرة وسمراء كأنها قد سويت من التربة القوية القذرة السمراء ، ووجد لها جميلة . ان فاطمة التي رآها قبل ساعة فخاها صورة ذات بعدين تبدو الآن امامه مادة ذات ثلاثة ابعاد . وتأمل خطوط جسمها التي اخفاها الجلباب الأسود الفضفاض الضافي واستطاع ان يستشف قوتها رغم الجلباب . وتحركت فيه نوازع الجنس واكدتها في نفسه وفي حسه رحابة الفضاء والصمت الكلي الذي هوشته أصوات بعيدة وروائح الطبيعة وسداجة الذرة ، القائمة في مهب النسيم والذرة القائمة عند قدمي فاطمة . وراعه انسجام الروائح في الريف ، فالذرة رائحتها من الذرة والأرض رائحتها من الذرة وجلباب فاطمة رائحته من الذرة (ولا شك ان جسدها كذلك رائحته من الذرة ، والاضفادع التي تركت مواضعها وجاءت تقفز عند قدميه رائحتها من الذرة . وأوشك ان يدنو منها ويحتويها بين ذراعيه ويقبلها ، ولكنه تذكر ان الأمر أعقد من ذلك . لم لا يقيم بين أعواد الذرة وفي درب المفاتيح ؟ لم لا يتم ما قد بقي من حياته بين احضان الطبيعة ؟ غداً يخوضر القمح الصغير الذي كسا ما وراء الجرف الى حيث يقف غراب المقات ، وبعد غد ينضج ويصفر ويهدي في سنابله الحياة . وفي الصيف تلبس الأرض حلتها البيضاء وينتشر القطن من مدى البصر الى مدى البصر . وهذه البنت القوية القذرة السمراء سوف تملأ حياته بحقائق المادة واحساسات المادة حتى ينسى للجنة المركزية وينسى المجردات ، وتملأ داره بالاطفال فتدعم صلته بالحياة . لم لا يذهب غداً وكل صباح الى زراعة الحاج سيد احمد ليكسر القصب طول اليوم ، ويعود بعشرة قروش مع المساء ؟ انه لن يشكو التعب لان له ذراعي سيد قنديل او لا يزال له ذراعاه . من قال انه حسن مفتاح ؟ ولم لا يكون سيد قنديل ؟ انه سيد قنديل بقدر ما هو حسن مفتاح ، وهو الآن في المفترق ولا يزال في وسعه ان يختار . انه ما احس بوجوده في يوم من الايام بقدر ما يحس به الآن . لقد ارتد الى نفسه بعد ان كان شتيتاً في العالمين . انه يحس بالمادة التي هو منها ، فما في الطبيعة الا هو . انه يحس بأن له جسداً . كم هو قذر هذا الجسد ، وكم هو خشن !

ولكنه خير من لا جسد على الإطلاق . كذلك يحس بالمادة التي تقف أمامه بغبابة وتمتحي أمامه بغبابة بين آن وآخر لتكسر أعواد الذرة . انها مادة لا شكل لها ، ولكنها مادة على كل حال . ان الجبن ذو الدود الذي سيأكله من الآن فصاعداً مادة لا شك فيها ، فهو يتحول الى انسجة خشنة تحس وتحس في جسده الخشن الذي يحس ويحس . اما البفتيك الذي كان يأكله قديماً فهو بخار فهو هواء ، فهو عدم لانه كان يتحول الى افكار دقيقة لا تقاس في ذهنه لدقيق الذي لا يخضع لمقاييس الوجود . ثم الام يعود؟ الى أشباح اللجنة المركزية؟ الى اشباح ايزافيتش؟ الى الغرام الشيخ وشبح الغرام ، مونا ربيع ؟ ان اقرب شيء يعرفه الى هذا الوجود المادي الذي يحيط به وهو عابدة علم بنت عبد السلام فندي علم باشكاتب الارشيف بوزارة الاوقاف ، عابدة علم التي توشك ان تفهمه ولكنها لا تفهمه تماماً

ولكن حسن مفتاح سخر من نفسه حين اقترب من مقصوفة الرقبة ، واراد ان يلفت نظرها الى وجوده فأوشك ان يقول : « بردون » . وكانت مقصوفة الرقبة في شغل ، بأكوازها وأعوادها لاهية عن كل شيء ، تنحني دقيقة ثم تعتدل دقيقة وعلى خدها ما يشبه العرق . لا بد من الشجاعة يا حسن مفتاح . لا تقل « لا مؤاخذة » فهذه زوجتك وهي لا تؤاخذك ، زوجتك التي تضربها كل مساء ان بعصاك وان بخفك فلا تجسر ان ترفع بصرها اليك . هذه مقصوفة الرقبة يا حسن مفتاح . وهذا سيد ابو قنديل يا مقصوفة الرقبة . وما ان قال « بت يا فطمة » حتى التفتت اليه فقراً الدهشة في عينيها . وكاد ان يرتبك فقد حسب ان في مظهره ما يدعو الى الريبة . ولكنه اطمأن حين سأله عما فعل ببلدته وبخفيه وعما فعل بشبابه . فأجابها باقتصاب انه سقط من الجرف . ولكن دهشتها لم تنزل وعادت تسأله عما صرفه عن الذهاب الى قصب الحاج سيد احمد ، فلم

يجب بل أطرق الى الارض . فلما قالت معنفة انها كانت تنتظر اجر اليوم لتم به الجنيه ، وتسد به حلق مشكور البدال اضطربت نفسه واطمأنت معاً ، وبدأ يبحث عن كلمات يطلب بها القروس التسعين . واخيراً قال : « انتي حاطاهم فين ؟ » فازدادت دهشتها وقالت : « مش انت الي حاططهم بأيدك جوّه الزلعة الي في الحضير ؟ اياك ناوي تدم له دلوجت ؟ » قال نعم . وعبثت فاطمة في جيب لها داخلي لم تصل اليه الا بعد ان رفعت جلبابها الطويل وكشفت عن سروالها الطويل القذر ودست أصابعها مراراً في جلباب آخر داخلي . وحين وقع بصره على السروال القذر اشمأزت نفسه . وناولته المفتاح وانصرف عنها لينطلق الى القرية ، ولكنها صرخت في أثره تقول : « ما تفك الجحش با أبو عبد السميع » . وتردد لحظة ثم تذكر انه لا يعرف كيف يمتطي الحمار . وخشى ان تعود الى مجادلتها فقال : « اسكتي يا محصوفة الرجبة » ، ومشى الى الجسر وفي طريقه الى الجسر ذكر انه اخطأ في توزيع النبرة في كلامه قال . « اسكتي » وقد كان ينبغي ان يقول ؟ « اسكتي » ، انه قال : « ت تم ت » وقد كان ينبغي ان يقول : « تم ت ت » . ترى هل لاحظت المرأه شيئاً ؟ ولكن كيف تلاحظ وعثرات اللسان كثيرة . وهو لم يقل شيئاً كثيراً . وهبها لاحظت فما نتيجة ذلك ؟ دقيقة من الحيرة تهز بعدها كتفها وتعود الى قطع الذرة . وسوف لا ينتصف النهار الا وهو في المركب يفكر في أعجب اختبار لقيه انسان ، ويودع القرية الشهباء . ولكن كيف يعرف الحضير ؟ انه يعرف دار سيد قنديل بدرب المفاتيح حقاً ولكنه لا يعرف الحضير . لو انها قالت الدوار لعرف الدوار ، ولكنه لا لا يعرف ما الحضير . ان الحضير هو حيث تكون الزلعة ، ولن يتعب في اكتشاف الزلعة . سوف يحطم الابواب اذا لزم الأمر حتى يعثر على الزلعة .

وبلغ الدار وعالج الضربة فانفتح الباب ، ودخل فوجد قاعة خاوية من كل اثاث أرضها من طين وجدرانها الاربعة من طين ، فيها شيء من ضوء النهار ولكنه لا يكفي لقراءة صحيفة ، وفي ركنها اليسر فرن كبير من طين وفي

كبر الايمن سلم حجري اكثره مهشم ولا سند له ، ولكن سقف القاعة كان من
 سفن النخيل القديم . وصعد الى الطابق الأعلى فوجد قاعة أخرى خاوية كذلك
 حرمها من طين كذلك وسقفها من فلقان النخيل القديم . ولكن أرضها
 كانت تغطيها حصيرتان كبيرتان هما كل ما بالقاعة من اثاث . وفي القاعة نافذتان
 خشب فيهما ولا زجاج وباب لا خشب فيه ولا زجاج ، باب يؤدي الى غرفة
 خفية ، فادرك انها لا يمكن ان تكون الحضير . انه يبحث عن زلعة . وحيث
 تكون الزلعة يكون الحضير . ودخل الغرفة الداخلية فوجدها عميقة مظلمة ينير
 منفتها الضوء الداخل من الطاقتين الكبيرتين اللتين لا خشب لهما ولا زجاج
 يهي عن طريق الباب الذي لا خشب له ولا زجاج فيه ، ولكن قاعها مظلم ،
 وقد كانت الغرفة بلا نوافذ . ولبت في الغرفة بعض الوقت حتى الفت عيناه
 على الأرض بساطاً من اللباد في أحد طرفيه وسادة وفي طرفه الآخر
 عصا من الصوف أحدهما مهمل والآخر في اجود حالة . ورأى في ركن
 غرفة صرة ، ومع الصرة صرة ، ثم صندوقاً فتحه فاذا به ملابس بعضها للحريم
 وبعضها للرجال وشيئاً من الخرز اللامع المنثور ورأى الزلعة ففتحها ووجد
 قروش التسعين ومزيداً من الخرز الملون يلعب في الظلام وبكرتي خيط احدهما
 بيضاء والأخرى سوداء وفيهما غرست بعض الأبر . وانتزع القروش التسعين
 واستثر لنفسه منها بستين تاركاً الثلاثين في زلعتها ، وأغلق الصندوق ووضع
 قروش في جيب قطنيته مع القروش الاولى التي كان قد وجدها قرب الجرف
 عميق . ثم عاد الى القاعة ذات النافذتين ومنها ارتقى الدرجات الحجرية الثلاث
 مائة في السلم ليستكشف ما بقي من المسكان وهو غرفة واحدة اعلى بقليل من
 مستوى القاعة امتدت الى اليسار على قنطرة من فلقان النخيل ، اقيمت فوق درب
 متبجح . وتطل كالقاعة عليه ولكن بنافذتين متقابلتين لا بنافذتين متجاورتين .
 وكانت الغرفة مشرقة كل الاشراق لان نافذتيها المتقابلتين المطلتين على درب
 متبجح كشفتا الغرفة للسماء العريضة ، لشمس الشروق ولشمس الغروب . ولكن

الغرفة كانت كالغرف الآخريات كلها طين في طين إلا السقف فقد كان اكثره من الجريد . وكانت بها مصطبتان متقابلتان بنيتا بالطين ، وعلى كل من المصطبتين لباد مفروش لا بأس به ، وعلى الأرض لباد ، وفي ركن الغرفة جوزة وكانون نصف موقد به خشب من خشب الذرة نصف محروق ، وإلى جواره بعض ادوات الشاي ففهم أن هذه الغرفة هي صالون البيت . واطل على درب المفاتيح من النافذة الغربية فرأى النيل بعيداً ، ورأى أمامه المقات ذات الطماطم الناضجة المغربية للعيون ، ولكن البعد أخفى عنه الطماطم . وامام المقات رأى كوم الروث وامام كوم الروث رأى البيت الحجري الذي لا نظير له في القرية الا بيت العمدة ثم رأى الدرب المتعرج الطويل « وبعض الامهات جلسن على الارض امام أبواب دورهن يغزلن الصوف ، بعضهن حبالي وبعضهن عجائز . ورأى طفلين ، بنتاً وولداً ، يلعبان حافيين في حراسة احدى العجائز ويصنعان العرائس من الطين ، ولم يشك في ان البنت هي مقصوفة الرقبة سيدة ، بنته ، بنت سيد قنديل . وكان في عينها صديد كثير . ورأى في الدرب تيساً يعطس . ولم يحس بأنه يقف على البونتي دي سوسيري رغم أنه قلما كان يتعلق في الهواء على هذا النحو . وخرج . ولكنه لمح قبل خروجه كبشاً قابعاً في ركن القاعة السفلي على فرش من البرسيم ينبعث منه عفن كثير . كذلك ابصر باباً خشبياً قصيراً معلقاً يقابل الباب الخارجي لا بد لداخله ان يطاوى الرأس ، فادرك انه باب الخزانة ، فقد كانت الخزانة بين ذكرياته القديمة الاولى . لقد ولد في هذا البيت ، يقولون في الحضر ، والبيت بيت جده او كان بيت جده مفتاح ابو مفتاح . لقد كانت لجدته اولاد كثيرون كلهم نزحوا الى المدينة وكلهم بنى لنفسه عشا لا بأس به في نقط متفرقة بين القاهرة والخرطوم ، وكلهم انجبوا ذكوراً كثيرين هم الآن بين الشباب القوي والرجولة القوية يرتزقون من المهن العليا او من خدمة الحكومة ، وكلهم صفى صلاته بالقرية : كلهم فعل ذلك الا عمه قنديل الذي بقي وراء المحراث ولكنه لم يحرق كثيراً لانه كان رجلاً ذا صبوات يحب مجامع الحشيش ، فاضاع الحرث ولم يترك لولده سيد إلا القراريط الخمسة والدار القائمة بدرب المفاتيح . كذلك لم ينس العم

فنديل قبل ان يموت ان يزوج ولده سيداً . وكان شهماً فلم يترك له أرملة يعولها و اخوة صغاراً . لكن اسرة مفتاح الآبقة الى المدينة ، او الى المدن كانت تنتقل الى القرية بكامل هيئتها من حين لآخر لتدفن موتاها ، موتى الحضر وموتى القرية وكانت آخر مرة زار فيها حسن مفتاح درب المفاتيح منذ عامين في رابع عمامه ، ولكنه تخلف عنها قبل ذلك نحو خمسة عشر عاماً . لذلك كانت صور جدران الطينية والمصاطب الطينية وسقوف النخيل والنوافذ والأبواب الداخلية لتي ليس لها خشب ولا زجاج ولا موضع فيها لخشب او زجاج حية في خياله وبهتة معاً .

واجتاز حسن مفتاح كوم الروث ثم اجتاز المقات حتى بلغ الشاطيء ونزل مركب فوجد نفسه بين ثلاث من الابقار وجحش صغير وقنصين فيهما دجاج كثير يوقوق ، وديكة تتشاجر وقلة من الراكبين حيائم جملة فحموه جملة . وانتحى بجوار الدفة مكاناً قصياً حتى لا يدخل في حديث مع أحد ، وجلس على كيس من أكياس الذرة وتحت قدميه حفن التبن تلاما ارض المركب . استلقى على جنبه لأيمن ووضع ركبته قرت ذفنه وتظاهر بالنوم والاعياء .

ان كل ما يبغيه هو بلوغ الشاطيء الآخر ، بلوغ سمالوط . ففي سمالوط قطار ، وهو في هذا القطار بمنجاة عن كل شيء . ان عياله لن يفتقدوه الا ليلاً ، وهو في الليل سيكون في ٢٢ شارع الملكة فريدة . ومضى يفكر في المعاش لشهري الذي سوف يرسله الى مقصوفة الرقبة لقاء خطف زوجها منها ، فقرأه ان يكون جنينين في كل شهر . كذلك قرأه ان يرسلها اليها عن طريق البريد في صورة ادونات لا في صورة حوالات حتى لا يجد أحد سبيلاً الى معرفة شخصية المرسل . ورأى ان يبدأ بكلمة يقول فيها ان زوجها قد نزع الى القاهرة وراء الرزق . كذلك قرر ان يرسل لها بعد أشهر قليلة كلمة يقول فيها ان زوجها قد توفي حتى يتيح لها ان تتزوج اذا احبت ، وأن يزعم لها بأن زوجها قد صاب من عمله بعض المال حتى يبرر الاعانة الشهرية .

وبعد ان فرغ من التفكير في غيره انصرف الى التفكير في نفسه . كيف يدخل القاهرة في هذا الزي العجيب ؟ هب بعض من يعرفونه قد قابلوه في باب الحديد او في ميدان الاوبرا ؟ لسوف يحملقون فيه ذهولاً . لسوف يظنون به الظنون . ثم كيف يلقي مدام ماريكا وهو على هذه الصورة ؟ لسوف ترتاب في عقله . ولكنه سيقص عليها قصة يفسر بها الموقف من الفه الى يائه ، ولسوف تكون هذه القصة كاذبة من الفها الى يائها . يا للعجب . انه لم يكذب مرة واحدة منذ ان بلغ سن الرشد . انه لم يفكر في هذا قبل الآن . نعم لقد كان يحاور ويداور ويخفي ويتصنع ، ولكنه لم يكذب كذباً صريحاً منذ ان بلغ سن الرشد . ولا بد له الان من الكذب . ولكن سفاهة منه ان يفكر في هذه الأمور . أبعد ان قتل النفس التي حرم الله قتلها يفكر في هذه السفاسف ؟ انه لا يعرف احداً بسالموط يمكن ان يعيره حذاءً وبدلة وقميصاً ، وهو لا يملك بعد خصم ثمن التذكرة وطعام اليوم ما يشتري به حبلاً قوياً يشنق نفسه به اذا أحب أن يشنق نفسه . ان المراكبي اللعين قد يوقظه في اية لحظة ليطالبه بكلية الذرة التي يستحقها من العام الفائت . لسوف يجيب بأن ام عبد السميع قد أعدتها له ولكن المراكبي رجل انسان ، فهو لا يقول شيئاً ولا يطالب بذرة . كم كان موفقاً في كل خطوة يخطوها ؟ لكأن المقادير ذاتها سخرت كل شيء لخدمته . ان ما حدث ؟ ماذا حدث ؟ ان ما حدث جريمة من الطراز الاول . بل ان ما حدث لأعجوبة لم تحدث قبل منذ ان دخل جبريل في أعطاف مريم ورفرف يحتاجه تحت ضلوعها ، بل منذ تجددت العنقاء المتعلة من رمادها . ومع ذلك فقد تم كل شيء في عشر دقائق ، تم بأقل جلبة ممكنة . من ساق سيد قنديل الى الجرف العميق ؟ القدر . ومن جعل سيد قنديل يسبح تحت الماء الى بر الأمان وقد كان جائزاً ان تخور قواه فينجرف نحو الماء الغزير ويهلك ؟ القدر . ومن وضع تسعين قرشاً في زلعة سيد قنديل ؟ القدر . ومن جعل النوتي يصبر عليه الآن ؟ القدر . انه يرى اصبع القدر في كل ما حدث . كلا . ان القدر لا دخل له في شيء من هذا ، فسيد قنديل ير كل صباح يحوار الجرف العميق ، والقروش

تسعون كانت في زلعة سيد قنديل طوال الاسبوع القاتل فهي اجره المدخر ،
ونوتي من أدمت أهل القرية خلقاً فهو يغني للمسافرين حزين الاغاني ليشجعهم
بحديث الحب الشقي .

بيني وبين الحبايب جبل عالي وتل حشيش !

ولو لم يغن* للمسافرين لغنى للماشية ، ولو لم يغني للماشية لغنى لنفسه . انه
دئم الغناء ، ولعله يحب حباً شقياً ، ومن كان دائم الغناء ومن كان يحب حباً
شقياً لا يطالب المسافرين بكلمة ذرة . ان من يرى كل هذا المساء صباح مساء لا
... ان يكون دم الطباع . ولكن من اين له هذا الشعر الأصفر الناعم ؟ ان
رجله مصري صميم ، ولكن شعره أصفر وناعم . ان القدر قد دبر كل شيء .
كلا . ان القدر لم يدبر شيئاً . ان كل شيء جرى مجراه الطبيعي . ان في هذا
نوتي ملامح من شارون ربان الآلهة ، ناقل الارواح عبر اشيرون نهر الأحزان ،
و الزورق لا يعبر النيل بل يعبر اشيرون نهر الاحزان ، وتلك الأعشاب الشيطانية
تي انتشرت على الشاطئ هي الارواح الملعونة ؛ وابقار الزورق والمسافرون
و دجاج ليسوا ابقاراً ولا مسافرين ولا دجاجاً ولكنهم ارواح في طريقها الى
حساب في دولة بلوتو العظيم ، وحسن مفتاح ليس منتقلاً الى سمالوط بل الى هاديس
تي لم ترَ الذور منذ ان تزوج اريبوس المظلم امه نيكس الظماء وانجبا الاثير
ونهار . ان حسن مفتاح ليس منتقلاً الى القاهرة بل الى خليج النار ، خليج
ترتاروس . وهذا الصوت الذي يهدر في اذنيه هديرأ رتيباً ليس صوت القطار بل
صوت الغوريات الجائعات . لسوف ينهشه نهشاً مع مقدم المساء . لسوف يضربنه
. سيات ان أقبل النهار . ما اقذر الصعابدة الجالسين الى جواره ببلايصهم
ومقاطفهم وزكائبهم . متى يتعلم هؤلاء الصعابدة ان يجلسوا على المقاعد ويضعوا
على ارض القطار اشيائهم بدلاً من ان يجلسوا على الأرض ويضعوا على مقاعد القطار
نباءهم ؟ ولكن الفلاحين ليسوا أحسن منهم حالاً فهم يخرجون الى الجسر كل

يوم حفاة رجالهم والنساء حاملين نعالهم على رؤوسهم . ان الفلاحين يفعلون ذلك اقتصاداً للنعال ، ولكن لم يجلس الصعايدة على الارض؟ أهى العادة ؟ انه يتأفف من قذارة الصعايدة والفلاحين وهو يضاهيهم قذارة . ان الطين قد لطخ جلبابه في الف موضع . انه لا يملك نعلاً ولا يملك ثمن النعل . انه لا يملك لبدة ولا يملك ثمن اللبدة . فكيف يحق له ان يتأفف من هؤلاء المساكين ؟ انه قاتل . فكيف يحق له ان يتأفف من هؤلاء الأبرياء ؟ ابرياء ؟ من قال انهم ابرياء ؟ لا بد ان بينهم رجلاً من طما او اخميم قد بقر بطن ابنته لأنها حملت سفاحاً والقى بجثتها في النيل ثم اندس في القطار ليفر من قبضة القانون في القاهرة ذات الملايين . لا بد أن بينهم رجلاً من الاشراف ملوثاً بدم الحميدات او رجلاً من الحميدات ملوثاً بدم الأشراف . انهم يتحدثون عن الأمن العام ، فأين هو الأمن العام ؟ ان القروي لا يجرؤ ان يمشي في زراعته بعد الغروب . وبعد الغروب تصفر الطلقات النارية في الهواء طول الليل . يقولون رداً للصوص ، فأين هو الأمن العام ؟ ان الدرب قد يخرج لمقاتلة الدرب والأسرة تخرج لمقاتلة الاسرة والقرية ، تخرج لمقاتلة القرية ، بالعصي ، بالشوم ، بالفؤوس ، بالبنادق . ان الريف في حرب اهلية دائمة . إن الريف لا يزال في المرحلة القبلية . كل ذلك تحت عمن الحكومة المركزية ؟ الحكومة المركزية ، اين هي الحكومة المركزية ؟ انها سبعة من الخفراء تحت تصرف العمدة امير القرية وممثل السلطات الثلاث فيها بالاكره ، يشرع لها ويقضي لها ويحميها . فمن يحمي القرية من العمدة ؟ حاميتها حراميتها . ان خفراء القرية يتعاونون مع أهلها في تسميم الماشية واحراق المحاصيل وفي القتل كذلك . ان اقرب قوة بوليس في سمالوط وهي تبعد عشرين كيلومتراً تقطع في ساعتين اذا اسعفت المركب الريح فالطريق الزراعي لا يصلح للعجلات والكباري لا وجود لها ، وهي قوة لا تجدي الا في الحوادث الفردية . ان سمالوط او حتى مغاغة ليست بأسعد حالاً من دماريس ، فقد كان بها الى العام الماضي للموم باشا الذي تخيل انه امير من امراء الاقطاع ، فاستقل بالناحية وشكل بوليسه الخاص وأقام بداره سجنه الخاص ومحكمته الخاصة ، اختصاصها واسع يبدأ بالجلد وينتهي

بالإعدام حتى ارهب الاهلين وأذهل الحكومة المركزية، ودامت دولته عشرة أعوام حتى اغتاله منافس من عشيرته . اين هي الحكومة المركزية ؟ ومضى حسن مفتاح يفكر : ان أكثر هؤلاء المسافرين القاعدين بجوار مقاطف البتاو وبلاليص العسل الاسود لا بد آتون من جرجا . ترى ماذا يحدث في جرجا فيحمل رجالها على الهجرة الى القاهرة والاسكندرية ؟ ان هذه مسألة تستحق الدراسة . لا بد ان في اقتصاديات جرجا ما يجب أهلها في الهجرة او يدفعهم اليها . ينبغي ان يدرس صفوان هذه المسألة ويضع عنها تقريراً . متى يتعلم الصعايدة والفلاحون الا يقتلوا بناتهم الزانيات ؟ ان صفوان يرى ان تعليم الديالكتنية كاف . ان الكساري في نهاية العربية يساوم الصعايدة في أجر السفر . متى يتعلم الصعايدة والفلاحون الا يقتلوا بناتهم الزانيات ؟ ان صفوان يرى ان تعليم الديالكتنية كاف . ان الكساري في نهاية العربية يساوم الصعايدة في اجر السفر . متى يتعلم الصعايدة ان يدفعوا اجر انتقالهم ؟ ان الصعايدة يراوغون لأنهم فقراء . متى يتعلم الكسارية الا يرتشوا ؟ ان الكسارية يرتشون لأنهم فقراء . كيف لا يرتشي الكساري ومرتبته خمسة جنيهات تقسم على خمسة اطفال ؟ فقراء ؟ والإغنياء ؟ ان مدير السكك الحديدية يرتشي ، ترشوه الشركات الانجليزية . فقراء ؟ ان وزير المواصلات يرتشي : ترشوه الشركات الاميريكية . وعندما يختلف المدير والوزير تحدث ازمة سياسية يزج فيها باسم الوطن . فقراء ؟ هناك رجل في مصر لا يسرق ؟ وزارة الصحة الممرض يسرق المرضى والطبيب يسرق بنسولين الحكومة ووزير الصحة يسرق الاراضي . وزارة الداخلية . الشرطي يسرق الطماطم من الباعة والضابط يسرق الأموال السرية ووزير الداخلية يسرق الاراضي . وزارة الدفاع . الجندي يسرق المهمات الخفيفة والضابط يسرق المهمات الثقيلة ووزير الدفاع يسرق الاراضي . وزارة المعارف . المعلم الانزامي يسرق طعام الفقراء وناظر المدرسة يسرق اليمخانة ووزير المعارف يسرق الاراضي . وزير الدولة لا يجد ما يسرقه فيسرق الدولة . الحكومة تسرق الموظف في مرتبه والموظف يسرق الحكومة في عملها . يسرق ؟ من قال يسرق ؟ ان السرقة تكون في السر

ولا تكون في العلانية . يفتصب . نعم . انه اغتصاب . يا له من تراث متعفن .
يا لها من تركة مثقلة بالديون . ان صفوان لا يفهم . ان كوميسارية الشعب
تستطيع ان تلغي الشتاء ولكنها لا تستطيع ان تديم الربيع . ان بطرس
قلادة يعتقد انه يستطيع ان يلغي الغيبيات بقرار من البرلمان . والتهبت خواطر
حسن مفتاح ؟ ان الغيبيات هي المسؤولية الاولى عن سلبية المصريين . كيف يلغي
بطرس قلادة الغيبيات بقرار من البرلمان ؟ ان كوميسارية الشعب لا تستطيع
ان تلغي الغيبيات بحجة قلم . لا ولا الحرافات . ان النساء في درب المفاتيح يقمن
حفلة حصبة اذا مرض في الدرب طفل بالحصبة : حفلة حصبة يدعي اليها اطفال
درب المفاتيح ليحصبوا ، فكل طفل لا بد ان يحصب . يا له من تراث متعفن .
يا لها من تركة مثقلة بالديون . ان الكلب اذا جاع عض ولكن الاسياد القناديل
يجوعون ولا يعضون . ماذا تفعل كوميسارية الشعب بكل هذا ؟ كيف تعلم
كوميسارية الشعب بكل هذا ؟ كيف تعلم كوميسارية الشعب الناس ان يعضوا
اذا جاعوا ؟ ان الفرمانات لا تكفي . ان التشريعات لا تكفي . لا بد من جيل
كامل . لا بد من عزل الجيل الجديد . كيف تعلم كوميسارية الشعب الناس ان
يتأدبوا فلا يقطع احد احداً ؟ لا بد من جيل كامل . لا بد من عزل الجيل الجديد .
ان الناس اذا تحدثوا مألوف الحديث رفعوا اصواتهم كأن الشعب كله يشكو
الصمم . كيف تعلم كوميسارية الشعب الناس ان يغضوا من اصواتهم ؟ الاصلاح
من الخارج لا يكفي . الاصلاح من الداخل يحتاج الى اجيال . الكوميسار لا
لا يكفي . لا بد من الیوجى كذلك . المشائق لا تكفي . لا بد من المصححات .
ان الشعب يعيش على الفطرة . ان الهمج لا يفهمون الا الألوان الأساسية . الاحمر
الفاقع . الاصفر الفاقع . الاسود الفاقع . اليس هذا ما تلبسه النساء ؟ إن الازرق ؟
اين البنفسجي ؟ اين الوردي الخفيف ؟ اين الرمادي ؟ اين الهمج لا يفهمون الا
الافكار البسيطة . اليس هذا ما يفهمه الرجال ؟ اين ظلال الفكر ؟ ان الاشياء
في وادي النيل اما بيضاء واما سوداء ، والآراء اما صواب صراح او خطأ
صراح ، والاشخاص اما ملائكة أو أبالسة . لسوف تحتاج كوميسارية الشعب

. وقت . الى وقت طويل ، الى مصحات ، الى مصحات لا عدد لها . ان
 كوميسارية الشعب تستطيع ان تحرم على اصحاب الراديو ات ازعاج سابع جار
 . يمكنه لا يستطيع ان تمنع الناس بحرة قلم من الضحك الداعر الممدود . ياله من
 تراث متعفن . ياله من تركة مثقلة بالديون . ان الريف جميل . جميل من نافذة
 تنصر . جميل على البعد . ولكنه جميل لنصف ساعة لأن جماله مكشوف . ان
 حرجة القديمة الساكنة ذات البعدين ، الوجود الثابت في ملتقى الزمان والمكان
 قد عد الى ذهن حسن مفتاح . ولكن الحياة دبّت فيه فبدا ذا ثلاثة ابعاد .
 مع ذلك فقد كان ينقصه شيء . ويبحث حسن مفتاح عن البعد الرابع فلم يقف
 . عن أثر . ان السماء التي كانت صافية لا تزال صافية ، وسوف تظل صافية
 غيرة اليوم ، وغداً ، وفي كل يوم هنا ، وهناك ، وفي كل مكان . ان الأرض
 لمراء التي كانت مسطحة لا تزال مسطحة ، وسوف تظل سمراء ومسطحة ،
 . وهناك ، وفي كل مكان . واعواد الذرة هي اعواد الذرة واعواد القصب
 هي عواد القصب وخضرة البرسيم هي خضرة البرسيم والتلال الشرقية والتلال
 الغربية هي التلال الشرقية والتلال الغربية بطول الوادي الحزين ، ومن ورائها
 على جانبيين الملل الأصفر الأبدي ، الملل الذي يخيف الخيال . وفي الملل الأسمر
 حصيب تقف احراش النخيل ، وتحت كل غابة قريتها الشهباء ، منشورة في
 تكرار رتيب كأنها اعمدة التلغراف أو علامات الأميال ، كلها شهباء بلون
 سخين ، وكلها من الطين المجفف وكلها كالضريح الحزين وكلها من عصر مينا .
 وعلى جسورها الوعرة المغبرة بدت العجول والجواميس كأنها التماوير المنقوشة
 على جدران المعابد . ان كرونوس لم يسقط في روما بل سقط في وادي النيل .
 سنح العملاق على ام رأسه فمات ، وبموته مات الزمن . ياله من تراث متعفن .
 . من تركة مثقلة بالديون . ان الريف جميل . جميل من نافذة القطار .
 جميل على البعد . أما على القرب فهو بشع ملوث كئيب . لسوف يقول للجنة
 مركزية : ان كوميسارية الشعب ستهدم جميع القرى - اربعة آلاف قرية

ستهدمها كوميسارية الشعب . وما يتبعها من نزلات وعزب واكوام . ان كوميسارية الشعب ستجند عشرة في المائة من تعداد كل قرية ليعيدوا تعمير مصر ولسوف تقرضهم ما يلزم من الخرائط والبنائين والمهندسين . ان كوميسارية الشعب ستعطي كل اسرة بيتاً من الحجر أو من القرميد الأحمر ذا حديقة صغيرة ، وشوارع مخططة وميادين فيها الساعات والتأثيل . وستجعل مركز القرية ميدان الشعب وفي ميدان الشعب تضع كل المرافق العامة ، مدرسة القرية ومستشفى القرية ومراكز البوليس والاسعاف والمطافىء والحمامات العامة والبريد وسوق القرية وحديقة القرية وقاعة الاجتماعات ودار العمدة . وستبني لبهايم القرية حظائر عامة خارج القرية حتى لا ينام الشعب بين عجوله وحيره في زريبة واحدة . ان كوميسارية الشعب سوف تجمع اللبن وتعلمه في معمل القرية ثم توزعه على مستحقه طبقاً لمشورة الأطباء ، وستطهر للشعب ماءه وتمده بالكهرباء من طرف القرية . كذلك ستمد كوميسارية الشعب بالطرق المرصوفة على أحدث الأساليب بين الكوم والعزبة وبين العزبة والنزلة والقرية وبين القرية والمركز وبين المدينة والمدينة . وتجري فيها السيارات العامة بانتظام كل نصف ساعة ، وكلها بالجمان حتى يصير الوادي الى شبكة محكمة الشرايين والأوردة والشعيرات تحمل دم الحضارة الى أصغر خلية في البلاد . ان كوميسارية الشعب ستغير وجه مصر . ان كوميسارية الشعب ستغير وجه التاريخ . ان كوميسارية الشعب ستهدم مصر القديمة وتبني مصر الجديدة . فليحي الشعب ولتحي كوميسارية الشعب . كل هذا سيقوله حسن مفتاح للجنة المركزية حين يبلغ القاهرة . لا محارث خشبية . لا سواقي . لا حمير بعد اليوم . ان كوميسارية الشعب ستوزع المحارث الموطورية وآلات الري والدراجات على ابناء الشعب . كذلك سوف تفرق المراكب الشراعية وتضع موضعها الزوارق الموطورية كلما تعذر عليها بناء الكبارى . ان كوميسارية الشعب تؤمن بالآلة . الآلة . الآلة . الآلة . الحث بالآلة ، الزرع بالآلة ، الري بالآلة ، الحصد بالآلة ، النقل بالآلة ، الاكل بالآلة اذا لزم الأمر . ان الريف ليس بحاجة الى هذه الأنفوا يطعمها ، والآلة سوف تريح

صدر الأرض من الملايين الذين لا يستهلكون لأنهم لا ينتجون . سوف يقول للجنة المركزية : ان امكم خيمي لا تزال مخصبة ولوداً حلوباً ، وقد رأيتها بعيني فلا ترهقوها . انزحوا الى المصانع . انزحوا الى المصائد . انزحوا الى الجحيم ان لم تتسع لكم آفاق البسيطة . انزحوا . كل هذا سيقوله حسن مفتاح اللجنة المركزية شفاهاً وفي التقارير . ياله من تراث متعفن . ياله من تركة مثقلة بالديون . ترى ماذا كان يفعل المصريون منذ آخر الرعامسة ؟ كيف ترفع كل هذه الأنقاض ؟ ان كوميسارية الشعب سوف تجعل الشعب يعمل نهاراً وليلاً ، يعمل العمل المنتج العمل الناجع ، ولو بالسخرة ، ولو بالسياط ، ولو بالمشاق . ان السخرة بنت قبور الملوك ، فلتبن السخرة مساكن الشعوب . ولن يشتكي الشعب من كوميسارية الشعب لأن ثمار عمله سوف تعود اليه ، اليه وحده ، لا الى المتطلبين ولا الى الدخلاء . نعم . لا اغتصاب بعد اليوم . نعم . سوف ينجزه الشعب في عشرين عاماً ما فاته ان ينجزه في الفين . نعم . سوف تكون يقظة تكفر في عشرين عاماً عن نومة الفين . سيسمونها في التاريخ سنوات التكفير . سيسمونه في التاريخ الجيل الشهيد . ولكن الشعب سيمرق ويبتسم . سينز فادماً ويبتسم . لأنه يبني حضارة لا تدانيها حضارة الفراعنة . وبعد ان يتم التعمير يستطيع الشعب ان يستريح . نعم ، يستريح ، ويملا أثره بهواء ، فسوف يكون الهواء نقياً بدل هذا الهواء الملوث . فان احب يومئذ ان يهتف لكوميسارية الشعب فليهتف . اما قبل ذلك فلا أهتاف ولا معارضة . هناك عمل . ان اعضاء اللجنة المركزية فتيان جادون ولكنهم ، لا يقدررون جسامته التبعات ؟ ياله من تراث متعفن ياله من تركة مثقلة بالديون . كيف ترفع كل هذه الانقاض ؟ ان الفرامانات لا تكفي . ان التشريعات لا تكفي . لابد من المشائق لابد من عزل الجيل الجديد . نعم . المشائق للجيل القديم والمصححات للجيل الجديد . نعم مصحات ، مصحات بطول البحر الاحمر ، مصحات بطول البحر الابيض . مصحات . ان هواء الوادي ملوث . ان ارض الوادي قبر مفتوح . ان سكان الوادي جيف . نعم . مشائق ، مشائق ، في كل ميدان ، على أكوام الروث في كل القرى .

هذا مشروع السنوات الخمس الأولى : مشانق ومصحات . مشانق للجيل القديم ومصحات للجيل القديم . ان الزبانية قد علا ضجيجها، فماذا يحميه من الزبانية؟ ان كوميساريه الشعب لن تضع التائيل في الميادين ولكنها ستضع المشانق في الميادين . المشانق اولاً والتائيل ثانياً : والمجالد كذلك . من سمع بالمجالد ؟ المجالد اختراع جديد للموظفين الكسالى ، وللجالسين على القهاوي في الصباح . المشانق لأعداء الشعب الواعين والمجالد لأعداء الشعب الغافلين . وبعد المشانق لن يطكون هناك مغتصبون ولا ظلمة ولا مرتشون ولا مبددون لانتاج الشعب ولا معوقون لنهضة الشعب . وبعد المجالد لن يجلس الناس على القهاوي في أوقات العمل . وعندئذ ترفع المشانق وتوضع مكانها التائيل، وعندئذ ترفع المجالد وتوضع مكانها الحدائق العامة . سيقولون في الخارج : « توتاليتير » ، ولكن كوميسارية الشعب لن تعبأ بما يقال في الخارج ، لأن الشعب ليست له سياسة خارجية مدى عشرين عاماً . الشعب صديق الجميع ، والشعب مشغول بالتعمير . هذا يكفي . مشانق . مصحات . . ان الزبانية قد علا ضجيجها . فماذا يحميه من الزبانية؟ انه لا يفكر الا في المشانق والمصحات . ماله لا يفكر الا في المشانق والمصحات ؟ لعل روح حسن مفتاح بحاجة الى مشنقة . لعل جسم سيد قنديل بحاجة الى مصحة . كل هذا سيقوله للجنة المركزية، شفاهاً وفي التقارير . اللجنة المركزية؟ وماذا تكون اللجنة المركزية ؟ انه بحاجة الى بطانة من القتلة والسفاحين لا الى جماعة من المفكرين الساخطين . لا بد ان يعلمهم القسوة . كيف يعلم سعدية الطويل القسوة ؟ ان الجيار يرجى منه . كذلك عنايات ممدوح ، وربما صفوان كذلك . ولكن سعدية الطويل مثال للدماثة . انه بحاجة الى قادة شرسين . ترى كيف يعلم سعدية الطويل الشراسة ؟ ان جماعة الأحرار لا بأس بهم ، ولعلمهم خير من جماعته . ان رامزاً إما عبقرى وإما مجرم . ان هذا الشعب وديع . أرضه وديعة . سماءه وديعة . رياحه وديعة . كل شيء هنا وديع . ان الشعب هنا متمدن ، مدنه الوادي السعيد ، مدنته آلاف السنين في احضان حابي

غادي، وخيمى الرحيمة . تمدن حتى فقد عدة الكفاح . تمدن حتى نسي
نغضب . تمدن حتى تخش . من له بشيء من الهمجية ؟ ان الرأسمالين والملاك
قد اجمعوا الشعب وعروءه وحبسوا عنه نور العلم وثمرات المدنية ، والشعب رغم
ذلك صابر . الشعب يفهم كل ذلك ويصبر . انه يفور كزجاجة الصودا ثم يبدأ ،
وقد كانت ينبغي أن يثور ثورة البركان . أهذا نسل العمالقة ؟ نعم ، هذا نسل
العمالقة . ولكن العمالقة كانوا عمالقة يوم كانوا يخبثون الغابات ويردمون المستنقعات
ويحولون مجرى النيل . يوم روضوا الطبيعة الضارية . لقد استمدوا صلابتهم
من كفاحهم مع الطبيعة . فلما ان قهر العمالقة الطبيعة بذروا الحب فكان ثمرأ ،
بذروا الحب وجنوا الشر اربعة آلاف سنة ، ففاضت حيوياتهم وكسرت الدعة
صلابتهم فانقرض العمالقة درجة درجة حتى خرج من اصلهم هذا الشعب
الخنوع . الكفاح مع الطبيعة يرد للشعب صلابته المفقودة ، وحين ينشر الشعب
الصناعة كما نشر الزراعة سوف يتجدد كفاحه مع الطبيعة ، وسوف يسترد
صلابته المفقودة . ان اللجنة المركزية تعلم كل ذلك ، ولكنها لا تعلم انها
صورة مصغرة لهذا الشعب الرخو النوديع . لسوف يصهرهم في اتون التجارب
حتى يصوغهم على غرارهِ . لسوف يعلمهم القسوة كما تعلمها هو ، حتى يألفوا
المشاق الى أن ترد للشعب حقوقه . لسوف يجعل سعدية الطويل تفرك يديها
فرحاً كلما اضيف الى قائمة الهالكين اسم جديد . لسوف يعلم نساء الشعب كيف
يمضغن اللبان وهن يشهدن رؤوس الباشاوات تحت الجياوتين . ان نعيماً يحس
ببعض احساسه ، ولعل هذا هو سر حبه له . ان نعيماً اعصار مكتسح يدمر
كل ما أمامه . ان نعيماً يتعطش لمراى الدماء كأنه قد رضع ثدي ذئبة . انه
قد تنحى عن اللجنة المركزية ولكنه سوف يكون الجلاد الأول يوم حز الرؤوس .
نعم سوف يعلم حسن مفتاح اللجنة المركزية هذه اللغة الدامغة . بالمشائق والمجادل
ترفع الانقاض ويتم التعمير . كلا ان الشعب ليس وديعاً . ان الشعب ليس متمدناً .
والوادي السعيد لم يمدن الشعب . والوادي السعيد ليس سعيداً . وما هذه بوداعة

تلك التي يراها حوله، وما هي بتمدن وانما هي ذلة وخنوع. ان الفلاح يقتل الفلاح اختصاصاً في كوز من الذرة، والمتمدنون لا يفعلون ذلك، وانما اهل الفطرة. انه يقرأ في الصحف عن قتلة محترفين يجهزون على الناس لقاء خمسة جنيهات. انه يذكر يوم كان في سيارة سرهنك يقطعان شارع الملك فأبصرا امرأة حبلى سقطت مغشياً عليها على رصيف الشارع فرفض سرهنك ان يحملها الى الاسعاف، أو ان يتصل بالاسعاف. أما المارة فعمروا وكأنهم لم يروا شيئاً. انه يرى آلاف المعجزة بين اعمى وأعمى واكتع وابرص ومجذوم وقعيد ومشرد لا مأوى لهم يتسولون في الطرقات اثناء النهار، وينامون على ارضقتها في العراء في ليالي يناير الميت، فلا يلتفت اليهم أحد كأنهم من طبيعة الاشياء. انه يعرف ان الناس يقسمون بالطلاق ان يدفعوا عن اصحابهم تذكرة الترام ما علموا ان اصحابهم قادرون على دفعها، فان علموا انهم غير قادرين جانبوهم كأنهم مجذومون. كلا. ان الشعب ليس وديعاً بل غليظ الكبد. كلا. ان الشعب ليس متمدناً بل متبربر خشن العواطف. كلا. ان الشعب جبان. وما يراه حسن مفتاح حوله من استضعاف ان هو الا ذلة وخنوع. انه لم يسمع بفلاح ثار على مالك ظالم. انه لم يسمع بموظف القى المحبرة في وجه رئيسه المتحيز. انه لم يسمع بضمير تحرك في المكتب أو المتجر أو المصنع فكل الضمائر تتحرك في القهوة. ومن اين للشعب بالشجاعة؟ ان الشعب مصاب بالانيميا ان الشعب شديد الهزال. ان الشعب لا يأكل كفايته، فهو لا شك مصاب بسوء التغذية. ولكنه سوء وراثي. ان الشعب اكل البصل والخبز الخشن ثلاث وجبات يومياً ثلاثة آلاف سنة، فكيف لا يصاب بالهزال، وكيف لا يكون هزاله وراثياً. ان البيولوجيا تقول ان العضو يضر ثم ينقرض اذا بطل استخدامه. اليس جائزاً ان يورث الهزال كذلك؟ ان كوميسارية الشعب بحاجة الى اجيال لترد للشعب حيويته. ولكن كيف لم ينقرض الشعب رغم كل ذلك؟ من بعنخا الى ولزلي. نعم، من بعنخا الى ولزلي. ان محنته بدأت بحيش النوبة وانتهت بحيش الانجليز. كيف لم ينقرض هذا الشعب؟ ثلاثة آلاف سنة، تحت النوبيين، تحت الفرس، تحت الاغريق، تحت الرومان،

تحت الممالك ، تحت الاتراك ، بل تحت الاتراك ، نعم ، تحت الاتراك تحت
مليك ، تحت الفرنسيين ، تحت الانجليز . كيف لم ينقرض هذا الشعب بعد
ن الحذر آتون وراء التلال الغربية . تحت الزمن . نعم ، كيف لم ينقرض تحت
زمن . ان الزمن يبلي كل شيء . ان الاسياد القناديل قد تحدوا الزمن ، فلا بد
هم من نسل العمالقة . ثلاث وجبات من البصل والمش يوميًا . ثلاثة آلاف
سنة . سوف ترسل كوميسارية الشعب مندوبين في كافة عواصم العالم ، حاملين
حراساً كباراً ذات رنين كبير يصيحون كالذللين قائلين : « تعالوا . تعالوا
تعالوا . تعالوا شاهدوا عجيبة العجائب . الشعب الشبح وشبح الشعب . تعالوا
وشاهدوا . عجيبة العجائب . الشعب المنحط يعود الى الحياة . ايزيس تمشي على
خبل . اوزيريس يأكل النار . حوريس يخرج لسانه للعالم . هرم خوفو يقف
على رأسه . جلا . جلا . جلين . جلين . جلين . تعالوا ، تعالوا ، تعالوا »
ان حسن مفتاح يفهم الآن فقط معنى المحراث اليا بس الأبرص الملقي امامه في
حقول ، ويفهم معنى العجول الساعية على الجسور كأنها الصور على جدران
معابد . انه يفهم الان كيف وقف الزمن ولماذا خرج المصريون من البعد الرابع
ومتنع عليهم النعل وصاروا اشكالاً بلا قوالب ، ظللاً بلا ألوان ، قوى مشلولة ،
شارت بلا حركات . لقد فعلوا كل ذلك لأنهم عمالقة ، والعمالقة لا يموتون
أنهم عمالقة ، والعمالقة اسباط الآلهة واسباط الآلهة خالدون لأن الآلهة خالدة .
فحين هجمت التنانين على العمالقة كانت التنانين جوعانة ضارية ، وكانت العمالقة
سمر وتقصف في الوادي الأمين . وكانت حرباً عجباً لم تشهد مثلها الأرض ولا
سماء ، ولكن تاريخها مخطوط عند تحت كاتب الآلهة . رحين وهنت قوة
عمالقة فرت العمالقة امام التنانين ، ودخلت كهوفها كما تدخل احياء اوقيانوس
كريمة قصورها الدرية الكريمة ، وتنتظر يوم الخلاص . ولكن الأرض كانت ملأى
بتنانين الجائعة الضارية التي لم تعرف قط السم ولا القصف ، ولم تذق كروم
وردى ولا شمت رياحينه العاطرة ، فتكاثر على الوادي التنانين : التنانين

السوداء ، والتنانين البيضاء ، والتنانين السمراء ، والتنانين الصفراء ، والتنانين الزرقاء . وتجمهرت من كل حدب وصوب طامعة في الزهر جدة الخضراء . واكلت التنانين بعضها بعضاً ولزمت العمالقة كهوفها تنتظر يوم الخلاص . تنتظر . وتنتظر . وقد انتظرت ثلاثة آلاف سنة . ولكن انتظارها لن يطول . لزمت العمالقة قماقمها كما تلزم احياء اوقيانوس قواقعها الدرية الكريمة حتى تمر الحيتان ودنى الاسماك ، وبكت اسرها الطويل كما تبكي احياء اوقيانوس الكريمة ، وكلما نفذ الى قصورها الدرية جسم غريب ذرفت عليه دموعها الحزينة فغدا درأ من درها المكنون . وهكذا فني في الشعب الدخلاء . وهكذا اغلق العمالقة تخوم بلادهم واغلقوا نفوسهم لكل جديد . وهكذا وقف الزمن . وهكذا تعلم العمالقة احناء الرؤوس امام العواصف حتى تمر العواصف ويبقى العمالقة عمالقة . وقد كان . فما كان هذا ذلة ولا خنوعاً ولا جبناً ولا خسة في الأصول ، وانما كان حكمة عظيمة وامراً من اوزيريس حامي الدمار ، وصبراً ثوابه على الأرض وفي السماء . ولكن انتظارها لن يطول ، فالتنانين قد اكلت بعضها البعض الآخر ولم يبقَ منها الا التنين الذي اراد مار جرجس ان يقتله فأخطأه ، التنين الازرق اللعين ، التنين البحري الازرق الماكر اللعين . وقد كبرت الدرة وامتلات بالضياء ، وسوف تفتق محبسها الضيق وتفتت جدران القوقعة وتخرج عارية يبهر نورها العالمين . وحين يرى التنين الازرق هذه الدرة السحرية الكبيرة سوف يعيشه ضياؤها ويثبت في مكانه خائفاً مأخوذاً ، وعندئذ يخرج العمالقة من قصرهم الدري ويقطعون ارجله الكثيرة التي نشرت الذعر في الوادي الامين ، ويريحون العباد من مكره ابد الابد . كل هذا سيقوله حسن مفتاح للجنة المركزية حين يعود الى القاهرة ان قدر له ان يعود . سوف يقول لهم انه حل لغز الشعب . سوف يقول لهم انه حل لغز ابي الهول . إن ابا الهول اقيم لبيتهم على السائحين . ان السائحين يحسبون انهم يزورون خرائب حضارة ، ولكن ابا الهول وحده يعلم ان هذه الحضارة باقية ، وهو لا يبوح بهذا السر إلا للاصفياء .

لسوف يقول لهم حسن مفتاح : اعيدوا إلى الشعب ثقته بنفسه تخرج العمالقة من قصرها الدري . لسوف يقول لهم : ان اعدى اعداء الشعب هم القائلون « ما يسف فأيده » هم سر هنك وشركاؤه الذين يجلسون حول اكواب الويسكي وحول موائد الطاولة وحول جوز الحشيش ، وينثرون اليأس في النفوس ليعفوا انفسهم من تبعة الكفاح أو لينفذوا مصالحهم من نتائج الكفاح . سيقول لهم ان هؤلاء هم ارجل التنين التي سوف تقطعها العمالقة يوم تخرج من قصرها المسحور ، وهم نخالبه التي سوف تستأصلها . هم الدخلاء الذين تسللوا إلى قصر العمالقة حتى وقفوا ببابه وهم العبيد الذين تسللوا من قصر العمالقة حتى وقفوا ببابه ، وقد حمل الدخلاء والعبيد مفاتيح القصر ومضوا يسامون التنين في القصر وابطلوه . وقد ساروا من قبل كل الثنائين ، وباعوا القصر للسود والبيض والسمر والصفير والزرقي . سيقول لهم : لا تياسوا ، لقد انفتح القمم المختوم ، لقد تشقت جدران القصر ، وخرجت منها طلائع العمالقة تتصدى للتنين وتناوشه ، ولكن حراس القصر تجردها من السلاح فلا تفهم ان حراس القصر هم حمامرة التنين . سيقول لهم : اقتلوا الحراس واعطوا المفاتيح لأربابها . كل ما حدث خطأ زماني هائل وسوف تصالح كوميديا الشعب هذا الخطأ . واهل القصر المسحور يحسبون انهم ما زالوا في القصر المسحور والدنيا من حولهم قد تبدلت . نعم ، سوف تصالح كوميديا الشعب هذا الخطأ . بالمشائق . بالمصحات . ان الزبانية قد علا ضجيجها . ان الجنحة الحديدية تصفق بين عجلات القطار . يا ويلد من الزبانية . ايان الفرار من الزبانية . من المشائق . من المصحات . ان رأسه ملتهب والدم قد تجمع حول عينيه . انه يطل من نافذة القطار فيرى القمم الوليد احمر بلون الدماء . ويرى اعواد الذرة فيرى في كل منها مشقة تنتظر . كذلك رأى غراب المقات كأنه الصليب البعيد المهمل فلم يميز منه تهما الا ضلعين وحسبه مشقة تنتظر . انه مفتاح . قنديل . انه قنديل . مفتاح . انه مفتاح . انه قنديل . انه يفكر في المشقة لأنه يخائف من المشقة . انه قاتل . كلا . انه لا يخاف المشقة . انه منقذ . قاتل أو منقذ ، لقد فرغ من كل ذلك وهو فوق الجرف العميق وتحت الجرف

العميق . نعم ، انه حسن مفتاح قتل سيد قنديل ، ولكن من قتل حسن مفتاح ؟
 الاقدار . الاقدار . الاقدار ؟ ان الاقدار قتلت في العام السابق ربع مليون
 حيوان ناطق بالملايا الحبيثة وفي العام الأسبق مائة ألف بالتيفوس . ولكن
 المعارضة تقول انهم ماتوا لسوء التغذية . فالتبعة نصفها على الاقدار التي ارسلت
 الأوبئة ، ونصفها على الملاك الذين اجاعوا الشعب . اشنقوا الملاك . اشنقوا الاقدار .
 التبعة ؟ من ذا يحدد التبعة ؟ ان كانت الاقدار عاقلة فهي مسئولة تشنق ، وان
 كانت الاقدار مجنونة فلتضرب بالرصاص كما تضرب الكلاب المسعورة . سوف
 يطالب وكيل النيابة بدم سيد قنديل ، فمن ذا يطالب بدم حسن مفتاح ؟ ما
 الفرق بين السلسلة والجرف ؟ ما الفرق بين الماء الملح والماء العذب ؟ قاتل أو منقذ
 فهذا لا يقدم ولا يؤخر . فاذا تناهى اللامتناهي فلا يمكن للمتناهي الا يتناهى .
 انه لا يخشى المشنقة . انه قاتل . انه يستطيع ان يقف بالحكمة ويعلم بأعلى
 صوته : اني قاتل ، ولن يصيبه سوء . سوف يسأل الناس : اين القتيل : سوف
 يطلب القاضي جسم الجريمة . سوف يصيح المحامي : ابرزوا الجثة . سوف
 يتصبب وكيل النيابة عرقاً ويفأقئ ثم يلوذ بالصمت العميق ، ثم يجمع اوراقه ثم
 ينصرف . وعندئذ يخلى سبيل حسن مفتاح . انه لا يخشى المشنقة . وكيف
 يخشى المشنقة . انه قرأ عن روسكولنيكوف ولسوف يسلم نفسه الى الصاغ
 ممدوح الشربيني كما سلم روسكولنيكوف نفسه الى بورفير . ولكن
 روسكولنيكوف كان حالة مرضية ، ولم يكن صانعاً من صانعي التاريخ . لو
 ان حسن مفتاح اقتحم اقرب مركز من مراكز البوليس ، وادلى للضابط النوبتجي
 بقصته من الفها الى يائها ، لما صدقه . صدقه ؟ لسوف يشير بعينه للجوايش الهائل
 الجثة الواقف بالباب فيدب اليه الجوايش في سكون واحتياط ثم يحيطه من
 الخلف بذراعين من فولاذ حتى لا يفلت ، على حين يطلب الضابط النوبتجي
 مستشفى المجاذيب بالتليفون . وسوف ينظر اليه الطبيب بارتياح ، سوف
 يستمع اليه بارتياح ثم يقول : « بارانويدال سكايزوفرينيا » . ماذا يفهم هؤلاء
 الاطباء ؟ كيف يميزون الشعرة الفاصلة بين احلام العباقرة وأوهام المجانين ؟ كلا .

نه لا يخشى المشنقة . ان هذه اول جريمة « كاملة » منذ قابيل . ولكن فؤاد منقريوس قال انه سيموت مشنوقاً . كلا . ان فؤاد منقريوس قال انه سيموت غريقاً ، وقد مات غريقاً . عند السلسلة . لقد مات . انه ميت ، والمرء لا يموت مرتين . ان حسن مفتاح قد مات . ان روح فؤاد منقريوس لا شك روح ملعونة ، روح لاعنة ملعونة لعينة . ألم تطلب قتل علي عبدالله ؟ ان علي عبد الله رجل برىء . ولكن سيد قنديل رجل برىء كذلك . نعم ، سوف تتحقق النبوءة . ولكن حسن مفتاح يحتقر فؤاد منقريوس . ان فؤاد منقريوس قاتل نفيه ، يقتل للانتقام ، ولا فرق بينه وبين ذلك الفلاح الجالس بجواره ، المطرق بخوار مقطفه الذي بقر بطن ابنته لانها حملت سفاحاً ، ولا فرق بينه وبين ذلك الصعيدي الشارد النظر الذي ثار للحميدات من دم الاشراف أو ثار لاشراف من دم الحميدات . انهم يستحقون المشنقة جميعاً . أما هو فقاتل عظيم ، يستحق إلا الكليل الغار وقنايل البازلت في أجمل الميادين . انه البطل في صورة قاتل . انه قتل فرداً ليحيي شعباً . وما قيمة الفرد . ؟ ان حياة المجتمع ثمن من كل أفراده . ان المجتمع باقى ولو هلك كل أفراده ، لأن المجتمع فكرة ، لأن المجتمع ظل الله على الأرض ، لأن المجتمع أعلى مرحلة للتطور الديالكتي . دخل الروح المطلق . المجتمع بحروف التاج . حاسب يا مفتاح . لقد تعودت ان تبدأ بالمصدق المادي المتناهي وتنتهي بالمدلول المجرد اللامتناهي ، فلا تبدأ بالمدلول وتنتهي بالمصدق . كلا . ان المجتمع لن يهلك كلمة . لن يهلك من مجتمع إلا بعضه ، قلة منه سوف يهلك اعضاء اللجنة المركزية وعداء اللجنة المركزية . سوف يهلك اصدقاء الشعب واعداء الشعب . أما الشعب فمن يمسسه سوء .

ان القطار قد دخل القاهرة ، وهو يعلم ما سوف يعلمه . سوف يقصد توأ الى دهره حيث يكذب على مدام هاريكا كذبة عريضة . ان امامه اسبوعاً او اقل فبداً حتى تنتهي اجازته . وهو يستطيع ان يضيف اليه شهراً جديداً يعكف فيه على كتابة التقارير ووضع الخطط والقراءة الكثيرة ، فهو بحاجة الى القراءة

الكثيرة . لسوف يلزم داره حتى تنمو لحيته وشعر رأسه . سوف ينظر الى صورته في المرآة كل يوم حتى يزيل الفروق الطفيفة أولاً بأول . ان شعره الزيتوني الناعم كان يرثاق الى الخلف . ان حاجبيه كانا أقل غزارة مما هما الآن . اما بشرته الحامئة فسوف تتعلم النعومة مع الأيام ، وقليل من السنة سوف يزول بجحافات البخار المنتظمة ، والعينان الصافيتان سوف تنطفئان بالعمل المرهق . وبعد ان يسترد صورته الاولى يعود الى اللجنة المركزية ليستأنف الكفاح . فليطمئن نفسه . ان الفوارق ضئيلة ولسوف تختفي تحت اللحية الناعمة السوداء . كل ما في الأمر ان في اسفل اذنه اليسرى خرقاً كان موضع حلق كانت ام سيدقنديل تشبكه في اذن ولدها تانياً له حتى لا تطمع فيه قوى الظلام فتخطفه يد المنون . ترى هل يلحظ الخرق احد ؟ ان الأمر لا يدعو الى الانزعاج . سوف يصرف عنه الانتباه بنكتة يرثجلها كعادته لو لاحظته انسان . وابتسم حسن مفتاح حين ذكر أن كوميسارية الشعب قد تستطيع ان تعمر البلاد ، وان تشنق العباد بحجرة قلم ، ولكنها لا تستطيع ان تعفي آذان الريفيين من حلقان امهاتهم في يوم وليلة . وتأمل الحبالين زرق الجلايب ذوي الطواق والاحزمة الجلدية حول الخصور ووجدهم يتشاحنون . وكان حسن مفتاح آية في الهدوء حين نزل من القطار . وسار بقدم غليظة ثابتة حتى خرج من المحطة ، ووقف تحت ساعة باب الحديد . وألقى على الميدان الواسع ذي الانوار الكثيرة الزرقاء بصره فبدا له كل شئ مألوفاً ، ولكن جسده اهتز طرباً لغير ما سبب معلوم ، ودب فيه انتعاش عجيب كأنه يستقبل هذا الجمال القديم لأول مرة .

يوم خرج حسن مفتاح من ٢٢ شارع الملكة فريدة للقاء زملائه بعد شهرين من الاعتكاف المتصل حدث له احداث كثيرة . ولكن اعتكافه لم ينفه من الاحداث كذلك . وقد احسنت اليه الظروف كثيرا في ليلته الاولى ولكنها لم تحسن اليه فيما بعد ذلك . فقد قطع شارع ابراهيم باشا حافي القدمين يوشك ان يكون مكشوف الرأس ، اما رأسه المخلوق وشاربه الأسود الناعم الطويل فقد كانا مصدر ازعاج له ومصدر طمأنينة معاً . فشفته العلياء لم تتعود ان تتحمل شعراً كثيراً او قليلاً ، وجلد رأسه لم يتعود ان يتعمى تحت السماء . ولكن هذا كله طمس معالمه الى حد عظيم . وكانت له من قبل صلات بالجانب الايمن من شارع ابراهيم باشا فتجنبه والتزم الجانب الأيسر . وحين بلغ جمعية الشبان المسيحية ذهب بذلك وجهه بكفه كله اخفاء له حتى يتقي نظر الخارجين . كذلك فعل حين بلغ فندق شبرد ، ثم عبر الشارع ولزم سور الازبكية حتى دخل ميدان الاوبرا ، وهو على وجل شديد . ولكن نفسه اطمأنت حين قلت الانور الزرقاء في شارع الملكة فريدة . وفي الملكة فريدة لم يصادف الا نفرأ من الاجانب المحليين يتسكعون تحت الظلام طالبين اماكن اللهو ، ثم شرطة المرور والجنود البريطانيين الخارجين من كلابريه الدولز والساعين اليه . وحين

بلغ البنك العقاري بدا يفكر فيما سيقوله لمدام ماريكا .

فمفتاحه كان منذ يومين في بنطولنه الخلفي ، وقد غاص تحت صخور السلسلة ، ولعله الآن في بطن سمكة بسوق السمك بالعطارين ، أو في بطن سمكة نفذت من فجوة السلسلة الى البحر الكبير . ولسوف يواجه مدام ماريكا حين يدق الجرس . ولقد يواجه كذلك ميسو كرافتشنكو الروسي الأبيض الذي يسكن الغرفة رقم ٤ ليلاً ويدرس في مدرسة برليتز نهاراً . أو الحاجة جورج حداد اللبناني المتمصر نزيل الغرفة رقم ٣ الذي يتوسط كل عام في نقل ملكية عمارة ضخمة واحدة أو خمسمائة فدان ويعيش من سمسرتها طول العام ، متعافاً عن عدد لا يحصى من الصفقات التافهة ، وكان تعريف الحاجة جورج حداد للصفقة التافهة هو أية صفقة لا تدر على سمسارها خمسة آلاف جنيه . ولقد يواجه كذلك مدحت نزيل الغرفة رقم ٢ وهو محامٍ عراقي أوفدته حكومته لينال درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة ولكنه لم يقابل أحداً من هؤلاء حين دق الجرس وانفتح الباب . فقد كانت مدام ماريكا في زيارة اختها بجوار بنك مصر ، وكان كرافتشنكو في مقبرة من مقابر الروم الارثوذكس لاسباع خلت منذ ان مات بالسكتة القلبية على درج البنسيون ، وكان جورج حداد يزور ابنة له بالدقي ليصلحها مع زوجها ، وكان المحامي العراقي يقوم برياضته الليلية بين قهوة البول نور ومخزن البن البرازيلي ، وهي قرص المجندات في افخاذهن ، وتتبعهن بعض الطريق ان كن منفردات . رياضة تعلمها من بعض زملائه المصريين الذين تحدد شعورهم الوطني فأخذ هذه الصورة من الاحتجاج على الاستعمار البريطاني . ولكن حسن مفتاح بعد ان تجسد من جديد فقد القدرة على المعرفة الكل مكانية ، وغدا سجين اللحم مرة اخرى . وكل ما عرفه لحظتها هو ان الباب انفتح وأطلت منه الخادم الشابة فهيمة التي كانت تتردد على البنسيون من وقت الى آخر لتنظف الحمام ، وتغسل الصحون وتمسح البلاط . وكانت بين حسن مفتاح وهزيمة عواطف خفيفة منشؤها سخاؤه وملاطفته اياها . وهي

ملاطفة كانت تصل احياناً الى خدّها الذي كان يربته بلطف ، ونكتة عابرة
تسمّعها مدام ماريكا فلا تفهمها لركاكة عربيتها ، ولكنها تفهم الموقف ولا
تحمله اكثر مما يحتمل ، وإن كانت في ليالي الوحدة تتمنى ان يخرج حسن مفتاح
عن طوره فيلاطفها ايضاً بطريقته الخاصة .

ولما اطّلت فهمية من الباب تقول : « نعم » للقروي الحافي الواقف به ، لم
يجب القروي الحافي فوراً بل ابتسم في نور السلم الباهت ثم قال : « جرى إليه
يا فهمية » . وعندئذ شهقت فهمية وحملت وأرادت أن تقول شيئاً . أرادت أن
تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ففتحت فاهها ، ولكن صوتها خانها فتركت
فاهها مفتوحاً . ودخل القروي الحافي وأغلق الباب في هدوء ، وأجال بصره
في جميع الغرف فلم يرَ من زجاج ابوابها نوراً فاطمأنت نفسه ، وأمسك بفهمية
من يدها وسار بها الى المدخل الصغير ، وهناك طمأنها قائلاً أن جميع ملابسه قد
سُرقت في الريف فلم يبقَ له اللصوص على شيء حتى الحذاء ، ثم أشار الى
رأسه العاري وقال ان أسبوعاً في الريف ملأ رأسه بالدمامل فنصحته القرويون
بخلق شعره حتى يبرأ من دمامله ، أما عن شاربيه فلم يقدم حسن مفتاح تفسيراً
ولكنه رجا فهمية الا تذكر لأحد شيئاً عما رأت ، حتى لا تزججه مدام ماريكا
بالأسئلة . ووعدّها ببقشيش طيب ان هي لزمت الصمت . ثم ربت على خدّها
ملاطفاً ، ولكنها ظلت على ذهولها . الاول أو ما يشبهه . وحين تذكر حسن
مفتاح ان اقرب مال الى يده مودع في البنك ، رأى ان يسجل هذه الصفقة
بشارة انسانية تفتح قلب الخادم له ولو إلى حين ، فمال عليها وألصق قذارته
بقذارتها وقبلها ثم أخلى سبيلها قبل أن تقول : « لا . لا . يا سي حسن » .
ودفع باب غرفته وانارها ، وذهب يحيل بصره بين الكومودينو حيث كانت
للقط الأسود وبين الغطاء الأحمر حيث زاره فؤاد منقريوس ، وبين المرأة الطويلة
البلورية الصافية حيث كان الغبش الوردي الذي أطل منه الوجه الخيف ، وتذكر
كل ما حدث . ولكنه لم يرتجف ولم يهلع ، فهو الآن قاتل عظيم لا تخيفه الأرواح

المریضة الغریلة التي لا ترضى بالموت ولا تقوى على الحياة . وفتح الدولاب ومضى
يستخرج اشیاءه فيما يشبه العجلة ، ثم اطفأ النور وخرج الى المدخل ، وقال
لفهیمة مبتسماً انه ذاهب لیستحم ، وسألها ان تعد صرة تجمع فیها اشیاءه
القدرة لتبها من تشاء .

وفي الحمام خلع اشیاءه ثم نادى قائلاً : « فهیمة » فخفضت الیه فهیمة تحمل
منديلاً عظیماً ملوناً فرشته على الأرض . وفتح الباب قليلاً وناولها الأشیاء من
الفراغ الصغیر . ولحت فهیمة بعض صدره فراعها ما به من الشعر الغزیر ورأت
طرفاً من الوشم . انها لم ترَ شعراً فی مثل هذه الغزارة منذ أن تعرفت على
الكواء السکیر مرسي الفحل فی العام الماضي . وضحك حسن مفتاح ، فقد كان
واثقاً من انها تنتظر دعوته ، ولكنه اغلق الباب وسمعت فهیمة صوت الدوش
یتقطع وهي تربط الصرة . ثم اتصل الرشاش . ثم اختلط الصغیر بالرشاش .
ثم اختلط الصغیر بالغناء والرشاش ، ولكنه كان غناءً عالی الطبقة لا تفهمه فهیمة
بلغة اعجمية لا تفهمها فهیمة . ان هؤلاء الأفندية یقلدون الافرنج فی كل شیء .
ودام الرشاش والغناء فی الحمام ربع ساعة . ثم انقطع الرشاش وبقي الغناء . ثم
انقطع الغناء ولكن حسن مفتاح لم یخرج . غیر انه خرج اخيراً فی بیجامته وقد
لف القوطة حول رأسه المخلوق ولمع وجهه تحت نور المدخل القوي ، فقد كان
وجهه حلیقاً بدقة تامة . ولمعت بقایا الکریم مکان الشارب المهوش الکبیر الذي
اختفى جملة . وكانت فی خدیبه طراوة كسرت غلظتها السابقة . وفیما هو واقف
فی المدخل سمع مفتاحاً یبعث بالباب . وفکر فی الفرار إلى غرفته ، ولكنه أثر
ان یثبت الى النهایة . وكان ما توقعه ، اذ دخلت مدام ماریکنا ، ولما وقع
بصرها علیه مضت ترحب به على البعد ترحیباً وسعت الیه وهزت یده باشتیاق ،
وسألته عن احواله فأجاب بأنه قضی شهراً عجیباً . وراعها فیه تحسن صحته ،
فتحدثت عن ذلك نحواً من خمس دقائق تسللت اثناءها فهیمة وانصرفت تحمل
الصرة . وبعد أن اعدت له فنجاناً من الشاي حدثها عن رحلته بما شاء ان یرتجل

من الأكاذيب وزودها بأمر كتابي الى البنك لتستخرج له في الفداة عشرة جنيهات وهي نصف ما بقي في حسابه الجاري ، ودفعراً للشيكات ، محتجاً بحاجته الى الراحة التامة . ثم أوى الى غرفته وأحكم اغلاق بابيه ، وأضاء نوره وسعى الى المرأة الطويلة الصافية ، وذهب يتمعن قسبات وجهه بارتياح . لقد نجح في الامتحان الاول فله ان يطمئن . فلولا ان وجهه الثاني يطابق وجهه الاول لبدا في نظرات مدام ماريكا ما ينم عن الشك ، فان لم يبدُ في نظراتها ما ينم عن الشك ، بدا في نظراتها ما ينم على الحيرة على الأقل . ولكن نظرات مدام ماريكا كانت نظرات مدام ماريكا : بريئة مبتسمة ، هادئة ، فيها شيء من الغباوة . كذلك كان صوتها ، لا جديد فيه ، فهو ممدود به خنوع قليل ، لا هو بالرخيم ولا هو بالجراح . لا بد اذن ان وجهه الثاني يطابق وجهه الأول . فان كان بينهما اختلاف ، فهو لا شك اختلاف هين يجوز على الناظرين ، او اختلاف هين تزيه العناية ويزيله التحفيف . كذلك صوته . لقد جربه في الحمام ، فصعد به السلم الموسيقي مراراً ، بعضه و كله ، مرتباً وغير مرتب ، منتظماً وواثباً ، فوجده أشد عذوبة من صوته الأول وأشد انطلافاً حتى لقد يصل الى اصوات الخطباء المهيجين . ووجد رنينه متشابهاً ، ولكنه لم يكن الرنين الأول نفسه الا حين يخفض صوته الى طبقة واطنة بين الهمس والكلام العادي . وعندئذ تندغم الفروق . لذلك قرر ان يقتصد في الضحك ما أمكنه ذلك ، وان يضبط رثتيه كلما ضحك . وما كان هذا بعسير عليه فهو من شيمه الاولى ، وقرر ان يفض من صوته حتى يألف الناس صوته الجديد ، وعندئذ يتصرف فيه بما يشاء . اما محيائه فهو الآن في المرأة كما كان قبل رحلته الى حافة المادة ، تماماً ، لولا غلظة في الحاحين وغلظة حول الشفتين لا فيها . وذهب يدلك ما حول الشفتين فراقته نومته . ترى ما السبيل الى اخفاء هذه الغلظة ؟ ان الشارب وحده لا يكفي اذ ان الغلظة تمتد الى اسفل حتى تتناول جانبي الذقن ، فلا بد اذن من اللحية ، لا بد من الشارب الغزير واللحية الغزيرة معاً ، وفي غزارة الشارب واللحية تحتفي الغلظة البادية حول الشفتين . أما السوالف فلا حاجة بها الى ما يكسوها . ولا شك ان القشرة

الجامدة السمراء التي تركتها شمس دماريس وخشونة حقولها سوف تلين تحت الماء الكثير والتدليك الكثير والكريم الكثير . ومضى بعد هذا يمسح حاجبيه الكثيفين ، وشاء ان ينتزع منهما بأصابعه بعض الشعرات التي خرجت على النظام العام ، ولم يجد بداً من الاستعانة بملقط من مدام ماريكا . فخرج الى المطبخ حيث وجد صاحبة البنسيون في روبها الأحمر القديم الرخيص تطعم قطعاً أسود هائل الجثة لم يكن له من قبل وجود في الدار ، فاهتز جسده قليلاً لم رأى القط ، ولكنه فهم ان مدام ماريكا قد استعاضت به اثناء غيابه عن القط الجامد الذي تهشم لشهر خلا . وارتاح ايما ارتياح الى خرافات مدام ماريكا التي تنشر السلام في الدار . وسأل حسن مفتاح مدام ماريكا ان تقرضه ملقطها ففعلت . وعاد حسن مفتاح الى غرفته يفتش بين مجلاته القديمة عن صورة من صورته المنشورة ليهتدي بها في تخفيف حاجبيه فوجد صورتين تخير اوضحهما . فلما بدأ العمل وجد ان الصورة الواضحة باهتة لا تفيد كثيراً . فأعادها الى مكانها بعناية ، وفتح درج الكومودينو واستخرج منه جواز سفره ، ثم سعى الى المرأة وانشأ يسوي حاجبيه .

ومرت الأيام هادئة لا يؤنسها شيء ولا يزعجها شيء . مرت الأيام . فكانت كلها قراءة وتفكيراً وتحريراً ، وانقطع حسن مفتاح عن العالم الخارجي تماماً ، اللهم الا ببعض الرسائل التي كتبها لأصدقاء له في الاقاليم ، يستعين بهم على زيادة رصيده في البنك ، ولم يكن يقض مضجعه الا ان يتذكر ان الصحف لا بد قد نشرت نبأ غرقه على صورة من الصور . أليس جائزاً ان النوتي الجميل قد ادى واجبه بعد عودته الى الميناء فأبلغ الشرطة ؟ أليس جائزاً ان الشرطة قد اذت واجبها وعادت بالسيدتين والسيد المجهول ؟ كل هذا جائز ، ولكنه مشكوك فيه . فحسن مفتاح كان يعرف مأموراً في جنوب القناطر رأى جثة تطفو في النيل فاشاح بوجهه حتى يتحاشى العلم بها ، وحين نبهه حسن مفتاح الى ما يجري في الماء ضغط المأمور على ذراعه وهمس في اذنه قائلاً : « ان هذه رزية ، فدعها

تمر مع التيار من عيون القناطر حتى تكون من نصيب مأمور القسم الشالي
يحقق فيها طول الليل ، وهيا بنا الى النادي نشرب كأساً من الويسكي . فلما
ان ابصر المأمور قروياً يلخلع ملابسه ويلقي بنفسه في الماء ويسبح الى الجشة
لينقلشها ذهب يسب ويلعن الفلاحين اولاد الكلب الذين لا ينتظر منهم الا
الرزايا ، وأسرع الى بيته وأصدر امره بان سعادة البك غير موجود للسائلين .
لسوف يقيد الحادث في الاوراق الرسمية حادث مجهول ضد مجهول . بل ان النوتي
الجميل قد لا يجد الشجاعة لابلاغ البوليس ، فلئن فعل ذلك لا محالة مقبوض
عليه ، وهو لا محالة مقيم في الحفظ تحت التحقيق اياماً وربما اسابيع ، وهو لا
محالة متهم باغراق ركابه وربما باشياء اخرى كثيرة منها السلب ومنها الاختطاف
كذلك . والنوتي الجميل لا ذنب له في كل ذلك الا انه ازعج البوليس ، ومن
يزعج البوليس يزعجه البوليس . والنوتي الجميل مذنب الى ان تثبت براءته شأنه
شأن كل نوتي آخر ، الجملاء والدماء على السواء . وما الذنب في ذلك الا ذنب
النوتية ، فهم لا يستطيعون قراءة قانون نابليون ولا يعرفون حقوقهم . فاذا كان
السادة يقرأون قانون نابليون ويعرفون حقوقهم ، فليس للعبيد ان يشتكوا من
السادة ، فقانون نابليون موجود في كل مكان ، عند باعة الكتب وعلى رفوف
المهامين ، وقد بلغ من كرم الدولة انها وضعت منه نسخاً في المكتبات العامة
تقرأ بالجمان لمنفعة المعدمين ، الله في علاه والدنيا بخير عميم . ولا شك ان النوتي
الجميل لم يكن يفكر بهذا المنطق الواضح ، فالنوتية ليسوا من اهل المنطق أو
التفكير ، ولكنه عرفه بالاختبار ، فحمزة افندي ، وهو الافندي الوحيد
الذي نجبته اسرة النوتي الجميل رغم ضخامتها ، كان يرى دائماً ان اداء الشهادة
تفصيل كبير ، فقد ذهب مرة الى قسم كرموز بوازع من ضميره ليشهد امام
حضرة الضابط بان الذي صدم الغلام كان سيارة حشمت باشا لا سائق التاكسي ،
فكان جزاؤه اربعاً وعشرين ساعة من الحبس الاحتياطي واثبات القضية ضد
مجهول . فاذا كان الافندي قد اصابه كل ذلك مع ما يبعثه الطربوش والبذلة من
تهيب في محيط الشرطة ، فلا شك ان نوتياً فقيراً يلبس البالطو فوق الجلباب

ويستعير ما ينبذه حمزة افندي من الطرابيش حين يخرج للزهوة ، ملقاً من أذى الشرطة شيئاً كثيراً .

ولكن حسن مفتاح لم يشك لحظة في علم البوليس بالحادث . فاذا كان النوتي يخشى غنت الشرطة حقاً ، فان لمدام كلاداكيس اسرة تفتقدها وخدماء ينتظرونها . فاذا تغيبت بعد المساء قالوا مضت الى السينما ، فاذا تغيبت الى الصباح قالوا لعلها كانت في سهرة حمراء أو في خلوة من خلوات الغرام . فاذا لم تعد مع الضحى ، طلبوا الاسعاف بالتليفون ، وخاطبوا المستشفيات وترددوا على المعارف يسألون . ثم يكون البوليس ، فاذا كان البوليس بدأ البحث وانتشلت الجثث الطافية ، وكانت المشرحة ، وكان التحقيق وكان التعرف على كلاداكيس . اما هذا السيد القصير الأسمر النحيل ذو الاسنان البارزة ، فمن يكون ؟ ان غرفته بالبنسيون ليس بها الا بيجامتان وثلاثة قمصان وبعض الملابس الداخلية وشبشب وفرشتان للاسنان وفوطة ثم آلة كتابة افرنجية رمنجتون خفيفة . اما حافظته فليس بها الا خمس ورقات من اوراق البنكنوت مجموعها خمس وعشرون جنهماً ، يشك في انها ادرجت بين مخلفات الفقيد في محاضر البوليس . والخادم والخادمة يعرفانه حق المعرفة . فقد رأياه جملة مرات في العام الماضي ويعرفان عنه بعض التفاصيل . يعرفان مثلاً انه من القاهرة ، وانه من المقربين الى المدام ، وانه يشرب القهوة بشراهة والشاي بشراهة والسجائر بشراهة وانه سخي مع خادميه يداعبها باستمرار . غير هذا لا يعلمون عنه شيئاً . وقد كان يمكن الاهتداء الى شخصيته عن طريق مفكرته التي تحمل من ارقام التليفون عدداً عظيماً ، لولا ان اربعاً وعشرين ساعة من البلبل الملح قد افسدت كل ما في المفكرة من كتابة ، ولولا ان كل كلمة في المفكرة قد كتبت بالشفرة . لقد دخل حسن مفتاح في مجهولات هذا الوجود ما في ذلك شك . فالصحف لا ريب قد تحدثت عن غرق مجهول . واللجنة المركزية لم تتحدث عن غرقه بتاتاً . فانقطاع اخباره ليس بمستغرب عند اصدقائه ، ولكن لا داعي الى الانزعاج « الآن » . لقد كان حسن مفتاح يؤمن بانه ما من جريمة الا وتركت وراءها

أثراً ولعل في هذه السلسلة الطويلة من الحوادث العجائب التي بدأت باغتيالها، وانتهت برده الى الحياة حلقة لم ينتبه اليها قد فضحت هويته وملأت الصحف بنعيه اسبوعاً أو يزيد . ولكنه كان يصرف تفكيره عن كل ذلك بقوله : لا داعي الى الانزعاج « الآن » . سوف يتضح كل شيء حين يعود الى رقم ١٣ شارع سليمان باشا . ثم ان محض ظهوره بعتبة الباب سوف يكذب ما عسى ان يكون قد شاع بين الناس .

وفي غضون الشهر الأول سطر حسن مفتاح كراستين : الأولى تشمل تقريراً للجنة المركزية عن برنامج الاصلاح كايصوره هو . اما الثانية فقد كانت نشرة يثبت فيها ان الشعب المصري شعب مادي نموذجي لتطبيق النظام الشيوعي عليه .

فمادية الشعب المصري هي التي حتمت من غيبيات الغاندية المريضة في اطوار كفاحه المختلفة ، وهي التي تحميه الآن من غيبيات الفاشية واحلام التوسع الامبراطوري ، وتصرفه عن كل ما يخرب الكفاح الشعبي الصميم من أجل حقوق الانسان الاولى المموسة أو يطمس الواقع المفجع في غبار كثيف من المجردات الغيبية . ومادية الشعب المصري هي التي تقرب اليه فهم الواقع الاجتماعي فهماً علمياً ، وتعلمه ان الف باء السياسة المصرية هي ان الكفاح الوطني كفاح شعبي قبل كل شيء ، وان القلة المالكة في تفاهم كامل مع المستعمرين بحكم ارتباط المصالح منها اصطنعت لغة الوطنية والجهاد : فالمستعمرون يثقون بالقلة المالكة ويؤازرونها لأن في بقائها دوام الفقر وتابعيه الجهل والمرض بين المصريين ، والقلة المالكة تحتمي بالمستعمرين وتوطد لهم لأنهم يحمونها من غضب الشعب ، ويلهون الشعب عن التفكير في مشكلاته الداخلية بايجاد مشكلة خارجية دائمة تمتص كل فائض من النشاط الشعبي . فمادية الشعب المصري هي التي تعلمه ان الكفاح الوطني في صميمه ، كفاح من لا يملكون ضد من يملكون ، وتجعله يدرك ان التخلص من الاعداء الداخليين ضرورة للتخلص من الاعداء الخارجيين .

غير هذا لم يحدث شيء . لم يحدث شيء في ٢٢ شارع الملكة فريدة ما يقرب من شهرين الا زيارات الحلاق بين الفينة والفينة ، حتى لقد اختلطت على حسن مفتاح التواريخ ثم الايام ثم كف كذلك عن الاهتمام بالساعات ولم يعد يجد من النشاط ما يدفعه الى الخروج من بيجامته ، واتصل ضده الزمن ، ولكنه كان بين حين وآخر يعود الى صحفه ليقف منها على التواريخ . كذلك لم يحدث شيء في ٢٢ شارع الملكة فريدة ما يقرب من شهرين الا ان النهار طال والليل قصر وطارت عصافير كثيرة لا يعرف حسن مفتاح لها اسماً قرب نافذته وزقزقت ، اما الهواء فقد اعتدل وبدأت جماعات الشباب من الاجانب المحليين تجوب الشوارع بعد منتصف الليالي تغني السيريناد باليونانية والايطالية والفرنسية تحية للربيع ابن الغرام . وفي نهاية الشهرين لم يكن بين حسن مفتاح واللجنة المركزية الا قليل من الشجاعة ، فقد نما شعر رأسه حتى بلغ نصف عهده الأول ، ونام الى الخلف ناعماً امس . كذلك اوشكت لحيته الصغيرة وشاربه ان يكتملا ، وقالت المرأة الطويلة الصافية لحسن مفتاح ان في وسعه ان يخرج مطمئناً الى التجربة الاولى ، ولكن حسن مفتاح فوجيء بزيارة لم يكن يتوقعها .

فقد جاءت ذات مساء مدام ماريكا تعلن ان سيدة الباب تطلبه ، فاضطرب قلبه وأرسل صاحبة البنسيون تستقبلها في المدخل حتى يتها . وتها بعد خمس دقائق لاستقبال عايذة علم واستفسارها عن علة مجيئها . ولم يعبا بربطته فترك قميصه مفتوحاً حول العنق . ولم تكن حيرته من هذه الزيارة بأقل من رهبة منها . فقد كان شديد الاحساس بما اصابه من تغير ، ولم ينس ان يتطلع الى المرأة قبل خروجه من غرفته . ولم يحاول ان يرجم بالغيب بما عساه ان يكون دافعها الى المجيء ولكن خطر له انها لا بد قد جاءت لتجدد العهد القديم او لتحذره من خطر محقق . وخرج الى المدخل انفاسه معلقة ، غير انه ثبت في مكانه لا يدري أيتقدم ام يتأخر . فقد رأى امامه مونا ربيع ، واقفة وراء المائدة المستديرة الصغيرة تدخن فيما يشبه الهياج العصبي ، وتتناول بشفتيها

سيجارتها بسرعة تلفت النظر ، وتنثف منها الدخان بقوة تلفت النظر ، وتنفض
الرماد على البساط الساذج بتوتر يلفت النظر ، وامتدت يد حسن مفتاح وراء
ظهره لتحسس مقبض بابه حتى استقرت عليه ، فارتاح بحسده كله على حافة
الجدار مخافة ان تخونه ساقاه . وقد أحس فعلاً بما يشبه الحذر يدب في لحم فخذه
وما دونه ، ويتجمع حول الركبتين . وكان اول خاطر معقول في ذهنه : كيف
علمت مونا ربيع بقره ؟ ان عايذة علم كانت « المرأة » الوحيدة التي تعرف
مسكنه . وكانت مونا ربيع تشخص ببصرها اليه طول الوقت اما هو فلم يقو على
شيء من ذلك فغض بصره الى أقرب كرسي اسوطي منه . فلما طال الصمت
حتى بلغ مبلغ الحرج ، رفع حسن مفتاح بصره وقال مبتسماً :
- أهلاً مونا .

وحين وقع بصر مونا ربيع على حسن مفتاح في صورته الجديدة عجبت أشد
العجب ولكنها قالت تعتذر :

- لم يكن بد من مجيئي .

وتقدم حسن مفتاح منها واراد ان يحتويها بين ذراعيه وينهال عليها تقبيلاً ،
ولكن قوة ما ردته عن ذلك . وأدركت هي من تقطع حركاته ما كان يحول
بخاطره فخرج خدها دم كثير ، وأغمضت اهداها الثقيلة السوداء لحظة ثم صحت
اليه وقد تناول يدها اليمنى في يديه وذهب يعث بها عبثاً اراده ليناً رقيقاً فجاء
قويماً موجعاً . وأحست بالماساة الكبيرة في خاتمها تدور حول اصبعها قليلاً فتؤذي
اصبعها المجاور ولكنها تحملت . أما هو فقد فهم بما يشبه الوحي الحائل الذي
يصده عنها ، فقد كان الحائل بداخله . ان حياته قد اتخذت سبيلاً غير مألوف ،
وهو لا يرضى لمونا ربيع ان تتبعه الى الهاوية . وكانت رغبته في احتضانها قوية
لا تحتمل . وكانت القوة التي ترده عنها قوية لا تحتمل ، فتجمع في رأسه شقاء
فوق طاقة البشر وأحب ان يبكي ، ولكنه لم يكن ممن يكون . وفي تلك

اللحظة وحدها استطاع ان يدرك مبلغ حبه لها ، ففي تلك اللحظة وحدها اتخذ حبه حجماً يحس ولا يقاس ووزناً يحس ولا يقدر وعمقاً يحس ولا يسبر . فقد كان حبه قبل ذلك اما راقداً في رأسه على كومة من الهشيم المجرد الجاف او راقداً في قلبه على فراش أملس من أطلس الاحلام ، أو مستيقظاً في عروقه متدفقاً مع دمه المجنون تدفق الاشواق . أما الآن فقد غدا موجعاً يصدم كأنه حرف مائدة ثقيلة ، موجعاً يؤلم كأنه منشار يجري على عظام خبيثة لم تمت بعد ، موجعاً بقوة اليأس كأنه هاوية بغير قرار . ورأى ان في زيا شيئاً غير مألوف ، وسرعان ما ادرك انها تلبس لأول مرة حريراً مخططاً من أعلى الى أسفل ، فيه لونان نبيذي وبرتقالي ، وقد الفها فيما مضى لا تحب مزخرف الالوان . وقال انه الربيع ما في ذلك شك . وكان الحرير على صدرها رخواً بدت منه رخاوة نديها كأنها لا تلبس تحت ثوبها شيئاً . ولم يسألها ان تجلس ، ولم تجلس هي من تلقاء نفسها . واحتار ثانية فيما يقول وتخرج الصمت حتى اضطرب له ، وكان يعلم انها تنتظر منه كلمة فقال متلعثماً وهو لا يفهم ما يقول تماماً :

– هل اغضبك اني تخلفت ؟

قالت :

– نعم .

وكان لا بد ان يفسر . وكان لا بد ان يكذب ، ولكن شق على نفسه ان يفعل ذلك فلاذ بالصمت وترك يدها تسقط الى جنبها . وأوشك الصمت ان يتخرج مرة ثالثة ، ولكنها بدأت :

– اناذن لي في الجلوس ؟

فابتسم حسن مفتاح وجلس دون ان يجيب فجلست مونا ربيع كذلك ، ثم اطلقت سيجارتها ، وعادت تقول :

- ارى ان صحتك قد تحسنت .

فانتفض حسن مفتاح ، فقد ذكرته هذه العبارة بكل ما جرى تحت الجرف العميق وأحسن يحسده احساساً ، وغلبه شيء أكثر من الخجل ، غلبه شعور المذنبين ، فأراد ان يخفي عنها وجهه ولكنه كان مطرقاً فلم يدر أين يشيح بوجهه . وأخيراً رفع رأسه وقال :

- ولكن صحتك قد ساءت .

فهزت مونا ربيع كتفها ثم قالت :

- ارى انك اطلقت لحيتك .

فأجاب بصورة آلية :

- ضرورة من ضرورات اللجنة المركزية .

وقالت وهي تبسم :

- تقصد انها عدة الشغل ؟

فضحك وأجاب :

- انا الآن سكرتير اللجنة المركزية ، وأعتقد اني سأشغل هذا المنصب فترة

طويلة . والاعضاء بحاجة الى حية تسكتهم من وقت لآخر .

قالت :

- فهمت .

ثم لمع في عينيها بريق شديد وازافت :

- لقد جئت لأتبرع لكم بمبلغ من المال . أتقبل مني مائة جنيه ؟

فبدا عليه الجذ وأجاب :

— نعم •

ولكنه كان يعلم انها تكذب ، فاضطربها العام قد دله على ان في الأمر شيئاً جليلاً •

قالت :

— وما اسم أمين الصندوق ؟

أجاب باختصار :

— اكتبني الشيك باسمي •

وفيما هي تفتح حقيبتها وتستخرج دفتر الشيكات ، دخلت مدام ماريكا بشأن غير مطلوب ثم توارت في مطبخها كعادتها • قال حسن مفتاح وهو يصب لها الشاي :

— أرجو ان تفهمي اننا لا نعطي مقابلاً ، الا الشكر طبعاً •

فضحكت وناولته الشيك وأجابت :

— هذا واضح ، والشكر لربيع بك فهذا ماله . أرجو ان تفكر فيّ كلما احتجتم الى مال •

وارتجف حسن مفتاح حين تذكر ربيع بك ثم قال :

— شكراً • ولكن لا ترسلي شيئاً دون اتفاق سابق • سأكتب لك بالتفاصيل •

عندي اقتراح آخر •

— نعم •

– انا أملك بيتاً موقوفاً من طابقين في شارع الساحة بالقرب من اوروزدي بك ، ومكاتب الدائرة تشغل جانباً منه الآن ، فان كنتم بحاجة الى دار جديدة فيبتي تحت تصرفكم . استخدموه بلا مقابل . أما الدائرة فيمكن ان تنقل الى عمارة اخرى .

– وقانون المساكن ؟

– نستطيع ان نوقع عقد سورياً قديماً التاريخ أو ان احجز للدائرة ركناً سورياً .

– العقد انسب ، ولكن اتعلمين ان هذا يعرضك للخطر ؟

– تقصد لمجرد التحقيق .

– وماذا يمنع من اعتقالك ؟ التحسين ان حرم عبد السلام بك ربيع فوق القانون ؟

– انا راضية بالمجازفة .

فضحك وقال :

– كنت احسب انك الفوضوية الوحيدة في وادي النيل ، ولكني ما عرفت انك تعطفين على الشيوعيين .

فأجابت ضاحكة :

– ان ديالكتيك الحياة قد علمني اموراً كثيرة .

قال :

– انا طبعاً شاكر لك هذا السخاء ، ولكني لا أملك القبول أو الرفض في جسام الامور ، فأذني لي أن اعرض الأمر على اللجنة المركزية .

- بكل تأكيد .

وساد صمت قصير ، وجعلهما الصمت يحسان باقتراب الظلام ، فقد انتشر في المدخل المساء الثقيل الذي ضاعت فيه معالم المنازل في الخارج ، واختفى السابلة الابعدون ، وأحب حسن مفتاح ان يضيء النور ولكنه لم يجد الهمة للنهوض . وكان حسن مفتاح يعلم ان مونا ربيع انما تراوغ وتخلق المناسبات خلقاً لتؤجل ما جاءت لتقوله . واراد ان يقترب بها من الدائرة التي كانت تتحاشاها فقال :

- وكيف حال ماجدة ؟

فانتبعت مونا ربيع الى الموقف الجديد ، وآثرت ان تواجه هذه المرة لتريح صدرها نهائياً وأجابت :

- انها بخير وهي الآن معي في القاهرة .

ومشت الحيرة في وجه حسن مفتاح ، فلم يفهم كيف يفسر كلماتها ، وسألها :

- وربيع بك :

- هو في القاهرة كذلك .

فزادت حيرة حسن مفتاح وقال :

- متى عدتم من الاسكندرية ؟

- انا وماجدة منذ شهر تقريباً ، أما ربيع بك فلا علم لي بتاريخ رجوعه .

- لست افهم . الستما معاً في فيلا الزمالك ؟

- كلا ، فهو يقيم الآن وحده في فيلا الزمالك . أما انا فأقيم في اوتيل

متروبوليتان مؤقناً حتى اضع يدي على شقة في الايموبيليا ، وقد دفعت فعلاً خلو رجل ولكن يبدو ان في الأمر اشكالاً ، لأن بعض الجهات العليا تريد الاستيلاء على المكان . أترى ان الأمر يحتاج الى رشوة ؟

وكان حسن مفتاح يتوقع شيئاً ما ، يتوقع نبأً عظيماً وان لم يستطع ان يتكهن بشي ، على التحديد . فلما جاءه النبأ العظيم أحس بمغزى هذه الزيارة أكثر من أي وقت مضى ، وتنبهت كل حواسه . قال :

— لست افهم ماذا جرى ؟

— جرت اشياء كثيرة أود ان اعفيك منها ، ولكن خلاصتها انما قد انفصلنا .

— مؤقناً ؟

— بل نهائياً . فقد قبل ربيع أخيراً ان يسرحني بعد ان نزلت له عن مؤخر صداقي . كذلك قبل الا يطالب بكفالة ماجدة لقاء بعض الأسهم والسندات . واوراق الطلاق تسير الآن في الدور النهائي .

وضحكت مونا ربيع ضحكة عصبية . وأوشك حسن مفتاح يقول : « ياله من وحش . ياله من نذل . » ولكنه لم يفعل ، بل نهض واضاء النور وعاد الى مكانه وصب لها ولنفسه فنجاناً من الشاي ثانياً ، وناولها سيجارة ، وسألها قائلاً :

— هل جد شيء ؟

— نعم ، جدت أشياء . فقد عدت الى داري يوم موعدنا في بنسيون رويال فوجدت ورقة منه تقول ان عمته قد انتهت وانه سيعود نحو التاسعة بعد اجراء اللازم . وتملكني ضيق شديد ، وأحسست ان في البيت روحاً خبيثاً يقبض على كل شيء بقوة من حديد ، ويمتد الى عنقي كذلك ، ويقبض عليه بقوة من حديد .

ومشيت الى ماجدة لعلني أصرف عني هذا الاختناق ، ولكني خشيت ان اوقظها
بقبلاتي ، فعدت الى المدخل ونظرت الى الكراسي فقالت الكراسي : اقتليه .
ونظرت الى الجدران فقالت الجدران : اقتليه . والابواب قالت اقتليه ،
والسقف المنخفض والباركيه العاري وكل ما في الغرفة قال : اقتليه . وسألت
نفسي فقالت نفسي اقتليه . وكانت الجريمة ترفرف في هواء المدخل .
فأمسكت بيبة له ملقاة على المائدة الصغيرة وقذفت بها في المدفأة الجائعة بأقوى
ما املك من العنف فتحطمت البيبة . ولكن اختناقي لازمني ، فعلمت ان راحتي
لن تكون الا بموته . وأحسست بغيبتيك وبموت عمته . وامتلاً البيت بارواح
الموتى وان كنت لم ادرك لذلك سبباً . فقالت نفسي : اذن فالموت للجميع .
وأحسب انك لو كنت في متناولي لقتلتك كذلك . نعم لقتلتك لأدك تركتني
عزلاء اجابه اهوالي بمفردتي . كنت كالنمرة المفترسة . وخرجت فوجدت
الليل ساحياً ، نجومه زهراء ، حببت اليّ الحياة لحظة ولكنها ارتدت بعدحين حمراء
كأنما يعلوها غبش وردي . فعلمت ان السماء تأمر بقتله كذلك . وعدت الى
داري ومعني من الزرنينخ ما يقتل اسرة ربيع كلها ، وفتحت دولابه
واستخرجت منه الويسكي ، ومضيت اشربه في اسراف ، حتى عاد ربيع بك
الى الدار ودخل متهللاً كأنه لم يفقد عمه وانما ربح ورقة يانصيب ، وطفق
يلغو عن الميراث العظيم الذي اصاب شيئاً منه ، وهو عمارة في حلیمونوبولو بها
ست عشرة شقة تدر كل منها عشرة جنيهات شهرياً الى جانب الفيلا التي كنا
نقيم فيها . وحين فرغ من حديثه شتمته قائلة ان امثاله لا يستحقون البقاء ،
وكان قد ادرك لأول وهلة اني في حالة سكر شديد ولكنه لم يقل شيئاً . وحين
اهنته لم يقل شيئاً كذلك . وبجت عن بيبيته فلم يجدها ، فلما انبأته بانني قد
حطمتها بيدي لزم الصمت . ولم يبدُ عليه اي اكرات بما انا فيه . حتى الحيرة
لم اقرأها في وجهه . وألهب صمته ثورتي ففتحت حقيقتي واستخرجت منها السم
وصحت فيه قائلة : « اتعرف هذا ؟ » فنظر الى السم وقال : « نعم ، هذا
زرنينخ » ثم عاد الى صمته فقلت : « اتعرف لم جئتُ به ؟ » فhez كتفيه

واجاب : « ومن أين لي أن اعرف ؟ لعلك كنت تفكرين في الانتحار . »
قلت : « كلا ، وانما كنت افكر في قتلك . ولولا اني سكرانة للحققت الليلة
بعمتك ، واخذت ميراثها كاملاً . انا اعرف انك كنت تحب عمك حباً جما
وهي تحب منك ان تؤنس وحشتها . ثم انهرت على المقعد وعدت الى الشراب ،
فجلس هو كذلك ورأيت في وجهه الانزعاج الشديد وأخذ بعض اسنانه كأنه
يعض بيّته . ويبدو لي انه حسب كل شيء بطريقته الخاصة الواضحة الباردة ،
فوجد ان الأمر قد تجاوز حدود المشاحنات المتقطعة والفتور المتصل ، ودخل
في دور عملي . فقد دخلت الخادمة تقول ان العشاء معد فصرفها وفي عينيه ما
ينبئ به انه يخاف العشاء . وأخيراً قال : « اتفضلين ان ننفصل ؟ » فأجبت ؟
« انا لم أر اوقع منك انساناً . كيف تسألني هذا السؤال ؟ هبني قلت لا ، انا
لا استطيع الحياة بغيرك يا حبيبي ، فلست اشك في انك ساع الى الطلاق منذ
هذه اللحظة ، ولن يهنا لك بال حتى تتخاصمني تماماً . انك لن تتناول بعد
الآن كوباً من الماء او فنجاناً من الشاي او لقمة من الخبز مخافة ان تكون
مسمومة ، بل انا اعلم انك لن تنام الليلة في هذا البيت مخافة الا تستيقظ في
الصباح . ولكنك تريد ان تجعل من هذا الموقف موضوعاً للمساومة . لماذا لا
تختصر الطريق وتقول : تنازلي عن مؤخر الصداق ، اعطني كذا وكذا ، او
اخطر البوليس ؟ لقد فهمتك يا صاحبي ، فهمتك . لقد علموك في اكسفورد ان
تلبس هذا القناع الزائف : البرود المصطنع . علموك ان تدخن البية لتتجاسى
الكلام ، ان تعض على البيسة كلما اضطربت نفسك . علموك ان تجلس على
الفوتيلات الكبيرة وتغوض فيها وتحس بالراحة الموجبة ، فتعتقد انك الموجود
الوحيد في هذا الوجود وترفض ان تزج طمأنينتك العظيمة باوجاع الغير .
علموك ان تقيم حفلات الشاي وحفلات الكوكيتيل والمآدب لا لتدفيء قلبك
بمرأى اصحابك ، ولكن لتنهى العلاقات وتعد الصفقات بكم تبرعت للترفيه عن
الجنود البريطانيين الذين يأكلون الزبد والمرملاد ، ويسكرون ليل نهار ، ويقاثلون

لاستعباد الشعوب ؟ بثلاثة آلاف جنيه . بكم تبرعت للترفيه عن الجنود المصريين الذين يتقاضون ستين قرشاً كل شهر يدخل فيها ثمن السجائر ونفقات الأم أو الأخ أو الزوج في الريف ؟ بلا شيء . لقد وهبت للاتحاد المصري الانجليزي بليارد وكلفك ثلثمائة جنيه ، وأطعمت على مائدتك البريجاديرات البريطانيين واعضاء مجالس الشركات من كل ملة على وجه الأرض ، وخصصت دارك الكبرى بالدقي مستشفى للجرحى الانجليز دون مقابل . فكم جنيهاً وهبت لضحايا الغارات من المصريين وكم طالباً مفصلاً أعدت الى المدرسة بسداد رسومه ، وكم جائعاً اطعمت وكم مريضاً من عبيد عزبتك شفيت بمالك المقتصب ؟ لا أحد . كل ذلك لتحصل على العقود . العقود . لا شيء يلاًحياتك الا العقود . لا عجب ان الشيوعيين يسمونكم بالنخاسين . ولا شك ان اعظم عقد ظفرت به في حياتك كان عقد زواجك بي . تحسب اني لا افهمك ؟ انت تنظر اليّ ، انا زوجتك ، نظرت الي صفة راحية . قل لي متى احببتني ؟ قل لي . لمّ لم تطلقني حين طلبت اليك الطلاق في العام الماضي ؟ انك تستبقيني لا 'حباً' بل لأنني سيدة لا 'حباً' في بل لأرفه عن البريجادير كريستول وعن الخربوطلي باشا وعن المسيو حنوكه وأخدمهم بالويسكي واحديثهم عن قصص بلزاك وأعزف لهم موسيقى شوبان ، فيقول البريجادير كريستول والخربوطلي باشا ومسيو حنوكه : يا لها من امرأة مثقفة . يا لها من سهرة ممتعة . وفي الصباح توقع انت العقود . اذكر سرهنك بك ، دون جوان الطبقة الراقية ؟ ماذا كنت فاعلاً لو انك رأيته يقبلني قبل ان توقع مع الحكومة عقد ترميم وزارة العدل ؟ لا شيء . اذن فاعلم هذا . لقد حاول سرهنك ان يقبلني على التراس في الزمالك ، ولولا اني احترقه من اعماق قلبي لاستسلمت له . كلا يا صديقي . لن تعرضني في سوق النخاسة بعد اليوم . لن تعرضني . »

وبعد ان فرغت مونا ربيع من هذا الكلام تكاثرت عليها احزانها فاجهشت بالبكاء . واطل رأس مدام ماريكا يستطلع الخبر ثم اختفى ثانية . وكان حسن مفتاح يستمع الى حديثها باضطراب تام فلما بدأت تبكي ، قال معنفاً :

— ما هذا يا مونا ؟ لقد كنت مثلاً للشجاعة وقوة الاحتمال فلا تضعفي الآن .

— انما أبكي على السنوات السبع التي ضاعت من حياتي مع هذا الرجل .

— وكيف انتهت الليلة ؟

— انسحب الى غرفته في سكون ، ولولا انه انسحب لقدفته بآاء الازهار فشجت رأسه . انا أنصح كل امرأة شقية ان تدس السم لزوجها حتى تتساوى النساء بالرجال في حق الطلاق . ان اكثر صديقاتي شقيات في زواجهن ، ولكنهن تعلمن ان يتخذن عشاقاً يهنون عليهن مرارة الحياة ، ولكم زين لي ذلك ، ولكن شيئاً في طبعي ردني عنه .

— ولكن كيف انتهت الليلة ؟

— خرج الى بعد قليل حاملاً حقيبة صغيرة جمع فيها متاعاً قليلاً وفي فمه بيبة قديمة وجلس على حرف المقعد الكبير وقال : « انت حرة منذ الان . ولكن ماجدة باقية معي . » فهببت اليه أحمل كوب الويسكي متوعة واجبت : « وما اهتمامك الآن بـ ماجدة ؟ اختصر الطريق وقل كم تريد ثمناً لها . » فلم يتزعزع بل قال : « ماجدة باقية معي ، فان خرجت بها غداً طلبت ردها ، والمحكمة بغير شك لا تأتمن امرأة اوشكت ان تسم زوجها على تربية بنت صغيرة . ولكنني سوف اسمح لك ان تترددي عليها مرة كل اسبوع . » قلت : « بل سأخرج بها غداً ، فان نزعني مني ماجدة ضربتك بالرصاص في وسط المحكمة . اطلب ثمنك الان . » وقد كان ما توقعته ، فان بيبة أكسفورد قد سقطت من فمه ،

وحين رأى اني رأيت اضطرابه ازداد اضطراباً ، واختلج خداه واصفر وجهه غضباً ، ونهض قائلاً بصوت مختنق متقطع : « أرجو ان تردي لي سندات قناسة السويس . اتركها عند الافوكاتو رفاعي . اما الكرايسلر فأنا في غنى عنها . متى تحيين ان أعود ؟ » قلت : « غداً ظهراً تتسلم بيتك » . وانصرف فلم أره الا ليلة الأمس في الأوبرا مع نفر من اصدقائه الانجليز .

— الحمد لله على هذه النهاية ، فزجاجة الويسكي قد انقذت حياتين .

— نعم ، ولكن حبه للهدوء هو الذي انقذ كل شيء في الواقع ، فلولا وعيدي لأدخلني في اشكالات ما لها نهاية ، ولجردني من كل قرش املكه . ان التجارة في دمه كما تعلم ، ولولا علمه بشراستي لما تراجع بهذا الانتظام .

— السر في كلية فكتوريا وفي اكسفورد .

— والان وقد فرغنا منه فلنعد اليك .

— انا اعد نفسي مسؤولاً عن بعض ما حدث .

— كلا فمسؤوليتك انتهت حين اخلفت موعدك معي . فقد فهمت عندئذ انك تفضل ان تنفض يدك .

وتذكر حسن مفتاح كل ما كان . تذكر النهار الأسود والزمهرير المومع . تذكر ركن الغرفة الذي قبع فيه حتى المساء . وتذكر كيف تسلل الى قدميها وخديها فقبلها . لا بد انها اقشعرت لبرودته . وأصابه دوار ، دوار الذكرى ، وأوشك أن يقول : « انا لم اتخلف » ، أوشك ان يقول : « انا انتظرتك يا مونا طول اليوم ، انتظرتك في الظلام في الزمهرير ، في ظلام لم أر له مثيلاً وفي زمهرير لم أر له مثيلاً . لقد قبلت قدميك يا مونا . » ولكنه غالب ضعفه وزالت عنه حاجته الى الاعتراف . غير ان حياه كان في صفرة الكرم . قالت منزعة :

— ماذا دهالك ؟

— اجاب :

— لا شيء . دوار خفيف .

— اتحب ان تستريح ؟

— كلا ، ولكنني احب مزيداً من الشاي .

— هل أزعجتك قصتي ؟

— كلا يا مونا . اثقين فيما اقول ؟

— في كل كلمة .

— انا لم أخلف موعداك .

— اكنت هناك ؟

— نعم ، كنت معك ... بالروح .

— في هذا بعض العزاء . هي الظروف اذن قد ابعثتك عني ؟

— نعم ، هي الظروف ، ولكنني كنت معك بالروح .

— وما هذا الظرف الجلل الذي عوّقك عني ؟

— موعد سابق . عند السلسلة . كان لا بد من الوفاء .

واتسعت مقلتا مونا ربيع حين جاء ذكر السلسلة . قالت :

— ولم لم تترك ورقة ؟

لم اكن أعلم اني سأتحلف .

— اكنت تفكر فيّ ؟

— كل ثانية .

— مالك شارد كأنك تخاطب روحاً ؟

— أشارد انا ؟

— نعم ، كأنك تخاطب روحاً .

— اقؤمنين بالارواح ؟

— طبعاً لا .

فازداد شعوب حسن مفتاح ومضى يردد فيما يشبه الهمس :

— طبعاً لا . طبعاً لا . طبعاً لا .

فنهضت مونا ربيع مذعورة وقالت :

— ماذا أصابك ؟

فأفاق حسن مفتاح قليلاً وقال :

— آسف . لا تنزعجي . محض نوبة عارضة ارجو الا تتكرر .

— انتبه الي يا حسن .

— اجلسي يا مونا .

ومشت مونا ربيع الى المطبخ وطلبت شيئاً من الماء الساخن ، ثم عادت الى مكانها وجلست فيه . قالت :

— أتحسن بتحسن ؟

— نعم يا مونا .

— والآن انتبه الى كل كلمة اقولها .

— نعم يا مونا .

— لقد كنت في الماضي تريدني .

— نعم يا مونا .

— الا تزال تريدني ؟

— نعم يا مونا .

— ومعى ماجدة .

— طبعاً يا مونا .

— اعني لن تقول بعد سنوات : ادخلها مدرسة داخلية ، او ارسلها الى
سويسرا .

— كلا يا مونا .

— اتفهم ما تقول يا حسن .

— بالطبع يا مونا .

— الا تخاف مني ؟ انا اسم الازواج .

فضحك وقال :

— وأنا أعبد النساء اللاني يسمن الازواج . ثم اي امرأة لم تفكر في ان
نسم زوجها ولو مرة في حياتها ؟ كل ما في الامر انك اقتربت بالفكر قليلاً
من الحياة .

— اتقصده انه ما من رجل لم يفكر في خنق زوجته ولو مرة واحدة في
حياته ؟

- ان منطلقك صارم لا يرحم .

- ان طبيعتك صارمة لا ترحم .

- اذن فقد اتفقنا في شيء ما ، وفي هذا كل العزاء .

- قبلني اذن .

فضحك ثانية وقال :

- فيما بعد يا مونا .

ولكنة تناول يدها اليسرى وذهب يتأملها كأنه يقرأ خطوطها . قالت :

- لا تقل انك هجرت السياسة واحترفت قراءة الكف .

وضحكا . وضحكت مدام ماريكا وهي تضع امامها شايًا جديدًا ، ثم توارت في مطبخها كالعادة .

واجاب حسن مفتاح :

- كيف عرفت مكاني ؟

- في اليوم التالي قصدت الى بنسيون رويال ، ولكنني وجدته موصداً . ولما لم يفلح الجرس نزلت الى بنسيون منرفا في الطابق الأسفل ، واستفهمت فقبل لي ان صاحبة البنسيون قد غرقت عند السلسلة مع أحد سكانها المدعو احمد أمين من ابناء القاهرة كما يقول سجل البنسيون ، فعلمت انك قد رحلت الى مكان آخر . وقد قضيت اليوم التالي كله ابحت عنك في بنسيونات المدينة وفنادقها فلم أقف لك على أثر ، فعلمت انك قد عدت الى القاهرة . ويئست من العثور عليك فقضيت شهراً في الاسكندرية لأجدد اعصابي فلم تتجدد . ومنذ شهر عدت الى القاهرة لمل الصدفة تجمعنا كما جمعنا امام المونسنيير . وأكثر من الخروج

فترددت على جميع الأماكن العامة التي رجحت انك تفشاها، ولكن دون جدوى .
ثم اصابني اليأس فانصرفت عن البحث جملة .

— ولكن كيف اهتديت الى مكاني أخيراً ؟

— سوف تغضب ان اعترفت لك بالحقيقة .

— هل سألت احداً في اللجنة المركزية ؟

— انا لا أعرف احداً في اللجنة المركزية .

— كيف عرفت عنواني اذن ؟

كنت ليلة الامس في الاوبرا فالتقيت بضابط كان يتردد احياناً على زوجي ،
ولكنه لم يكن في ملابسه الرسمية فتذكرت قول زوجي عنه انه يعمل في البوليس
السياسي . وعرفني الرجل فتقدم اليّ وصافحني وسألني عن زوجي فأجبته بأنه
في خير حال ، وفهمت منه انه قد جاء ليحرس رئيس الوزراء من اخطار
متوقعة . وفيما نحن نتحدث لمع برأسني خاطر غريب هو ان هذا الرجل لا بد
يعرف عنك شيئاً بحكم عمله ، فسألته عن اسمه الكامل وعن مقر عمله ، ثم زرته
صباح اليوم فأعطاني عنوانك .

— وما اسم هذا الضابط ؟

— ممدوح الشرييني .

— أوه .

— هل افسدت كثيراً ؟

— كلا . كلا .

— الغريب انه قال ان اخبارك قد انقطعت منذ شهرين ، وهو يرجح انك

أما مريض في مستشفى او مختفى في قرية . ولكنه حائر على كل حال .

- وممّ أختفي ؟

- لا ادري وانما اردد ما قاله .

- هل أشار الى شيء ؟

- كلا . كلا .

- أذكر لك اين فقد اثري ؟

- كلا . كلا .

كل ما في الأمر اني لزمتم داري شهرين كاملين حتى تنمو لحيتي . انا لست مختفياً .

- أنت في خطر يا حسن ؟

- قلت لك اني لست مختفياً . وكيف شرحت له علاقتنا ؟

- قلت انك قريب بعيد ، واني أود دعوتك الى بعض الحفلات .

- لا أظن انه صدق شيئاً مما قلت . فالمدعوون لا يبحث عن عناوينهم عادة في ملفات القلم السياسي . ثم ان أمثال ممدوح الشربيني مدربون على الشك في كل ما يسمعون . . فان قلت لأحدهم صباح الخير فكر في تحتك لعلها تحمل اشارة الى عمل سري ، وقد بلسخ من شكهم في كل شيء انهم يشكون في انفسهم . ولكن ما كان كان . انما خوفي عليك يدفعني الى هذا الاستقصاء . اما انا وزملائي فقد تعودنا الاضطهاد . ثم ان التجارب قد علمتنا كيف نتقي من آذاهم ما يمكن اتقاؤه . ونحن نرتي لهم من اعماق قلوبنا ، فبعضهم لا تزال له بقية من ضمير ، وصاحبنا ممدوح الشربيني واحد من هؤلاء .

— لا بد ان انصرف الآن .

— وكيف اتصل بك .

— ١٦٠٠ غرفة ٧٥ .

ونفضا . وتقدم منها واحتضنها تحت النور رأساً ، وانتشرت السعادة في وجهها ، واحست بقوة ساعديه اكثر من ابي وقت مضى ، فأحبتة أكثر من ابي وقت مضى ، وقبلها فلم تغمض عينيها بل ذهبت تملأ بصرها من محياه . والتقت عيونهما تحت النور . التقت العيون الاربع ما يقرب من نصف دقيقة . ورغم ضيق عينية رأت مونا ربيع البريق الغريب . وكان البريق غريباً . وخيل اليها ان انساني عينية اقوى من المألوف ، واشتبه عليها الأمر . وخيل اليها ان وراء انساني عينية انسانين آخرين . ثم توارى هذا الوم واحست ببرودة عينية . وكان جسده دافئاً كله ، ولكن نظرت كانت باردة قاطعة كأنها خنجر من الصلب البارد . ولكنها رأت وراء ذلك كله اعماقاً من الحزن ما لها قرار . وأغمضت عينيها في استسلام ، كأنها وقعت تحت سيطرة ساحر لا يرحم . واستقرت في رأسها صورة واحدة هي صورة كلب من الكلاب الهائلة السوداء في « الف ليلة وليلة » ، الكلاب التي سجن فيها السحرة أرواح البشر . ولم يكن في عيني حسن مفتاح الضيقتين ما يشبه عيون الكلاب واسعة الحدقات ، ولكن مونا ربيع رأت وجه الكلب الأسود . ولم تعرف مونا ربيع بعد ذلك أين رأت وجه ذلك الكلب الاسود ، كذلك لم تعرف مونا ربيع لم حضرتها صورة ذلك الكلب الاسود بعد ان قبلها احسن مفتاح تلك القبلة الطويلة ، لم تذكر أنها رأت ذلك الكلب الاسود في حداثتها بين صفحات « الف ليلة وليلة » . ولم تذكر مونا ربيع « الف ليلة وليلة » ، وانما ذكرت الكلب الاسود . كذلك ذكرت انها ارادت ان تقشعر بين ذراعيه فخافت ان تقشعر . ولم تتجاوز هواجسها هذا المقدار وهي تفتح الباب الخارجي وتدخل في نور السلم الشاحب . بل لم تكن لها هواجس البتة وانما كانت فيها حيرة هائلة كأنها امام لغز هائل . ان

حسن مفتاح لم يقبلها الا ليلة المونسنيير . وقد كان ذلك في ظل الكرايسلر السوداء تحت قبة الليل المطفاً بأمر الحاكم العسكري ، ولعلها كانت لتشاهد هذا البريق العجيب لو انه قبلها في وضح النهار قبل الآن . انها ما اقتربت منه قط الى هذا الحد قبل الآن ، ولو قد اقتربت لكانت شاهدت هذا البريق العجيب . ثم ما هذه الاعماق الخزينة التي رأيتها مونا ربيع وراء نظراته الباردة كأنها خناجر الفولاذ ؟ انها تعرف في عيني حسن مفتاح الثبات والذبول معاً ، وقد وجدتها على حالها طول هذا المساء حتى كانت القبلة . انه البعد والقرب ما في ذلك شك . ثم ان هناك شيئاً آخر لم تستطع ان تفهمه . لقد كانت تنتظر منه ان يطير فرحاً حين يعلم انها قد استردت حريتها . ولكنه لم يطر فرحاً بل ترنح حين وقعت عيناه عليها لأول مرة في مدخل البنسيون كأنما هي آخر شخص في الوجود كان يتوقع ان يراه . لم يطر فرحاً وانما استمع الى قصتها زهاء الساعة في أدب جم كأن بينهما حائلاً . اما حبه لها فلم تشك فيه لحظة . ترى ماذا حدث ؟ لعله فقد شيئاً عزيزاً ؟ ام تراه مطارد ؟ ثم فيم اعتكافه شهرين او يزيد ؟ ترى هل اختلف مع اللجنة المركزية ؟ كلا . لا بد ان شيئاً ما أصابه في شخصه . انه لم يداعبها مرة واحدة طوال زياراتها . ثم انها قد تجاوزت معه الحدود المألوفة وعرضت نفسها عليه ، فكيف كان استقباله لها ؟ « الازلت تريدني ؟ » « نعم يا مونا » . هذا كل ما هنالك . « نعم يا مونا » . لماذا لم يقل : « نعم يا مونا ، ولكن ... » كان ينبغي ان يقول ذلك ، لانه اراد ان يقول ذلك . اما حبه لها فلم تشك فيه لحظة ، ولكنها احست بأن بينهما حائلاً لا تفهمه ، احست بأن قوة خفية تجذبها عنها ، هي القوة التي سمرته في مكانه حين اندفع اليها بعد ان أفاق . هي القوة التي اطفأت مرجه وكسته وقاراً في حضرتها . هي القوة التي ردت عن تقبيلها . لقد صح بدنه حقاً منذ رحلة الاسكندرية ، لكن ماذا حدث له ؟ اما حبه لها فلم تشك فيه لحظة . ولكن كل هذه الخواطر لم تجد شيئاً ، فقد كان هناك شيء لا تفهمه ، شيء لم

يزعجها الا لحظة واحدة ، حين اغمضت عينيها في احضانه ، ولكنه حيرها
طول الوقت . حيرها في الطريق . حيرها وهي تقبل ماجدة النائمة كأنها
الملاك المحروس . حيرها وهي تقرأ رمزية رامبوا « فصل في الجحيم » للمرة
الرابعة وتستظهر بعض سطورها . حيرها وهي تدخل في بيجامتها الحريرية
السمنية اللون وتدخل تحت لحاف المتروبوليتان الوردى المغشى .



في الشهور الثلاثة التي توارى اثناءها حسن مفتاح عن اللجنة المركزية حدثت احداث جسام • وكان اجسم هذه الاحداث عند حسن مفتاح ان حادثاً جسيماً لم يحدث ، اذا ان احداً لم يشك في هوية هذا العائد بعد غيبة • فقد اطعم حسن مفتاح اعضاء اللجنة المركزية اثناء غيبته بخطابات مجموعها اربعة ، لا تقول شيئاً بالذات ولا تطلب شيئاً بالذات ، ولا تحمل عنواناً ولكن عليها اختاماً بريدياً كلها من الاسكندرية • فقد أرسل الخطاب الاول منها من الاسكندرية بعد اسبوعين من سفره اليها ، وأرسل الثلاثة الاخرى وكلها بعنوان عنايات ممدوح من القاهرة الى صديق له بالاسكندرية داخل مظروف اكبر منها حجماً ، ليحولها الى القاهرة من جديد • وقد فعل هذا الصديق ولم يسأل الاسئلة ، وانما فهم ان حياة حسن مفتاح النسائية قد تعقدت الى حد جعله يفر من النساء ، ويؤمن بأنه على سفر • اما الصحف فلم تنشر شيئاً الا نبذة وجيزة تشير الى هذا المجهول احمد امين • وقد تعب حسن مفتاح من تفسير ذلك فهو لم يترك في بنسيون رويال اسماً صحيحاً أو اسماً زائفاً • واخيراً هز كتفيه وقالت نفسه : لعل الساكن السابق له قد ترك وراءه ظرفاً فارغاً وقع في يد النيابة • كل هذا عرفه حسن مفتاح بعد ان عاد الى اللجنة المركزية ، وعرف أكثر منه .

ففي المساء الاول خرج حسن مفتاح من داره كأنه فأر يخرج من جحره بعد

طول اختفاء او سجين يفرج عنه بعد عزلة مديدة . فكان اول ما أحس به تجدد احساساته القديمة . واتسعت عيناه تلتهمان كل شيء برغم البلاكاوت . وأحس بطراوة المساء فاستخفه الطرب . وسعى الى « نادي البعث » فوجده لا يزال موصداً ومختوماً بالشمع الأحمر . وفيما هو نازل رأى عم عبدون يكنس ما مات تحت السلم ، فصافحه وسأله فعلم منه ان البوليس قد زار النادي مرة أخرى منذ ثلاثة اسابيع زيارة قصيرة ، وقبض على سي نعيم وصادر ما في المكتبة من مطبوعات ، فتمتم لنفسه : طبعاً ، طبعاً . ومن اين له ان يعرف شيئاً مما حدث؟ ان رقابة النشر تحرم على الصحف اذاعة اي نبأ يخرج عن انتصارات الانجليز وعن انتصارات الوزراء . فمشى الى قهوة ايزافتش ليقراً الأخبار الحية في وجوة الاحياء ، فرأى الزبائن قد لزمو كراسيهم التي لزموها منذ سنوات . ورأى المحامي الشاب انور وجدي الذي أفلسه الشعر يأكل مهليته ورأى محمود ابو سعلى المهندس الشاب الذي أجبه الغرام يشرب قهوته العشرين ، ورأى الصحفي الشاب عصمت يلتهم عيش السراي التهاماً وبقراً صحف المساء . ولم يكن بينه وبينهم معرفة مباشرة فاموا اليهم في أدب ، ورأى الجاسوس الخالد يجلس وراء صحيفته الخالدة التي لا يقرأ فيها حرفاً واحداً ، رآه على حاله لا جديد فيه الا مونوكول مضحك . ثم انطلق الى ركنه حيث كانت ثلاثة من اعضاء نادي البعث ليس فيهم واحد من اعضاء اللجنة المركزية .

وعلم منهم أن ادارة الأمن العام قد اغلقت « جماعة التطور » و « جماعة الأحرار » و « الاتحاد الديمقراطي » كما اغلقت صحيفة « المساء » ، فعلم حسن مفتاح ان كل ما بقي من البناء الضخم هو الصحيفة السرية « الشرارة » وخشي أن يكون قد أصابها مكروه كذلك . كذلك عرف حسن مفتاح أن الربيع فصل الأخصاب قد جدد في اصفياه الحب والحياة : فعنايات ممدوح قد تزوجت من الجاسوس الجميل احمد عزمي ، وبطرس قلادة قد اعتنق الاسلام ووقف أمام المآذون مع سعدية الطويل . وعلم ان اللجنة المركزية لا بد وأن تكون في نوم مؤقت . وفيما هو يسمع الى انباء القاهرة أبصر علي عبدالله يدخل ايزافتش ويقف

ببابها متردداً . وتقابلت انظار حسن مفتاح وانظار علي عبد الله ، وابتسم علي عبد الله ، وهم بأن يتقدم لتحية حسن مفتاح . ولكن حسن مفتاح تملكه فزع عظيم واضطرب قلبه ايما اضطراب ، حتى لقد نفخ وجهه ماء . ولم يدر كيف السبيل لرده . انه يخشى اقتراب هذا الرجل . وقد خشي حسن مفتاح ان ينصرف عنه ببصره فيحسب علي عبد الله أن حسن مفتاح لم يتبينه جيداً ، وبذلك يتقدم علي عبد الله من حسن مفتاح ليصافحه . فشخص حسن مفتاح ببصره لعل علي عبد الله ما يقرب من نصف دقيقة وعبس لمقدمه عبوساً شديداً حتى اضطربت خطوات علي عبد الله ، وأبطأت وقصرت فوقف في منتصف الطريق ولم يدر كيف يتراجع دون حرج فقد اتضح له أن حسن مفتاح لا يرغب في استقباله . ولكنه انصرف آخر الأمر الى مائدة بعيدة ، وأخذ مكانه منها حيث لا يرى حسن مفتاح ولا يراه حسن مفتاح ، وانتهى الاشكال ، ولكن الجماعة لاحظت هذا الجو المكهرب . وعجبت لاضطراب حسن مفتاح . وقال احدهم : « من يكون هذا الرجل ؟ » فاجاب حسن مفتاح بانزعاج « لست أعرفه » . وضاع انزعاجه الجديد بانزعاجه الأول . وسأل آخر : « اتشكو شيئاً ؟ » فاجاب حسن مفتاح : « نعم ، اصابتني نوبة ، ولكنها انتهت الآن » ثم ضحك وقال : « لقد خرجت من القاهرة لأجدد اعصابي ، ولكن يبدو اني لم استرح بما فيه الكفاية . تعال يا كيريانتي ، وخف اليه الخادم فأمره بأن يعود اليه بقهوة جديدة . وانتهى الموضوع . ولكن حسن مفتاح كان لا يزال يفكر فيما حدث . لو كان يعلم ان الرجل هو علي عبد الله لا سواه لما تردد في استقباله . ولكن من اين له ان يعلم ؟ اليس جائزاً ان أفؤاد منقريوس قد عاد الى الحياة ؟ انه ترك علي عبد الله في الامريكين معلقاً بين الحياة والموت ، حياته بيده وموته بيده . ترى هل حدث خطأ ؟ ان حسن مفتاح كان يستبعد ذلك . ولكنه كان يعلم ان كيد الارواح عظيم . وكيف يعرف حسن مفتاح حقيقة هذا الرجل ؟ كلا . ان حسن مفتاح لا يريد ان يعرف حقيقة هذا الرجل . ان الأمر لم يعد يعنيه . فليكن هذا الرجل علي عبد الله أفؤاد منقريوس او اي انسان آخر ،

فالأمر لا يعنيه ، لسوف يقابله في الشوارع بين حين وآخر فينتقل في كل مرة إلى الرصيف المقابل . فان حيثاه لم يرد عليه التحية ، وان تقدم اليه ازورث عنه . فهذا الرجل قطعة من ماضيه المنظوي الحزين ، وهو يكره ان يعود ماضيه الى الحياة .

وفيا هو جالس يشرب قهوته ويسوي لحيته الصغيرة الناعمة السوداء ، وقف الجيار بباب ايزافتش وأجال في الجالسين بصره . فلما تبين حسن مفتاح في صورته الجديدة خف اليه وعانقه عناقاً طويلاً وعاتبه على ندرة خطباته وداعبه متفكها بلحيته ، ثم انصرفا الى الشوارع يتنزهان ، وما كانت بغيتها النزهة وانما كانا يبحثان عن خلوة يتحدثان فيها . واستقرا اخيراً بباب جروبي الحديقة . ورأى حسن مفتاح الجاسوس الخالد يشرب الغازوزة على البسار ، ويحدث الشاربين في السياسة فامتعض ايما امتعاض . انه لا يدخل قهوة الا وجد فيها القلم السياسي مثلاً خير تمثيل . ولكنه كان يعرف اكثر الجواسيس ، وقد وجد في هذا بعض العزاء . وفي بار جروبي اخذا يتبادلان الذكريات حول البراندي والجوزيفين بيكر . وقص حسن مفتاح على الجيار موجزاً عن رحلته اكثره مزيف . ثم سكنت ونظر الى الجيار مبتسماً فادرك الجيار ان حسن مفتاح ينتظر تقريراً شفوياً عن اللجنة المركزية اثناء غيبته ، فقال :

— اين تحب أن ابدأ ؟ طبعاً بلغك أن نعيماً في السجن منذ أسابيع .

— في السجن ام في المعتقل ؟

— في المعتقل .

— هل هناك قضية ؟

— نعم ، والتحقيق قد بدأ فعلاً .

— نعم بلغني . ولكن ما التهمة هذه المرة ؟

وشرد الجيار قليلاً ، واذا بالريس احمد البارمان النوبي يتقدم من حسن مفتاح ويشد على يده ويعبر عن اشواقه بفرنسية فصيحة ، جعلت الجيار يحملق في وجهه الاسود عاجباً . ثم ينحني وينصرف الى عمله . وادرك حسن مفتاح ما كان يحول بذهن الجيار فقال ضاحكاً :

- ان الريس احمد يتقن خمس لغات الى جانب لغته الأصلية .

- ومن اين له كل هذا ؟

- السفر يا عزيزي ، السفر . في العشرين بارمان « الاوزونيا » . في الثلاثين بارمان الاوتيل دي لوفر . في الأربعين بارمان الادلفي بليفربول . في الخمسين بارمان جروبي مع مغامرات متقطعة في الانتردن ليندن وبارات اثينا ؛ وزوجة من مونمارتر .

- لا بد انه واسع الاختبار .

- هذا طبيعي ، ولكن العجيب انه يعرف عن السياسة اكثر مما يعرفه وزير الخارجية . ان عبقرية القاهرة في بارماناتها وخدمها . فطنطاوي بارمان الاتحاد المصري الانجليزي ديمقراطي من الدرجة الأولى والميتردوتيل الريس حسين وطني من الدرجة الاولى ، وريشار خادام لوك خبير بشؤون السباق يستفتيه الباشوات ، ومخالي خدام الريتس كان يقرض الشعر باليونانية . ولعل السر في طبيعة عملهم . فاحساسك كل ليلة انك الوحيد المالك لحواسه بين جماعة الشاربين يولد فيك الثقة بالنفس .

- وهل حاولت استخدام عم احمد .

- نعم ، منذ ستة أشهر جسست نبضه بمنتهى الحذر ففهم مرادي ، وبدأ عليه الأسف الشديد وقال اني جئت متأخراً فهو في سن المعاش . ثم اما رأيت اسنانه الذهبية ؟ ان بقشيشاته الضخمة قد تحولت جميعها الى اراض في أسوان ، وعمما قريب سوف يزرع فيها الكرمب مع زوجته الباريسية على طريقة الفرنسيين . ولكن فلنعد الى نعم . ماذا كان من أمره ؟

- اتذكر يوم تنحى نعيم عن عضوية اللجنة المركزية ؟ انه رفض ان يبدي الأسباب . وقد عجبنا جميعاً لتنحيه ، فقد كنا نعلم انه لو شاء لبقى بفضل مظاهرتك له . ولقد عودنا الاعتماد بالنفس بل وفظاظة المعاملة احياناً ، فلما لم نجد تفسيراً لانسحابه الاختياري ، ذهب بعضنا الى ان في الأمر سرّاً لا علم لنا به وذهب آخرون الى ان نعيماً قد تملكته اريحية مفاجئة ، كما يحدث احياناً أن يقدم رجل لا ينتظر منه الخير على انكار الذات لغير ما سبب الا الرغبة الخالصة في الخدمة العامة . ولكن الايام اثبتت ان نعيماً قد تنحى لأنه كان يمر في عاصفة نفسية هزت جهازه الماركسي هزاً عنيفاً ، وردنه الى ما كان عليه قبل أن تروضه انت بطول التهذيب . فقد تقدم الى « نادي البعث » بمحاضرة موضوعها « التفسير الفرويدى للمجتمع المصري » ، وحسبنا جميعاً انه سيربط ما بين حياة المجتمع الجنسية وحياته الاقتصادية على طريقتنا فلم نتدخل . فلما كانت الليلة المحددة غص النادي بالحاضرين . وارتقى نعيم المنصة فبدأ في اجمال حلة ، وكان في عينيه بريق غريب لا أعرف كيف اصفه لك ، ولكن نظراته كانت نظرات من يوشك أن يعترف أو ان يدلي بسر خطير . ثم بدأ فقال بتواضع لم نتعوده فيه ان ما سيقوله الليلة كشف جديد لو قبله علماء النفس لقلب فهمنا للتاريخ رأساً عقب . قال: نحن تعودنا ان نسمع المثاليين يصورون التاريخ تصويرهم لصراعات فردية يقوم بها أبطال فرادى فيغيروا عقائد الناس وسلوكهم وأنظمتهم ، وتعودنا ان نسمع الماديين يصورون التاريخ تصويرهم لصراعات طبقية تولدها ظروف مادية تتغير فتغير عقائد الناس وسلوكهم وأنظمتهم ، ولكننا لم نسمع بعد عن التغير التاريخي انه نتيجة لصراعات جنسية داخل المجتمع الواحد . وهذه الصراعات الجنسية لا تكون بين الفرد والفرد ولا بين الطبقة والطبقة ولكنها تكون بين الجيل والجيل . فالثابت المحقق ان الانسانية اجيال واجيال ، والثابت المحقق ان الانسانية آباء وابناء . وما من شك في ان للأفراد دورهم في التاريخ ولكن الفرد جزء من المجتمع

فهو اتفه من ان يصنع التاريخ . وما من شك في أن للطبقات دورها في التاريخ ولكن الطبقة جزء من المجتمع فهي أضعف من أن تصنع التاريخ . والجزئي لا ينبغي أن يعمينا عن رؤية الكلي . والكلي هو المجتمع في مجموعته والمجتمع انساني قبل أن يكون فردياً أو طبقياً . فلنجرب إذن أن ننظر الى المجتمع نظرة انسانية . فإن فعلنا وجدنا أن أقوى دافع في المجتمع هو الاخصاب . والاخصاب هو عمل اجتماعي قبل أن يكون عملاً فردياً ، وهو عمل اجتماعي لأنه يديم للمجتمع الحياة برغم فناء الأفراد . فبالاخصاب نعود الى الينابيع الأولى في النفس الانسانية ، ونتخلص مؤقتاً من جزئيات الحياة . والاخصاب أول عمل اجتماعي لأن بقاء المجتمع أهم من بقاء الفرد ، والاخصاب أقوى دافع اجتماعي لأن الوجود اجتماعي قبل أن يكون فردياً ، بل لأن الوجود اجتماعي بطبيعته ، وأما الوجود الفردي فمرحلة متأخرة . فالقطرة لا وجود لها في الطبيعة وإنما الموجود البحر ، والرملة لا وجود لها في الطبيعة وإنما الموجود الصحراء ، والشجرة لا وجود لها في الطبيعة وإنما الموجود الغابة ، والنملة لا وجود لها في الطبيعة وإنما الموجود النمل ، ومحمد وعلي وزيد لا وجود لهم وإنما الموجود المجتمع . والانفصال المشاهد في الاجسام عضوية وغير عضوية مرحلة متأخرة للوجود ، والحياة الاجتماعية بكل معنى أسبق من الحياة الفردية . فالاخصاب وهو أداة البقاء الاجتماعي أقوى عامل في الحياة . بل ان الاخصاب هو نقطة التضاد بين الحياة الفردية والحياة الاجتماعية . والكائن إذ يخلص بقوة اجتماعية لا تقهر يسمونها الغريزة النوعية إنما ينفي ذاته ويكتب على نفسه الموت . فما تعريف الاخصاب ؟ الاخصاب خروج جيل من جيل لا أكثر ولا أقل . والحياة لا تتسع الا لجيل واحد ، فالجيل الاب اذ ينسل الجيل الابن إنما يعطيه مكانه في الحياة . والجيل الاب اذ ينسل الجيل الابن إنما يحفر قبره بيده . . ولقد يستمر في الحياة ، ولكن استمراره في الحياة محض خطأ زماني لم تتداركه الطبيعة الا في حالة العقارب التي تموت بعد أن تنسل مباشرة . فالجيل الاب اذ ينسل

الجيل الابن انما يفعل ذلك على كره منه وبقسر من نوااميس الطبيعة التي تقدم الوجود الاجتماعي على الوجود الفردي . والجيل الاب يبعض الجيل الابن بغضه للموت ، بغضاً غريزياً أسود كاللوت ، لأنه يعلم أن الاخصاب عمل انتحاري ، ولأنه يعلم ان الحياة الاجتماعية لن تتم الا على حساب حياته الفردية . وفي أبسط صورة للحياة الاجتماعية: الاب والام والابن ، يتجلى هذا الصراع في تنافس الاب والابن على حب الأم ، والاب قوي يملك كل شيء والابن ناشئ لا يملك شيئاً . لذلك يلتصر الاب على الابن في هذه المعركة الكبرى . وفي المجتمعات البربرية يكمل الأب انتصاره على الابن باخصائه ، حتى ينفرد الأب بحب الأم وفي المجتمعات المتحضرة يكتفي الاب بختان الابن من باب الرمز لما يجب أن يفعله من شل قوة الاخصاب فيه . وينمو في الابن جزع باطني من الاخضاء قد يلزمه حياته ويسبب له عقدة نفسية هي عقدة الاخضاء . كل هذا مقرر في فرويد وثابت والذي ينبغي ان نفهمه الآن هو أن الصراع بين الجيل الاب والجيل الابن لا يفسر حياة الاسرة وحدها ، وانما يفسر حياة المجتمع كله . فالجيل الاب يغار من الجيل الابن ويحقد عليه ويكيد له ويعمل على اخصائه . وطريقته في ذلك الاخضاء هي ان يشل فيه كل قوة خالقه ، فهو يفرض عليه نظاماً من حديد يسمونه التربية ، وهو يعكف عليه حتى يسويه على غرارهِ باسم التقاليد ، وهو يقمع فيه كل ميل الى الاستقلال في التفكير ، أو في السلوك باسم التراث العظيم ، ان بالزجر وان بالعصا وان بالتعاليم والتقاليد الغيبية . وهكذا يخصي الآباء البنين حتى يموت البنون وتقف الحياة عند الآباء ، فلا يبقى فيها الا سلطاتهم وآثارهم . ولو استطاع الآباء ان يخلدوا اجسادهم كذلك لفعلوا . فالتاريخ اذن هو قصة الصراع بين الجيل القديم والجيل الجديد ، وأمتنا الأرض وما عليها من وسائل الانتاج هي العذراء الأبدية التي يتنافس في حبها الآباء والبنون ، ويضطهد فيها الآباء البنين ويخصي من اجلها الآباء البنين . والتفسير الانساني للتاريخ هو انه سلسلة من الكفاح الجيلي لا سلسلة من الكفاح الطبقي كما يقول الماركسيون . وحيثما تحرك التاريخ فالكفاح بين الجيل الاب والجيل الابن لا يزال دائراً ، والابناء لا يزالون

صامدين أمام الآباء ، والاختصاص لم يتم ، والتقدم هو النتيجة ، لأن كل جيل يولد يحتفظ بقوته على الخلق ، ويحدد بقوته الحياة رغم أنف السلف . وحيثما وقف التاريخ فالكفاح بين الجيل الاب والجيل الابن قد وقفت رحاه ، والابناء قد استسلموا للآباء فتم الاختصاص وعقمت الاجيال فامتنع التقدم . ووضح مثل لهذه الحالة المجتمعات المتحجرة في الصين وفي الهند وفي مصر حيث نجد ان احداث شيء فيها عمره أربعة آلاف سنة ، حيث البشرية محنطة والحضارات متاحف . والمجتمع المصري بالذات لا تاريخ له منذ مينا . فمينا ليس مبدأ التاريخ المصري كما يقول المؤرخون ولكنه نهاية ذلك التاريخ . فكل ما له مغزى في الحياة المصرية تم قبل مينا : الحيوان روض قبل مينا . الزراعة نشرت قبل مينا . الادوات اخترعت قبل مينا . الكتابة عرفت قبل مينا . الآلهة اكتشفت قبل مينا . وما كان شيء من ذلك ليتم لولا عجز الآباء عن اختصاص الابناء ، لولا احتفاظ كل جيل بقوة الخلق فيه . وبعد مينا لم يتم شيء له مغزى ، واشتغل المصريون بتخليد انفسهم فحفظوا اجسادهم ، وبنوا القبور التي تتحدى الدهر . بنوا الاهرام . وبعد أن كان المصريون اجيالاً قوية خلاقة تتعاقب فتجدد الحياة وتصنع التاريخ ، صاروا إلى جيل واحد متكرر ، تكرر من مينا الى فاروق . فقد حدث شيء لم ترويه أوراق البردي . لقد اخصى الآباء الابناء فوقفت عجلة التاريخ وخرج المصريون من ثبت الاحياء وبلغتنا عبر القرون اشاعات مشوهة محرفة عما قد حدث في الوادي السعيد ، فقالوا لنا ان الآلهة ست تقتل بالآله اوزيريس دون سبب معلوم واختصاص والقى يجهازه في النيل أو دفنه في بطن الوادي . ولم يقولوا لنا ان ست هذا كان اسماً من اسماء تحت كبير الآلهة وابو الآلهة وانه الأساس في فكرة الشيطان لفظاً ومعنى . ولم يقولوا لنا ان ست انما قتل اوزيريس في حب امنا ايزيس . فالحرب اذن لم تكن بين الخير والشر ولا بين الصحراء والخصب كما زعم بلوتارك وانما كانت الحرب بين الاب والابن وفي رواية أخرى بين الاخ الاكبر والاخ الاصغر ، من أجل الام المذراء التي تتجدد

بكارتها لكل زوج جديد . وتشبه البشر بالآلهة ففعلوا ما فعلوا ، وأخصى الآباء
الابناء وعقّم السلف فحقت ينابيع الحياة . أما المظهر الجزئي لهذا
الاخصاء فكلنا نعرفه . فما بيننا واحد لم يكده أبوه فيسحق شخصيته سحقاً
منذ اليوم الاول ، يوم خرجت القابلة تعدو متلهة لتعلن للأب الجبار المتعطش
للدماء أن المولود ذكر ، وعندئذ يفرح الأب الجبار المتعطش للدماء لأن الحياة
قد تجددت وزينت بمقدم الابن ، بل يفرح لأنه سيجد من يخصي وقد أخصاه
أبوه من قبل . ثم يجمع الأب الأهل والأحباب في حفل بهيج يسميه حفل الختان ،
وبعد أن يقدم لهم المربطات يقدم لهم حشفة الابن رمز الاخصاء وعربون
الانتصار . وعندئذ تصدح الموسيقى ويتقبل الأب تهنئي المهنئين . كل ذلك يفعله
الأب بالابن في طفولته وهو يعد اعزل لا يملك من نفسه دفاعاً . الأب يلقي
الابن كل معتقده الاساسية وهو بعد طفل اعزل وكلما سأل الابن الأب :
« لماذا ؟ » نهر الأب الابن وزجره عقلاً وجسماً . كل هذا يفعله الأب في طفولته
وهو بعد أعزل لا يملك من نفسه دفاعاً . فالأب لا يترث حتى يرفع الابن رأسه
ويقوى جناحه ويشدد ساعده ثم يعرض عليه ما يريد أن يعرض من آراء ، والأب
لا يترث لأن الأب جبان بوصفه أب ، بلغ قمة عنفوانه حين أخصب ثم انحدر
في طريقه الى الزول ، والأب لا يترث لأن الأب جبان يخشى الفتوة الجديدة
من عقل وجسد ويعجز عن المجابهة فيطعن من الخلف . انا الألف ، انا الياء ،
انا البداية انا النهاية ، انا الحياة ولا حياة الا انا . هكذا يجري منطق الأب ،
فاذا كان للابن ان يعيش فليكن نسخة مني في كل شيء . لمح لي دينه . ديني
ديني . ماله مالي . وهو ما وجد الا ليخلدني فان أبى استحق الاخصاء بل
والموت اذا لزم الأمر . والأب ينسى أن نصيبه في الحياة الجديدة لا يتجاوز
ذرة ميكروسكوبية ولا فضل له في البناء الجديد الا بقدر ما لعجول الوادي
ونبتة من فضل . أما المظهر الكلي لهذا الاخصاء فهو ما نراه في المجتمع المصري
من تحجر في كل مرافق الحياة المادية منها والفكرية على السواء . فكما تخصص

ست واوزيريس كذلك تحاصم الجيل الاب والجيل الابن في حب خيمي العذراء ، أرضنا السمراء التي تتجدد بكارتها لكل زوج جديد . واخصى الآباء الابناء . والوضع السياسي كما نجده اليوم أساسه أن الملك يخصي الوزراء والوزراء يخصصون أعضاء البرلمان وأعضاء البرلمان يخصصون الشعب بدورهم . والذي ينبغي أن ندعو اليه هو عكس هذا النظام ، أن يخصصي الشعب أعضاء البرلمان وأن يخصصي أعضاء البرلمان الوزراء وأن يخصصي الوزراء الملك بدورهم . نعم ، هذا ما ينبغي أن ندعو اليه ، وهو أحدث تعريف للديمقراطية وأضمن طريق لتحقيقها ، فيه وحده تعود الى الأمة سلطاتها . والاختصاص لا مفر منه ، فليعلم كل مواطن أنه إما خاص أو نخصي . بلغة الواقع . مفكرونا كانوا كلهم مجددين وكلهم كرهوا الرجعية فلما تم اختصاصهم سكت كرامهم ومجد الرجعية لثامهم . وهكذا تمت خيانة الكتبة التي يحدثنا عنها جوليلين بندا . وهكذا انتحر الفوج الاول ، فوج الديمقراطيين الذين اظهرتهم الحرب العالمية الاولى . وقد جاء الفوج الثاني ، فوج الاشتراكيين الذين اظهرتهم الحرب العالمية الثانية . واخصاء هذا الفوج يجري بمنتهى الحزم والدقة ، يجري على قدم وساق . وهم الآن بين مسجون ومفصول من عمله . ترى كم من الزمن يصمدون ؟ لقد خان منهم واحد هو كمال القيرواني وهم بعد في فجر الجهاد فباع فنه في سوق السيخا السوداء ، وانسلخ تماماً من زمرة المكافحين . لقد خان آخر هو أحسن القلعاوي وهو بعد في فجر الجهاد فرحل عن الديار واغلق ماركس وفتح سارتر وتسكع بين كافييه فلور وكاباريه التابو . فكم يدوم ايمان الماركسيين ؟ فلتكن الدعوة اذن : لا اخصاء بعد اليوم . العقم للجيل القديم . الحياة للجيل الجديد . وليثر الجيل الابن على الجيل الاب وليثر العبيد على النخاسين ؛ وليخص اوزيريس ست ويظفر دونه بخيمي السمراء ، بالأُم العذراء التي تتجدد بكارتها لكل زوج جديد ، وليرث مصر الشباب . فان لم يبادر الابناء الى اخصاء الآباء اخصى الآباء الابناء وعاش السلف دون الخلف ، وامتنع الخلق وعزت الحركة ، ولم يحدث في الوادي،

جديد ، وظلت مصر كما كانت منذ ميّتا بمغزل عن التاريخ . هذا جملة ما قاله
نعيم . كذلك قال كلاماً آخر كثيراً يبشر فيه بحقوق الانسان ولكن على النهج
الجنسي الجديد ، وكان الناس يستمعون اليه في ذهول وقد حدث هرج كبير .

قال حسن مفتاح :

— وكيف بدأ الهرج ؟

— نهض احمد عزمي وقاطعه .

— احمد عزمي ؟

— نعم احمد عزمي .

— طبعي . استمر .

— قال ان نعيماً يهذي ، وإن الماركسية لا تقر من كلامه شيئاً .

— احمد عزمي يتحدث عن الماركسية ؟

— نعم ، وقد بدأ الهرج بذلك كأنما كان هناك تنظيم سابق . ولولا أن
عنايات ممدوح حسمت النزاع لما أتم نعيم حديثه . وكان رجال البوليس السياسي
متفرقين في انحاء القاعة كأنهم شبكة تبحث عن صيد كثير . وأفسدت عنايات
عليهم الخطة . ومضى نعيم في حديثه حتى أتمه . ثم وقفت عنايات ممدوح
وأعلنت أن آراء نعيم لا تقيد الجماعة في شيء ، وإن نعيماً يبلبل الأذهان اذ يدعو
الى لون جديد من الكفاح البروليتاري . وشاء كثيرون أن يعلقوا ولكنها
أقفلت باب المناقشة وأعلنت انتهاء الاجتماع . وفي تلك اللحظة ظهر الصاغ
ممدوح الشرييني بالباب وجمع كل ما وجد من أوراق ، ثم اقتاد نعيماً إلى سجن
المحافظة ، وترك وكيلاً من وكلاء النيابة وضابطاً آخر يجمعان المطبوعات من
المكتبة ويختارن الشمع الأحمر على باب النادي .

وضحك حسن مفتاح وابتلع بعض الزيتون الأسود بحركة سريعة مضحكة،
وقال :

- ان الحكومة لم تضيع وقتاً في إخصاء نعيم .

قال الجيار ؟

- سوف يتألم نعيم كثيراً ، فهذه أول مرة يسجن فيها .

أجاب حسن مفتاح :

- نعم فهو دائم الهياج كأنه إعصار حي .

- اتعتقد انه انحرف ؟ ان اللجنة المركزية ثائرة عليه .

- جائز أنه انحرف . ولكن اللجنة تبالغ في ثورتها . ونعيم لا يزال أقرب
إلى الشيوعيين منه إلى الباشاوات .

- والان ؟ ماذا تقترح ؟

- من يتولى ارسال الطعام لنعيم في السجن ؟

- انا .

- حسناً فعلت . وهل اتفقتم مع محام .

- كلا .

- دع هذا لي . لقد جئتكم بمائة جنيه دفعة أولى من سيدة جميلة .

- كنا نفضل ان تجيئنا بالسيدة الجميلة .

- خطوة خطوة . هل طبعتم شيئاً ؟

- كلا ، فالجماعة نائمة منذ شهر أو يزيد . ولكن جماعة رامز ملأت

جدران القاهرة بالطباشير منذ عشرة ايام . «الأرض للفلاحين والمصانع للعمال» .

« يسقط الباشاوات أعداء الشعب » . يسقط الباشاوات وكلاء الاستعمار » .
وبعد ذلك بيومين القوا قبيلة على نادي محمد على ، وقبيلة أخرى على الاتحاد المصري
الانجليزي .

— وما اسم بطرس قلادة الان ؟

فالتفت اليه الجيار فجأة وبدأ عليه المعجب وقال :

— اذن فقد عرفت ؟

— نعم ، إن اخبار القاهرة كلها في ايزافتش .

— اسمه محمد راغب .

— هذا أقرب إلى الذوق .

— انا اخترته له .

— اكنت شاهده في المحكمة ؟

— نعم ، انا وصفوان . طبعاً بلغتك مسألة عنايات ممدوح .

— نعم ، وهي لا تترك لنا اختياراً . هل قررتم شيئاً في شأنها ؟

— كلا ، فقد أرجأنا ذلك حتى عودتك .

— كان ينبغي أن تفصلوها فوراً . ماذا يقول رامز والآخرين ؟ انكم

تعتمدون علي في كل شيء . انا اشكركم على هذه الثقة ولكنها لا تقوي مركزي
في اللجنة ، فسينظر الي جماعة الأحرار نظرهم الى مستبد صغير . اجمع اللجنة
بعد غد في داري بعد الثامنة مساء . واين اوراق اللجنة الان .

— معي .

— وكيف وصلتكم ؟

— في الصباح التالي لمحاضرة نعيم زارتني عنايات ممدوح وسلمت الي كل

الاراق ، وانباتني بما انتوت أن تفعله .

— انها بنت طيبة تعرف بالغريزة ما ينبغي عمله . ولكن فصلها لا بد منه .

— اقترح ان تزورها أنت وأن تستكفيها استقالة بدل الفصل .

— ربما كان هذا انصب ، فخدماتها لا تنسى .

— قال الجيار ببلاهة :

— انا ما زلت عاجزاً عن فهم السلوك الانساني . كيف تخطيء عنايات ممدوح

هذا الخطأ الفاحش ؟ كيف تقبر مبادئها وكفاحها من أجل أفاق تافه كأحمد عزمي .

— ان احمد عزمي قد يكون أفاقاً ولكنه ليس تافهاً . تجرد من اللجنة

المركزية قليلاً وانظر الى الناس نظرك إلى أفراد أحياء . إن عنايات ممدوح

بنت جميلة . وجمالها ليس بالجمال الذابل الذي يحبه المراهقون في الفترة الفرتية

بل الجمال الناضج الذي يذكر بخد التفاح . فمن حقها اذن أن تتزوج من رجل

قوي وسيم ، ومن حقها اذن أن تبحث عن هذا الرجل في كل مكان . فهل في

اللجنة المركزية واحد ترشحه الطبيعة لأن يكون زوجاً لعنايات ممدوح ؟ كلا .

انظر حولك فماذا ترى ؟ رامز يشبه مسيحاً لم يصلب بعد . صفوان يشبه

عملاقاً أشقر نحيل هزيل . انا بلحيتي القصيرة السوداء أشبه شيطاناً صغيراً خبيثاً .

انت تشبه فيلا رشيقاً خفيف الحركة . نعم ، اقربنا الى فكرة الانسان السوي

ولكنه أرعن ، ومظهره يدل على انه ليس بحاجة الى زوجة بل بحاجة الى حريم

كامل أو بيت للدعارة أو فرقة من الباليينات يرقصن له وحده . والمسألة

ليست مسألة حقوق نظرية ، فالجسم يعرف حقوق بالغريزة ، والنهد الناضج يحن

إلى الصدر العريض بلا تلقين . كلا . ان احمد عزمي ليس تافهاً . انا لا اقول انه

ابولو بلقيدير ، ولكنه على كل حال يوحى بالصحة والحياة حتى في الشتاء . لقد

تفتح الربيع في قلب عنايات ممدوح ، والربيع لا يعرف المبادئ ولا اللجنة

المركزية . الربيع يمزج المركيزات بالشوفيرات ويثني آلافاً كل عام عن الانتحار .

كلا يا عزيزي ، ان احمد عزمي ليس تافهاً . ان البقرة لا تشتري في الثور ان يتذوق سوناتات بيتهوفن ، أو ان يقرأ كتاباً جديداً كل اسبوع . واذا كنت تحب الصراحة ، فانا كنت اعجب لعنايات ممدوح كيف تضع كل هذا الجمال بين المضابط وبين الحفاة الذين لا يستحمون ، وكيف تنسى أفراح الحياة بين مظاهر الشر والدمامة في المجتمع . انا اقول إن وجود عنايات ممدوح بيننا ولوالى حين لدليل على أن البشرية في تقدم ، على أن الاشتغال بالحياة العامة ليس الضريبة الأبدية على من أفلس حياتهم الخاصة دون سواهم . والخطأ الوحيد الذي أخطأته في نظري انها لم تستطع التوفيق بين حياتها العامة وحياتها الخاصة .

قال الجيار :

- وكيف توفق بينهما ؟

- ان الأمر يحتاج الى شجاعة . فقد كان في امكانها أن تخالل احمد عزمي ، بل وأن تحمل منه سفاهاً اذا كانت تصر على حقها في الأمومة ، دون أن تضطر إلى التنحي عن اللجنة المركزية . إن الممثلات والمغنيات والراقصات وهن يعشن داخل القوالب الفكرية التقليدية قد اهتمدين إلى هذا الحل بالتجربة ، ليجمعن بين الحياة الخاصة والحياة العامة . ولكن الماركسيين والماركسيات في مصر قد تحرروا نظرياً ولم يتحرروا عملياً . ولعل في هذا بعض الكسب لنا كجماعة ودعوة ، فالمجتمع المصري مجتمع منافق لا يقل دعارة عن غيره من المجتمعات ، ولكنه رغم ذلك لا يزال شديد التزم قاسياً في احكامه على من تفتضح دعارتهم للعيان ، ولقد يأخذنا الناس بجريرة الزملاء المتحررين .

ثم سكت حسن مفتاح وقبل أن يفتح الجيار فمه للكلام كان يقول مبتسماً :

- والآن استأذن منك لأرعى حياتي الخاصة قبل ان تتراكم من حولنا الأعمال .

وسلم حسن مفتاح ما معه من الاوراق الى الجيار ليحملها الى صفوان ، وانطلق الى فندق المتروبوليتان مفكراً في المفاوضات التي سيقوم بها لدى حزب الوفد للتعاون السياسي بين الشيوعيين والوفديين . ان العاصفة المقبلة سوف تكون في اللجنة المركزية . ان اعضاء اللجنة المركزية أكثرهم نظريون لا يعرفون عن التكتيك الحزبي كثيراً . سوف يعرض عليهم مبدأ التعاون مع حزب الوفد لاسقاط وزارة أحمد ماهر باشا ، ولكنهم سيحتجون قائلين ان نقاء الحزب الشيوعي أضمن سبيل الى بقائه ونموه . ولكن الحرب قد أوشكت ان تنتهي . واذا كان الحزب الشيوعي ان يخرج الى سطح الأرض بعد الهدنة فلا بد من العمل السريع في أوسع نطاق ممكن . ان في حزب الوفد شباباً كثيرين يعدون بعشرات الآلاف أكثرهم متعلم وأكثرهم ساخط على الوضع الاقتصادي في البلاد ، وهم يتحدثون الآن عن أنواع من الاشتراكية لا يفهمونها ولا يفهمها أحد . وهم يتحدثون عن العدالة الاجتماعية ، عن الضرائب التصاعدية عن تحديد الملكية الفردية ، عن صيانة الحريات العامة ، عن استفتاء الشعب ، عن تقييد الملكية . كل هؤلاء تمكن الاستفادة منهم اذا تغلغل الشيوعيون بين صفوفهم وعلموهم فوائض القيمة والمادية التاريخية والمادية الجدلية في حدود الامكان . ان حزب الوفد الآن خارج الحكم وقد تورطت قيادته في نداءات شعبية وحديث عن حقوق الانسان الغرض منه احراج الوزارات القائمة واحراج الاقليات السياسية الرجعية ، لا لشيء الا لأن قيادة حزب الوفد خارج الحكم . ولكن هذه النداءات كان لها أعمق صدى في قلوب الملايين ، لأنها عبرت عن رغبات كامنة في نفوس الملايين . ان حزب الوفد مرن القيادة شعبي السند ، وقيادته تتورط في برنامج به اشتراكية مزيفة اذا لزم الأمر لتؤلب على الرجعية الجماهير وتعود الى الحكم . أما طليعة حزب الوفد فانحرفوا الى اليسار لا شك فيه ، وانما ينقصها الوعي السياسي ، وهي الآن في قبضة الوصوليين من ابناء المدرسة القديمة ، فلماذا لا يجرب الشيوعيون حظهم مع هذه الطليعة ؟ ان حزب الوفد أقرب الأحزاب الى فكرة الديمقراطية فالتعاون معه لا يشين . ان صفوف الشيوعيين

متماسكة فلا خوف من ان يفسدها التعاون المؤقت ، حتى تقضح الأيام زيف
 القيادة الوفدية ، فتسلخ من حزب الوفد الجماهير ولا تجد لها قبلة الا الشيوعيين .
 ان تعاون الشيوعيين مع الوفدين سوف يعطي الشيوعيين فرصة لعرض آرائهم على
 الوفديين . فان لم يخرج الشيوعيون بكسب من هذا التعاون فهم لن يخسروا
 شيئاً ، واسوف يخرجون من هذا التعاون كما دخلوا سالمين . كل هذا سيقوله بعد
 غد للجنة المركزية ، فان أمكنه اقناع الزملاء فقد دمع انتصاره الأول بانتصار
 جديد . التعاون من بعيد . هذا هو النداء الجديد . ان رامز أو رجاله المتطرفين
 سوف يعرقلون هذا التعاون . ولكن حسن مفتاح سيلعب أول لعبة مسرحية
 منذ اشتغاله بالسياسة ، اذ لا بد من ارضاء المتطرفين . فلو ارفض اجتماع اللجنة
 المركزية دون قرار حاسم ، فسوف يدعوا حسن مفتاح الى اجتماع عام يحشد فيه
 المثبات من كل الصفوف ، وحين يكثّر اللجاج سوف يقف حسن مفتاح ويقول :
 أيها الزملاء ، ان الخطر الأوحده من السياسة التي اقترحها هو ان يكون الحزب
 الشيوعي تحت قيادة متهادنة . فاذا كنتم تشكون في صلابة قيادتكم وفي عمق
 ايمانها بالماركسية ، فاني اتخلى منذ اللحظة عن السكرتارية للزميل رامز حتى
 يشرف بشخصه على التطبيقات العملية ، ويضمن للحزب الشيوعي نقاءه وتماسكه .
 ليس منا من لا يثق في الزميل رامز ويؤمن برجاسة عقله واقدامه . فليقدنا
 الزميل رامز الى مصيرنا العظيم . أما ان نعرقل نمو الحزب تخوفاً من اشباح لا
 وجود لها فهذا قد يكون نزاهة واخلاصاً ولكنه كذلك جمود وانكماش . ان
 الفرصة لا تعرض أيها الزملاء . فحزب الأقلية خارج الحكم ، واذا لم نستفد من
 سخط كتلة الشعبية فأين فرص النماء ؟ ان البروليتاريا التي كرستم حياتكم لخدمتها
 في صميمها وفدية أو تنتظر حتى يعود حزب الوفد الى الحكم فيخدر جموع
 الشعب بالفتات ويلهي الجماهير بالبهوانيات ويسكت الشيوعيين لا بقوة الجند
 وحدها ولكن بقوة الرأي العام كذلك ؟ انكم أيها الزملاء امناء على حركة
 تاريخية كبرى ، وجماعة ترجو ان تضطلع يوماً باعباء الحكم لا ينبغي ان تبدي
 كل هذا الحمود . ان الحرب قد أوشكت ان تنتهي فاذا أعددتكم للمستقبل ؟ اني

أقسم أمامكم بالثالوث المقدس : ماركس وإنجلز ولينين ، انه ليس منا من يقل تطرفاً أو تعصباً عن الزميل رامز . فالمسألة اذن مسألة ثقة في القيادة ، وأنا أول المتخلين ، فثقتي برامز لا تحد بحدود : أأتمر بأمره على طول الطريق ، فمن رأى غير ما أرى فاني أحمله كل التبعات . وعندما يفرغ من كلامه ينتهي الصمت العميق بصمت أعمق . عندئذ تكون اللحظة الحاسمة . هي لحظة واحدة ولكنها حاسمة . ففي هذه اللحظة تتحول الأفكار . ثم يبدأ اللفظ من جديد ، ولكن الجلبة لن تعود . وسيأمرونه بالبقاء ، وسيكون رامز أول من يأمره بالبقاء . فان حدث ما لم يتوقع فلن يندم على شيء . ان ظهر بين المجتمعين من يقول : « نعم تخلص » ، فنحن لا نشق بقيادتك » فعزأوه ان يرى سياسته منفذة منتجة . وان أعرض المجتمعون عن رأيه ، ثبت في مكانه ولم يخسر شيئاً إلا أن تعود اللجنة المركزية الى حالها الأولى .

كان كل شيء واضحاً في ذهنه حين بلغ باب فندق المتروبوليتان ونفسد بين الضباط الانجليز وبغاياهم المصريات من الخادومات القدامى والعاملات الاجنبيات المستوطنات ، وبين نفر من المهندات وقفن في شارع القاضي الفاضل ينتظرن ضباطهن ليدخلن الى الدجاوت حيث يرقص الجميع على نغمات الجاز ويشاهدون فتحية سامبا شبه عارية تعرض رقصاتها الشرقية الشديدة ، الروحانية التي تتألف من هز ما تحت بطنها ومن هز عجزها . وكان موعده بداخل الدجاوت في التاسعة تماماً . وقد وجد المكان غاصاً بالبدل العسكرية والعيون الزرقاء ووجد مونا ربيع تنتظره فعلم ان ماجدة لا بد نائمة . وما ان اخذ مكانه الى جوارها حتى جاءها ضابط بريطاني يترنح سكرأ وطلب مونا ربيع للرقص فنظرت مونا ربيع الى حسن مفتاح تستنجد به ، ولكن حسن مفتاح لم يشأ ان يتدخل بل أخرج من جيبه مسدساً صغيراً وراح يعبث به . واعتذرت مونا ربيع عن الرقص ، فهم الضابط البريطاني بأن يتناول ذراعها ويقودها قسراً الى حلقة الرقص ، ولكنه لمح المسدس الصغير فتردد قليلاً ثم انصرف لحال سبيله

وهو يترنح. ودس حسن مفتاح المسدس الصغير في جيب بنطلونه الخلفي ضاحكاً، ونظر الى مونا ربيع وقرأ الارتياح في وجهها فطمأنها قائلاً :

— لا تنزعجي فالمسدس فارغ .

قالت وهي لا تزال على اضطرابها :

— اتحمله دائماً :

— فضحك ثانية واجاب :

— نعم ، بقدر الامكان ، ولكنني لا احمل رصاصاً الا نادراً .

— قد كنت أحسبك آية في الوداعة .

— بلى . انا الوداعة ذاتها .

قالت ضاحكة :

— كم مرة استخدمت هذا المسدس ؟

وأوشك ان يتجههم لما قالت ولكنه غالب نفسه وأجاب ضاحكاً :

— لم استخدمه اطلاقاً .

وبدأ ضحكه مفتعلاً ، ورأت مونا ربيع بللاً من العرق يلمع على جبينه .

وأدرك حسن مفتاح حراجة موقفه فقال :

اترقصين .

فنهضت . وأخذوا في الدوران السريع . وكان اللحن قطعة من فيبر لم تجد
الفرقة عزفها ولكنها رصيا بها اعظم الرضا . ولم يكن في الحلقة الا زوجان
آخران ، فوجدوا متسعاً للحركة الحرة ، واراد حسن مفتاح ان يبشها حبه ولكن
سرعة الفالس لم تترك له مجالاً لذلك ، فاكتفى بتقبيل شعرها خلسة كلما وصل
الى ركن من اركان الحلقة . وكان لا يجيد الدوران الى اليسرة فظل يدور في

اتجاه واحد الى اليمين ، الى اليمين ، طول الوقت . حتى انتهت القطعة وبدأت قطعة اخرى كانت من باليه يعرفه ولا يذكر له اسماً . ولم يغير حسن مفتاح من انجازه طول الوقت حتى اوشكت مونا ربيع ان تنهافت داخل ذراعه من فرط الدوار . أما هو فقد ارتفع به الدوار الى ما يشبه النشوة وسبح كل شيء حوله ، ولكن احساساً يشبه العناد اصابه فأتى الرقصة الثانية برغم كل شيء . وما ان عادا الى مائدتهما حتى كان البراندي القليل الذي شربة في أول المساء قد تبخر من رأسه . قالت ،

— اتحب الفالسات السريعة ؟

— بل اعبدها . اتحبينها انت ؟

— نعم ، احبها . حدثني . كيف حال اللجنة المركزية ؟

— انها الآن فيما يشبه النوم ، وقد عرفت اليوم ان ثلاثة من اعضائها قد تزوجوا ، بنتان ورجل . كذلك عرفت من « الاهرام » في الصباح ان عابدة علم قد تزوجت . انه الربيع يا مونا .

— هل احزنك ذلك ؟

فامسك حسن مفتاح بيداً وقال :

— كلا يا مونا ، أما شرحت لك الأمر ؟

— نعم ، ولكن عابدة علم قطعة من ماضيك .

— هذا صحيح ، وانا اتمنى لها كل سعادة في الحياة .

لان ينبغي ان ترسل لها باقة من الازهار .

— سأفعل ذلك غداً صباحاً .

— ومن زوجها ؟ اتعرفه ؟

— « الاهرام » تقول انه مدرس بالمدارس الثانوية .

— لا شك انها ستسعد معه .

— انها لا تفكر في السعادة يا مونا . انها تطلب الاستقرار . وقد جاءها

الاستقرار بشخصه ، وسيعيش معها الاستقرار نصف قرن كامل حتى تتخمد به .
سوف تعود من المدرسة فتجد الاستقرار جالسا على أكبر فوتيل في المدخل .
سوف تنهأ للنوم فتجد الاستقرار ذا الارداة الثقيلة جالسا الى مكتبه يصحح
كراسات التلاميذ . فان ارادت الخروج الى السينما تذكرت انها مستقرة ، وان
بيتها لا تحدث فيه حركة الا مساء الخميس . ان الاستقرار لا يدخن ولا يشرب
الخمر ولا يكسر روتين الحياة ولكن عابدة علم لن تفكر في الانتحار ، بل
سترضى بالاستقرار لانها ضعيفة ولأنها لا تخلو من الغباوة الخفيفة . وسوف
تكون أكبر مشاكل حياتها ان حمايتها تستمرىء اهانتها أو ان الولد « ٣٨
وشرطتين » . وبعد قليل سوف يكثر من حولها الاطفال ، فتستقيل من المدرسة
وتقطع آخر صلة بينها وبين العالم الخارجي وتستقر نهائياً ، بين جدران اربعة .
وكما ثارت على الاستقرار ضربت اطفالها أو تذكرت عزيزاً راحلاً فبكت ،
وهي لا تعرف انها تضرب اطفالها وتبكي راحليها قلقاً وتمرداً . وحين ترى
وجه زوجها عشرين عاماً متصلة سوف تزهد في الحياة وتتمنى لنفسها الموت .
ولكن الموت لن يأتي ، وانما يأتي ضغط الدم . هذا اذا كانت بها بقية من خيال ،
والا فهي صائرة الى اوتوماتون . انا لا افهم حرص البشر على الاستقرار ، فغداً
يستقرون تماماً ، يستقرون الى ما لا نهاية . لقد انقذتني المقادير يا مونا .

— الست آسفاً على ضياعها ؟

- كلا ، ان عايدة علم بنت طيبة حقاً ، ولكنها تبحث عن حامٍ ، وأنا لا أملك ان احمي قطة . وكما اني لا اصلح لها فهي لا تصلح لي ، فانا بحاجة الى بنت مثلي تؤمن بكمليات الحياة وتنسى جزئياتها ما أمكن ذلك . وعائدة علم ملتصقة بالأرض أكثر مما ينبغي . ولكن لقد تحدثنا عنها بما فيه الكفاية .

- لعلك على حق . اترأها كثيراً ؟

- مصادفات . أكثرها في الطريق . اتعرفينها شخصياً ؟

- ماذا تقول ؟ ان الموسيقى عالية تغرق كلامك .

- أقول : اتعرفينها شخصياً ؟

- كلا ، وانما أعرف عنها كثيراً لطول ما حدثتني عنها .

- انرقص الآن ؟

- كلا ، فانا بحاجة الى مارتيني .

- مالك ساهمة هذا المساء ؟ انا لست مسلماً بما فيه الكفاية . ولكن من يعرف في يوم واحد ان اربعة من اصدقائه قد تزوجوا لا يمكن ان يكون مسلماً .

ثم سكوت قليلاً واطاف :

- وفيما انتظارنا نحن يا مونا .

فتنبهت مونا ربيع الى هذا التحول الجديد في حديثه ، ولكنها لم تقل شيئاً بل ضغطت على يده وارتسم على وجهها حزن بالغ أكدته الأنوار الزرقاء المشربة بالأشعة الوردية المسلطة على الراقصين من وراء الفرقة الموسيقية . وكان حسن مفتاح يبعث هذا النور لانه يعزل الاحياء عن الحياة ويدخلهم في ملكوت خرافي من الخيال المفتعل الذي لا يتفق مع البذل الكاكية الملطخة بدماء البشر ،

البدل المنتشرة في القاعة المقبضة. كذلك كانت مونا تبغض الجو الرومانسي الذي وضع تصميمه مدير الفندق ذو الكرش الكبير والحدين الغليظين لبيتز قروش الزبائن ، وتتمنى لو ازاحت جميع الأزهار من ورق الحائط وحلت محلها عيون كثيرة زجاجية وماسية وزبرجدية وبشريعة من عيون سلفادور دالي . ولكنها كانت في شغل عن الجو بما يقوله حسن مفتاح . واعاد حسن مفتاح سؤاله قائلاً :

— وفيم انتظارنا نحن يا مونا ؟

وحملت فيه وقتاً طويلاً ولكنها لم تقل شيئاً ، وانما ادرك بفطنته ان احشائها تتمزق ، وقرأ في عينيها كلاماً كثيراً مختلطاً لا سبيل الى استيضاحه ، بعضه استفهام وبعضه حيرة وبعضه جزع وبعضه ألم . ولم يعجب لما رأى ، وانما اضطرب . ثم لام نفسه على اضطرابها وابتسم لمونا ربيع فابتسمت وقالت :

— انا أعلم انك تحبني .

— وأنت ، الست واثقة من نفسك ؟

— بل وأعلم كم تحبني .

— أنا واثق من ذلك .

— انا أعلم انك تترك اللجنة المركزية وتهجر الشيوعية لو سألتك ان تفعل ذلك .

فضحك حسن مفتاح برغمه واجاب :

— الحق اني لم افكر في ذلك قط .

— أأخطأت التقدير ؟

فسكت حسن مفتاح قليلاً وقال :

— اتصرين على جواب ؟

— نعم . أتهرب من الواقع ؟

— كلا وإنما أخجل من الحقيقة .

— اتراك بحاجة الى وقت تفكر فيه ؟

— كلا . وإنما هذه قسوة يا مونا .

— اجب بصراحة .

— اذا كان لا بد من الصراحة فانا مبليبل .

ثم اضاف حالماً :

— أرضك أرضي وبلادك بلادي .

— ثم انتفض من احلامه وقال بصوت غليظ :

— كلا . كلا . هذا مرض . هذه خيانة . مرض خبيث . الحب مرض .

ثم اكفهر وجهه واطاف بصوت صاغر لم تسمع منه مونا ربيع شيئاً
لشدة الجلبة :

— ألهذا مات سيد قنديل ؟ ألهذا مات ؟ لماذا مات سيد قنديل ؟ لماذا ؟

لماذا ؟ لماذا ؟

وعندئذ ضحكت مونا ربيع وقالت :

— ماذا بك ؟ لا تجزع يا حسن ، فلن أطلب اليك ان تكف عن نشاطك أو

ان تتخلى عن مبادئك . على العكس من ذلك . لقد كنت أفكر في ان أضع
الكرايسلر تحت تصرفكم اذا كنتم بحاجة اليها .

— نحن بحاجة الى اي شيء ولو كان دراجة ، ولكن كرمك قد تجاوز كل

الحدود ، وأنا لا أقبل هذه التضحية .

- انا لم اعد بعد بشيء ، فالأمر يحتاج الى تفكير .

- لا تفكري البتة . لو كنت منا هان الامر ، ولكنك تعطين على البعد ،
ثم اني احس بأنك تفعلين بعض ما تفعلين من أجلي .

- فلنرجىء هذا الكلام الى حينه .

- والآن وقد عرفت كم احبك ..

فرفعت مونا ربيع اصبعها الى فمها قائلة :

- اسكت . الست واثقاً من حيي لك ؟

- بلى . فقيم انتطارنا اذن ؟

وعادت الى عينيها الحيرة وعاد القلق . وكانت تحب ان تقول : « اذن
فاكتف بهذا مؤقتاً » . ولكنها أحست بأن هذا غير ما تريد أن تقول . وندمت
على انها طرحت عليه هذا السؤال . لقد جدت في الدنيا أمور كثيرة أحست
مونا ربيع أنها تحول بينهما ، أمور لم تفهمها مونا ربيع ولكنها أحست بها
احساساً باطنياً . ثم ان ذهنها الآن مهوش . ان ذهنها مهوش منذ أن قبلها حسن
مفتاح تحت النور في مدخل البنسيون . وهي تحاول ان تفهم لحيرتها سبباً فلا
تهتدي الى شيء . والى جانب الحيرة كان هناك الخوف ، الخوف البسيط الذي
لا تعرف له مصدراً . وتأملته من جديد بحزن فوجدت وجهه حزيناً ولم تجد
فيه ما يخيف ، بل لم تجد فيه ما يدعو الى الحيرة . وقال حسن مفتاح : « ماذا
بك يا مونا ؟ » فلم تسمعه . كذلك لم تسمع الموسيقى . وشربت كأسها الثالثة
من المارتيني . وعاود حسن مفتاح اضطرابه ولكنه كبت من جديد ،
وترك نفسه لرحمة التيار كما كان يفعل كلما حاصرتة قوى لا يستطيع
ردها . ودعكت مونا ربيع عينيها ثم أطرقت . وارادت ان تتحدث فلم

تعرف كيف تبدأ الحديث . قال :

- بصراحة . أنت في شك من عواطفك يا مونا :

- كلا يا حسن .

- اذن فمِ صمتك !

- ألا ترقص !

- كلا . أفضل ان أسمعك تتحدثين .

وبدا عليه انه ينتظر تفسيراً . ولم يكن بد من الكلام فتكلمت :

- انت تقول يا حسن : «ارضك ارضي وبلادك بلادني » اما انا فأقول أكثر من ذلك . أقول انك تجري مع دمي . اقول انك لو سألتني ان اترك ماجدة لفعلت . ولكنك لن تسألني ان أفعل من ذلك شيئاً . أقول ان حيي لك يدمرني تدميراً . او يرضيك هذا ، ام تطمع في أكثر منه : انا لا أدعي انك أول من احببت ، فقد احببت قبلك شاعراً ايطالياً علمني كيف تكون الحياة ربيعاً دائماً وكيف أناجي الله بالانعام . ولكن حيي لك قد تجاوز كل ذلك . فهو أسود كالموت ، لا براعم فيه ولا ألوان . وهو قوي النداء كأنه الموت فيه الراحة الأبدية . وهو يلغي وجودي الى جوارك ويدمجني فيك ، ويجعلني أمس بك سقف السماء . هذا هو حيي لك يا حسن ولو انك قلت لي ليلة المونسينير : هيا ننزول يا مونا في التو واللحظة لتبعتك الى آخر الارض . اما الآن . الآن؟ نعم ، الآن قد حدثت أحداث كثيرة . ماذا أقول : لا تسلني يا حسن عما حدث فلن أستطيع الاجابة . كذلك لا تسلني عن الزواج بعد الآن ، فهناك أمور كثيرة ينبغي تسويتها بيني وبين نفسي قبل أن أستطيع البت نهائياً . وحين أسوي كل شيء ، سوف اسعى اليك يا حبيبي قائلة : « انا الآن لك فأصنع بي ما تشاء » ، أو قائلة : « كلا ، يا حبيبي ، كلا ، فالمقادير لم تكتب لنا السعادة . وأنا لا أحب ان تعبن في شيء ، فأنت منذ اللحظة في حل من عهودك ، فافعل بقلبك

ما تشاء . فما اعدك بشيء ، وما أنتظر منك ان تعطيني بشيء . ولكن احب ان تفهم عني شيئاً واحداً : فكيفما كانت النتيجة ، فان حيي لك لن يتغير . «
 ماذا أقول ؟ ان في الوجود اموراً غريبة لا تدور بخلد احد . تعال غداً يا حبيبي .
 تعال في الصباح تعال في المساء . كن بجانبني في كل لحظة من لحظات حياتي ، فأنا
 اظلم اليك كأنك الشراب السحري الذي يرد الروح الى جسدي ويملاً عيني
 بالألوان . تعال ارقص معي يا حبيبي ، تعال قبلي حتى تهدأ نفسي وتتخيم
 بالأحلام . لا تفكر الآن يا حبيبي ، وهيا بنا نرقص قبل ان ينقضي
 المساء .

وتها حسن مفتاح للنهوض وهو أشبه بالذاهلين ، ولكنه لاحظ ان مونا
 ربيع لم تتحرك من مكانها او تبدل ما يدل على انها تنهيا للرقص . فأدرك انها في
 بحران ، تقول ما لا تعي . فثبت في مكانه ، وذهب يعض شفته السفلى عضاً
 متتالياً موجعاً . غير ان هذا لم يفد شيئاً فقد برزت اسنانه بروزاً شديداً
 كشف عن اضطرابه العميق . اما هي فلم تكن في بحران ، بل كانت تفكر
 تفكيراً واضحاً منتظماً وتستعرض كل احساساتها وعواطفها وخوابرها ، علها
 تقف على مغزى هذا الحائل الجديد الذي ارتفع بينهما منذ أيام فلم توفق الى شيء
 مفهوم . ترى كيف يفهم كلامها ؟ لا شك انها تتحدث كالمحبولة . ماذا تقول ؟
 اتقول : « انا أحبك يا حسن ، ولكن حواسي تحدثني عنك بأقوال عجاب ؟ »
 تقول : « ان صوتاً في نفسي غامضاً يهتف قائلاً ان هذا الذي تحببته ليس بشراً
 كالنفس ، ولكنه ساحر من اولئك السحرة الذين يحكمون الرياح ويغيرون
 مسالك الافلاك ، او جنى صغير خبيث ، أو شيطان من تلك الشياطين الكثيرة
 التي افلتت من عرصات جهنم ونزلت الى الارض بعد الطوفان ، واندست بين
 البشر ، او روح ملعونة خالدة ، ملعونة لانها خالدة ، تسكن بيوت اللحم
 لتنتقل بها عبر القرون ، أو روح يائس حائر كتب عليه الا يهدأ في قبر او ينام
 في تابوت ، أو جسم مسكون ، ان كان يمكن للجسام أن تسكن ؟ » . ماذا

تقول ؟ ان كل هذه الاشياء لا معنى لها خارج الخيال المحموم ، ومع ذلك فحسن مفتاح يوحى اليها بشيء من ذلك . يوحى اليها بشيء قريب من ذلك لا تستطيع تصوره ولكنها تتمثله هكذا في خواطرها لتعطيه رسماً واسماً . انها لم تفكر في هذه الصور من قبل الآن . بل لم تفكر قبل الآن في صور أصلاً ، لأن ما أحسنه عن حسن مفتاح لم يكن ليسجن في صورة . وهي تعلم ان هذه كلها من ترمات خيالها المحموم ، فحسن مفتاح امامها الآن لا يوحى بجزع او قلق او حيرة ، وهو أمامها الآن لحم ضعيف ودم مضطرب ونفس تتمزق وطرف كسير كأنه كلب حزين . انه احاطها بساعده منذ هنيهة واسند خده الى خدها وقبل شعرها وقبل اكثر من موضع في وجهها اثناء الرقص ، فلم تجد فيه ما يخيف او يقلق او يحير بل وجدت في أحضانه الشفاء . وليلة المونسنيير كذلك أحاطها بساعده واسند خده الى خدها . وقبل يدها وجيدها وشعرها وشفتيها اثناء الرقص وبعد الرقص فما وجدت فيه ما يخيف أو يقلق او يحير بل وجدت في احضانه الشفاء . وعما قليل سوف يستصحبها الى باب غرفتها بالطابق الثالث كما فعل أكثر من مرة ويقبل يدها على قارعة الدهليز الطويل ثم ينظر اليها راجياً فتأذن له بالدخول . وحين يرد الباب وراءه سوف يأخذها بين ذراعيه ويقبلها قبلة طويلة تنشر في جسدها الحذر وتملأ قلبها بأحلام الزواج ، ثم يداعبها بكلمة ضاحكة وينصرف . وهي تعلم انها تحبه حباً لا نظير له الا في خيال الشعراء وأوهام المراهقين . ولكم عنفت نفسها على هذا الاسراف العاطفي بعد ان تجاوزت زمن الصبايات . ومع ذلك فهي لن تنسى ما قد رأته في عينيه ليلة ان قبلها تحت النور رأساً في مدخل البنسيون . انها حتى هذه اللحظة لا تعرف ما هو . ولكنها تعرف ان ذلك الذي رأت كافٍ لأن يفرق بينهما الى الأبد . واجترأت مونا ربيع على التفكير قليلاً . هبه ابليساً من الأبالسة المعذبة التي اندست بين البشر ، اوهبه جسماً مسكوناً ، فماذا يمنع أن تتزوج به . إن بعض من تعرف من النساء قد يتزوجن ملاكاً ذا جناحين اذا جاءهن الملائكة خاطبين: نعم . ماذا يمنع أن تتزوج شيطانا من الشياطين اذا كانت تحبه ؟ لسوف تنسحب

من العالم وتسكن في قصر من تلك القصور المسحورة ، او في برج من الأبراج الخرافية عند بحيرة قارون ، أو قرب الاهرام بين اشباح الماضي أو تبني لنفسها كوخاً صغيراً على شاطئ البرلس ذات الملح والأعشاب وتقضي بقية حياتها الى جوار حبيبها في بنطلون من بنطلونات البلاج وحذاء من الكاوتشوك . بل ماذا يمنع ان تسكن معه في قلب القاهرة وفي المتروبوليتان بالذات ما بقي من العمر وان تستصحبه الى الحفلات وان تزهب به على سائر الناس . نعم ، انها تستطيع ان تفعل ذلك ، فهي لا تخاف شيئاً . وممّ تخاف ؟ من الناس ؟ لو ان أمره اقتضح ل اشار الناس اليها بسباباتهم كلما عبرت طريقاً او ظهرت في مجتمع قائلين : « هذه هي المرأة التي تزوجت شيطانا » . ولكن مونا ربيع لن تحفل بالناس ولا بسباباتهم فهي تعلم انهم في مخادعهم يتزوجون ما هو أشنع من الشياطين ، فكلهم وراءهم ولا يملك ان يدين . ممّ تخاف ؟ ان أقصى ما قد يحدث هو ان حسن مفتاح قد يصحو ذات صباح فاذا به قد ارتد الى معدنه الخبيث ، فتسقط عنه صورته الانسانية وتتجلى شيطانيته الشريرة الأولى . وعندئذ ؟ ماذا يحدث عندئذ ؟ ان أقصى ما قد تصل اليه شيطانيته هو ان يدب الى فراشها ديب عليل الى فراش ديدمونة ويتلو عليها بصوت رهيب قائمة من جرائم لم ترتكبها ، أو يتلو عليها بصوت رهيب سلسلة من اللعنات القديمة التي يكتبها القضاء في سجل الانام ، ثم تمتد اليها يداه وقد بكسهما شعر غزير وخرجت منها الاظافر الجارحة وتطبقان على عنقها بقوة من فولاذ حتى تحتنق ، ثم يحطم نفسه ندماً بعد ذلك اولاً يحطمها ويعود من حيث أتى ، الى مساكن الجان بين التلول أو حتى الى عرصات الجحيم . انها لا تخاف ان يفعل بها ذلك فهي لا تقيم للموت وزناً . ولكنها تخاف ، رغم ذلك ، تخاف . ممّ تخاف ؟ ممّ ؟ انه الآن يلتصق بها اثناء الرقص ويقبلها ويخلط انفاسه بأنفاسها فيسحرها برقية لا تفهمها . ولكنه سوف يطلب غداً ما هو أكثر من ذلك . فلو انه دخل غرفتها زوجاً لأغلق الباب وقبلها القبل الطويلة التي تنشر في نفسها السعادة وتملأ كينونتها بأشراق الجسد ، ولكنه لن يداعبها بكلمة ضاحكاً ثم ينصرف ، بل سيبقى . سيبقى طويلاً .

سيطفىء النور ويستبدل ملابسه ثم يدخل في فراشها . وسترى هي كل ذلك ولا تجرؤ ان تقول لا . كلا . كلا . لسوف يقشعر جلدها كأنها تلمس شيئاً ناعماً رطيباً . انها لن تحتمل ان يمس لحمها لحمه الا اذا عرفت من هو . انها لا تعرف من هو . انها لا تستطيع ان تسأله : من تكون ؟ ومن ابي ارض اتيت . ولم جئت الى وادي البشر . كلا . كلا . انها تحب ان تلتصق به ، ولكن لا بد من حاجز بينهما . فليكن حاجزاً رقيقاً . فليكن غلالة من حرير شفاف . بسل فليكن وشاحاً من نسيج العنكبوت . ولكن لا بد من حاجز . انه من عالم وهي من عالم ، والعالمان لا يمتزجان . لعله من سكان كوكب آخر . انه زوجها والازواج ليست بينهم حواجز . ترى ماذا يحدث لو انها استسلمت ؟ ان ماجدة لن ترضى بذلك . وكيف تعطي ماجدة اخاً نصفه بشر ونصفه من عالم المجهول . كلا . كلا . ان الموسيقى تشبه الضوضاء القريبة . ان حسن مفتاح لا يزال الى جوارها يتفوه بكلام متقطع لا تسمعه . انها لم تعد تسمع شيئاً الا قلبها الهاجس .

وكف قلبها عن الهجس فترنحت في مقعدها ثم سقطت على الارض . واكتسحت ذراعها ما كان على المائدة الصغيرة من كؤوس بعضها فارغ وبعضها ملآن ، فتناثرت الكؤوس ثم سقطت وتهشم بعضها وكان لها دوي . وسقطت علبة السجائر على وجهها ثم ارتدت بعيداً وطاحت بين اقدام الراقصين . وهب حسن مفتاح مذعوراً ، وجثا على الأرض ورفع رأسها بيده ، وحاول ان يجذبها بعيداً عن أرجل المائدة ليحملها ان كان يستطيع . واخذ يدلك خديها الباردتين وتجهه من حولة الراقصون وبعد قليل ترامى النبا فكفت الموسيقى . واختلطت في اذن حسن مفتاح استفسارات ونداءات بمختلف اللغات ، وعجيج اقدام وصرير كراسي تتحرك وموائد تدفع وصيحات سيدات يرددن بالفرنسية ، « لقد اغمي عليها » . « لقد اغمي عليها » . واخيراً وصل كبير الخدم ومعه خدم كثيرون وأعانوا حسن مفتاح على رفعها ، ثم نزعوها من يديه تماماً وحملوها خارج القاعة . وتقدمهم حسن مفتاح حتى بلغوا غرفتها فمدوها على فراشها .

وكانت ماجدة تنام على فراش صغير في الركن الأيمن بأقصى الغرفة يستخدم أريكة في الصباح وسريراً إذا قبل الليل . ولم تصل اليها جلبة فلم تستيقظ . وصرف كبير الخدم كلاً الى عمله فلم يبقَ في الغرفة الا هو وحسن مفتاح ، ثم قال :

لا تجزع يا سيدي ، فالطبيب سوف يصل بعد دقائق .

ولم يكن امامهما الا التدليك فعكفا عليه . وحين دخل الطبيب كانت مونا ربيع تفتح عينها في ذهول . وبعد قليل ادركت الموقف ، فابتسمت لحسن مفتاح وقالت يهدوء :

— انا بخير حال . لا تجزع .

ووقع بصرها على الطبيب وعلى كبير الخدم فقالت :

— لقد ازعجتكم .

ولم يحب الطبيب بل ابتسم ودنا منها وجس نبضها وسألها بعض الاسئلة التافهة ثم انطلق الى التسمية وعاد منها بجاء الكولونيا ، ومسح به وجه مونا ربيع وقال :

— انت بحاجة الى الراحة . هذا كل ما في الامر . فالزمي فراشك اربعاً وعشرين ساعة على الاقل . ثم حيا وخرج ، ومن بعده كبير الخدم انحنى وخرج . وجلس حسن مفتاح على حافة السرير وأمسك بيد مونا ربيع وقبلها ثم اعادها الى مكانها . وظلا صامتين زمناً . هو ذليل مسحوق وهي شاردة تفكر في كل شيء ولا تفكر في شيء . وخشي كل منهما ان يكسر الصمت ، وتحولت عيونها فجأة واستقرت في وقت واحد على ماجدة النائمة ، ثم عادت فالتقت . واراد ان يبتسم فلم يستطع ، وتدلّى فكاه الأسفل فبدا آية في البلاء . اما هي فابتسمت وذهبت تعبت في شعرها باصابعها كأنها تمشطه ، وأخذت تتأمل حسن مفتاح وهو يتأمل خشب السرير البندقي العريض . قالت : « انا

اسبب لك ثقاءً عظيماً . اجاب هادئاً : « انا لم يغم علي ... بعد » قالت :
« الاتزال تريد ان تتزوج امرأة ضعيفة مثلي ؟ » فلم يجب ، بل نظر اليها نظرة
معناها : « كفي هذه الحماقات ؟ فالكلمة الآن لك وحدك ، ولكنه قال بغضب :
« لماذا اغمي عليك . » ثم تذكر انه لا حق له في الغضب فخبجل من نفسه .
ورفضت مونا ربيع ان تذكر شيئاً مما كانت تفكر فيه . وكان لا بد من جواب
فتكلفت العبث وقالت : « اليس لي الحق في ان اصاب بدوار ؟ » وأراد
حسن مفتاح ان يلحف في السؤال ، ولكنه خشي ان تقول ما يخرج ، بل ندم
على سؤاله ، وذهب يتأمل صفحة وجهها ليستشف فيها شيئاً ، فوجدها هادئة
أتم الهدوء ، بل وجد فيها شيئاً من الرضى يوحى بما يشبه السعادة ، فازداد
عجبه . انها لا شك وعكة عارضة كما تقول . ولكن ماذا يجدي التفكير .
وظفقت هي تتأمل وجهه فازداد حبها له . لقد كان في سذاجة طفل يتعذب .
ولامت نفسها على كل ما كان . قالت : « اتغفر لي اني ازعجتك كل هذا
الازعاج ؟ » فhez كتفيه ولاذ بالصمت لان الكلام يحدد الأمور وهو الآن في
دوامة من المتناقضات . قال : « أعود غداً ؟ » فاحمر وجهها خجلاً وقالت :
« وبعد غد ، وكل يوم ، وكل يوم مرات » . واطمأن حسن مفتاح لكلامها ،
ولكنه عجب لنظرها المفاجئة .

وبعد صمت قليل أدرك سر هذه النظرة . قالت مونا ربيع : « قلبي يا
حسن » وقدمت له شفتيها فقبلهما ذاهلاً ، ثم سمعها تقول : « والان قبل
ماجدة » . فأتجه الى فراش ماجدة وقبل جبينها بخفة متناهية . ثم قالت مونا
ربيع : « والان انصرف يا حسن » . فسمى حسن مفتاح الى الباب كأنه نائم
يمشي في سباته ، وخرج وأغلق دونه الباب ، وقد نسي حتى ان يقول : « اتق
لك يوماً هنيئاً » .



عادت الى القاهرة انوارها باعلان الهدنة . ومضت الشهور . سبعة شهور مضت لم يحدث فيها شيء في العالم المكشوف ، ولكن حدثت معجزات تحت الارض . اما العالم المكشوف فلم يخلُ مع ذلك من تافهات الحوادث . فلفظ اغتيال رئيس الوزراء قبيل الهدنة . وبعد الهدنة بسبعة شهور اسلم وزير خطابين هاتين الفقاعتين كان سطح الماء الهادئ يخفي تيارات سفلى متضاربة . فالرجعية غدت اكثر رجعية والتقدمية غدت اكثر تقدمية ، واتضح لرجل الشارع ان وقت الاختيار بين اليمين واليسار قد أزف . وكان التعبير العملي عن هذه الحالة ان حزب الوفد انفضت معاليقه وتشققت وحدته فتكشف عن جناحين ميمنة سافرة وميسرة سافرة لولا قوة الوسط والرأس لتفر بحدأ . اما حسن مفتاح وكوكبته فقد كانوا يعتقلون تحت ذمة التحقيق ثم يخلى سبيلهم بانتظام يوشك ان يكون رتيباً .

كل ذلك كان يقدره حسن مفتاح حين دعا للتعاون مع حزب الوفد وهو في المعارضة . وقد كان له كل ما اراد ، فالمرحية الصغيرة التي وضعها لاحراج رامز والمتطرفين على مشهد من المجتمعين مثلت على ادق وجه وأصاب ما توقعه من نجاح مكتسح . وبعد ان اطمأن الى الخطوط العامة نفذ رجاله في ميسر حزب الوفد نفاذ السكين في الزبد . وكما اشتد الطغيان اشتد بينهما التعاون ،

وكما ظهر تواطؤ الدكتاتورية المصرية مع الاستعمار الانجلو امريكي تكتلت
ميسرة حزب الوفد حول اعضاء اللجنة المركزية ، واقتربت المعركة الفاصلة .
وأحصى حسن مفتاح رجاله وعتاده فماذا وجد . وجد نحو ثلاثة آلاف
رجل كلهم ماركسيون وكلهم مخلصون . واسترسل في احلامه فأحصى عشرة
آلاف آخرين كلهم مخلصون . وبدأت احلامه تتسع في اتجاه جديد . بدأ
يحصي ما معه من المال ثم بدأ يحصى ما معه من السلاح . وحين فرغ من ذلك
عبس للكراسي الاسيوطية الفارغة من حوله ، وعبس للمائدة المستديرة الخضراء
قبالته ، وعبس للأوراق المبسوطة امامه . ولم تكن هذه بأول مرة تنصرف فيها
افكاره على هذا النسق الجديد ، فقد فعل ذلك مراراً ، ولكنه كان يطرد هذه
الافكار طرد الوسوس . ولم يعبس حسن مفتاح هذه المرة لان الارقام خاتته
ولكنه عبس لأنه رأى النجاح لحظة ثم فقده . ولو أنه ما رأى النجاح لحظة
لانصرف الى التفكير فيما يجدي ، ولكنه رأى النجاح لحظة فاسترسل في أحلامه .
وحلق في هواء المدخل وفي السقف وفي الدهليز الصغير الذي يفصل المطبخ عن
غرفة مدام ماريكا كأنه يبحث عن النجاح الذي طار منه ، واخيراً استقر بصره
على فنجان القهوة الكبير فأفرغ بقية ما فيه في جوفه . ثمانية آلاف جنيه او على
وجه التحديد ٨٢٢٣ جنيهاً تبعاً لتصريح روزنشتاين في آخر اجتماع للجنة
المركزية . وماذا يجدي هذا الرصيد التافه ؟ وتذكر حسن مفتاح قول نعيم وهما
يمران ذات مرة امام عمارة الايموبيليا : « اعطني الايموبيليا اضرم لك الثورة
بعد غد » . وابتسم . ترى ما حال نعيم الآن ؟ لقد كانت له قضية فعلاً وحكم
عليه بالحبس سنة مع الشغل والسنة قد اشرفت على النهاية . ولكن نعيماً غليظ
التفكير ، يفسد بنزقه كل ما يسه ، ولا شك انه سيضرب الحراس او يهين مأمور
السجن او يحرض السجناء على الثورة قبل اطلاق سراحه بيوم واحد فيتجدد
حبسه . ترى ماذا يفعل الآن : لعله يشذب حديقة فلان باشا او يرمم قصر فلان
باشا فالسجناء مجندون لخدمة الباشوات بالجمان . ان الباشوات قد غدوا لا
يطاقون ، ففي كل صباح يستحدثون وسيلة جديدة لنهب الدولة . ولكن نعيماً

كان على حق في تقديره فبمليون جنيه وعشرين الف مجاهد يستطيع حسن مفتاح ان يقول للثورة اشتعلي فتشتعل . وربما بأقل من ذلك . ولكن لا جدال في ان ٨٢٢٣ جنيهها لا تكفي للاستيلاء على قرية واحدة . وانصرف تفكير حسن مفتاح الى الاسلحة ، فأحصى منها نحو ستائة مسدس وسبعة مدافع رشاشة والف قنبلة يدوية ، وبنادق لا تزيد على العشرين . ولكنه كان يعلم ان ميسرة حزب الوفد تملك نحو الف مسدس وعشرين مدفعا رشاشا والف قنبلة يدوية ومثيلها من البنادق اكثرها موزع في الريف . وأوشك حسن مفتاح اكثر من مرة ينصرف عن التفكير في هذا الاتجاه احساسا منه بعقمه ، ولكنه كان يعود الى التشبث به في اصرار شديد . ان اللجنة المركزية تملك بالفعل ٨٢٢٣ جنيهها ولكن الحزب في مجموعه يملك نحو مليون من الجنهيات . فروزنتاين وحده يملك نصف مليون وهناك نصف مليون آخر موزع بين احمد حمدي و ابراهيم صابر وبشارة السبع ومونا ربيع والسيد مبروك وعلي أدهم . ثم هناك كوارتز الذي لا يملك الآن شيئا ولكنه يستطيع بعملية جراحية بسيطة ان يرث عن ابيه مائتي الف جنيه ، هذا عدا الضريبة التي يمكن مضاعفتها على الاعضاء العاديين ، وان تقل حصيلتها عن ثلاثين الف جنيه . غير ان كل هذه الاموال موظفة اما في الارض واما في العمائر واما في الاسهم والسندات . وكل هذه التقديرات لا يعول عليها حتى يتبين استعداد الجماعة للتضحية بأموالها . انه لن يأذن لنفسه ان يفكر ثانية في هذا الاتجاه الا اذا اعلن روزنتاين ان في صندوق اللجنة المركزية مائة الف جنيه نقداً وعداً . ولسوف يمهل الجماعة ستة اشهر لجمع هذا المقدار ، فان وجد الضمانات التي ترضيه تحول بسياسة الحزب الى الكفاح الاخير الذي يضع حداً لكل كفاح ، وسعى بالجميع حينئذ نحو المعركة الفاصلة .

واستهلك حسن مفتاح في هذا الصباح خمسة فناجين من القهوة كلها ضخام حتى ذعرت مدام ماريكا وظنت به الظنون ، فوقفت تجادله في الفنجان

الخامس جدال الام الرؤوم المشفقة على صحة ولدها ، وحين يئست من الجسدل ارسلت اليه فهيمة بالفنجان . وتلكأت فهيمة وقتاً ما فيما يشبه المغازلة، ولكنه صرفها الى غرفته صرفاً . وبعد قليل وجد حسن مفتاح نفسه يخط على أوراقه ما يأتي :

اليوم الأول

٢٠٠٠ مسدس .

٣٠٠٠٠ بندقية (والباقي ينزع من العدو)

٥٠٠ متراليوز (مائتان للقاهرة ومائة للاسكندرية والباقي للأقاليم) .

٢٠٠٠٠ قنيلة يدوية .

٣٠٠ لوري (والباقي ينزع من الاهالي والعدو)

؟ طناً من البترول .

؟ مصانع ذخيرة صغيرة .

١٢١٩/٥٢٧/٥١٦٠ هـ . ج . ب / ٢٣ وخلايا لنسف مستودعات الذخيرة بالجيش

المصري .

١٣٢ ، ج ، د وحدات الانصار بالمأظة والداخلية والعريش لتخريب سلاح الطيران او الاستيلاء عليه .

تشكيلات محلية للاستيلاء على مكاتب التليفون والتلغراف والاذاعة والكباري والبنوك ولقطع الخطوط الحديدية .

تشكيلات محلية للاستيلاء على اقسام البوليس والوزارات والمحافظات والمديريات وتجريد الشرطة من السلاح حتى تتفرغ الاورطة رقم ١ ب ج د ٣ مشاة لاحتلال المدينة . ان للبكباشي السندوبي والصاغات خيرى وزايد وسرحان

وغير خليل كسيلون ان يشلوا برجالهم الاورط الثانية والسابعة والثامنة مشاة اسبوعاً كاملاً حتى تستقر الأمور . فاذا أمكن الاعتماد على فئنة تتدوم اربعاً وعشرين ساعة من جنود الاورطة رقم ٥ و ٤ والاورطة رقم ٦ ح ط ٥ مشاة اقتربت اللجنة المركزية من النصر كثيراً . ولكن الأمل كله معقود على الاورطة رقم ٦ ل م ن ٦ فرسان ، فهي رأس الحربة في جميع العمليات الحربية . ولا بد من اعادة تنظيم هذه الاورطة . فاذا أمكن شراء اللواء موسى باشا أمين امكن تجريد الاورط رقم ٦ س ع ف ص ٧ إلى رقم ٦ ر ش ث ٨ مشاة من السلاح في ٤ ساعات . وإذا استحال ذلك فلا مفر من نصف مستودعات الذخيرة . ان موسى باشا اجبن جنرال في تاريخ الجيوش واجشع مجاهد في تاريخ الشيوعية . وعندئذ لا يبقى الا المدفعية وفلول البيادة وهي مبعثرة مبعثرة مبعثرة .

ولسوف يكلف حسن مفتاح الجيار بالحصول على الخرائط اللازمة من مصلحة المساحة ، ومن دواوين وزارة الدفاع . وسوف يكون الصاغ الشماشرجي قائد عام وجه بحري والسندوبي قائد عام وجه قبلي . ان حسن مفتاح لن يسمح بنشوب حرب اهلية ، فلهجوم ينبغي ان يكون خاطفاً . لا بد ان تسقط جميع النقاط الاستراتيجية في اليوم الاول . ينبغي ان يقتصر القتال على الشوارع فلا يمتد الى الارض المكشوفة . ينبغي ان ينتهي كل شيء في ثلاثة ايام على اكثر تقدير . نعم بعد ثلاثة ايام لن يكون هناك قتال ، فلو طال الحرب السجال لزحف الانجليز من القنال وكرروا ١٨٨٢ . كلا . كلا . فليوضع الانجليز امام الامر الواقع . فلئن زحفوا فلن يجدوا ابن امرأة من رجال العهد البائد على قيد الحياة . سوف ينتهي كل شيء في اليوم الاول . فلنعدّ القوائم منذ الآن ، فأعداء الشعب كثيرون فاذا اختفى هؤلاء فمع من يتآمر الانجليز ؟ ولكنهم لن يتجاوزوا ثلاثة آلاف سوف يقبض عليهم جميعاً في اليوم الاول . تبدأ الاعتقالات من الواحدة صباحاً قبل بدء الهجوم . سوف يجتمعون في عربات الكلاب إذا امكن . سوف يشنقون جميعاً في اليوم الاول . كلهم بلا استثناء . كلهم . كلهم . بلا محاكمة ، فلا متسع

للشكليات . كلا . كلا سوف يحاكمون . سوف يمشقون توفيراً للرصاص . الرصاص
 للشرفاء والمشايق للمجرمين . المشايق لأعداء الشعب . في كل ميدان مشنقة .
 ان نعيماً هو الجلال الاول . نعيم لا يعرف الرحمة لانه رضع لبان ثمرة . غدا يخرج
 نعيم او بعد غد . لسوف يتنكر له بعض اعضاء اللجنة المركزية من الاغرار ،
 ولكن نعيماً سوف يفهمهم في اليوم العصيب . وسوف يخيفهم كذلك . وسوف
 يجعلهم من وقت لآخر يتحسسون اعناقهم . ان نعيماً لا يعوض . عشرة منه
 ينظفون البلاد لا بد ان له نظائر بين المغمورين ولسوف تكشف عنهم الشدائد .
 ان حسن مفتاح كان يتمنى ان يتاح له هذا الشرف ولكن مهمته كبرى . ولئن
 فاته الشرف فلن تفوته اللذة ، فلسوف يطوف الميادين في صبيحة اليوم العظيم
 ليملاً انفه برائحة الدماء . الدماء ؟ من قال دماء ؟ سوف تكون ثورة بلا دماء .
 لقد قلنا الف مرة انها سوف تكون ثورة بلا دماء . لن يذبح في الثورة احد ،
 ولن تسيل من احد دماء . فحقناً للدماء سوف تستخدم المشايق . ان روبسيير
 وميبيروسان جوست ومارا كانوا يذبحون الاشراف ليثبتوا للعامة ان دمهم
 ليس ازرق ، ولكن اشراف مصر لم يدعوا يوماً ان دمهم ازرق .
 لا مقاصل ، لا مقاصل . ان كل شيء رهين برونشتاين وبشارة السبع
 وحمدي وادهم وصابر كذلك ومبروك . سوف يسأل حسن مفتاح مونا
 ربيع غدا أن تبيع مائة فدان وان تبقي المائة الاخرى . يالها من ملاك ناري .
 عشرة منها يغيرون وجه الارض . وسوف تصدع مونا بأمره في التو واللحظة .
 ولكنه لن يأذن لها بالبقاء في اليوم العصيب . سوف يرغمها على الخروج بمجدة
 الى سويسرا أو الى باريس عشية الانقلاب . ان مونا يجب ألا ترى كل هذه
 الجثث . ثم هب اللجنة المركزية قد فشلت في رسالتها ؟ كلا . كلا . الأمان لمونا
 قبل كل شيء . فان لم تخرج مونا فلن تكون هناك ثورة . ان مونا عنيدة وفيها
 من نعيم شيء كثير . ولكن شعرة من رأس مونا تساوي عمال العالم متحدين .
 ما هذا الهذيان يا حسن مفتاح ؟ ما هذا الضعف يا حسن مفتاح ؟ ان مونا سوف
 ترفض مستكبرة ان تتخلى عن واجبها . واذا شئت مونا ربيع ان تبقي ،

فليكن لها ما تشاء . ان نساء الشعب الفرنسي كن يتجمهرن حول المفصلة كل صباح في ميدان الجمهورية ويتسلين بشغل الابرة والرؤوس تهوي . سوف تجتمع نساء الشعب المصري حول المشانق ويقزقزن اللب كلما تدلى من الحبلى باشا . سوف يكون اللب بالجنان في الأيام العشرة الأولى بأمر من كوميسارية الشعب . ولكن ينبغي أن توضع خطط الدفاع على أساس حربي لا على أساس ثوري . فمن يدري ؟ اليس جائزاً ان يتدخل الانجليز ؟ بل مؤكدا ان يتدخل الانجليز . وعندئذ يرى العالم كله ان الانجليز يحولون بين الشعب المصري والنظام الذي يريد . اليس جائزاً ان يتدخل الانجليز ؟ ان الشعب المصري لجيش لا يخاف المصري . ثلاثة ايام لن نسمع في البلاد طلقة . ان جنود الجيش المصري من ابناء الشعب . وسوف ينضم جنود الجيش المصري الى الشعب . ترى ماذا يحدث لو تدخل الانجليز ؟ الموت للانجليز فليكن خط الدفاع الاول التل الكبير . فلتوضع خطط الدفاع على اساس حربي لا على اساس ثوري . فليكن خط الدفاع الاول التل الكبير . وليكن خط الدفاع الثاني منطقة القاهرة . وليكن هناك خط ثالث ورابع وخامس للدفاع ولو اقتضى الامر التراجع الى صحراء العظمور . اما التسليم فمحال . ان الشعوب لاتسلم وانما يسلم الخونة . لا بد من بنادق . لا بد من ضمانات . ان سلاح القطر لايكفي . وعندئذ سوف تقف احقر قرية وقفة جرنیکا . ضمانات ؟ نعم . نعم . لا بد من مؤتمر . في بيروت . في الشهر القادم . ان مفتاح مصر في بغداد . لقد قلنا الف مرة ان حركة التحرير القومي هي حركة التحرير الشعبي . وكيف نتنصر ؟ الامل في بيروت . الامل في دمشق . الامل في بغداد . الامل في الخرطوم . ان البروليتاريا المصرية عزلاء امام الانجليز . نعم . لامفر من الكفاح المشترك . ان سلاح القطر لايكفي . لقد قلنا . لو استمعت اللجنة المركزية لما اقول اقامت حكومة الشعب يوم ١١ يوليو « لو » ، « لو » ، « لو » . غدا اثبت لهم كل شيء . نعم ، ١١ يوليو ملائم ، فهو عيد ميلاد مونا ربيع وهو أول يوم عرفها فيه بمعرض الفن التكميبي في الكونتنتال فغرس اهداها الطويلة السوداء في قلبه فاهتمه عظام الامور . انه يوم خالد ومذكور . لسوف يهدي حسن مفتاح الى

مونا ربيع القاهرة في عيد ميلادها القادم . ولكن لا . ان ١١ يوليو يوم ملائم
 فهو بعد محصول القمح . نعم ، ١١ يوليو يوم ملائم فهو قبل محصول القطن . من
 يستولي على القطن يستولي على مفاتيح المملكة . اذا امتلك الشعب القطن فهاذا
 يحارب اعداء الشعب ؟ ولكن لا بد من تنسيق الثورة الشعبية في جميع بلاد
 الشرق الاوسط حتى يحصر الانجليز من كل جانب وتردم القنال بحيث الانجليز .
 بدقة كرونومترية اذا امكن . لقد قلنا ان الكفاح مشترك . فاذا انتشرت في
 الهند القلاقل اتسع الخرق على الواقع . وايران ؟ ان الخير كله في رامن ورجاله
 ولكن رامن أهوج لا يفهم معنى الصبر . فلتحطم جامعة الدول العربية ولتبني
 جامعة الشعوب العربية . لقد قلنا . . التنسيق . التنسيق . التنسيق . لا بد من
 مؤتمر . فليجر التدريب منذ الآن . في عزبة مونا ربيع . في سنتريس . في
 صحراء المقطم عند بحيرة قارون . ان البرد شديد ، وقد كان ينبغي ان يشرب
 حسن مفتاح فناجين لاعداد لها من الشاي بدلاً من فناجين القهوة التي لاعداد لها .
 ثم ان شعور الغثيان يمسك بحلقه . اتراه الافراط في القهوة ؟ ان هذا الشعور
 اقرب الى الاختناق منه الى الغثيان . انه يعرف هذا الشعور من قبل . ان هذا
 الشعور كان يجعله يرفع يده كل دقيقتين ليتحسس عنقه . وهو يفعل ذلك الآن
 ونهض حسن مفتاح وفتح باب غرفته قاصداً المرأة . ووقع بصره على الكومودينو
 فلم يره ، القط الاسود ولا صورة البنت العارية . وغضب لذلك قليلاً . كان
 ينبغي ان تضع مدام ماريكا قطعاً جديداً اسود مكان القط الذي تهشم . ان هذه
 المرأة لا تعرف كيف تدبر البنسيون . لماذا لم تأت بهتمثال من البرونز مكان القط
 الذي تحطم ؟ سوف يسألها ان تأت بهقط من البرونز ، وسيتولى هو دهنه بالطلاء
 الاسود . ان غرف النزلاء ينبغي ان تزود بالسلاح . السلاح ضد الاحياء والسلاح
 ضد الاشباح . ثم ندم حسن مفتاح على غضبه . انه دخل الغرفة الف مرة قبل
 الآن وكان بصره يستقر من وقت لآخر على الكومودينو العاري فيفكر في القط
 الاسود الناقص لحظة ثم ينصرف تفكيره الى ما هو اجدى . وبعد قليل نسي
 القط الاسود وصورة البنت العارية ونسي كل ما كان . ترى ما سر امتعاضه هذا
 الصباح ؟ أعاد اليه خوفه من الاشباح ؟ ولكن أي اشباح يخاف ؟ ان روح فؤاد

منقريوس سجينه في شجرة الجميز ، وهو منها في أمان الف سنة اخرى . ثم هب المحظور قد وقع ، هب روح فؤاد منقريوس قد افترست علي عبد الله ولبسته بعد ان تركه حسن مفتاح في الامريكين . ان عشرين فؤاد منقريوس أو علي عبد الله لا يخيفون حسن مفتاح . ثم ما حاجة حسن مفتاح الى قط اسود أو قط أبيض ان الارواح تخاف منه اينما حل وتفر فرارها عند مقدم السحرة ؟ ولو شاء حسن مفتاح ان يصطاد مائة روح من الارواح الهائمه في الهواء ، وان يسجنها في مطبخ مدام ماريكا لفعل . ان حسن مفتاح لطول ما مثل دور البشر قد نسي انه ليس بشرياً . ولكن كيف ينسى حسن مفتاح هذه الحقيقة الرهيبة ؟ ترى هل حدث اندماج تام بين روحه وجسد سيد قنديل حتى خرج منها كائن واحد لا خدش فيه ولا اثر للازدواج ؟ هذا جائز . ولكن كيف يفسر خوفه الآن من الكومودينو العاري ؟

وانصرف حسن مفتاح الى الدولاب ، ولم ينسَ ان يتحسس عنقه . كان في الظاهر يصلح رباط رقبته ولكنه كان في الواقع يتحسس عنقه . وتطلع الى وجهه في المرآة فارتاح الى مرأى لحيته القصيرة الناعمة السوداء ، فذهب يسويها بأنامله . وارتاح الى تحسن صحته . ولكنه لم يرتح الى شيء رآه . فقد خيل اليه ان نواجهه قد نمت قليلا . نواجهه الأربعة ، نمت قليلا جداً ، ربما مليمتراً واحداً ، ولكنها نمت على كل حال . وأجاد النظر الى اسنانه فرأى ما كان قد رأى . فارتاح ولكنه هدأ نفسه . ان كل هذه اوهام . لو ان نواجهه قد طالت حقاً لازداد منظره شراسة ، لاقتربت هيئته من هيئة الذئب . ولكن هيئته اليوم هي هيئته بالأمس ، وهي هيئته قبل عام ، وما هو بأشرس منظراً مما كان .

ولكن أني له ان يحكم ؟ ان لاصدقائه ان يحكموا ، اما هو فلا سبيل له الى المعرفة . واصدقاؤه ما زالوا يأنسون اليه كما كانوا يفعلون . ولقد غاب عنهم وعاد اليهم فلم يشك في هويته أحد . يا لهم من أغبياء . نعم ، ان اعضاء اللجنة

المركزية كلهم اغبياء ليس بينهم واحد تفرس في وجه حسن مفتاح قليلاً وسأله:
« لم اطلت الغياب يا حسن ؟ » « من اين لك كل هذه الحيوية يا حسن ؟ »
« أحدث لك حادث في الاسكندرية يا حسن ؟ » ليس منهم واحد تفرس في
وجهه طويلاً ثم اقشعر لما رأى او اقشعر لما لم ير ، أو جمد في مكانه من فرط
الخيرة ، او ازورث عنه ببصره لسبب لا يعلمه . ليس بينهم واحد شق وقرأ
الفاتحة . ومدام ماريكا والخدام فهيمة وبائع السجائر في ملتقى شارع الشواري
بشارع الملكة فريدة ، وعم حمدون ، وزبائن ايزافتش وجرسونات القاهرة واعضاء
« البعث » كلهم . كلهم . ما من احد منهم بدا عليه الارتباك او بدا عليه انه
يريد أن يسأل سؤالاً . يالهم من اغبياء . يالهم من بسطاء . ولكن مونا ربيع
وحدها هي التي كشفت سره ؟ من قال ان مونا ربيع كشفت سره ؟ ان سره
في ققم مختوم راقد في أعماق المحيط ، ولسوف يبقى هناك حتى تلفظ الارض
اسرارها إلى السماء . ولكن مونا ربيع وحدها هي التي تفرست في وجهه طويلاً
فرأت اشياء كأنها الطلاس التي ضاعت مفاتيحها . ولكن اعضاء اللجنة المركزية
ومدام ماريكا وبائع السجائر والحلاق والجرسونات وزملاء الدراسة ومعارف
القهوة وفهيمة وكل هؤلاء ليسوا بأغبياء بسطاء . انهم لم يشكوا في امره فيما كان
فيه ما يدعو إلى الشك . ان مونا ربيع ذاتها قد جاءته في المساء الاول تذكره
بوعده وتعرض نفسها عليه . ان مونا ربيع قد جالسته ساعة أو يزيد وشربت
معه من الشاي أقداحاً عداداً ، واستمعت الى حديثه طويلاً فلم تشبه في شيء .
ترى ماذا حدث حتى تنكرت له مونا ربيع ؟ انه لا يذكر انه اتى ما يثير الشبهات
ولكن مونا ربيع لم تنكر له ، فهي لم تكف عن حبه لحظة واحدة ، وانما
جدت في نفسها هوا جس مدمرة . وهل ينسى حسن مفتاح ليله المتروبوليتان ؟
انه لا يذكر انه اتى ما يثير الشبهات . ترى ماذا بدل موقفها منه ؟ لقد كانت
من قبل تقبل على قبلاته بقوة ، ولكنها أمست لغيرها ما سبب معلوم تستقبل
قبلاته وهي صاغرة . لقد كانت من قبل متفتحة الحواس تكاد ان تلتهمه التهاماً
كلما اخذها بين احضانه ، ولكنها أمست لغير ما سبب معلوم تسترخي بين

ذراعيه وتغمض عينيها كأنها لا تقوى على النظر اليه ، وتترك نفسها جملة لرحمته . ترى ماذا حدث ؟ انها لاتعرف عن حقيقته شيئاً . وهذا لا يقبل الجدل ، فلو قد عرفت عن حقيقته شيئاً لفرت منه فرارها من مجنون هائج يلوح بمخنجر في الهواء ، لانطلقت الى غرفتها وايقظت ماجة وحملتها بين ذراعيها وفرت من المتروبوليتان ومن القاهرة بل ومن مصر كلها . انها لاتعرف عن حقيقته شيئاً ، فكل ما يقرؤه في عينيها هو الحيرة ، الحيرة الشديدة . وهو لا يقرأ الحيرة في عينيها دائماً ، فقد تمر الاسابيع دون أن يبدو في سلوكها انها تشك في حقيقته . وهي مع ذلك تشك في حقيقته . مونا ربيع وحدها تشك في حقيقته . ترى ماذا فعل ؟ كلا . انه لم يفعل شيئاً . ان حسن مفتاح قد ابدى غباوة ليس بعدها غباوة . كيف خفي عنه ذلك قبل الآن ؟ ان مونا ربيع تشك في حقيقته لأنها تحبه . اما الآخرون فكيف يشكون في حقيقته ؟ إنهم لم يعرفوا حسن مفتاح القديم فكيف يعرفون حسن مفتاح الجديد ؟ إنهم يأتونه بأباريق الشاي ويبيعونه السجائر ويحادلونه في السياسة ويقصون شعره ولكنهم لا يعرفون من هو . بل ان منهم فتيات يعرفنه أكثر مما يعرف الناس الناس ولكنهن رغم ذلك لا يعرفن من هو . كل هؤلاء لم يعرفوا حسن مفتاح القديم فكيف يعرفون حسن مفتاح الجديد ؟ أما مونا ربيع فهي تعرف من هو . وهي تعرف من هو لأنها تحبه . وقد كشف الحب عن بصيرتها فالحب يكشف عن البصائر وعرفت هويته . وقد عرفت هويته منذ يوم الكونتنتال ، أو لعلها عرفت هويته ليلة المونسنيير ؟ من يدري ؟ هي تدري . سوف يسألها . ولكن كيف يسألها ؟ انه التقى بعايدة علم بعد عودته الى اللجنة المركزية مراراً في الطريق العام وفي المجتمعات بمفردها وبصحبة زوجها ولكنها لم تشك لحظة في حقيقته بل قدمته لزوجها والى صاحباتها وثرثرت وثرثرت ولم تشك لحظة في حقيقته . ان عايدة علم لم تشك في حقيقته لأنها لم تكن تعرف حقيقته . إن عايدة علم لم تعرف من هو حسن مفتاح في يوم من الأيام ، فكيف تشك في هويته ؟ ان عايدة علم لم تحب حسن مفتاح في يوم من الأيام فكيف تعرف هويته ؟ ولكن مونا ربيع وحدها قد شككت في

في حسن مفتاح الجديد لانها كانت تعرف حسن مفتاح القديم . تعرف من هو . هو الحب . نعم هو الحب . وهل يترك الحب الا الحب ؟ إن في العالم الفيمليون نسمة ، وهم يستيقظون ويتلاقون ويتسامرون ويشتركون في العمل ويتراقصون ويتواقعون ، وربما يتزوجون لكنهم لا يعرفون بعضهم بعضاً ، إلا نادراً . ماهذه الآراء السخيفة يا حسن مفتاح ؟ ربما . من يدري ؟ نعم ؛ لا شك انه الحب ، وإلا فكيف شكت مونا ربيع من دون خلق الله في حقيقة ؟ ولكن كيف شكت 'مونا ربيع في هويته ؟ إن الكلاب تعرف بوجود أصحابها دون أن تراه إن الكلاب تشم رائحة أصحابها . من يدري ؟ لعل للمحبين حاسة يحسون بها أحباءهم غير الحواس الخمس . من يدري ؟ ان مونا ربيع كانت في المساء الاول مضطربة ، فلم تشك في شيء ، فلما هدأت نفسها وقفت على الحقيقة أو وقفت على أعتاب الحقيقة .

ولكن حسن مفتاح فكر في كل شيء إلا في القبة الكبرى تحت النور القوي في مدخل البنسيون ، حين التقت عيناها بعينه ثواني قليلة رأت فيها مونا ربيع ما جعلها تقشعر وتغرق . ومن بعد ذلك صارت مونا ربيع كالمذهول زمناً . وما كان لها أن تشك في أمر حسن مفتاح لولا أنها رأت وراء انسانية انسانين آخرين خيل اليها انها لرجل آخر . وكانت في كل مرة تنتهي من الحيرة بالحيرة حتى يئست من التفكير . ولكنها علمت ان بالأمر لغزاً لا بد من حله . فان لم يكن بالأمر لغز فلا أقل من ان حبيبها هذا فيه عنصر لا يدخل في تركيب البشر .

لقد وصلا منذ ليلة المتروبوليتان إلى سكة مسدودة . والايام مضت والإسابيع والشهور ، وهما يلتقيان في اليوم الواحد جملة مرات ، ولقد يلتقيان في أوقات لم يألفها الناس ، فإن غاب حسن مفتاح أياماً بحكم عمله طرق باب مونا ربيع قبل أن يطرق باب اللجنة المركزية . وكانت الشهور الأولى عصبية حقاً لأن مونا ربيع كانت تقوم بأربعة أدوار أو خمسة كلها مرهقة . فهي تلعب دور الأم التي تسهر على ماجدة وتلاعبها وتعلمها مبادئ القراءة والكتابة حتى

يبدأ العام الدراسي الجديد . وهي تلعب دور المطلقة التي تدخل مع زوجها السابق في حرب سجال من أجل ابنتها ، ولقد رأت من بيبة ربيع بك ألواناً من العنت تهد الجبال الرواسي . وهي تلعب دور التلميذة ذات الفضول الشديد التي تريد أن تقف على ذلك السر الخطير الذي يجعل أمثال حسن مفتاح من الرجال المعقولين يعرضون أشخاصهم لألوان من العذاب دونها عذاب الصوفيين . ولقد كان هذا أشقى الأدوار على نفسها ، فقد ذهبت تزدرد ماركس وانجاز ولينين بالفرنسية ثم تزدرد أدب المنشقين وأدب المنقحين وأدب المنحرفين حتى عرفت كل ما يعرفه حسن مفتاح أو أوشكت ، ولكنها رغم ذلك لم « تفهم » مما قرأت شيئاً بل ظلت على عجبها الأول من « فناء » هؤلاء الفتيان المساكين في « الانسانية » . لقد كانت مونا ربيع تطيل النظر إلى حسن مفتاح ثم تقول لنفسها : « أنا أفهم أن يكون حب الانسانية حرفة ومستقبلاً ، أما هذا النوع من التفاني فيقصر عن ادراكه فهمي » . ولم يكن حسن مفتاح يجادلها في الشئون العامة ولا في الافكار العامة خشية أن يترجم اعتراضاتها بأنها احتجاج على سلوكه في الحياة . ان عالمها لا يزال عالم اندريه بريتون ولويس اراجون وسلفادور دالي والبالهيات ذات الاجنحة الوضاعة وأقدام الحور ، وهي راضية بهذا العالم كل الرضا . أما « الانسانية » فقد رأت منها مونا ربيع ما فيه الكفاية منذ أن تزوجت من عبد السلام بك ربيع ، وقد دلهما اختبارها على أن الانسانية لا يمكن أن تنقذ ولا تستحق أن تنقذ . ولم تكن مونا ربيع تكره الرعاع بل كانت في صميمها تأنس إليهم وتقرأ في عيونهم آلامهم وقلة حيلتهم وسذاجتهم ، ولكنها كانت في نهاية الأمر تهز كتفها وتنتهي إلى فلسفة « انج بجلدك » . غير أنها كانت كذلك تجزع أمام الجماهير جزعاً مسرفاً فقد كانت تحس في قراراتها بأن الجماهير تتآمر بها وتكيد لها وتحاول أن تسرق منها عالمها الجميل كما سرقة من حسن مفتاح . وكلما لعبت في صدرها هذه الخواطر كانت تنهض من مكانها وتقبل على ماجدة تدلها في افراط شديد وتغمرها بقبلاتها وتعبث بشعرها عبثاً جنونياً وتهذي أمامها بما لا تفهم من الكلام ، أو تقصد الى البيكب وتضع

« سيرناد » شوبرت أو « دراسات » شوبان ، فيعود الى نفسها السكون . وكانت من حين لآخر تتعذب عذاباً واضحاً حين تقرأ عن الاوبئة التي تحصد الفلاحين ، أو تسمع بأن كاتباً من كتبة دائرتها قد اخرج ولده من المدرسة لعجزه عن سداد الرسوم ، أو يقع بصرها على الآلاف من أسماك القاهرة طريحة على أرصفة الشوارع أو محتكة في المارة تشخذ الملايم ، فيستيقظ في قلبها إحساس بأنها شريكه في الجريمة يتحدث عنها حسن مفتاح ويساعدها على لبس سترتها ويخرج بها الى الزحمة الكبرى أو الى النسيان في السينما .

ولكن مونا ربيع كانت في أكثر أوقاتها في حال سوية ، لا تأذن لهذا الصراع بأن ينخر قلبها ، بل كانت راضية تقترب كل يوم من السعادة . وكانت تجلس أمام مرآتها كثيراً تتأمل وجهها وتطليه وتفكر . تفكر في أنها قد عثرت أخيراً على غرفة لا يستطيع ربيع بك أن يقتحمها ، فتغبط بالحياة كأنها عصفور سجين قد انطلق الى الرحاب الزرقاء . نعم ، لقد فرت في الوقت المناسب قبل أن يحطمها ربيع بك نهائياً . وهكذا التأمت جراح الماضي أو كادت . لقد تعلمت ألا تطلب من الحياة كثيراً ، ولقد اوتيت كل ما تطلب . إنها لا تظفر بالممتع الكبرى ، ولكن هذا لا يهم . إن ربيع بك وجوه القاتل بعيدان عنها . وهذا نصف السعادة . أما نصفها الآخر فهو ماجدة . وحسن مفتاح ؟ كلا . إن حسن مفتاح لا يدخل في حساب السعادة . الرجال لا يدخلون في حساب السعادة . إن للرجال عند مونا ربيع حساباً آخر . لقد جربت حظها ثلاث مرات . الشاعر الايطالي ستيفانوتيرا مات فجلب من الهم أكثر مما جلب من السعادة . جلب عبد السلام ربيع فيما جلب . وعبد السلام ربيع كان ينبغي أن يموت ، ولكنه لم يميت ؟ وقد جلب من الهم أكثر مما جلب من الأوراق المالية . وهذا الثالث حسن مفتاح . ماذا جلب ؟ انه لم يجلب سعادة ولا هماً ، ولكنه جلب الثقة بالحياة . والآن ، بعد أن وثقت مونا ربيع بالحياة ... والآن ، أين هي الحياة . انها ظنت يوم زارت

٢٢ شارع الملكة فريدة انها قد اقتربت من السعادة الدائمة ، من النضرة الدائمة ، من المرح الدائم ، من اللذة الدائمة . ولكنها خرجت من ٢٢ شارع الملكة فريدة بالحيرة الدائمة . شيء رآته في عينيه ، ذكرها - لا تدري كيف - بالكلاب المسحورة في « ألف ليلة وليلة » أو في « فاوست » جوته ، فأقام بينهما حاجزاً . ولكن كان ينبغي أن تنتظر شيئاً من هذا منذ البداية . كيف تنتظر السعادة من مثل حسن مفتاح ؟ إنه عبقرى ، والعباقرة قطع من الجحيم . إن حسن مفتاح بطل من أبطال التاريخ ، وأبطال التاريخ تلعب حولهم الحناجر ويمشي الموت في ركبهم . الثقة في الحياة . ها ، ها . ولكنها لن تسمح لحسن مفتاح أن يشقيها . لقد شقيت بما فيه الكفاية . ومع ذلك فهي سعيدة . أشقية هي ؟ انها سعيدة ما في ذلك شك . قد لا تعرف انها سعيدة ، ولكنها لا شك سعيدة . ان البقر والانعام والطواويس والحيات لا تفكر في السعادة ولا تطلب السعادة ، وهي مع ذلك راضية . من قال ان السعادة حق من حقوق البشر ؟ ان حسن مفتاح لا يدخل في حساب السعادة لأنه لن يملك إشقاء مونا ربيع . نعم ، سوف تتعلم كيف تحب في يأس ، وقد تعلمت ، فينبغي ألا تنسى أبداً ما قد تعلمت . حتى حين يأخذها حسن مفتاح بين ذراعيه ويقبلها فينبغي أن تياس . الأمل ممنوع . لا أمل . حتى حين ينجبها حسن مفتاح بأعذب الكلام . وكيف تستسلم له ؟ انها تحب أن تقول أولاً : « من تكون ؟ » فيجيب : « أنا حسن بن يقظان . جئت من وادي الجان أو من أرض النار أو من جزائر البنجوين . مهمتي سحرية ، وسوف أعود من حيث أتيت على متن رخ عجوز . بل أنا العنقاء . ومنزلي في معبد الشمس بين أحراش النخيل ، هناك تحت شمس الشروق » . أما هذا فلا . انها تقبل أن تزوج أميراً من أمراء الجان إذا عرفت حقيقته . ولكن انى لها أن تعرف حقيقة حسن مفتاح ؟ انها لثلاثة أشهر خلت قد ضعفت أمام حبها وقررت أن تستسلم له فذهبت تهذي طول المساء عن الزواج والأزواج ، فرأى حسن مفتاح منفذه وجدد العرض القديم . وحين جدد حسن مفتاح العرض القديم لم تحب مونا ربيع بلا أو نعم بل ضحكت بما جدد في نفسه

الأمل . ولم تدخن طول ذلك المساء . انها تذكر جيداً أنها لم تدخن طول ذلك المساء . وحين عاد بها الى بابها دخل كالمعتاد ، وامتد بصره الى فراش ماجدة فلم يجدها فقال : « غداً نزورها معاً في المدرسة بالشكولاته » ، واقتادته مونا ربيع حيث وقفت به تحت النور الكهربائي مباهرة بجوار الفراش الكبير . وفي الخطوات القليلة بين الباب والنور الكهربائي شحب وجهها ايما شحوب ، ولكنها تكلفت ما كانت فيه من مرح سابق . ورأى حسن مفتاح شحوبها ورأى أسنانها الجميلة المبتسمة فحار بين الشحوب والابتسام ، وبدت الحيرة على وجهه غباوة كالعادة ، وانقطع الكلام قليلاً ، ولكنه عاد يهرف بالفاظ متقطعة عن ناظرة المدرسة ومعرفته بها ثم أخذ يهرف بقبل متقطعة على يد مونا ربيع . أما مونا ربيع فقد كان قلبها يدق دقاً عنيفاً رغم اطمئنانها الظاهر ، فقد اعدت كل شيء للتجربة الكبرى . انها لا شك كانت مخدوعة فيما رأتها يوم زارت ٢٢ شارع الملكة فريدة ، لأن ما رأتها لم يرد حتى في الأساطير . ولكن قبل أن تستسلم له ، قبل أن تقول : « نعم » لا بد أن تطمئن . ولقد كانت مطمئنة ومع ذلك فقد كان قلبها يدق دقاً عنيفاً . محض وهم ما رأت لأن ما رأت لم يرد في الأساطير . ومع ذلك فلا بد أن تطمئن لقد قادته تحت النور رأساً لتكرر ظروف التجربة . ولم يكن حسن مفتاح يعلم أنه سائر الى الفخ وقال عابثاً : « كل يوم في تحسن . كلا يوم نقرب من السرير قليلاً . » وقدمت له شفتيها وضمت اليها ، فقبلها قبلة طويلة . ولكنها لم تغمض عينيها هذه المرة . وكان لا بد من الشجاعة فتشجعت . والتقت عيونها طول الوقت . وكان النور منشوراً على وجهه متجمعاً عند عينيها . وتفرست مونا ربيع في انسانيه طول الوقت كأنها تتفرس في كرتين من البور البني الشفاف ، ولم تختلج أهدابها ثانية واحدة وبدا على مونا أنها منومة مغناطيسياً . ولكنها لم تكن نائمة . وحين رأت ما فيه الكفاية كانت يده اليمنى تدلك ظهرها برفق . وأبعدته عنها بابتسامة حزينة ومشت به الى الباب فخرج ثم أغلقت الباب بالمفتاح ، وسعت الى فراش ماجدة وتعددت عليه تدخن ، وخلعت حذاءها وقذفت به بعيداً . كلا . هذه المرة لا مجال فيها للشك .

وراء كل حذقة حذقة . بل إن الحذقتين الداخليتين بلون البندق الثقيل وحدقتا حسن مفتاح بلون البندق الخفيف . ثم هناك الحزن العميق في قاع عينيه . يا له من حزن عميق . ان حسن مفتاح ليس في عينيه حزن وإنما في عينيه هدوء ووداعة . كلا . كلا . هذه المرة لا مجال فيها للشك . وفي تلك الليلة لم تتم مونا ربيع قبل الفجر العريض .

كل ذلك حدث منذ ثلاثة أشهر . وبه عرفت مونا ربيع ان اليأس مفتاح السعادة . ان حسن مفتاح وكل ما في العالم من رجال لا يدخلون في حساب السعادة فهي ان تأذن لأحد أن يفتت قلبها بعد كل ما كان . ولم يكن يسيراً على مونا ربيع ان تقبل هذا الوضع نهائياً . فكثيراً ما كانت تنهار امام حسن مفتاح وتوشك ان تأذن له بالبقاء طويلاً ، طويلاً جداً . وكثيراً ما كانت تقضي الليالي مؤرقة الجفن فتدفن أحزانها وأشواقها في احصاءات فارجا وفي كتب بتلهام وجبران . ثم تحولت مشكلاتها العاطفية الى مشكلة واحدة محدودة في الجنس فكانت سياط الجنس تلهبها دون ما رحمة كلما خلت الى نفسها بعد منتصف الليل ، فكثير سهرها في الفراش وامتد نومها الى العاشرة صباحاً وما بعدها . وبعد قليل أدركت ان هذا الشبح الجديد أشد فتكاً بها من الشبح القديم فحنت الى الحب القوي الغامض الذي تحولت به أشواق الجسد الى دفء خفيف متصل ولون من الفيضانية المقيمة التي اشتملتها اشتمال السحابة السحرية الملونة واقامت بينها وبين الاشياء حائلاً من الزجاج الوردي . سعت الى الحب القوي الغامض الذي كان من قبل يجعلها تذوب ذوباناً كلما سمعت « تريستيس » شوبان ولو من أردأ العازفين وتسهم سهوماً كلما سمعت الصندوق الموسيقي يلعب في الشارع « السماوات الزرقاء » و « ساعابو » . وكانت تغني . فلما تكدست في جسدها احساسات الجنس المحروم وخرجت واضحة لاذعة لاسبيل إلى اسكانها ، لم تعد تنام على الاحلام بل باتت تتقلب في فراشها . واكتشفت فجأة ما للأرقام من قوة سحرية فأقبلت على الوان من الدراسة اجف من الهشيم اليابس . وهذأتها تقارير

الشركات وصفحات الدليل العام ، ولكن بمقدار . وكانت تفكر في المستقبل
يجزع عظيم . انها كانت تعرف الحب الذي كان يخرجها من الفندق في رابعة
النهار ويسوقها إلى المعارض أو السينمات أو إلى كوبري قصر النيل حيث الشمس
والنهر وبسطاء الناس يستمتعون ببساطة الحياة . اما هذا الغول المفترس فقد
كانت تخافة ولا تدري ايان يسوقها أمامه . لقد كان يحشم على صدرها كأنه
السكاوس المفرع كل يوم ، وخاصة بين الثالثة والخامسة وبعد منتصف الليل .
لقد كان يملأ انفاسها ضيقاً وينشر الظلمة امام عينيها . واشتدت به شراستها حتى
اشتكى منها الخدم فصارت تعتذر اليهم في كل يوم مرات ، ويشدد به قلقها فلم
تعد تستقر به على شيء طويلاً . وأخذت تراجع ما في رأسها من القيم بسرعة
جنونية وشكت في الحياة . ولمَ حسن مفتاح ؟ ان حسن مفتاح ليس الرجل
الوحيد في هذا الوجود . وما عيب عامل المصعد إن عامل المصعد قوي
وجذاب وهو مؤدب إلى حد متعب . إن عامل المصعد ليست له حكاية وليست له
اطماع وليس في عينيه بريق خفيف . نعم ، ما عيب عامل المصعد ؟ انه نظيف ولا
شك انه يستحم كل يوم ، فان لم يكن كذلك امكن تعويده على ذلك . ان عامل
المصعد قوي وجذاب ، وهو فوق كل شيء مؤدب كأنه جنتلمان . او النشار
حامي دائرتها النشار لا عيب فيه . متزوج ؟ وماذا يهم ان يكون متزوجاً ؟
ان غير المتزوجين يحملون في عيونهم بصيصاً غير مألوف . كلا . انها لا تطيق ان
تعاشر رجلاً غيباً . كل شيء يغتفر الا الغباوة . عامل المصعد ينقسم كأنه . . .
ان حسن مفتاح يقف عثرة بينها وبين السعادة ، ولكنها رغم ذلك تحبه . لماذا
تتزوج من حسن مفتاح ؟ ؟ ان كآبتها . . . ولم الكآبة ؟ ان بعض النبيذ كالعقيق
المذوب وفيه تفرق الأحزان ولكنه لم يعد . ينفع . النبيذ للمحبين المعاصيد . أما هذا
الضيق الخائق فلا سبيل الى اغراقه الا في الجن الكريه أو بمرارة الويسكي الأشقر
الطروب . ان « تريستيس » شوبان قد غدت تافهة غير ذات موضوع . والبلهوان
الغبي الذي يعزف بصندوقه في الشارع اسخف التانجوات العاطفية ينبغي ان
يتعلم ان السوينج الحامي هو لغة الحب الحقيقية . ولكن حسن مفتاح لا يحب

السوينج الحامي . ترى ماذا يفعل حسن مفتاح ؟ انه لا شك يجوع كما تجوع سوف تسأله في اول مرة تراه : « وماذا تفعل يا حسن حينما تجوع ؟ » وسوف يجيبها في صراحة . يا له من سؤال . انها تعرف ماذا يفعل حسن مفتاح حينما يجوع . تليفون لبدرية او رسمية او فوزية . كلا . تليفون لعابدة ، فكل بنات الهوى اسمهن عابدة . كل ذلك لقاء خمسة ويسكي وهدية آخر الشهر . قوانين للرجال وقوانين للنساء من هذا الذي وضع للنساء شريعة غير شريعة الرجال ؟ ان نظريات انجلز قد تحل مشكلات الانسانية ، ولكنها لا تحل مشكلة مونا ربيع . التاريخ . التاريخ . كل هذا سيزول في النظام الشيوعي . النظام الشيوعي آتٍ لا ريب فيه . سنة التاريخ . يا لحسن مفتاح من معتوه ! واين تكون مونا ربيع حين يأتي هذا الذي لا ريب فيه . الموت للانسانية . الموت للاغبياء . أمن أجل هذا يسميني حسن مفتاح بالفوضوية ؟ من هذا الاحق الذي كتب لحن « كاتاري » ؟ ان مذكرات اللجنة المالية اقرب الى الحياة من هذه النوستالجيا الرخيصة . ان عامل المصعد يحرك فيها نوازع الجنس كلما انفردت به داخل المصعد . لماذا لا ينكسر المصعد نصف ساعة لتجد المناسبة للتحدث اليه ؟ سوف تكف عن قراءة التقارير الجافة وتعود إلى قراءة « الكوليكييون جولواز » كما كانت تفعل ايام ان كانت في مدرسة الميردي ديبه فتقترب بذلك من الحياة اشواطاً . وبعد أن تقرأ « الكوليكييون جولواز » كما كانت تفعل أيام أن كانت في مدرسة الميردي ديبه فتقترب بذلك من الحياة اشواطاً . وبعد ان تقرأ الكوليكييون جولواز ؟ سوف تعرف ما ينبغي ان تقول له عامل المصعد . سوف تعرف كيف تدعوه في يوم راحته إلى نزهة في عزبتها . فان لم تفعل ذلك ... نعم ان قراءة الأدب المكشوف خير من قراءة مضبطة مجلس النواب . لكن حسن مفتاح هو المسئول . حسن مفتاح هو الذي وجه افكارها الى عامل المصعد باللعار . كيف تفكر في عامل المصعد ؟ وماذا يقول الناس ؟ ولكن حسن مفتاح هو المسئول . انها ظلت تصعد مع عامل المصعد شهوراً وشهوراً ، تصعد كل يوم مرات ، ولم تلتفت لحظة الى وسامته . لم تلتفت الى قوته الصريحة التي

تعلن عن نفسها في كل جزء من اجزاء جسمه تحت اليونيفورم الزرقاء . ولكن حسن مفتاح هو الذي لفت نظرها إلى ذلك . الم يقل في ذلك المساء الغريب بعد ان هبطا معاً الى الصالون الكبير : ان عامل المصعد وسيم ؟ لقد اجابت : « اظنك على حق . انا لم احظ ذلك قبل الآن . » قال : « وما اسمه ؟ » لقد اجابت : « عباس » . قال : « الاتعتقدين ان عامل المصعد وسيم ؟ » فنظرت اليه عاجبة لهذا الاحاح ، وخيل اليها ان صوته النفاذ كان انفذ من أي وقت مضى ، وخيل اليها ان نبراته كانت تتهم . واوشكت ان تغضب ، ولكنها قرأت في عينيه شيئاً من الألم والهدوء فأجابت : « اعتقد انه اوسم من رأيت من الرجال » . وذهب حسن مفتاح يلغو بعض الوقت حتى كادت ان تنسى الموضوع . ولكنه عاد اليها يقول : « لا شك انك تترتاحين الى عامل المصعد يامونا ؟ » فأجابت عاجبة : « نعم ، يا حسن » . قال ، وكأنه يتحدث نفسه : « إن عامل المصعد وسيم ؟ » فأجابت مونا ربيع وهي تكتهم عواطفها : « نعم ، وهو مؤدب كأنه جنتلمان ان الابتسامة لاتفارق شفتيه » . وتمنت أن ينتهي الحديث عند هذا الحد . ولكن حسن مفتاح نظر اليها نظرة فيها تهكم واضح وقال : لا بد ان تكافأ الوسامة . ان المجتمع الرأسمالي لا يكافئ الوسامة » . فأجابت متهمكة : « وهل ستكافئون الوسامة في المجتمع الشيوعي ؟ » قال حسن مفتاح وكأنه لم يسمع كلماتها : « ان المجتمع الرأسمالي يقيم المعارض للثيران ويعطي الجوائز لأقواها . لماذا لا يقيمون المعارض للرجال النموذجيين ؟ لماذا لا تكافأ الوسامة » ؟ قالت مونا ربيع متهمكة : « ولكنها تكافأ فعلاً . المرأة الجميلة للرجل الوسيم » . وكأنما احسن حسن مفتاح بأن المعركة قد بدأت فقال بلهجة لاذعة : « أنا لا اشك ان نصف ساكنات المتروبوليتان يتمنين قبلة من عباس » . فأجابت على الفور مونا ربيع : « وهل يغضبك ذلك ؟ ان عباس فخر البروليتاريا » . وففذت الطعنة إلى قلب حسن مفتاح فأجاب متحدياً : « رجال البروليتاريا لنساء البروليتاريا » . وصبت مونا ربيع القهوة مع اللبن فهدأت وهدأ معها حسن مفتاح ، وقالت مداعبة : « هذا ما ينبغي ان يكون ، أما الواقع فمر . أترى السيدة الانجليزية الجالسة

هناك ؟ قال : « نعم » قالت : « كم ثظن عمرها ؟ اجاب : « سبعين » قالت : « اقل قليلا » قال : « وما خطبها ؟ اجابت : « لو ان هذه السيدة استغنت عن الخاتم الذي تلبسه لجاءتها البروليتاريا ، اقصد لجاءها عباس في غرفة نومها ولم يفارقها حتى الصباح » . وتكهرب الجو من جديد فقال متهمكاً : « انبت تغالين في ثمن عباس » . فأجابت : « انه زعيم البروليتاريا » . ونفذت الطعنة الثانية في قلب حسن مفتاح . ولم يجد ما يقوله فأجاب : « اليس هذا نظامك الرأسمالي ؟ » قالت : « نظامي ؟ انت تدسى اني فوضوية » . ولم يتركه غضبه فاضاف : « ان حديقة الحيوان لا ينقصها الاقفص واحد للانسان . وسوف نختار له أعلى نموذج للانسانية » . سألت : « وما أعلى نموذج للانسانية ؟ » قال : « اوسم الناس » اجابت ساخرة دون ان تعي ما تقول : « أو اذكاهم » . ولكن مونا ربيع سرعان ما أدركت انها قصت عليه بأكثر مما يحتمل ، وندمت على ما بدر منها فمدت اليه يدها وتناولت اطراف أصابعه قائلة بالفرنسية : « اصفح عني . اصفح عني . ان من يسمعك يحسب انك تتهمني يا حسن . قل انك صفت » ولكن حسن مفتاح لم يقل انه صفت . وانما ابتسم رغم ألمه وقال : « انا المخطيء . ان اعصابي في حالة توتر دائم منذ شهر . أنا المخطيء . فلننس كل ما كان بيننا . لا تغضي مني يا مونا . ان في هواء اغسطس سماً ينتشر في الصدور . اتعلمين أين رامز الآن ؟ ان رامز منزو في الفيوم . كل هذا بسببي . انا لا أفهم ماذا اصابني في الفترة الأخيرة . انا احطم كل شيء امسه . حتى الجمادات . لقد حطمت قلم الابنوس هذا الصباح لا شيء الا لأنه لم يكتب بالبلاغة التي اردت . ومنذ اسبوع كنت ازور سرهنگ لأقترض منه بعض المال . اتعلمين ماذا فعلت ؟ وجدته في الحمام فصاح بي من الداخل ان افتح حافظته وأخذ منها عشرين جنيهاً ان كنت على عجل . ووقع بصري على انا خزفي ملون في مدخله ، انا هائل . لا افهم ماذا اعتراني ، ولكنني دنوت منه وحملته بين يدي وألقيت به الأرض فتشهم الى الف قطعة . وسمع سرهنگ الصوت فصاح بي من الحمام : « ماذا حدث ؟ » فأجبت : « لا شيء » . وكنت على عجل

فعلاً ولكفى لم انسَ نفسي ولزمت داره حتى يخرج من الحمام فأعْتذر له . ولما خرج ورأى ما كان ضحك وقال : « لا تبتئس . وهل وجدت الآنية الا لتكسر ؟ » قلت : كم دفعت فيه ؟ قال بحسرة خفيفة : « كل ما في خزانة اللجنة المركزية لا يعوض عنه . انه من عصر صلاح الدين » ، ولكنه عاد وضحك وقال : « هذه لعنة زكية حنين لأنني طردتها منذ ساعة . اتكفيك عشرون جنياً ؟ » وعقد الخجل لساني فلم اعتذر بما فيه الكفاية وانصرفت . رامز . رامز . ماذا كنت أقول عن رامز ؟ نعم ؛ انه معتكف الآن في الفيوم ، بين الفلاحين . وأنا الذي الزمته بذلك . لقد احسست بان نفوذه في الحزب يقوى ، وخاصة بين رجال الصف الثاني . قولي يا مونا . هل اخطأت ؟ انا متطرف بما فيه الكفاية واللجنة المركزية ليست بحاجة الى المتهوسين . لو تركت الأمر لرامز لقطع الصلة بيننا وبين حزب الوفد منذ شهرين ، ونحن لا نزال بحاجة الى هؤلاء الوفديين . اتعلمين ماذا حدث ؟ في أكثر من مناسبة ادعو اللجنة للتصويت بيني وبينه فيفوز رامز أو يكاد ان يفوز . يفوز أو يكاد ان يفوز لا فرق بينهما في لغة السياسة يا مونا . ان اللجنة المركزية لا تتسع الا لحسن مفتاح واحد . وقد شككت ان رامز يتآمر لاقالتي . انه الآن يصطاد السمك في بركة قارون أو لعله ينظم الشعر الرديء الذي اقلع عنه حين اشتغل بالسياسة . لقد أعطته اللجنة المركزية مائتي جنيه لينفقهـا على بعض الامور وكان له أخ يوشك ان يدخل السجن في شيك بلا رصيد . فلما اطلعتني على الأمر أشرت عليه بان يفك بمال اللجنة قيد اخيه ثم يدبر المال على مهل ، وقد فعل . ثم اصطدمت به في اللجنة مراراً . انا أقول ١١ يوليو وهو يقول ١٠ فبراير . انه احمق لا يفهم دائماً ما يقول . وحين رأيت انه يكاد يسيطر على الموقف في اجتماع اللجنة انتحيت به جانباً وهمست في اذنه قائلاً : « اسمع يا رامز : اذا لم تسحب اقتراحك في هذه الجلسة بالذات اهتمك علناً باختلاس أموال اللجنة » ، فاصفر وجهه وزاغ بصره ولم يقاوم ، وسعى الى مكانه من المائدة ثم قال بصوت

شاحب انه قد تذكر بعض الامور التي تجعله يشك في سلامة اقتراحه فهو لذلك يسحبه ويؤيد السكرتير العام . وشخص الجميع اليه عاجبين . ولكنه أضاف بهدوء ان الأمر خاص باستعداد بعض الخلایا ، وسوف يضع أمام اللجنة تقريره في مدى اسبوع . ثم استأذن وانصرف فانهارت المعارضة ، وأخذت اللجنة برأيي . وهو لا يزال متوارياً في اليوم الى هذه اللحظة . ترى هل اخطأت ؟ كم كنت نذلاً . لقد ندمت على ما كان مني بعد ان فرغت الى نفسي ، ولكن الأمر كان جد خطير . ترى هل اخطأت ؟ . قالت مونا ربيع : هذا يتوقف على خطورة الأمر . أما انا فلا أجد في الدنيا كلها خطورة تبرر النذالة . ان من يسمعك يقول انك حددت ١١ يوليو ليكون يوم القيامة . ولكن حسن مفتاح عض على شفته السفلى وأجاب مضطرباً : « مجرد مؤتمر ، ولكنه مؤتمر كبير » . قالت : « ان أكبر المؤتمرات لا يبرر ما فعلت يا حسن . لا ريب ان اعصابك متوترة من كثرة العمل » . اجاب : اعصابي ؟ نعم ، اعصابي متوترة . هو كذلك . نعم يا مونا من كثرة العمل . قالت : لا بد ان تعتذر لرامز . أجاب : « انه لن يشق بي بعد الآن . الخطابات لا تكفي ، ثم ان مصلحة البريد قد بدأت تسلم خطاباتنا الى القلم السياسي . ان البلاد في طريقها الى الجحيم يا مونا . اسمعت بهذا ؟ ان مصلحة البريد تسلم خطاباتنا الى القلم السياسي . ان الشفرة لم تعد تنفع فالخطابات لا تصل . سوف اذهب بشخصي الى رامز وأعتذر له بما فيه الكفاية . ان القانون يحرم فتح الخطابات الا بأمر القاضي ، ولكن القلم السياسي يفتح خطاباتنا . ولكننا اقمنا مصلحة بريد خاصة بنا » . ثم نظر الى السقف وأضاف ساهماً : يا الله . جحيم . جحيم . جحيم . قريباً سنخرج من هذا الجحيم . قالت مونا ربيع : انس السياسة قليلاً يا حسن . الا يذكرك ١١ يوليو بشيء ؟ اجاب : بلى . عيد ميلاد الحبيبة . قالت : « وما هديتي ؟ » وأوشك ان يحجب : « مفاتيح المملكة » ولكنه أجاب : « مفاتيح الجنة » . وأوشكت ان تقول : « لست على عجل لدخول الجنة » ولكنها ضحكت وقالت : « وهل للجنة الا مفتاح واحد ؟ » قال : « اهذا رأيك ؟ » اجابت : « نعم ، وأنا املكه فعلاً » .

قال : « أهذا رأيك حقاً؟ » قالت : « وهل تشك في ذلك ؟ » اجاب : « كلا . كلا . لست اشك . لست اشك » . قالت : « لم تطيل النظر الى السقف ؟ » اجاب كالحالم : « مفتاح الحياة . انا مفتاح الحياة . ماذا تقول الآية في الانجيل ؟ انا البداية انا النهاية . انا الالف انا الياء . انا الكلمة . اتفهمين معنى هذه الآية في الانجيل ؟ انا البداية انا النهاية . انا الالف انا الياء . انا الكلمة . اتفهمين هذه الآية » . ؟ وسمعت مونا ربيع كل كلمة فاه بها ، فاعتراها جزع شديد ، واستفهمت : « ماذا تقول ؟ » قال : « الا ترين التصميم المتكرر في مصيص السقف ؟ » قالت : « نعم اراه . انه حلية لا معنى لها » قال : « بل هذا مفتاح الحياة . والدائرة في وسط السقف هي الحياة . انه صليب رأسه جبل مشنقة . عجيب ان يهتدي اجدادنا الى مفتاح الحياة . لقد وجدوه مدفوناً في الهرم الأكبر . ان الحياة لم تتغير كثيراً بعد اجدادنا . عجيب . ان المشنقة لا تزال مفتاح الحياة ، اما الصليب فقد انقرض . صليب اسبارتكوس انقرض » . ورأت مونا ربيع بعض القطرات تلمع على جبينه . وسالت على لحيته من خده قطرة . وتملكها الجزع ولكنها ذهبت تستوضحه قائلة : « لست أفهم . كيف تكون المشنقة مفتاح الحياة ؟ » . اجاب حسن مفتاح : « وكيف يكون الصليب مفتاح الحياة كما يقول المسيحيون ؟ » قالت : « هذه نظرية الفداء في المسيحية » اجاب : « وهذه نظرية الفداء في الشيوعية » . قالت : « المسيحي يقول : لولا صلب المخلص لما دخل المسيحيون الجنة » . اجاب : « وأنا أقول : ولولا شئق المخلص لما دخل الشيوعيون الجنة » . وامتدت يد حسن مفتاح الى رباط رقبته فجذب عقده الى أسفل ثم فك أزرار ياقته ، ومسح شيئاً من البلل تجمع حول عنقه وعاد يقول : « ألا تفهمين يا مونا ؟ ان هذه لعنة قديمة كتبت على البشر . الاتفهمين ؟ أين نكون الآن لولا أن سقراط شرب السم ؟ لولا ان جيوردانو برونو أحرق حياً ؟ لولا ان روسو مات شريداً ؟ ان الانسانية تلعق جراح ابطالها . أين نكون الآن لولا الفداء ؟ ألم يقولوا ان الموت باب الحياة ؟ الاتفهمين ؟ الفداء .

بل ان هذه اللعنة كتبت على الآلهة كذلك . أين كان الآلهة حين استبد جوبتر في السماء لولا ثورة بروميشيوس ... لولا ان بروميشيوس غلغل الى صخرة في جبال القوقاز وأكلت كبده النسر ؟ أما مفتاح الخلاص فيتغير مع الزمن . كان الصليب ، ثم كان جب الأسود ، ثم كان الزيت المغلي ، ثم كان سيف الجمعاء ، ثم كان الخازوق والنار وهو اليوم المشنقة . وفي أمريكا يستخدمون الكرسي الكهربائي فهم يسرون مع الزمن . ولكن الذي لا أفهمه ان أجدادنا جمعوا بين الصليب والمشنقة كما ترين . انظري » . ونظرت مونا ربيع الى المصيص النقي في السقف العظيم ولكنها لم تبصر غير تصميم معقد متكرر لم تستطع استبانته . وأرادت ان تجيب ولكنها لم تعرف بهم تجيب فهزت رأسها مراراً . ان حسن مفتاح لا شك مريض . انه بدأ الحديث بالغيرة الحمقاء وانتهى أخيراً الى المشانق . انه يقول انه أقصى رامزاً عن اللجنة المركزية ، وهي تسمع أن رامزاً ليس كونه اخلاصاً للحركة . ولكنه يشك في رامز وهذا من حقه . السياسة لا مجال فيها للعبث فهو فيها إما قاتل أو مقتول . فاذا كان شكه في رامز كشكه في عامل المصعد فهو مريض لا جدال في ذلك . انه بحاجة الى الراحة . ولكن ليس حسن مفتاح على حق في ريبته بعامل المصعد ؟ ان مونا ربيع تتذكر فعلاً انها كانت تتلطف مع عامل المصعد تلطفاً ملحوظاً ، وتعطيه تذكار السينا الفائضة والشكولاته الفائضة بل وبدر المال من حين الى آخر . فلعل حسن مفتاح قد لاحظ كل ذلك . ولكن حسن مفتاح معتوه . بل هو معتوه . انها لم تفكر في عامل المصعد الا كعامل للمصعد . انها تحب الخدم والخدم يحبونها . كيف يجوز لحسن مفتاح ان يغار من عامل المصعد ؟ بل كيف يجوز لحسن مفتاح ان يهينها على هذا النحو . ولكن حسن مفتاح على حق فالاجساد لا تميز بين عامل المصعد وأصحاب المصاعد ، وهي ترتاح فعلاً الى عامل المصعد . وانما ينبغي ان ينزوي حسن مفتاح . فلينزو في الفيوم مع رامز . فلينزو في عزبتها في الفيوم . كم هو متعب ، ترى ماذا اصابه ؟ انه غدا كثير الشكوك في الشهر الأخير . انه يصر

على ان السفرجي النوبي المعجوز يتجسس عليه لحساب القلم السياسي . انه يصبر على ان السيد اللبناني الذي لم يدخل الصالون الا مرتدياً « البلسفورز » يتجسس عليه لحساب السفارة البريطانية . وساوس . وساوس . لعنله على حق في وساوسه . قالت : « اسمع يا حسن ، انت بحاجة الى الراحة فسافر الى الفيوم . انت لم تترك بركة قارون ، سوف تجد بركة قارون حياتك » . فانتفض حسن مفتاح وصاح غاضباً بصوت مسموع : « كلا . كلا . انا لست بحاجة الى الراحة . بركة قارون ؟ ماذا تقصدين ؟ لماذا تريدن ارسالي الى بركة قارون ؟ بركة قارون ؟ مستحيل » . ثم حملت فيها و اضافت : « حتى انت يا مونا ؟ ماذا تقصدين ؟ انا لست متمعباً . نعم سوف تجد بركة قارون حياتي . انا راضٍ بحياتي . انا لا اريد ان أتغير . لماذا تريدن ارسالي الى بركة قارون ؟ » ثم انخفض صوته كأنه يحدث نفسه : « لقد تعبت مرة ودفعت الثمن غالياً . وكانت بركة . أكبر من بركة قارون . أكبر . أكبر . لن أتعب ثانياً . لن أتعب قبل ١١ يوليو . لقد طلبت الراحة مرة .. أتذكرين أيام المونسينير ؟ لم أكن قد رأيت السلسلة . قلت : لماذا لا ترى السلسلة ؟ ورأيت السلسلة ، وعند السلسلة تجددت حياتي . كلا . كلا . انا لا أريد أن اتجدد . الاتفهمين ؟ ألم أقل لك اني اصاب بدوار كلما اجتزت كوبري قصر النيل ؟ ان منظر الماء يصيبني بالدوار . كلا . كلا . انا لا أريد ان اتجدد » . وفيما كان يقول كل ذلك رأت مونا ربيع اسنانه تبرز كأشع ما يكون ، ولقد رات بروز اسنانه من قبل في حالات الهياج ، ولكنها لم تخف منه قط بقدر ما خافت هذه المرة . وخيل اليها ان نوراً داخلياً قوياً ينبعث من حدقتيه ، بل خيل اليها انها ترى انسانيه يشفان عن الانسانيين الآخرين . ولكن سرعان ما اغمض جفنيه وأسند رأسه الى ظهر الفتيل وظل ساكناً دقائق طويلة حتى استرد هدوءه كاملاً ففتح عينيه وابتسم لها أعذب ابتسامة ونهض فنهضت ، وأمسك يدها في يده وقال مطرقاً : « مونا ، انا لا أطلب الا شيئاً واحداً » قالت يائسة : « وما هو ؟ » أجاب وهو مطرق : « ان تغفري لي » . قالت يائسة : « غفرت لك » . قال وهو لا يزال مطرقاً كأنه لا يقوى على

مجاهدتها : « انا متعب . آه لو عرفت يا مونا . سوف تعرفين كل شيء يوماً ما . بعد .. سوف تعرفين كل شيء يوماً ما . أما الآن فلا . وعندئذ سوف تعرفين لي . بل سوف تبكين من أجلي . وان كنت تعجدين الصلاة فسوف تصلين من أجلي . أنا رجل ملعون يا مونا . ملعون أتعلمين ؟ ابتعدي عني . اهربي مني . اتعلمين ؟ كلا يا مونا . لو هربت مني قتلت نفسي . ان حبي لك ... لا داعي للحديث فأنت تعرفين حبي لك . كل ما أطلبه ان تغفري لي . ان تصبري . اصبري يا مونا . الا ترين اني رجل مريض ؟ غداً تعرفين كل شيء ، اما الآن فلا . ما كان ينبغي ان ازورك اليوم » . ثم مال على يدها وقبلها قبلة عفيفة ، وخيل الى مونا انه ترك بعض روحه في يدها . وانصرف تتبعه نظراتها اليائسة . وفيما هو خارج من الباب الكبير انحنى له عامل المصعد بأدب وقال : « طاب مساؤك يا مفتاح بك . » فتوقف حسن مفتاح عن السير وحلق فيه طويلاً ثم ابتسم ، ومد يده الى جيبه فلم يجد الا جنيهاً ممزقاً بالياً فناوله اياه وأجاب : « طاب مساؤك يا عباس » ثم اختفى قبل أن يفيق عامل المصعد من ذهوله لهذا الكرم المفاجيء .

ذلك هو المساء العجيب الذي لم تنسه مونا ربيع . وقد جاءها التليفون في أواخر الليل باعتذارات جدد من حسن مفتاح . وبنجوى الحب كذلك . وفي تلك الليلة بالذات اشفقت عليه ايما اشفاق . فقد كانت تعلم ان في حياته سرّاً خطيراً من تلك الاسرار التي تتساوى امامها الحياة والموت . وأحست احساساً قوياً بان سر حسن مفتاح مدفون في بنسيون رويال الذي اخلف فيه موعده بعد ليلة المونسينيير . وذكرت كيف اضطرب حسن مفتاح من قبل لذكر السلسلة وكل ما له صلة بالماء . ولكن بأسها من الوقوف على هذا السر كان تاماً فلم تطل التفكير فيه . كانت الخيوط التي تهدي اليه قليلة مفككة مبعثرة . فلم تجد نفعاً في التفكير فيه . ذلك هو المساء العجيب الذي لم تنسه مونا ربيع . ولم تنس معه فورات الغيرة الحقاء التي لازمت حسن مفتاح بقية الصيف وما بعده . ولقد كانت فوراته

أقرب الى الشكوك الكريمة منها الى غيرة المحبين ، فقد كان يرتاب في كل شيء . وصار يتلفت حوله بلا انقطاع . وصار يتوهم بلا انقطاع . وصار يجادل بلا انقطاع . ولكن سرعان ما كانت تغفر له حين يجلس بين يديها مهدلاً بعد كل مشاجرة ، صاغراً وقد ارتاحت لحيته على قميصه المفتوح وتدلّت ذراعاها بجانب الفتيل كأنهما ذراعا شبح مفلوج . انها كانت تحب ان تراه في ذلك الوضع المستأنس بعد كل شجار وتجذ في منظره ما يذكرها بالخالدین . لقد كان يتعذب . ولقد كانت تعلم انه يتعذب . لقد كان يستسلم صاغراً لقوة رهيبة سوداء تملكه وتوحي اليه بان يحطم كل ما يدخل في متناوله . وكان يحس بقدوم هذه القوة من مقدمة جمجمته فيما بين عينيه ويتتبع انتشارها على مراكز مخه حتى تستولي عليها جميعاً ، وكلما حاول ردها استبدت به أضعافاً . فاذا ما تملكته هذه القوة الرهيبة السوداء كان بصره يشتد نفاذاً ، وكانت حواسه تتفتح باكثر مما تتفتح الحواس وكان نشاطه يفيض وكان يرى أشياء كتلك التي يراها من يصرعهم النصرع . ولكنه بعد ذلك تعلم كيف يقلع عن الشجار وكثر صمته وعادت اليه مرونته الأولى يعد ان أسرف في العناد . وعادت يتحدث في هدوء ويحلم في هدوء . ولم تدر مونا ربيع ان كانت السحابة السوداء التي جللته قد انقشعت حقاً أم انه لا يزال يكابد لابعادها . وانقطع عن الرقص وانقطع عن التدخين . ولكنه أفرط في الشراب .

أما مونا ربيع فقد تنبّهت الى وجود عامل المصعد . وكفت منذ ذلك المساء عن اهدائه تذاكر السينما وقطع الشكولاته ، ولكنه دخل في افكارها دخولاً صريحاً . دخل في افكارها في أوقات غير مألوفة . دخل في افكارها في أماكن ما كان ينبغي ان يدخل فيها . وجزعت هي لذلك بعض الشيء ، لأن مقام حسن مفتاح في قلبها قد تضاعل أمام هذا الحيوان الجميل كما كانت تسميه ، بل لأن جسدها الجائع كان يزيل الحوائل بينها وبينه يوماً بعد يوم ، وجعلها تفكر في الانتقال من فندق المتروبوليتان الى فندق ميناهاوس ، وان لم تجد

الهمة قط لتنفيذ هذه الفكرة .

ثم حدث حادث زلزل كيانها ، فقد جاء ذات صباح تليفون من ناطرة روضة الأطفال يقول ان ماجدة طريحة في فراش صغير بجناح منعزل وبجوارها الطبيب يقول : « احتقان في اللوزتين » . وكانت ماجدة تتكلم بعسر شديد وكانت انفاسها متحرجة . فلما انصرف الطبيب الحت مونا ربيع حتى عادت بماجدة الى مكانها على الأريكة ذات الغطاء التيلي الأخضر بغرفتها في المتروبوليتان . ولزمت مونا ربيع ماجدة بقية النهار تناولها الدواء وتقص عليها الحكايات ولزمتها طرفاً من الليل حتى نامت . فلما كان الصباح استيقظت مونا ربيع على انات صغيرة مكتومة . ووقفت تتطلع الى ابنتها فقرأت في عينيها دلائل خلعت قلبها خلعاً ، وكانت ماجدة تتحدث بيديها وتستنجد بعينيها وكان رأسها يتلوى من فرط الألم ، واقتربت باصابعها من عنقها ، واستطاعت ان تقول بعد جهد شديد : « ماما ... ماما ... الشوك . » فأدركت مونا ربيع لوهلتها أن ماجدة مصابة بالدفتريا لا باحتقان اللوزتين ، فبادرت الى التليفون تدعو كل من تعرف من الأطباء . وعادت الى ابنتها فوجدت انفاسها أشد اضطراباً من ذي قبل ووجدت عينيها تستنجدان بالجدران الصماء . وبعد قليل هدأت الأنفاس دون ان تنتظم وثبتت العينان فكأنهما زجاج معقد نادر الوجود ، وشابت الوجه خضرة خفيفة . وأمسكت مونا ربيع بيدها فاذا هي باردة ولكن النبض البطيء دل على الحياة . فخرجت الى الدهليز حافية القدمين فلم تجد الا البساط النبيذي المفروش بطول الممشى ووجدت صحف الصباح . وعادت الى غرفتها كالجنونة . وقصدت الى النافذة بحركة آلية وأطلت منها كأنها تريد ان تستغيث بالمارة ولكنها لم تفعل بل عادت تدق الجرس وتقطع ما بين سريرها ومائدة الزينة جيئة وذهاباً ، ثم انكفأت على سريرها مجهشة بالبكاء . وهنا دخل طبيبان كلاهما في الثلاثين وسعيا في صحت الى فراش ماجدة ، وبعد ان القيا عليها نظرة عجلت تبادلا النظر وما قال أحد شيئاً . وخرج احدهما مسرعاً أما

الآخر فجلس على حافة الفراش يحس النبض ويحاول التنفس الصناعي . ومرت دقائق عشر كأنها الدهور وعاد بعدها الطبيب الآخر يحمل بعض الأدوات ومن ورائه خادم نوبي يحمل ماء مغلياً . قال الطبيب الأول بالانجليزية : « لا أمل » . قال الطبيب الثاني : « فلنجرب » . وسمعت مونا ربيع هذا الهمس الخشن ولكنها لم ترفع رأسها عن الفراش . قال الطبيب الأول بالانجليزية : « لقد انتهت » . وسقطت الحفنة من يد الطبيب الثاني . وسمعت مونا ربيع كل شيء ، ولكنها لم ترفع رأسها عن الفراش . ودب الطبيب الثاني خارجاً . أما الأول فقد أخرج من جيبه مذكرة سطر فيها شيئاً ثم نزع الورقة وتركها على حافة الفراش ذي الغطاء الأخضر حيث كان يجلس . ثم تسلل خارجاً ليتم الاجراءات .

وكانت كل الاجراءات قد انتهت ، انتهت تماماً ، حين دخل حسن مفتاح من الباب الدائر نحو التاسعة مساء . ووقف تحت شباك الاستعلامات في فندق المتروبوليتان ينتظر مونا ربيع . ورآها تهبط السلم ببطء شديد . ورآها تتهادى في اسراف شديد . ورآها في ثوب من الكريب دي شين بسيط عليه طيور صغيرة حمراء مطبوعة تطير . ولم يكن على علم بشيء مما كان . وابتسم وابتسمت . وقادها من يدها الى الصالون فائقادات . وحين ودعها بعد ساعة عند الباب الدائر لم يبتسم ولم تبتسم ، وإنما افترقا دون كلام .

ولم يبدُ على مونا ربيع بعد ذلك حزن أو تفجع ، ولكن بدا عليها ذهول شديد . وكثر ابتسامها ولكنه كان ابتساماً لا يفهمه راؤوه . وكثر وقوفها مع اطفال الشوارع فكانت تربت على رؤوسهم وتفرك لهم شعورهم وتسألهم عن ذويهم وتجزل لهم العطاء . وعادت اليها بعض احساساتها الدينية الأولى التي غرستها في قلبها راهبات المدرسة ثم اقتلعتها الأيام والليالي . وفكرت مرتين أو ثلاثاً ان تزوي في دير من أديرة المسيحيات ولكنها عدلت عن ذلك .

واتجهت بقلبها الى القديسات ، وأحبت ان تزور مقام السيدة زينب ولكن
 قذارة الحي صرفتها عن ذلك . واستبدت بها الرغبة في الخلوص ذات عصر
 فخرجت الى الشوارع تهم هياناً حتى انتهت الى ترام رقم ٨ فقفزت فيه من محطة
 شيكوريل دون ان تعرف لذلك سبباً . ولم تكتثر لعلتها كثيراً . وسعى
 بها الترام حتى بلغ سينما دولي ، وبعد سينما دولي فقط أدركت انها تقصد كنيسة
 سانت تيريزا ، وعجبت لنفسها كيف تدخل كنيسة سانت تيريزا . ودخلت
 كنيسة سانت تيريزا ، وقرأت بين الأسماء أسماء مسلمين . واشتغلت افكارها
 فترة بمكانزم الشفاعة ، وبنت وراء كل اسم قصة من قصص الحياة . ص . ع .
 يشكر سانت تيريزا ولكنه لا يبدي الأسباب . ترى لماذا لم يكتب ص . ع .
 اسمه كاملاً ولماذا لم يبدي الأسباب . ؟ لا شك انه خجلان أمام نفسه أو خجلان
 أمام الناس . ولكنه لم يخجل ان يقول لسانت تيريزا الحقيقة كاملة . لعل زوجته
 المحبوبة فرت مع صديقه المحبوب فصلى ونذر لعودتها لوحة من الرخام و«دسته»
 من كبار الشموع ، أو لعل بنته سارت في طريق الغواية فصلى ونذر لتوبتها ،
 أو لعل زواجه لم يشمر خلفاً بعد عشرة أعوام وهو يطلب الخلف . لعل . لعل .
 جرجس سيدهم يشكر سانت تيريزا لأنها شفت وحيدته البرت جرجس سيدهم
 من التيفود وقد كان حرياً به ان يشكر الطبيب لا سانت تيريزا لأن القديسات
 لا يتدخلن الا في الأمراض المعجزة . وبمناسبة الأطباء ماذا فعلت مونا ربيع
 لطبيب المدرسة الذي قضى على ماجدة . انها لم تفكر حتى في ارسال خطاب الى
 الجهات المختصة . ولكنها فكرت - فكرت فقط - في الاقتصاص منه بيدها .
 في ضربه بالرصاص . ولكنها لم تفعل بل قصدت الى سانت تيريزا . وعبدالسلام
 بك ربيع حين تسلم خطابها كان كريماً جداً فمر بالمتروبوليتان وعزاها كأن
 الأمر لا يخصه شخصياً . ومن يدري فلعله قد ابتهج في قرارة نفسه لموت ماجدة
 لأن موت ماجدة قد وضع حداً لكثير من الاشكالات المدنية في قابل الأيام .
 ومهما يكن من شيء فقد احست مونا ربيع وهي جالسة امام المذبح تتأمل

الصليب الجسيم وصور القديسين الملونة انها مرتفعة عن مستوى البشر ، فهي ما جاءت لتطلب شيئاً ، وانما جاءت لمحض الزيارة . ولا شك ان سانت تيريزا سوف تفرق بين الزائرين الذين يطلبون والزائرين الذين لا يطلبون . ولكنها رغم ذلك لم تصل . فقد كانت لا تعرف كيف تصلي . ثم ان افكارها كانت مشتتة ، ولعل تفاهة العبارة شتت افكارها . وحاولت ان تقرأ الفاتحة ولكنها خجلت ان تقرأ الفاتحة في دار المسيحيين . وحاولت ان تتلو ابانا الذي ، وكانت تعرفها في حداثتها باللاتينية عن الراهبات الفرنسيات فلم تتذكر الا عبارات ممزقة ، ثم خجلت أمام نفسها لتلاوة فاتحة المسيحيين . واجتهدت بعد ذلك ان تنصرف عن الصور والتماثيل والقديسين والقديسات والانبياء والصلوات المعروفة وان تتجرد بروحها أمام الله ولكنها لم تستطع فخرجت من الكنيسة لا تدري اقلوم نفسها ام تلوم سانت تيريزا . وما ان بلغت المتروبوليتان حتى كان لها ما ارادت من الاستغراق الكامل في « اخلاق » سبينوزا .

ولكن فترة الذهول المجتهد بعد اسابيع واعقبها وتلتها فترة النشاط العجيب الذي لفت نظر حسن مفتاح . فقد عادت مونا ربيع الى الحياة العامة ، وكان لظهورها في المجتمعات ضجة كبرى كتبت عنها « روزاليوسف » و « المصور » و « الاثنين » ، واشتركت في أكثر نوادي القاهرة . وسرت بها صديقاتها القديمت والتف حولها الرجال . وتجددت عنها الاقارب بعد ان نسيها الناس زمناً . ولم يكن في المدينة واحد يحفل صلتها بحسن مفتاح ، فقبل تحاصفاً ، وقيل هي تبحث عن زوج ، وقيل ان الشيوعيين خيروا حسن مفتاح بين اللجنة المركزية ومونا ربيع ، وقيل بل أوفد الشيوعيون مونا ربيع لتبشرف الارستقراطية المصرية ، وقيلت اشياء اخرى كثيرة تشبه القصص البوليسية منها ان مونا ربيع مجنونة سمحت ماجدة بعد ان حاولت ان تسم زوجها السابق لأن ماجدة كانت الحائل الوحيد الباقي بينها وبين حسن مفتاح ، فلما ان رأى حسن مفتاح مونا ربيع توزع السموم باليمين واليسار خشي على حياته ووضع جديداً

لصلته بها . ولكن هذه الاشاعة لم يصدقها الا نفر قليل من اصدقاء عبد السلام بك ربيع . . وقيل ان مونا ربيع فنانة كبرى ارادت ان تختبر الحياة اختباراً مباشراً فنزلت الى البروليتاريا واستأجرت لها استوديو بحى بولاك كان في ذات الوقت مكاناً للرسم ومباءة للفجور الذي لم يسمع بمثله انسان ، فلما أخذت من الحياة المادة التي تشتهي عادت الى قواعدها غير سالمة .

ولكن الناس لم يلحظوا شيئاً واحداً هو كثرة تردها على الصحفية الغامضة صفية غندور وجماعات الخدمة الاجتماعية التي بلغ عدد البنات بها نحواً من خمسمائة بنت أكثرهن يشرفن على المشاغل ومراكز المعاملات . كذلك كانت مونا ربيع تتردد على اوجيني جرس سكرتيرة المعاملات وعلى جماعات متفرقة من الممرضات . ولم تشغلها كل هذه الاتصالات عن الظهور في الحفلات الخيرية التي تقيمها مبرات الارستقراطية في اوبرج الاهرام وحفلات العدس في الزمالك حيث يباع الورد لمصلحة ابناء السبيل . ولكن مونا ربيع كانت تستتر وراء جماعات البر لتكتيل العاملات والمعاملات في مراكز مترابطة تشرف عليها هيئة تحت الأرض . ولم يكن حسن مفتاح يعلم عن نشاطها الخفي شيئاً الا انها تطلب منه آلاف النسخ من كراسات اللجنة ومنشوراتها . ولم تدل هي اليه بشيء ولم يتطفل هو بالسؤال ، ولكنه أحس احساساً واضحاً انها تشتغل بالسياسة لا بالبر ، حتى كان يوم ١٥ اكتوبر فخرجت صحف الصباح تعلن اضراب الممرضات في القاهرة والاسكندرية والمنصورة بين ذعر الخاص والعام . واذا بصحيفة «السلام» تنشر صورة قديمة لمونا ربيع تحت علامة استفهام كبرى وتساءل : أهى وراء الاضطراب ؟ ونحو العصر كانت مونا ربيع مع حسن مفتاح وصفية غندور في مطعم « البلفيو » على طريق الاهرام يتباحثون فيما ينبغي عمله اذا اعتقل البوليس مونا وصفية ، وتم الاتفاق على ان تتم اللجنة المركزية الاضطراب حتى تخفض ساعات العمل الى اثني عشرة ساعة على أكثر تقدير ، ويعترف بحق الراحة الاسبوعية ويضاعف أجر العاملات بالليل . ولكن البوليس لم يعتقل

مونا ربيع وصفية غندور وانما اعتقل حسن مفتاح وسعدية الطويل اسبوعاً كاملاً ظناً منه ان الاضراب تديره اللجنة المركزية . وانتهى الاضراب باستسلام المستشفيات على طول الخط رغم تدخل رجال الأمن العام .

بعد ذلك لم تصب مونا ربيع بصداق واحد ، ولا تقلبت في فراشها بعد منتصف الليل ولا خرجت الى الشوارع بعد الظهيرة محتقة جوعانة الى شيء تعرفه حق المعرفة وتنكره كل الانكار . بعد ذلك لم تشك مونا ربيع من الفراغ الكئيب الذي كان يحشم على صدرها وينتشر في رأسها الدقيق . بعد ذلك استردت مونا ربيع توازنها الذهني واقتربت من الصفاء درجات . وكانت ماجدة آخر دعامة في صرح حياتها الخاصة . وانهارت الدعامة فانهار الصرح . وأحست مونا ربيع ان ماجدة قد ماتت في الوقت المناسب ، فلو لم تمت ماجدة بالدفتريا لمانت مونا بالميلانكوليا . وكانت مونا ربيع تعلم ان حسن مفتاح هو الحل الوحيد . وبعد ان خافت من حسن مفتاح علمت ان عامل المصعد هو الحل الوحيد . وبعد ان خابت من عامل المصعد علمت انها لا تصلح للحياة . فلم يكن في مقدورها ان تجلس في تراس الكونتنتال وعيناها تقولان : ايها الرجال ، هل من يريد ان يعيش . وتمشى في بهو شبرد وعيناها تقولان : ايها الرجال ، هل من يريد ان يتزوج . أما ماجدة فقد وقفت في حياتها كما يقف عمود وحيد من المرمر الصافي وسط الطلل الخرب شاهداً على ما كان . ولقد هوى العمود الوحيد فأراحها من صيانة هذا الأثر الثمين . ولقد تعلمت من حسن مفتاح ان الفعل الماضي وحده لا سبيل الى محوه من كتاب الوجود فلم تحزن على موت ماجدة الا بما تمليه اللا ارادة . وبعد ان ذهلت شهراً أفاق لتتأمل حياتها الجديدة فلم تَرَ امامها الا ان تتزوج من حسن مفتاح فوراً ، فوراً ، فوراً ، فلستأنف ما كان لها من حياة خاصة وان تنزل جملة عن حقها في الرجال وتبدأ حياتها العامة . وقد سلكت السبيل الأخير دون أسف عظيم . ومنذ ان بدأت مونا ربيع حياتها العامة لم تصب بصداق واحد ، ولا تقلبت في فراشها بعد منتصف الليل ولا خرجت الى الشوارع بعد

الظهيـرة مخـتفـة جـوعانـة الى الشـيء الـذي تـعرفـه حق المـعرفـة وتـنكـره كل الانـكار .
وبـعد ذلـك لم تـشك مـونا ربيع من الفـراغ الـكـثيب الـذي يـحـثم على صـدرها وينـتـشر
في رأسها الدقيق . بـعد ذلـك اسـتردت مـونا ربيع توازنـها الذهـني واقتـربت مـن
الصـفاء درجـات .

وانـدجـت مـونا ربيع في اللـجـنة المـركـزية يوم خـرج نـعيم من السـجن . وكان
أول ما فـعلـته ان عـادت بـرامـز من عـزلـته في الـفـيوم بـعد ان اقـرضـته سـبعين جـنيهاً
يـكـمل بـها المـال الـذي اخـتـلس . واجـبرت حـسن مـفتاح على الـاعتـذار اليـه كـتـابة
وشـفاها . ولـكن رامـز الـثـاني لم يـكن رامـزاً الأول ، فـقد غـاضت حـيويتـه وطـال
صـمـته في اجـتمـاعات اللـجـنة ، وأدركـت مـونا ربيع ان فـجـيعـته في الطـبيعـة الانـسانـية
كانت ابلـغ من ان تـرام . وحين رأت مـونا ربيع ذلـك اشـتد عـطـفـها عليـه وأقـسمت
لـه ان تـكون الى جانـبه بالحق او بالباطل لو اسـتـخدم حـسن مـفتاح هـذا السـلاح
مـرة اخـرى . ان حـسن مـفتاح لـيس بالرجـل الـكـامـل ، ولـكن اشـبـهت مـونا في
سـلامـة عـقلـه . ولـسـوف تـقف بـين اعضـاء اللـجـنة المـركـزية وتـقول : « ايـها الزمـلاء !
ان زعيمـكم مجـنون . اتـفـهـمـون ؟ مجـنون . وعـندي الدليل على ذلـك . لـقد انـتـخبـتم
مـجنوناً ليقـود جمـوع الشـعب الى مـصـيرها . لـقد انـتـخبـتم مـجنوناً ليصنـع التـاريخ .
اعـزلـوه قـبل ان يـقـودكم الى الهـلاك الـحقـق . اعـزلـوه قـبل ان يـجـعل مـن التـاريخ
مـسـرحاً للمـجانين » . انـها كانت تـحب ان تـحتـقر حـسن مـفتاح من صـميم فؤادها لأنـها
كانت تؤمن بـكـود الجـنـتـلمان حـتى في السـياسـة . ولـكنـها ارجأت احـتـقـاره لأنـها لم
تـكن تـعلم فـيم كان الخـصـام حـول ١١ يـوليـو . فلما دـخلـت اللـجـنة المـركـزية وعـرفت
ما سـوف يـكون في ١١ يـوليـو اقـشـعر بـدنـها وأكـبرت حـسن مـفتاح . ولـكنـها لم
تـفـقد عـطـفـها على رامـز رـغم ذلـك . وحين قـلبـت مـونا ربيع مـضـبـطة اللـجـنة
المـركـزية في تلـك الـجـلسـة المشـهـودة وقـرأت فـيها قـول حـسن مـفتاح : « ايـها الزمـلاء ،
ان الخـطـأ جـريـمة . ايـها الزمـلاء ، ان الفـشل انتـحـار ، ايـها الزمـلاء ان سـوء التـقـدير
والخـيـانة سـواء . ان التـاريخ لا يـبنـيه الهـواة . ولـسـوف أقـف ما بـقي من حـيـاتي
على تطـهير صـفـوفنا من عـناصـر الفـشل ومن الـانتـحـاريين ومن الخـونـة العـساـثين » ،

حين قرأت مؤناً ربيع هذا الكلام أكبرت حسن مفتاح ، وعلمت أنه انقضى
الحركة للمرة العشرين بما جبل عليه من قسوة لا حد لها .

ولم تمضِ الا اسابيع حتى كانت فصائل من الشيوعيين تتردد على عزبتها
بالتناوب للتمرن على الرماية . ولم تمضِ الا أسابيع حتى كان بيتها الريفي مكدساً
بالأسلحة واللواريات المسروقة . ولم تمضِ الا أسابيع حتى تشققت سحب فبراير
وظهرت تباشير الربيع . وعاد حسن مفتاح ورامز وبطرس قلادة من مؤتمر
بيروت في الرابع من فبراير ليشرفوا بعد أيام على التجربة .

حين دخلت مدام ماريكا على حسن مفتاح للمرة الثالثة تحمل زجاجة البيرة المثلجة وساندويتشات الانشوجة لم تره بوضوح ، لأن الباب الفاصل بين المدخل وغرفة النوم كان شبه مغلق مما حجز عن المدخل بقايا نور النهار التي كانت تتدفق من الرحاب خلال نافذة غرفة النوم قبل الغروب . وحين اضاءت نور المدخل رأت حسن مفتاح جالساً على الكرسي الاسيوطي الضخم مفتوح القميص وقد قذف بسترته على الأرض في غير نظام ، ووضع قدمه اليسرى على اوراقه الكثيرة المتداخلة فوق المائدة الصغيرة المستديرة . وشمّت مدام ماريكا في المدخل رائحة غريبة ورأت طرف البساط يشتعل اشتعالاً بطيئاً ويجواره بقية سيجارة نصف مشتعلة ، فولولت ولولة غير مفهومة . وجرت الى المطبخ وعادت منه بكوز صبت منه الماء على البساط فأخمدته . ثم توجهت الى حسن مفتاح لتعنفه فوجدته مسترخياً على مقعده مغمض العينين وقد تهدلت ذراعاها على جانبي الكرسي . وخيل اليها انه في غيبوبة فلوت شفتيها وحدثت نفسها بصوت خفيض ثم انصرفت الى مطبخها تحمل البيرة المثلجة وساندويتشات الانشوجة .

ولكن حسن مفتاح لم يكن في غيبوبة وانما كان شديد الصحويتنفس تنفساً مسموعاً كأنه يختنق . وجرت حرارة المساء وقيظ يوليو وأكواب البيرة والضيق النفسي على جبينه وخديه قطرات لمعت تحت النور . وكان ينتقل برأسه المرفوع المسند على ظهر الكرسي الاسيوطي الضخم بين محتويات اوراقه وبين ذكريات الماضي السحيق وبين اشجان الحاضر الرهيب ، ويستعرض في خفة كل من عرف

من الرجال وكل من عرف من النساء ، ويستعرض في خفة كل ما اصابه في حياته من متعة ومن مكروه كأنه يضع الحساب الختامي لحياته .

وكان رغم صحوه الشديد يحس بالاجهاد ، فقد ظل على حاله هذه بين اوراقه هذه منذ الصباح الباكر . وخيل اليه انه يرى القديس نيقولا أمامه ففتح عينيه ولكنه تذكر ان المصيص قد تهشم منذ عامين ، فأغضض عينيه من جديد ، وعاد الى صوره وتأملاته . ان كل شيء قد انتهى . لقد انتهى كل شيء . العمل موزع . الخرائط معدة . العتاد موجود . الخطة موضوعة . ان كل شيء قد انتهى . لقد انتهى كل شيء . حتى قوائم الباشوات الذين سوف يرسلون الى المشنقة ، كلها معدة ، وهي امامه الآن ومعها قوائم الاتهام وقد فرغ من مراجعتها جميعاً . حتى قوائم الزملاء الذين سيديرون البلاد كلها معدة ، وهي امامه الآن ومعها قرارات التعيين وكلها مذيبة بالتوقيع ح . م .

كل شيء معد . بعد غد اليوم العظيم . واسترسل حسن مفتاح في احلامه : مع الفجر تزحف طلائع النور . مع الفجر يزحف جنود الحق . واذا زحفت طلائع النور عمرت الربى واقتحمت الفجاج . واذا زحفت جنود الحق اعطت الخبز والحرية للجميع . الجميع ؟ كلا . لا خبز لمن اجاعوا الشعب . لا حرية لأعداء الحرية . بل الموت لأعداء الحرية . مع الفجر يبدأ التساربخ . وكما بنى مينا مصر القديمة كذلك سوف يبني حسن مفتاح مصر الحديثة . حسن البنساء يبني مصر الحديثة . حسن مفتاح المملكة . حسن مفتاح المهندس الأعظم ، الحسن منه والفتح منه . حسن مفتاح يخرج بعد غد مع الفجر الوليد شاهراً سيفه ليقتل كل التنازين ويحرر الشعب الى أبد الآبدين . ورأى حسن مفتاح بين جفنه المطبق وقرنيته الشاحصة الى الملكوت ملايين الأقفال كلها مستديرة وكلها سوداء وكلها لامعة ورأى فيها ملايين المفاتيح كلها ضخمة وكلها بيضاء ، وكلها لامعة . ورأى ملايين المفاتيح تدور في ملايين الأقفال في وقت واحد واصم الصرير اذنيه فأوشك ان يصرخ ولكن اللوحة تبدلت ورأى حسن مفتاح

ولم يبتسم حسن مفتاح حين رأى الفردوس الأرضي ، وإنما رأى مونا ربيع تقف على منصة عالية غطاها علم أحمر في ميدان العتبة الخضراء ، ومن حولها اثنا عشر محلفاً من أبناء الشعب الحقيقيين كلهم حفاة وكلهم في اسمال وكلهم متجبرون ، منهم عامل ميكانيكي ومنهم فلاح ومنهم غسالة ومنهم حلاق ومنهم سائق ترام ومنهم شرطي ومنهم جندي ومنهم ممرضة ، وآخرون اختلطوا في الرؤيا ، وقد وقف تحتهم على أرض الميدان المغربي باشا وحوله وزرأوه ، وصادق باشا وكامل باشا وفاضل باشا وعاكف باشا وعاطف باشا وعامر باشا وعادل باشا وفهمي باشا ولمعي باشا وشوقي باشا وعزمي باشا وحلمي باشا وعدلي باشا وعوني باشا وعمار باشا ونصار باشا ونجار باشا وستار باشا وعواد باشا وحجاد باشا ومدحت باشا وعصمت باشا وشوكت باشا ورأفت باشا وبهجت باشا وحشمت باشا وحكمت باشا وحشد عظيم من عتاة البلاد خانعة رؤوسهم يطلبون الغفران وحولهم آلاف مؤلفة من رعايا القوم رجالهم يقزقزون اللب ونساؤهم يمضغن اللبان ومونا ربيع من كل ذلك قد وقفت تقرأ على المجموع بصوت قاطع كأنه السيف المسنون قوائم الاتهام . ولم يكن للجنة محام . وفي وسط الميدان كانت مشنقة عالية تؤدي إليها درجات من الخشب العاري ويجوار المشنقة وقف الجلاد . وكان الجلاد قزماً أعرج له شارب اسود كثيف وفم لثيم وعينان ضيقتان . وحين بدأ الحرس الشعبي يقتاد الجناة الى المشنقة اذا بالسماء ترعد من كل جانب واذا آلاف الخيول عليها آلاف الفرسان شاكبي السونكي مصفحة صدورهم يتدفقون من شارع محمد علي ومن شارع عبد العزيز ومن شارع الأزهر ومن شارع الأزبكية ومن شارع البوستان العمومية ويحاصرون الميدان ويوغلون قتلاً وتذبيحاً في المجموع المولولة المذعورة .

وعندئذ تنهد حسن مفتاح وقال كأنما يحدث نفسه : « لقد اندرتك يا مونا فلم تنتدري . لقد سلمتك التذكرة فلماذا تخلفت عن الطائرة ؟ » ثم رأى حسن

مفتاح لوحة بيضاء كأنها ستار فضي . ورأى فيها مونا ربيع ملقاة على الأرض في بركة من الدماء وقد هشتت جمجمتها حوافر الخيل ، فصرخ وأجهش بالبكاء العالي ودفن وجهه في كفيه . وخرجت مدام ماريكا من مطبخها حين سمعت زحار حسن مفتاح فوجدته على حاله مستلقياً على الكرسي الاسيوطي مهـدـل الذراعين على جانبي الكرسي وقدماه ترتاحان على المائدة الصغيرة المستديرة ، ولكن صدره كان يعلو ويهبط في عنف أليم . ولم تشأ ان توقظه من غيبوبته فانسلت داخل مطبخها من جديد وهي ترسم علامة الصليب وتتلو باليونانية « أبانا الذي في السموات » .

وسمع حسن مفتاح بالباب الخارجي قرعاً يشبه قرع العصا على الزجاج ، فنهض من الكرسي وذهب يجمع اوراقه بسرعة ولهفة معاً وأطل رأس مدام ماريكا الفضي من باب المطبخ وتوجّهت اليه بنظراتها فأشار اليها بالافتح الباب . وتقدمت اليه فناولها ثلاثة ملفات انصرفت بها الى المطبخ وأخفتها بين اوراق قمر الدين في الدولاب العظيم . وعاد حسن مفتاح الى مكانه . وسعت مدام ماريكا الى الباب وفتحته فدخلت منه هبة من هواء فأغلقتة ودخل منه قزم اعرج عاري الرأس له شارب أسود كثيف وفم لثيم وعينان ضيقتان . وانزوت مدام ماريكا في مطبخها واجتاز الرجل الدهليز المؤدي الى المدخل حتى اشرف على المدخل . وحين أحس حسن مفتاح بوجوده نهض ليستقبله ، فلما وقعت عيناه عليه اقشعر طويلاً دون ان يعلم لذلك سبباً ، وحلق فيه طويلاً فخيّل اليه انه رآه من قبل . وأراد ان ينصرف عنه ببصره فلم يستطع كأن قوة سحرية ثبتت عينيه في مكانها ، ولم يقشعر فزعاً ولكنه ادرك لوهلته ان تياراً كهربائياً يخرج من هذا الرجل فيسري في جسده هو بلا انقطاع . وفيما هو يقف لاستقبال الزائر حاول ان يتذكر اين رآه من قبل ، فتدلّى فكّه الأسفل وبدا عليه البله الكامل ، ولكن سرعان ما تذكر انه رآه في احلام يقظته منذ هنيهة وسط ميدان العتبة الخضراء يجوار المشنقة ذات الدرج الخشبي العاري

ومن حوله الآلاف المؤلفة من رعاك القوم ، فعلم انه جلاذ الثورة . وأوشك ان يكذب ما تراه عيناه وثبت في مكانه لا يدري ماذا يفعل . ان الثورة لا تزال قيد الاوراق وفي أعماق السرائر فمن أين جاء هذا الرجل ؟ انه لم يره من قبل بين صفوف الشيوعيين . انه لم يره من قبل حتى بين المتفرجين على الشيوعيين ، فمن ذا الذي اقامه جلاذاً للثورة ؟ ثم ان ما رآه في ميدان العتبة الخضراء لم يكن الا من هجس الخيال المحموم . كلا . كلا . لا بد ان يكون هذا الرجل من البوليس .

وتقدم الرجل من حسن مفتاح يزك في سيره معتمداً على عصاه ، وبسط له يده يريد أن يصافحه ، فالتقطها حسن مفتاح بسرعة دون أن يفكر فاهتز جسده هزة عنيفة واحدة ثم هدأ هدأة كبرى كأنه قد أمسك بسلك عارٍ فيه تيار مميت . وكان الرجل يبتسم ابتسامة عذبة فوق فمه اللثيم الكريه . وكانت عيناه تطفحان ببشر لا يعرف أحد مصدره . ولم يدعه حسن مفتاح الى الجلوس بل سأله بصوت خشن ؟

— بوليس ؟

— وأصلح الرجل رباط رقبته ذا الألوان الكثيرة الزاهية وأجاب مبتسماً :

— بل صديق قديم .

قال حسن مفتاح بلهجة أقل خشونة :

— تفضل .

فجلس الزائر وجلس حسن مفتاح . وانصرف حسن مفتاح حائراً الى تأمل رباط الرقبة ذي الألوان الكثيرة وقال في أدب ولكن شارد اللب :

— سيجارة ؟

— شكراً ، لا ادخن .

وبعد صمت قليل عاد حسن مفتاح يقوم بواجب الضيافة . قال :

— فنجان من القهوة ؟

— أشكرك ، لا أشربها .

— عندنا بيرة مثلجة . أأدعو لك بها ؟

— كلا ، مع ألف شكر ، فأنا لا أحب المسكرات .

— ولكن لا بد أن أقدم لك شيئاً

— لا داعي لذلك فلست بحاجة الى شيء ، ويكفيني ما رأيته من كرمك .

والواقع أنني جئت اليك أطلب شيئاً بوصفي صديقاً قديماً . صديق قديم لا أكثر .
أتفهم ؟

أجاب حسن مفتاح متحيراً ؟

— صديق قديم . صديق قديم .

— نعم ، صديق قديم .

— ان كنت أملك التصرف في شيء فهو لك . ماذا جئت تطلب ؟

— لا داعي للعجلة ، وستعرف كل شيء في حينه . يبدو أن رباط رقبتني

يمسبك .

أجاب حسن مفتاح حالماً وهو لا يزال شاخصاً ببصره الى الحريز الكثير

الألوان :

— نعم . هذا اغرب رباط رأيته في حياتي .

قال الزائر مبتسماً :

— إن شئت فهو لك .

فأجاب حسن مفتاح بسرعة آلية قاطعة :

- كلا ، كلا .

ثم مضى يتحسس عنقه وعاد إليه شعور الاختناق . إن هناك شيئاً لا يفهمه .
فهذا الزائر القزم الاعرج يزعم أنه صديق قديم وهو ما عرفه قط قبل الآن ،
ولكن مرآه مألوف لديه على كل حال كأنه رآه في الاحلام . ترى من يكون ؟
وهذا الرباط الحريري الكثير الألوان فيه رسوم عجيبة حقاً ، فهو يبدأ بصورة
مشنقة ذهبية من خيوط القصب قرب العقدة ونحو منتصفه تقاطعت عظمتان
فضيتان صنعتا من خيوط بلاتينية لامعة تذكر بالعظام المتقاطعة على قوارير السم
بالصيدليات أو العظام المتقاطعة في أعلام القرصان ، وفي أسفل الرباط تناثرت
جناجم كثيرة متداخلة كلها صفراء مزعجة للناظرين ، أما أرض الرباط فقد
كانت حمراء داكنة لطختها برك صغيرة من الدم الأزرق . وخيل الى حسن مفتاح
أنه رأى في خياله كل هذه الأشياء متفرقة وان لم يكن قد رآها مجتمعة . وبدأ
له أن ما يراه ليس رباطاً وإنما راية قرصان رهيب في بحار لم تخرها إلا سفائن
الجان . قال مخاطباً زائره :

- أهذا التصميم من عملك ؟

فأجاب الزائر ضاحكاً :

- بل من عملك أنت ؟

وظن حسن مفتاح أن هذه دعابة ثقيلة من زائره فأوشك أن يغضب ولكنه
راجع نفسه فلم يدر فيم الغضب . إن القزم الاعرج لم يقل إلا حقاً . فقد ملأت
هذه الرموز خيال حسن مفتاح منذ زمن طويل . وسمع الرجل يقول وهو
يعبث بالحرير الأحمر :

- أنت بحاجة الى رباط كهذا .

وأراد حسن مفتاح أن يكرر رفضه القاطع ، ولكن الزائر رفع يده مشيراً عليه بالسكوت فسكت ، على حين اندست يد الزائر في جيب سترته السوداء وخرجت منه برباط حريري مشابه وامتدت به الى حسن مفتاح فقبله صاغراً . وشخص حسن مفتاح ببصره الى حيب الرجل كأنه ينتظر أن تخرج منه كذلك الأرانب والحمام والأشرطة الملونة وأوراق اللعب ، فقد بداله أنه في حضرة ساحر عجيب . ولكنه لم ير شيئاً . قال الزائر بصوت فيه أمر واضح :
- ألبس الرباط .

وغلا الدم في عروق حسن مفتاح الذي لم يتعود ان يتلقى من احد امراً ، ورفع بصره الى الزائر فرأى ابتسامته العذبة لاتفارقه ، فاطمأن وذهب يعقد الرباط حول رقبته . وما ان فرغ من ذلك حتى عاد اليه احساسه بالاختناق . وامتدت يمينه الى عنقه تريد حل العقدة فأحست اصابعه بأن العقدة قد تجمعت تحت ياقته واحست اصابعه بأن حول عنقه طوقاً من حديد . فهب واقفاً وأراد ان يصرخ في الزائر قائلاً ان اغرب عن وجهي أيها اللعين ، اغرب عني ايها الشيطان الماكر اللئيم . وامتدت يده اليسرى الى عنقه تعاون اليد اليمنى في حل العقدة ، وسقط بصره على الزائر فاذا به اهدأ ما يكون ، وإذا ابتسامته تزداد عذوبة ، فحجل من نفسه وايقن انه قد فقد سلطانه على اعصابه فعاد اليه هدوء واستعداد مكانه على كرسيه ، وتكلف عدم المبالاة . وشخص ببصره من جديد الى وجه الزائر الغريب واستقر به على جبينه فرأى لطختين سمراوين من يدهما يقلل انهما بقايا قرنين قد انقرضا . وفهم حسن مفتاح ان النهاية قد اقتربت . ولكنه مع ذلك كان آبه في الهدوء . ان الزائر صديق قديم حقاً ، فهو لم يقل كذباً . وقالت نفس حسن مفتاح : ما أغباني . كان ينبغي ان افهم منذ اللحظة الأولى ، منذ ان صدمني تيار الكهرباء ، منذ ان اعتذر الزائر عن التدخين وعن تناول القهوة وعن تناول البيرة . لقد كان اوضح ما يكون ان هذا الرجل لا يأكل ولا يشرب البيرة ، وانما يعيش على الهواء ، ولعله يعيش بلا هواء اذ لازم الأمر .

لقد كان اوضح ما يكون ان هذا الرجل القزم الاعرج الغزير الشارب اللثيم الفم
قديم ،قديم جداً، لعله عاصر الطوفان ،وان بداني نحو الاربعين . لقد كان اوضح
ما يكون انه لايملك الا هذه البدلة السوداء التي لا تبلى وانه يسير ابدأ عاري
الرأس يعتمد على عصا من الخريت في رحاب الارض وفي دهاليز الزمن يندس
بين الجموع الصاخبة ويقتحم مخادع الابطال . غير ان حسن مفتاح لم يضطرب
لذلك وانما فهم وسكت . وأراد ان يفتح باب الحديث فقال جاداً رزيناً :

— ومن يكون السيد ؟

قال الزائر بوداعة لاحد لها :

— رسول من السماء العظيمة . انا عزرائيل ، ملك هاديس وجابو والظلمات
والابراج الخمسة المنطفئة .

— هذا ما ظننته .

— اتغفر لي هذا الازعاج ؟

فلم يجب حسن مفتاح على سؤاله وإنما قال :

وفيم مجيئك الآن ؟

— وهل يخفى على ذكائك ؟

وخطر لحسن مفتاح خاطر غريب فتملكته سورة من الغضب لاحد لها ،
وخيل اليه انه يرى مشهداً قرأه في الانجيل ، جبل الزيتون ومن فوقه يسوع
يحادل ابليس ، وذكر كل ما كان قد قرأه من حوار بين فاوست ومفستوفوليس .
قال :

— لقد جئت تساومني .

وتطلع عزرائيل الى وجه حسن مفتاح فقرأ ما يجري في سريره واجاب
ضاحكاً :

— كلا يا حسن مفتاح .

ولم يسمع حسن مفتاح كلمه مما قال عزرائيل ومضى في صخبه الحالم يقول :

— إذن فاغرب عن وجهي . قل لسيدك العظيم لا كنوز قارون ولا قيات

سليمان ولا ملك السموات والارض ولا ابالسة الجحيم ولا الغفران الالهي ليهز

قلب حسن مفتاح . قل ان الثورة آتية لا ريب فيها . وهل يعفو الشعب عن

حسن مفتاح ان خان العهد الأعظم ؟ بعد غد مع الفجر تخرج الفيران من جحورها

وتزأر اللبوث الحبيسة وتهشم قضابانها وتفرد البوم ويتآخى البشر مع الافاعي

وتطير الأفيال الثقال يجتاح الحرية ، ويرقص العبيد حول اجداث السادة ويشنق

كل نخاس زنيهم . بعد غد تستوي أصابع اليد الواحدة وتحدث المعجزة . ان ١١

يوليو يوم الشعب : كتب في السجل الأعلى قبل ان يكتب في اوراق ابناء الفناء .

بل تحت كاتب الآلهة الذي ينقش الغياب في الكتاب الجديد ويحفظ كل ما كان

وكل ما سيكون . لقد قال حسن مفتاح : « بعد غد مع الفجر تحدث المعجزة » ،

والقول ما قال حسن مفتاح . لقد قال حسن مفتاح : « بعد غد مع الفجر تنكسف

عدالة السماء امام عدالة الأرض ويعلم الآلهة انهم فسقوا في الوادي الأمين » .

واستمع عزرائيل إلى كل ذلك صابراً . فلما فرغ حسن مفتاح من كلامه سمع

عزرائيل يقول بصوت وديع خفيض :

— الهدوء يا حسن مفتاح . الهدوء يا حسن مفتاح .

وهذا حسن مفتاح قليلاً ، ولكنه مضى في هذيانه يقول :

— الم تصعد من قبل الى قمة القوقاز حيث بروميشوس ذو الجراج الكثيرة ،

وتعده بالراحة الابدية ؟

— نعم فعلت .

— الم تصعد من قبل الى جبل الزيتون وتنشر جناحيك حول عيسى بن مريم

وتعمده ملك السموات والأرض ؟

— نعم فعلت .

— ألم تتسلل من قبل التي مخدع فاوست وتهمس في اذنه قائلاً ...

— نعم فعلت .

— اذن فاغرب عن وجهي يا مفستوفوليس . اغرب عن وجهي . اغرب .

اغرب . اغرب . ان حسن مفتاح لايساوم .

ولكن عزرائيل لم يتحرك من مكانه وانما اختفت ابتسامته . وبدأ عليه

الثرثاء لحماس حسن مفتاح ، ومضى يقول في صلابة :

— الهدوء يا حسن مفتاح . الهدوء يا حسن مفتاح .

— وماذا يريد عزرائيل من حسن مفتاح ؟

— أنا جئت أطالب بدين قديم .

— أنا ما اقترضت من أحد شيئاً .

— بلى .

— ممن ؟

— من سيد قنديل .

فارتعدت فرائض حسن مفتاح واغمض عينيه لحظة كأنه يتذكر حلمًا

مرعباً كان قد نسيه ، وأخيراً قال مضطرباً :

— وماذا اقترضت من سيد قنديل ؟

— اقترضت جثته .

فارتعدت فرائص حسن مفتاح مرة اخرى، وأدرك مراد عزرائيل فتصعب عرقاً وطاش بصره وامتقع وجهه، فاذا به من وجوه الأموات وأوشك أن يخر مغشياً عليه . فقد أدرك أن صرح حياته يوشك أن ينهار . ولكنه جاهد حتى استرد سلطانه على نفسه وذهب يتلمس لنفسه مخرجاً :

— وما شأنك بهذا ؟

— جئت أتسلم الجثة .

وأصاب حسن مفتاح دوار جديد ولكنه تماسك مرة اخرى . وأحس بأن روحه تنشق عن جسده، وكاد أن يسمع لها صرير داخل صدره . ولكنه تكلف الهدوء التام . ان هذا المخلوق الشيطاني الشائه قد جاء يطلب شيئاً عسيراً ، وحسن مفتاح لن يسلم له صاغراً . لسوف يجادل . لسوف يقاوم إذا اقتضى الأمر . وهو بحاجة الى الطمأنينة الكاملة حتى يرد كيده الى نحره . قال بحزم :

— انصرف . فلن اسلمك شيئاً .

— العارية ترد يا حسن مفتاح ؟

قال حسن مفتاح وفي عينيه بريق الانتصار :

— العارية ؟ نعم . العارية . العارية ترد . أنا لم اقترض من أحد شيئاً . أنا لم

اقترض جثة سيد قنديل . وإنما أخذتها قوة واقتداراً .

أجاب عزرائيل متهمكاً :

— أليس هذا في لغتكم اغتصاب ؟

— نعم .

— وما جزاء الاغتصاب في شريعتكم .

— كلا . كلا . كلا .

— ألم تخطب في الناس قائلًا : « الموت للمغتصبين » .

— نعم ، الموت للمغتصبين . الموت لأعداء الشعب (حاملما) لا زلنا

نقول : « الموت للمغتصبين . الموت لأعداء الشعب » . يا شعوب الأرض هيا ..
(يوشك أن يغني نشيد الانصار)

— يا حسن مفتاح .

— نعم .

— أفق .

— ماذا جرى ؟

— لقد بدأت تخطب .

— عفواً .

— الجثة يا حسن مفتاح .

— ايه جثة ؟

— جثة سيد قنديل .

— آه ، تذكرت .

— أأخذها الآن ؟

— كلا . كلا . كلا .

— الوفاء يا حسن مفتاح . سلم الجثة يا حسن مفتاح .

— وبماذا أفني ؟ قلت لك اني لم اقترض الجثة ، وانما أخذتها قوة واقتدارا .

— أأستردها قوة واقتداراً ؟

— كلا . كلا . كلا .

— سلم الجثة يا حسن مفتاح .

— ومن تكون حتى اسلمك الجثة .

— قلت أنا عزرائيل ، ملك هاديس وحابو والظلمات والابراج الخمسة المنطفئة . أنا ملك الجيف والقبور والديدان والصيد . أنا ملك الدموع والعويل والنيران التي لا تطفئها مياه .

وكأنما أراد اثبات شخصيته لحسن مفتاح فأخرج من جيبه حجراً أسود يلعب نخرته براكين من غير براكين الأرض عليه نقوش لا يقرؤها إلا أهل العلم ، فامتحنه حسن مفتاح ثم رده إليه وقد اقتنع بصحة دعواه ، واطرق ملياً ، ولكنه لم يلبث أن عاد يحادله قائلاً :

— إليّ بسيد قنديل اسلمه جثته .

— ألم يكفك الدليل ؟

— بلى . ولكن إليّ بسيد قنديل يسترد جثته .

— أتردها إليه راضياً مرضياً ؟

— لقد أخذتها منة قوة واقتداراً ، فليأخذها مني قوة واقتداراً .

— هذه عدالة الأرض .

— (متهمكاً) وهل في السماء عدالة ؟

— في السماء عدل ظالم وظلم عادل وعدل عادل وظلم ظالم .

— لست أفهم . نعم اني افهم . كلما سألنا : لماذا ؟ ، خاطبتونا

بالاحاجي .

— السماء ليست فيها عدالة ولا ظلم ولا خير ولا شر ولا حق ولا باطل ولا جمال ولا قبح . ليس في السماء أشياء ولا صفات وإنما فيها قوانين .

— وبأي قانون أموت الآن ؟

— القانون الذي أमतك عند السلسلة واحياك تحت الجرف العميق يمتك من جديد بين هذه الجدران الأربعة .

— أحيي أنا إذن ؟

— نعم ... ولا .

— ان كنت حياً كان هذا الجسد جسدي وان كنت ميتاً فقيم اماتي من جديد ؟

— أنت ميت حي أو حي ميت . ليست هذه بأول مرة تحدث فيها هذه المعجزة . انها تحدث مرة كل ألف عام كلما أحرقت العنقاء الجديدة . ولكن لا تجادل يا حسن مفتاح . أأدعو إليك سيد قنديل .

— كلا . كلا . كلا .

— اخائف أنت ؟

— (مستكبراً) ان حسن مفتاح لا يخاف ، ولكن الخجل يقتلني . خذني . خذني قوة واقتداراً . خذني إذا استطعت . انهض أيها الوغد ، ودافع عن نفسك .

وأراد حسن مفتاح أن ينهض ليثب على عزرائيل ، ولكنه عجز عن الحراك كأن أيدياً من فولاذ تشده الى مكانه . وفيما هو يختنق تحت أنفاسه المكتومة إذا به يسمع عزرائيل يضحك ضحكاً رقيقاً . قال حسن مفتاح بصوت متحشرج :

- مهلا . مهلا .
- ماذا تطلب الآن ؟
- هبك أخذت الجثة فيما نفعلك بها ؟
- يحرق حولها الجان انتن البخور فينعمون بأطيب العبير .
- إبقها لي واطلب ثمنك يا عزرائيل .
- هذه جثة لا تباع وتشرى .
- وكيف كان ذلك ؟
- صاحبها يطلب القصاص .
- نعم القصاص يا حسن مفتاح .
- حسبتك تطلب الوفاء .
- أنا أطلب الوفاء وهو يطلب القصاص .
- القصاص للجريمة يا عزرائيل .
- نعم ، القصاص للجريمة يا حسن مفتاح .
- وهل هناك جريمة ؟
- نعم . هناك جريمة .
- أنا لم ارتكب جريمة .
- لقد قتلت نفساً .
- أجل .

— والقاتل يقتل .

— أهذا هو القانون ؟

— أجل ، هذا هو القانون .

— هذه شريعة بالية .

— هذا هو القانون .

— ومن وضع القانون ؟

— اخيار الأرض واخيار السماء .

— وأين ورد ؟

— في الميثاق الأعظم بين الأرض والسماء : اقرأ صفحة العدل في باب الجريمة والعقاب .

— قلت اغرب عن وجهي يا عزرائيل .

— قلت تأدب يا حسن مفتاح .

— هذه مطلقات وأنا لا أومن بالمطلقات .

— هذه أزلية .

— هذه شريعة الحمقى . إنما قتلت ليحيا الشعب . إنما قتلت لانقذ الملايين .
حسن مفتاح يقول :

« هاتوا كاليل الغار . أقيموا التماثيل . اكتبوا التواريخ . مجدوا حسن
مفتاح . » ولكن عزرائيل يقول :

« نعم ، هناك جريمة » . ولكن الميثاق يقول . « القاتل يقتل » ان عدالة

الارض وهي عرجاء تميز بين قاتل وقاتل . يا عدالة السماء أين كان الشعب لولا حسن مفتاح ؟ أين كان حسن مفتاح لولا سيد قنديل ؟ ولكن عزرائيل يقول : « نعم ، هناك جريمة » . لكن الميثاق الأعظم يقول : « القاتل يقتل » . القانون القانون . القانون . مزقوا الميثاق . مزقوا الميثاق . اشهدوا يا عبيد الأرض : حسن مفتاح مجرم . زعيمكم قاتل يا عبيد الأرض . والقاتل يقتل . ها . ها . ها . تحسب اني أخاف الموت يا عزرائيل ؟ كل ما في الكون من عزاريل لا يخيفون حسن مفتاح . ولكن حياتي ملك الشعب . فلتكن دينونتي امام محكمة الشعب ، وأنا أصيح : « اجل ، أنا قاتل ، أنا حسن مفتاح قتلت سيد قنديل بجوار الجرف العميق . أما هذه الساحة الالهية فأنا اصرخ فيها : كلا . كلا . انا لم اقتل احداً . انا لم اقتل احداً . انا وهبت الحياة . ان عدالة السماء عمياء معصوبة العينين تحمل سيفاً ذا حدين . الينا بالعدالة البصيرة . انا لم اقتل . انا لم اقتل احداً . انا وهبت الحياة . ماذا تقول يا عزرائيل ؟ نعم ، انا القاتل . انا القاتل الذي يقتل القتلة . أنا القضاء . انا يد العدالة ان يد العدالة مشلولة ، ولكن سوف تجري الحياة في يد العدالة بعد غد . نعم ، انا يد العدالة . انا العشماوي . العشماوي ؟ نعم العشماوي .

وارتعش حسن مفتاح حين ذكر العشماوي ، وتخليل وجهاً عظيماً كان قد رآه في إحدى الصحف تركي العينين لامعها الى حد تخيف جامد القسمات شواربه الكثنة تخفي شفثيه تماماً . وتواردت في خاطره المشانق ، الواحدة بعد الأخرى ورأى بعين خياله اجساداً معلقة فيها ترهل عظيم . وبقيت من هذه المشانق الكثيرة في نفس حسن مفتاح مشنقة واحدة . مشنقة كبيرة واحدة . وثبتت هذه المشنقة الكبيرة زمناً في نفسه . خشبة رأسية عالية في أعلاها خشبة أفقية اقصر منها . ثم نمت الخشبستان في خيال حسن مفتاح فاذا المشنقة تصير صليباً . ان حسن مفتاح لم يعرف قبل الآن ان المشنقة نصف صليب . ثم انطفاً الصليب وعاد مشنقة ثم نمت المشنقة فعاتد صليباً . ما هذا الرمز الجديد . ان حسن

مفتاح يفهم الرمز الجديد . ان الصليب يفتح باب الحياة الثانية والمشتقة تفتح باب الحياة الأولى . وسيعبد الناس الرمز الجديد كما عبدوا الرمز القديم . وسترفع بائعات سليمان باشا وفؤاد الأول وقصر النيل الصليب الذهبي المرتاح على صدورهن ويلبسن مكانه مشتقة من ذهب . سيكون رمز البروليتساريا من الآن فصاعداً مشتقة من ذهب بأمر من اللجنة المركزية . الحياة الأولى تأتي قبل الحياة الثانية المشتقة على صدور الأحياء والصليب على صدور الأموات . سيحمل العبيد في جميع بقاع الأرض على صدورهم مشانق من البرونز ، وعلى ظهورهم مشانق من الخشب حتى يتم الخلاص . وعاد حسن مفتاح يصرخ في وجه عزرائيل قائلاً :

— انا العشماوي . نعم ، حسن مفتاح عشماوي المجتمع . ان الناس لا يجدون العشماوي ولكنهم سوف يجدون حسن مفتاح . لماذا لا تعبد الناس العشماوي ؟ انه يد العدالة القوية لا يد العدالة المشلولة . والوادي بحاجة الى عشماوي ينفذ امر ... امر من ... ؟ امر الله ؟ امر الشيطان ؟ امر من ؟ امر الروح المطلق الناقص الصائر إلى الكمال ؟ امر المادة الناقصة الساعية الى الكمال ؟ امر من يا عزرائيل ؟ امر الشعب . عشماوي ينفذ امر الشعب في نخاسيه . أنا لا اعرف عن الله شيئاً كثيراً . أنا لا اعرف شيئاً كثيراً عن الروح او المادة ولن انفذ امراً لشيء من هذه الأشياء يا عزرائيل . انما ينفذ حسن مفتاح امر الشعب . ان حسن مفتاح ينفذ امر الشعب لأنه يعرف الشعب ، ويعرف أنه حقيقة موجودة لافرار لها من ذلك ، ويعرف انه اجدر الحقائق بالاهتمام . هذا يكفي . الا يكفيك يا عزرائيل هذا ؟ انا ابغض العنف . ان القدر قد استخدم العنف حين اغرقني عند السلسلة . فرترمولر . آختونج . عند الفجر تتقدم او عند الرابعة ان لم تكن هناك غيوم . عشرة ملايين فرترمولر . عشرة ملايين ايفان ايفانوف . خمسة ملايين جون سميت وجان ديبوا وبيترو روسو وكوجنسكي وكريشنا كرانامان . اسمع يا عزرائيل . أين هؤلاء يا عزرائيل ؟ أنا أعرف من هؤلاء توم وود ، كابورال يحب زوجته وتحبه . لم يؤذ مخلوقاً . لا ذنب له .

آرثر كرونين ملازم اول من تحت السلاح ، يقرض شعراً لأبأس به ، ولم يقتل ذبابة قبل سبتمبر ١٩٣٩ . فريد ستارك ، وليم جوتلي ، ستيفن بريد جوتتر كلهم برتبة كابتن وكلهم يحبون البشرية او يقولون انهم يحبون البشرية ، الطيار رينيه شامار ، سقطت رجله اليمنى في بير حكيم والرجل الأخرى في الضبعة . أعرفهم . كلهم تناولوا معي الشاي ، وكلهم ماتوا في سبيل الواجب . أي واجب ؟ ان الاوراق الرسمية تقول انهم ماتوا في سبيل الواجب ، والاوراق الرسمية لا تكذب . خمسة وعشرون مليوناً ماتوا في سبيل الواجب . ولكن دمهم مهدر يا عزرائيل ، وسوف يموت الابناء كما مات الآباء ، لان حربهم غير مقدسة ، لانهم يحاربون من اجل شاي الساعة الخامسة وبيرة الساعة الثامنة ولا يحاربون من أجل البشرية . انا لم ارهم يا عزرائيل حين كانوا حول دير كاسينو ينظفون الجيوب ويسقطون في سبيل الواجب كما تقول الاوراق الرسمية . ولا أيام طبرق وكابوتزو يا عزرائيل . ولكنني شمت على البعد دمهم المعجوف في الاوحال وفي الرمال . شمت عرقهم الذي تجمد على صدورهم شهوراً . شمت رائحة جواربهم التي لم يخلعوها اسابيع . أين هم الآن يا عزرائيل ؟ أين عدالة السماء ؟ انهم لم يموتوا . انهم قتلوا . ومن قتلهم يا عزرائيل ؟ أجب . من قتلهم ؟ نعم يا عزرائيل : القاتل يقتل . أنت قلت ذلك . القاتل يقتل . اين عدالة السماء لسوف اقتلهم يا عزرائيل . أعداء البشرية اقتلهم كما تقتل الكلاب المسعورة . انهم لا يزالون أحياء يدخلون السيجار . ولكن عدالة الارض خير من عدالة السماء . نعم . القاتل يقتل ؛ انا أقول ذلك . أنا القاتل الذي يقتل القتلة . أنا القضاء . أنا يد العدالة . ان يد العدالة مشلولة يا عزرائيل ، ولكن بعد غد تجري فيها الحياة .

- الزم حدودك يا حسن مفتاح .

- هل تجاوزت ؟

- نعم تجاوزت .
- ألم تقل أن القاتل يقتل ؟
- أجل . أجل . لهذا جئتك يا حسن مفتاح .
- لم جئتني اذن . أولى بك أن تذهب الى تجار الحرب ، أولى بك أن تذهب الى النخاسين . أولى بك ..
- لا تراوغي يا حسن مفتاح .
- بأي كيل تكيل يا عزرائيل .
- الكيل واحد يا حسن مفتاح .
- أهذه ارادة السماء ؟
- نعم هذه ارادة السماء
- اذن فانصرف . لسوف أنفذ فيهم ارادة السماء . بعد غد يا عزرائيل .
- تعال بعد غد . بعد أن أنفذ فيهم ارادة السماء . القاتل يقتل يا عزرائيل . أنا
- أقبل حكم السماء . اقتلني بعد أن اقتلهم يا عزرائيل . تعال بعد غد يا عزرائيل .
- لقد جئت اصفى حساب الماضي .
- الماضي ؟ الماضي مضى يا عزرائيل . ان كوميسارية الشعب لا تنظر الى الماضي . لا تلتفت الى الوراء يا عزرائيل . انظر الى المستقبل يا عزرائيل . الى الامام . الماضي . ما قيمة الماضي .
- الماضي يعيش يا حسن مفتاح .
- لم يحدث شيء في الماضي . هيا انصرف .
- لقد قتلت سيد قنديل .

— هذه مسألة فيها نظر .

— أتكر انك قتلت سيد قنديل ؟

— أنا لا أنكر شيئاً .

— أتعترف أنك قتلت سيد قنديل ؟

— أنا لا اعترف بشيء . أنا لا أعرف شيئاً . لا أعرف شيئاً البتة . نعم أنا قتلت سيد قنديل . كلا ، أنا لم أقتل سيد قنديل ؟ وكيف أقتل سيد قنديل ؟ ان سيد قنديل ابن عمي . ان سيد قنديل لم يسيء الي شيء . كيف أقتل سيد قنديل أنا لم أقتل سيد قنديل . إن هذا الذي تراه سيد قنديل . إن هذا الذي تخاطبه سيد قنديل . فكيف تقول اني قتلت سيد قنديل أثبت العكس يا عزرائيل . ما دليلك على اني حسن مفتاح ؟ ها .. ها ... نعم ، ما دليلك على اني حسن مفتاح ؟ أنت تهتم يا عزرائيل . أقم الدليل يا عزرائيل . (يعري ذراعه ويعضها يجنون حتى يسيل منها الدم) ماذا ترى يا عزرائيل ؟ أجب . ماذا ترى ؟ دم . أهذا دم حسن مفتاح ؟ كلا . ان دم حسن مفتاح في بطون الاسماك والحيتان . كلا . انه دم سيد قنديل . (يعض ذراعه مرة اخرى) انظر . هذا دم سيد قنديل . ويعض ذراعه مرة اخرى) انظر . هذا دم سيد قنديل . انه كشيء . انه أحمر ما يكون . انه يتدفق . أتكر هذا يا عزرائيل ؟ انكر إذا استطعت انه دم سيد قنديل . اكذب إذا استطعت فباب السماء الآن مفتوح ولسوف ترجلك السماء بالصواعق على أجنحة الزوابع ان فعلت . فكيف تقول اني قتلت سيد قنديل ؟ أليس هذا اللحم لحم سيد قنديل ؟ (يتعسس صدره بعد أن يعريه) انظر . ماذا ترى ؟ أين حسن مفتاح ؟ من أين لحسن مفتاح هذا الوشم ؟ أجب يا عزرائيل . « أنا » سيد قنديل . كذب هذا يا عزرائيل . كذب هذا يصرك رسول من السماء في غمضة عين .

— حذار يا حسن مفتاح .

- ومم تحذرنى ؟

- أما قلت إن باب السماء مفتوح .

- أجل . اشهد ولتشهد معي السماء اني سيد قنديل .

- حذار يا حسن مفتاح . في المرة الثالثة تستجيب السماء . لاشيء ببعيد على السماء . أتفهم ما أقول ؟ في المرة الثالثة تكن لك الجنة . في المرة الثالثة تمسى سيد قنديل إذا شئت فأنت سيد قنديل . اصرخ من جديد : « اشهد أمام السماء اني سيد قنديل » مالي أراك ترتعد ؟ لا تخش شيئاً . سوف انصرف عنك الى الأبد . إنما جئت لحاسب حسن مفتاح . فيم انتظارك ؟ لماذا لا تشهد السماء على أنك سيد قنديل ؟ أخائف أنت ؟ امض فيما بدأت . ألسنت تقول « أنا البروليتاريا » ، « أنا الشعب » ؟ ليس في الأمر لغز . روح عبقرى تدخل في جسد خنزير . الروح منك . الجسد ليس لك . ان شئت فهو لك . قلها ثلاثاً يكن لك . تكن له ويكن لك . ولكنك ترفض أن تكون له وتقبل أن يكون لك . قصة معادة . نسمعها كل جيل .

- اغرب عن وجهي أيها اللعين . لقد فهمت الآن . لقد فهمت لماذا يمتك الناس . فهمت كيف يرتعب لذكراك الاطفال الأبرياء . اغرب عن وجهي أيها المحتال . (يتهدل على كرسيه) اغرب عن وجهي . اغرب عن وجهي . اغرب .

- (ضجراً) الهمني الصبر أيتها السماء .

- (مصلياً) الهمني القوة يا الله .

- والآن من تكون ؟ حسن مفتاح أم سيد قنديل ؟ العبقرى القاتل أم الأبله المقتول ؟

- (تسقط لحيته على صدره ويهمس) أنا حسن مفتاح . (يرفع رأسه في كبرياء ويتأمل النور الكهربائي كالحالم) أنا حسن مفتاح . أنا الألف أنا الياء .

أنا البداية أنا النهاية . أنا الكلمة . أنا حسن مفتاح ، وبعد غد سوف ترى من يكون حسن مفتاح . أنا الشعب . أتفهم ما أقول ؟ أنا الشعب . وكلمة الشعب فوق كل كلمة . بعد غد تفتح السجون . بعد غد نرقص في الشوارع . بعد غد نخطم الأصنام . بعد غد ننثر الرياحين في طريق الحرية من أرض الأرز الى أرض الزوج . لقد قلنا مع الفجر . مع الفجر تبدأ الحياة . أوآه . ما أبطأ الفجر . لماذا لا يبرزغ . ولكن الفجر آت لا ريب فيه .

— إذن هيا يا حسن مفتاح .

— أنا أعلم من تكون . أيها المخاتل . أنت لست بعزرائيل . ان عزرائيل يعبد انهار الدموع وجداول الدماء . بعد غد تجري الدموع انهاراً . بعد غد قفيض جداول الدماء . بعد غد تصطك اسنانك فرحاً لمرأى العذاب . ومع ذلك فأنت تبسح كل هذا . بماذا ؟ بجثة سيد قنديل . ما أبخس الثمن . اليك الجثة . خذها ، ولكن الثورة لن تكون . الثورة باذن من حسن مفتاح . لقد قلنا ١٢٣٠ رأساً تهوي في اليوم الأول . ٥٦٦ في اليوم الثاني . صرعى الممارك لا يدخلون في الحساب . لو كنت عزرائيل لطار النوم من جفنيك حتى تشهد الفجر العظيم . لو كنت عزرائيل لسال لعابك شوقاً . لو كنت عزرائيل لطار النوم من جفنيك حتى تشهد الفجر العظيم . لو كنت عزرائيل لعانقتني وقبلتني وأقمت من نفسك ديدباناً يسهر على سلامتي حتى ترى الجبال تميد ، والبارود يلمطخ وجه الأرض ، والشعب يرفع رأسه الاشعث ويبصق في وجه السماء . كل هذه الجماجم لك يا عزرائيل ، تلعب بها . على درج القصور وبين أحراش النخيل . ولكنك تركل كل هذا بقدمك لقاء جثة سيد قنديل . ان شئت فالجثة لك . انا أعلم من تكون . انت لست بعزرائيل . انت رسول البورجوازية جئت لتعطل الثورة . ان الاقدار ترتشي . ان الاقدار تحب الذهب . اخرج أيها المخاتل . اخرج أيها البورجوازي القذر . اخرج .

— دعك من هذا العناد يا حسن مفتاح وارض بنصيبك .

- اليك عني انا لم اقتل اجدأ .

- الم تقتل سيد قنديل ؟

- سيد قنديل ؟

- نعم سيد قنديل .

- انا لم أقتل سيد قنديل . انا وهبته الحياة . لقد اتحت له افراحاً لا تحصى .

لقد اتحت له العلم الغزير . اتسمع هذه الموسيقى يا عزرائيل ؟ انها الايرويسكا .
انها تنتشر في الهواء من تلك النافذة البعيدة .

- نعم ، اسمعها .

- جميلة هي . اليس كذلك ؟

- نعم ، هي جميلة .

- الا يطرب جسدك لها ؟

- نعم ، جسدي يطرب لها .

- كذلك يطرب لها جسد سيد قنديل (يتحسس جسده) اكان جسد سيد

قنديل يطرب لها وهو يقطع القصب في ارباض دماريس . (مشيراً الى المائدة
الصغيرة) اترى هذه الفتات يا عزرائيل ؟

- ما شأنها ؟

- انها بقايا كافيار روسي أصيل . اتفهم ؟ كافيار . من أين لسيد قنديل

بالكافيار الروسي الاصيل ؟ أترى هذا الكتاب يا عزرائيل ؟

- نعم أراه ، واعرف كل كلمة وردت فيه . اعلم انك اصبت منه متعة

ومعرفة .

- ان سيد قنديل أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولولاي فمن اين له المتعة والمعرفة
 انت تقول اني قتلته ، وانا اقول اني وهبته الحياة . ألم يحى قبل حياة الخنازير
 لا يعرف جسده الصابون ولا يأكل إلا الفجل والمش والكراث ، فأصبح بفضل
 رجلا من الرجال . ان سيد قنديل لم يكن له عقل وإنما كان له مخ خشن غليظ
 فأصبح بفضل رجلا ناهيا جسورا يتحدى الطغاة ، ويرسم للجماهير طريق الخلاص ،
 انت تقول اني قتلته وانا اقول اني وهبته الحياة . اجل انا قتلته . قتلته . واكلته
 كما نقتل العجول ونأكلها . ألسنا نقتل العجول ونأكلها ؟ لماذا لا نطلب للعجول
 القصاص ؟ لماذا لا تغضب السماء من أجل العجول ؟ أجب . لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا
 لا تغضب السماء للنبت والفاكهة وهي جميلة عزلاء لم تؤذ احداً ؟ اليك بالجواب
 اذن يا عزرائيل . لأن الانسان ارقى من العجول ومن النبت ومن الفاكهة . لان
 العجول والنبت والفاكهة لامتوت حين يأكلها الانسان وانما يكتب لها اجل
 جديد . لأن العجول تتحول الى افكار ماركس والنبت يتحول الى انعام
 تشايكوفسكي والفاكهة تتحول الى قصائد الشعراء . انها السلسلة العظمى يا عزرائيل
 سلسلة الوجود . ما بالك لا تحجب ؟ اخي سبيلي اذن وامض لحالك يا عزرائيل .
 لو ان البهائم والنبت والفاكهة علمت بمصائرهما لمحدث الانسان وسعت اليه زلقى
 ترجو فداءه . الفداء ؟ نعم . الفداء . لم لم أفكر من قبل في الفداء ؟ الفداء
 يا عزرائيل . الفداء دين الجيل الجديد . انت تقول : « لقد جاء في الميثاق
 الأعظم بين أخيار الارض وأخيار السماء ان القاتل يقتل » . وانا اقول : « لقد
 جاء في الكتاب الجديد الذي لا يصدأ أبد الآبدين ان الكائنات السفلى تموت لتحيى
 الكائنات العليا » . لقد جاء في الكتاب الجديد الذي لا يصدأ أبد الآبدين ان
 الفداء سنة الوجود . انظر الي يا عزرائيل . انا اطلب الموت من اجل الشعب .
 لماذا ؟ لأن الشعب كل وحسن مفتاح جزء ، لأن حياة الشعب اثن من حياة حسن
 مفتاح . اجل ، غدا يموت حسن مفتاح والشعب باق يلد المفاتيح والقناديل .
 نعم ، الفداء . هذه كلمة السر بين الجيل الجديد . وكما يموت حسن مفتاح فداء
 الشعب كذلك يموت سيد قنديل فداء حسن مفتاح . افهمت يا عزرائيل ؟ قل

انك فهمت .

- نعم يا حسن مفتاح . انت لم تأتِ يجديد . اعلم كل ذلك واكثر منه .
اعلم ان قبلة واحدة من مونا ربيع اثن من جيش محشود من الالساد القناديل .
- صمتاً . لاتلفظ اسمها الطاهر في هذه الحضرة اللعينة .

- عفواً ، يا حسن مفتاح (كأنما يحدث نفسه) نعم ، يكفيه ما هو فيه من
عذاب . ولكن انتظاره لن يطول . انما ولدت مونا ربيع ساعة المحاق ، فهي
ملعونة كذلك . وحين يمضي معي سيجدها تستحم بالسحاب الأبيض في حوض
اللازورد . انك تقترب من اعدائك يا حسن مفتاح . انك تخون يا حسن مفتاح .
اليس هذا ما تقوله الفاشية ؟

- خسئت .

- بل انك تخون يا حسن مفتاح .

- ها . ها . ايها الشعب . دار الزعامة وكر الخيانة . ايها الكادحون
احرقوا بيت الشعب ، ارجموا حسن مفتاح ، ارجموا قبل ان يرجمكم . (يسترسل
في ضحك هستيري طويل) .

- الهدوء يا حسن مفتاح .

- لقد اضحكتني يا عزرائيل .

- الا تخجل مما قلت ؟

- وهل قلت ما يخجل .

- الخيانة يا حسن مفتاح . الا تخجل من الخيانة ؟

- وأي خيانة فيما قلت ؟

- اعد ما قلت امام الجماهير .

- انا انادي بالفداء .

- انت تنادي ببقاء الاقوى .

- انا انادي ببقاء الأصلح .

- انت تقول ان السمك الكبير يأكل السمك الصغير .

- كلا . كلا . كلا .

- بل انت تقول ان السمك الصغير لو علم بمصيره لمجدد السمك الكبير وسمى

اليه زلفى يرجو فداء .

- كلا . كلا . كلا .

- اما قلت ان البهائم والنبت والفاكهة لا تموت حين يأكلها الانسان ؟

- نعم .

- اما قلت ان القناديل ينبغي ان تموت فداء المفاتيح ؟

- نعم .

- إذن فالسمك الكبير يأكل السمك الصغير .

- كبير ؟ صغير ؟ كلا . كلا . لا كبير ولا صغير . حسن مفتاح يقول

ان الكبير يأكل الصغير ؟ كلا . كلا . هذا ما يقوله أعداء الشعب . هذه

خيانة . لقد عاهدنا الشعب على الا يأكل احد احداً . انا لم أقل إن الكبير

يأكل الصغير . إذا لم يكن من الأكل بد فليأكل الصغير الكبير .

- ألم تقل ان القناديل ينبغي ان تموت فداء المفاتيح ؟

- اقلت هذا ؟

- أجل .

- انا قلت ان المفاتيح ينبغي ان تموت فداء القناديل .

- انك تهذي يا حسن . اتعرف لم تهذي ؟ انك تهذي حرصاً على الحياة . انفض عنك هذه القيبوبة . حسن مفتاح يموت فداء الشعب . سيد قنديل يموت فداء حسن مفتاح . وماذا يكون الشعب اذا لم يكن حشداً من الاسباد القناديل ؟ الشعب يموت فداء حسن مفتاح وحسن مفتاح يموت فداء الشعب . أي هذيان هذا ؟ الم تعد عشرين مليوناً من الاسباد القناديل بالحياة ؟ عشرين مليوناً من الاسباد القناديل علمتهم بالحق او بالباطل انهم زبدة هذا الوجود ، انهم يرثون الارض وما عليها ، انهم اشرف الطبقات ، ان صوتهم من صوت الله . والآب ماذا تقول ؟ تقول ان الكائنات السفلى تموت لتحيى الكائنات العليا . تقول ان سيد قنديل يموت فداء حسن مفتاح . من قال انك عالٍ وهو سافل ؟ انت . لسانك هذا . واطربا ! حسن مفتاح يعود الى صوابه . واطربا ! حسن مفتاح يخون المهد . (يرفع وجهه الى علي) ارقصي يا زبانية الجحيم . حسن مفتاح يخون المهد . الجثة لك يا حسن مفتاح . خذها فهي لك . عش بها حتى يأتي أجل سيد قنديل . عمر الى المائة فقد جاء في السجل الأعلى ان سيد قنديل يعمر الى المائة (يخرج من جيبه ورقة) ولكن وقع على هذه الوثيقة . وقع على هذه الوثيقة . يكن لك ما تريد . الجثة لك يا حسن مفتاح اذا وقعت هذه الورقة . ان دمك لم يحف بعتد . اليك الريشة . اغمسها في دمك قبل ان يحف . مالك ترتجف .

- وماذا تحتوي الورقة ؟

- كل كلمة فمت بها . ليس في الورقة الا كلماتك . الورقة لا تقول أن السمك الكبير يأكل السمك الصغير ، فهذه كلماتك . خذ . لماذا لا تأخذ الورقة فيم تفكر ؟ اخائف انت ؟ ان عزرائيل لا يزيغ على احد شيئاً . (يقف ويقرأ)

« انت تقول اني قتلته وانا أقول اني وهبته الحياة . اجل انا قتلته . قتلته . قتلته . قتلته وأكلته كما نقتل العجول ونأكلها . السنا نقتل العجول ونأكلها ؟ لماذا لا تطلب العجول القصاص ؟ لماذا لا تغضب السماء من أجل العجول ؟ أحب ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا لا تغضب السماء من أجل النبت والفاكهة وهي جميلة عزلاء لم تؤذِ أحداً ؟ اليك بالجواب إذن يا عزرائيل . لأن الانسان أرقى من العجول ومن النبت ومن الفاكهة . لأن العجول والنبت والفاكهة لا تموت حين يأكلها الانسان . لأن العجول تتحول الى أفكار ماركس ، والنبت يتحول الى انعام تشايكوفسكي والفاكهة تتحول الى قصائد الشعراء . انها السلسلة العظمى يا عزرائيل ، سلسلة الوجود . ما بالك لا تعجب ؟ اخلِ سبيلي اذن وامضِ لحالك يا عزرائيل . لو ان البهائم والنبت والفاكهة علمت بمصائرهما لمجدت الانسان وسعت اليه زلفى ترجو فداؤه . الفداء ؟ نعم ، الفداء لم لم افكر من قبل في الفداء ؟ الفداء يا عزرائيل . الفداء دين الجيل الجديد . انت تقول : لقد جاء في الميثاق الأعظم بين اخيار السماء واخيار الأرض ان القاتل يقتل . وانا أقول : لقد جاء في الكتاب الجديد الذي لا يصدأ أبد الآبدين ان الكائنات الفلى تموت لتحيا الكائنات العليا ، لقد جاء في الكتاب الجديد الذي لا يصدأ ابد الآبدين ان الفداء سنة الوجود . انظر يا عزرائيل . انا أطلب الموت من اجل الشعب . لماذا ؟ لأن الشعب كل وحسن مفتاح جزء لأن حياة الشعب اثنى من حياة حسن مفتاح . اجل . غدا يموت حسن مفتاح والشعب باقى يلد المفاتيح والقناديل . نعم . الفداء . هذه كلمة السر بين الجيل الجديد . وكما يموت حسن مفتاح فداء الشعب كذلك يموت سيد قنديل فداء حسن مفتاح » .

- هاتها . هاتها . (يهجم حسن مفتاح على عزرائيل يبغى تمزيق الورقة فيرده عزرائيل الى مكانه خائر القوى) .

- انك تعود طفلاً يا حسن مفتاح . اليك الريشة . وقع الورقة بدمك انصرف عنك الى الابد .

- (يدفن وجهه في راحتيه) كلا . كلا . كلا .

- وقع الورقة او سلم الجثة .

- دعني افكر . دعني افكر .

- الوقت ازف يا حسن مفتاح .

- وماذا انت فاعل بالصك ؟

- اضعه الى الكتاب الجديد الذي لا يبلى ابد الآبدن . اتحسب ان الاقوال المأثورة تؤخذ عن الآلهة وحدها ؟ سوف اضعه عند نخادع العظماء . سوف احمس به في مسامع الابطال . سوف اتقف به الاحرار يوم يولدون .

- وسوف تقف به في الاسواق والميادين وتقرؤه على الجماهير المتجمهرة صائحاً : « أيها الشعب ! ان زعيمكم قد خان . ايتها الكائنات السفلى موتوا لتجيا الكائنات العليا » .

- كلا يا حسن مفتاح . لن افعل من ذلك شيئاً . الغدر ليس من سجايا عزرائيل . هذا الصك سوف يحفظ بين موافيق الخالدين شاهداً عليك ودليلاً . فلئن خرجت من جديد الى الجماهير تمجدها وتعدّها بالمساواة نزلت انا الى الارض ونسخته بحروف كبيرة حمراء لاتمحى على جدران البلاد ، حتى يعرف الناس حقيقة حسن مفتاح . أتجد غبناً فيما أقول .

- كلا يا عزرائيل .

- اذن وقع الميثاق .

- مهلا . مهلا . (يحدث نفسه) سوف اخدعه . ماذا يحدث لو وقعت

الميثاق ؟ ان كل ما اطلبه ثمان واربعين ساعة . انا لا أطلب الحياة لنفسى . ترى ماذا يحدث لو أبليت ؟ سوف ينصرف عزرائيل ومعه الجثة . وعندئذ من ذا يقود الجماهير ؟ ان اللجنة المركزية تتخبط بغير حسن مفتاح . لسوف يفشل كل

شيء، وسوف يتناحر الجيار ورامز وروزنشتاين على السلطة . وسوف يغفر بطرس قلادة من المعركة . وسوف تنتحر مونا ربيع . وسوف يعود حسن مفتاح روحاً مجردة لا حول لها ولا قوة ، تؤم مواقع الجثث وتندب النصر الذي لم يكن . وسوف يعود العبيد الى اغلالهم بعد ساعات . وهل يغفر الشعب عندئذ لحسن مفتاح ؟ كلا ، لن يغفر الشعب عندئذ لحسن مفتاح . ان « هذه » هي الخيانة . نعم . « هذه » هي الخيانة . ان الشعب ينتظر . كيف يتخلى حسن مفتاح ؟ أفي اللحظة الأخيرة يتخلى حسن مفتاح ؟ محال . محال . محال . ما أيسر الجريمة . ما اقصى العقاب . ثمان واربعين ساعة . انا لا اطلب الاثاني واربعين ساعة . التاريخ ينتظر . شعوب الارض تنتظر . جماهير مصر تنتظر . بعد ثمان واربعين ساعة ينتهي كل شيء . الوقت عصيب . الفجر قريب . أكاد ان أراه . كل شيء رهين بهذه الساعة . أأوقف عجلة التاريخ من أجل هذا الزائر الابله ؟ ما أعجب السماء لم أهملتي السماء حتى اللحظة الحرجة ؟ هذه احاج لا يفهمها البشر . ولكن حسن مفتاح لن يتراجع . لن يخون . لن ينقاد . الأقدار تأكيد لك يا حسن مفتاح . الأقدار تغار منك يا حسن مفتاح . لاشك أنها تأكيد . لاشك انها تغار . ماخطبها ياترى ؟ آه ، فهمت . غداً تلمع في السمات يا حسن مفتاح ، فيحجب نورك الآلهة . غداً تلهج بذكرك الألسنة والآلهة في غمرة النسيان . اجل . القدر يطارد الابطال منذ فجر التاريخ كلا . كلا . ان السماء ليست غيرة لكنها غصبي . الكلمة لك يا حسن مفتاح . سام الجثة تحن الشعب . ولكن حسن مفتاح سيقاوم . سيرواغ . سيوقع الصك إذا لزم الأمر . ليس كذلك يا حسن مفتاح . التاكتيك . الم نقل ان التاكتيك سبيل الثورة ؟ يا عزرائيل .

— هل وصلت الى قرار ؟

— ثمان واربعين ساعة .

— محال يا حسن مفتاح .

— يا عزرائيل •

— ماذا قلت •

— الي بالصك •

(يبادر اليه عزرائيل بالصك والريشة • يغمس حسن مفتاح الريشة في ذراعه الجريحة ويقرب بها من الصك • وما ان تمس الريشة الصك حتى يقصف رعد هائل يزلزل جنبات الدار • فتسقط الريشة من يد حسن مفتاح وتسمع أصوات ملائكة تتحدث • :

الملاك الأيمن — الحذار يا حسن مفتاح •

الملاك الأيسر — الحذار يا حسن مفتاح •

— اغرب عن وجهي أيها اللعين •

— هات الجثة يا حسن مفتاح •

— ان تظفر مني بشيء •

— وقع الصك يا حسن مفتاح •

— كلا • كلا • كلا •

— وقع الصك او سلم الجثة •

— صبراً يا عزرائيل • الملائكة غضبي • الغفران • الغفران • كلا • لن اوقع

الصك • (يكلم نفسه) ولكن عزرائيل يقف بالمرصاد • اصريه ايتها الملائكة

اصريه • اصريه • لم لا تصرعيه ايتها الملائكة ؟ ما أضعف البشر • انقديني

يا رسل الخير • فليقتل الخير الشر • لم لا يقتل الخير الشر ؟ الى الملحمة الكبرى •

هيا • هيا • هيا • الخير يقتل الشر • ايها الناس • تعالوا واشهدوا • لقد ازفت

ساعة الخلاص . سوف يقتل الخير الشر . ولكن الملائكة لا تتقدم . لم لا يقتل
الخير الشر؟ لم لا يقتل الله الشيطان؟ ايها الناس، ان الملائكة خائفة . ما ضعف
الخير . لم يبق الا ان اخذعه . اذا كانت الملائكة ترتعد فحسن مفتاح لا يرتعد .
نعم ، لسوف اخذعه . لقد قلنا ان التكتيك سبيل الثورة . لسوف اخذته .
انالا أطلب الاثباتي واربعين ساعة . الأسد والثعلب . قوة الاسد ومكر الثعلب .
هذا جاء أيضاً في الكتاب الجديد : اذا أعوزتك قوة الاسد فليكن لك مكر
الثعلب . لسوف اوقع الصك . ترى ماذا يكون لو وقعت؟ لسوف ينصرف .
نعم ، ينصرف . هذا كل ما أرجوه . ان ينصرف . امهليني ايتها الزبانية . المهلة .
المهلة . المهلة . وبعد ذلك يسير كل شيء طبقاً للخطة الموضوعة . لسوف اكسر
الميثاق . لسوف اختار خلفي . الأحمق رامز . وهل غير رامز . للعهد الجديد !
رامز شعلة من نار . رامز فولاذ مسبوك في جوف الشمس . لسوف اكتب بياناً
للناس . ماذا يكون عنوانه : « الى السلاح ايها المواطنين » كلا . « الى السلاح
ايها الكادحون » . « الحرية للعبيد » . لسوف اترك وصيتي للجنة المركزية .
ومع الفجر اخرج الى الشارع استنهمض الكادحين . وليفعل عزرائيل ما يشاء .
هبة نشر الصك بحروف كبيرة حمراء لا تمحى على جدران البلاد ، ترى ماذا
يحدث؟ لن يصدقه احد . بلى . بلى . سوف يصدقه فريقتي . اواه . حروف
لا تمحى . العار الابدي يا حسن مفتاح . ياله من ماكر لعين . ولكن لن يصدقه
احد . سوف يصيح الشعب : « دسياسة بورجوازية » . سوف يحطم الشعب
الجدران . ولكن كيف يحطم الشعب ملايين الجدران . ولكن الحروف لن
تمحى . نعم . لسوف اكتب بياناً للناس . لسوف اشرح الحقيقة . ولكن كيف
يصدق الناس الحقيقة؟ لسوف يصيحون : « لقد جن الزعيم . لقد جن حسن
مفتاح . لسوف يسود الذعر الجموع . لسوف تتفكك اللجنة المركزية . لسوف
تحمد الثورة قبل ان تشتمل . كلا . لن اكتب بياناً للناس ، ولتمت الحقيقة
معي . ولكن لا بد من المجازفة . ان حسن مفتاح لا يفر في اللحظة الحاسمة .
انه تكليف من سر الوجود . التاريخ ينتظر . نعم ، لا بد من المجازفة . التكتيك

سبيل الثورة . (ينادي) .

- يا عزرائيل .

- لييك .

- إليّ بالصك (ينحني ويلتقط الريشة ويغمسها في ذراعه المجهروح من جديد
ويقترّب بها من الصك .

وما ان تمس الريشة الصك حتى يقع رعد هائل فيزال جوانب الدار وتسقط
الريشة من يد حسن مفتاح ويسمع اصوات ملائكة تتحدث) :

الملاك الآمين - الحذار يا حسن مفتاح .

الملاك الأيسر - الحذار يا حسن مفتاح .

- صمتاً ايها الملائكة .

(ينحني ويلتقط الريشة على عجل ويقترّب بها الى الصك للمرة الثالثة فيتابع
قصف الرعود وتظلم الدنيا امام عينيه وتعوي في اذنيه رياح رهيبة ويسمع الملكين
يناشدانه الحذر في دعر عظيم فيحطم الريشة ويقذف بها بعيداً ويخرج من فمه
لسان من النار يا كل صك عزرائيل . وحين ينجلي الدخان يسترخي حسن مفتاح
في مقعده ، ويستسلم لغبوبة طويلة هدوؤها كامل . وفي هذه الغيبوبة يسمع موسيقى
الهية تعزف اجمل من كورال بيتروفن ويسمع كوراس الملائكة تغني :
« هلوليا . هلوليا ») .

- يا حسن مفتاح

.....

- انه في رؤيا . لقد عذبتة عذاباً لم اعذبه احداً من قبل . لقد اوشك ان
يقع في الفخ ، ولكنه نجا منه بأعجوبة . كلما أمسك بالريشة شلت يده . ترى

ماذا يشل يده ؟ المجد لك يا حسن مفتاح . انا عزرائيل انكس الرأس أمام حسن مفتاح ، ولولا خشيتي من مولاي العظيم لسجدت امامه . لك المجد يا حسن مفتاح . لقد عاش بطلاً وسوف يموت بطلاً . ولكن لا بد ان يموت . نعم ، لا مفر من الوفاء . لا مفر من القصاص . وحين تمثل روحه العظيمة في المحكمة العليا امام الديان الاكبر ، عندئذ يستطيع حسن مفتاح ان يصيح في الملأ الأعلى : « لقد قتلنا ليحيا الشعب » فتجلجل كلماته في كهوف السماء . سوف يعرف حسن مفتاح كيف يدافع عن نفسه يومئذ ، ولقد يستمع الديان الى دفاعه . انه لن يطلب لنفسه الرحمة . انه لن يطلب إلا العدالة . (يشم الدم في الهواء كأنه ذئب مفترس) واحسرتاه . كل هذه الرؤوس تهوي : ١٢٣٠ رأساً في اليوم الاول ، ٥٦٦ رأساً في اليوم الثاني عدا صرعى المارك . (يصمت قليلاً) ولكن الخطأ خطؤه ، فهو لا يقتل الا عدلاً . لقد راجعت بنفسي قوائمه فما وجدت فيها واحداً لا يستحق غضب الشعب . يا للخسارة . لو ان حسن مفتاح كان يقتل الناس ظمناً لحلف ابليس الى نجده ، لغضب له ، لظاھره يجند وعناد ، بل لخرج في الف الف ملاك ممسوخ واشعلها في السماء حرباً ضروساً دونها حربه الأولى . من اين لابليس يجبار جديد ؟ ولكن هكذا شاء حسن مفتاح . ان فيه شرارة الرحمن . فليمت وحيداً كما عاش وحيداً . نعم ، لا بد ان يموت . يا حسن مفتاح . - (يستيقظ) لبيك يا عزرائيل .

- سلم الجثة .

- (ينهض) أنا لك جسداً وروحاً . أنا لك . عجل يا عزرائيل . (يرفع وجهه الى السقف ويصلي وكأنه نائم) يا سر الوجود . سدد خطاهم . اقهر عداهم . يا سر الوجود . بارك الوادي . بارك مونا . بارك مونا . بارك مونا . أواه .

- يا حسن مفتاح .

- عجل يا عزرائيل .

- كم الساعة الآن ؟

- الغروب يا عزرائيل : (يدق ناقوس بعيد سبع دقائق)

- أنت بطل كريم .

- أنصفت يا عزرائيل .

- لن آخذك الآن .

- متى يا عزرائيل .

- أتحب أن ترى مونا ؟

- نعم يا عزرائيل .

- أتحب أن تودع زملاء ؟

- نعم يا عزرائيل .

- لقد عشت كريماً فلتمت كريماً (ينظر الى يديه الشائنتين ثم ينظر الى عنق حسن مفتاح) حرام أن تمتد هذه الأصابع الشائنة الى هذا العنق الكريم . أنا لا آخذ إلا سفلة الناس يا حسن مفتاح .

- أما الأبطال فيسعون إليك بأقدامهم .

- هو كذلك يا حسن مفتاح .

- فهمت . أتحب أن أشكرك ؟

- كلا ، يا حسن مفتاح .

- هل اتفقنا ؟

- نعم اتفقنا .

- وأين موعدنا يا عزرائيل ؟

- أتعرف وادي الخفافيش الحمر ؟

- أجل يا عزرائيل .

- موعدنا في وادي الخفافيش الحمر يا حسن مفتاح .

- غداً عند الغروب يا عزرائيل .

- الى اللقاء يا حسن مفتاح .

- الى اللقاء يا عزرائيل .

ونفض القزم ذو الشارب الأسود الكثيف والفم اللثيم والعينين الضيقتين ووقف عاري الرأس ينتظر . وأوشك أن يبسط يده مصافحاً ولكنه لم يفعل . أما بصره فلم يتحول عن وجه حسن مفتاح وهو مسترخٍ على مقعده وطفح قلبه بالرتاء لهذا الطلل المجيد فأنحدرت من عينيه دمعة حجرية . وكأنما استحى الزائر العجيب أن تفضحه أشجانه فلنصرف مسرعاً يرك في الدهليز تتبعه نظرات حسن مفتاح وهي جامدة ، حتى بلغ الباب . ورأى حسن مفتاح مدام ماريكا تخرج إليه وتضم ثوبها الى جسدها كأنما هبة من الهواء تلتطمها ثم تلتطم الباب ، ثم رآها تفتح الباب والزائر يتسم لها أعذب ابتسامة في الوجود ويحني رأسه بالتحية ، ولكن مدام ماريكا لا ترق له بل توشك أن ترتجف . كذلك رأى مدام ماريكا تملق دونه الباب ولكنها تقف حيرانة بضع ثوان ثم تحك شعرها الأشيب المنفوش . ودخلت مدام ماريكا الى حسن مفتاح فوجدته مسترخياً على الكرسي الأسبوطي وقد جحظت عيناه واشتبكنا بسقف المدخل . ورأت كل ما تخلف من الآنية الصينية ومن زجاجات البيرة الفارغة محطماً على البساط ، وأرادت أن تحتج ولكنها لم تقل شيئاً . وأخيراً قال حسن مفتاح :

- مدام ماريكا .

- نعم مسيو يا مفتاح .

- هل خرج ؟

- مين الي خرج ؟

ونظرت إليه عاجبة وحملت هو فيها وأوشك أن يسأها قائلاً : « ألم تفتحي الباب منذ لحظة ؟ » ولكنه عدل عن ذلك وعاد يقول :

- مدام ماريكا ؟

- نعم يا مسيو مفتاح .

- كم الحساب ؟

- أنت مسافر يا مسيو مفتاح ؟

- نعم ، في رحلة طويلة ، طويلة ، طويلة .

كل ذلك وبصره لا يتحول عن مصيص السقف . وخطر له أنه كان يحلم ثم أفاق من حلمه . ولكنه طرد هذا الخاطر ، وبدأ عليه أنه يرى شيئاً بعيداً . وحملت فيه مدام ماريكا زمناً ثم عادت الى مطبخها تبحث فيه عن سلة تجمع فيها حطام الصيني وتنف الزجاج المكسور .

بعد ان انصرف القزم ذو الشارب الأسود الكثيف والفم اللثيم والعينين الضيقتين ، دخل حسن مفتاح غرفته ، وأغلق بابها بالمفتاح على غير عادته . وحين دقت مدام ماريكا بابه لم يفتح لها فوراً بل سألها غاضباً عما تريد ، فلما علم انها تريد ان تسلمه أوراقه فتح وتناول الاوراق دون ان يشكر ، ثم ادار المفتاح في الباب من جديد . واتكأ على سريره يفكر تحت النور مباشرة . وسقط بصره على مرآة الدولار ، ورأى فيها وجهه فعبس قليلاً ثم انصرف الى تأملاته مرة أخرى .

انه يفهم الآن . هذا ما تريده السماء . بالحق ! والباطل ؟ انه لم يحسب حساب عزرائيل . ولكن لم انتظرت السماء حق اللحظة الحاسمة ؟ ان منطق القدر يحير العقل . اهذا جزء من الجو المسرحي الذي تحيا فيه الخليقة ؟ ولكن كان ينبغي عليه ان يقدر كل ذلك ، فهو يعلم ان كلف القدر بالمسرحيات قديم . وتذكر حسن مفتاح جاره القديم الخواجة طناش الذي دخل المستشفى لتبتر ساقه وظل طول العلاج يحار كالمجنون ويبيكي بكاء الاطفال ، وما ان تم علاجه وخرج الى الشارع حتى صدمته سيارة قتلتة لوهلته . ان منطق القدر يحير العقل . ولكن من قال ان للقدر منطقاً ؟ نعم . ان للقدر منطقاً ، وهذا المنطق يحير العقل . ولكن ماذا يحير العقل في منطق القضاء ؟ المقاتل يقتل . هناك جريمة وهناك عقاب . كل هذه قوانين يعرفها الاطفال الصغار ولا شيء فيها يحير العقل . وقد كان ينبغي على حسن مفتاح ان ينتظر شيئاً من هذا القبيل . انه يعلم عن

الابطال القدماى انهم كلما ارتفعوا حق مست السماء هاماتهم جاءهم النذير من عرافة منف يقول : « احذروا الآلهة . احذروا » . لاجديد يا حسن مفتاح . لقد تذكر حسن مفتاح كل ذلك وهو متكئ على سريره يفكر تحت النور مباشرة . ولكن لم قتل الخواجة طنash بعد ان تعذب عذاباً اليماً ولم يقتل قبل ان يتعذب ؟ لم انتظرت السماء حتى اللحظة الحاسمة ؟ ان للقدر منطقاً يحير العقل ترى ماذا تظن به مدام ماريكا ؟ ولكن مدام ماريكا تستطيع ان تذهب الى الجحيم . ترى كيف تجد مدام ماريكا موضعاً بين افكاره في هذه اللحظة العصبية ؟ ولكن البيرة التي قدمتها اليه كانت مثلبة ، وهو يرغب في مزيد منها . كلا . انه لا يجرؤ ان يفتح بابه وينادي ؟ « مدام ماريكا . زجاجة بيرة » . اذن فلا بد من الوفاء ؟ اذن فلا بد من القصاص ؟ انه لا يخشى القصاص . وهو يعلم انه روح ملعون ، وهو يرضى بالسفود ان كان هناك سفود . ولكنه يخشى الوفاء كلا . كلا . انه لا يخشى الوفاء . انه لا يخشى الموت . هو يؤمن بالوفاء . ولكنه يطلب الامهال . فليأت عزرائيل وليحمل الجثة وينصرف بها ، ولكن بعد غد وفيما العجلة ؟ ليرقص حولها الجان ويحرقوا انتن البخور ؟ نعم . فيم العجلة ؟ فلتؤجل الجان رقصها ثمانى واربعين ساعة . انتن البخور ! انه لم يكن يعلم ان السماء تبتغض البشر الى هذا الحد . الشعب يطلب جثة حسن مفتاح ليصنع التاريخ والجان تطلب جثة حسن مفتاح لتحرق انتن البخور . ولكن أعداء الشعب يطلبون جثة حسن مفتاح كذلك . يا لها من جثة ثمينة . ولكن ماجدوى التفكير . انه جادل عزرائيل بما يستطيع فأخفق في اقناعه . انه قاوم . الم يقاوم ؟ وفي كل مرة قاوم كان يحس بالاختناق ويوشك ان يسعل دماً . أجل . لا بد من الوفاء . الم يعد عزرائيل بالوفاء ؟ انه لم يخلف من قبل وعداً ، ولا بد من الوفاء . لماذا يفكر فيما لا ينفع ؟ لقد تم الاتفاق . الاتفاق ؟ انه لم يتفق على شيء . . انه قبل الشروط . ولكن عزرائيل لا يخلو من الشهامه . لقد امهله اربعاً وعشرين ساعة ، لعلها الآن ثلاث وعشرون . عليه ان يرى موثا ربيع ويضرع اليها ان تركب الطائرة . لسوف يصارحها بكل شيء . لسوف يسر في

اذنها بأن الثورة فاشلة . انه لايجرؤ ان يقول ذلك للجنة المركزية حتى لايقال خائن او مجنون . ولكن موناربيع ستفهم كل مايقول . نعم . ستفهم موناربيع كل مايقول . احقاً ان موناربيع ستفهم كل مايقول ؟ لابد ان يكتب بياناً للناس . لا . لا . لابد ان يكتب وصية للجنة المركزية . ثم هناك القوائم السوداء ولا بد من تسليم القوائم السوداء . ماذا تفعل اللجنة المركزية لو احرق القوائم السوداء ؟ لقد كشف عن عينيه الغطاء وهو يرى الآن ما لا يرون . القاتل يقتل . الجريمة تحمل العقاب في احشائها . نعم . نعم . لسوف يدمر القوائم السوداء . لاعنف بعد اليوم . لاعنف . لاعنف . لانهم بسطاء لا يفهمون ماذا يعملون . آه لو انهم رأوا بعض ما رأى . ولكنهم لا يعلمون ما عزرائيل لأنهم لم يحتنقوا . انهم لم يحتنقوا حتى تطفح افواههم دماً . انهم لم يتحسسوا اعناقهم . انهم لم يلبسوا أطواق الحديد . أما هو فقد فعل كل ذلك . أين ذهب الرباط والألوان الكثيرة ؟ لاشك ان عزرائيل طار به . العنف ؟ من قال العنف ؟ انهم لا يفهمون ما يعملون . انها لعنة قابيل . كلا . كلا . ان اللجنة المركزية تحمل الآن اعذب الاحلام . انها تحمل بالرؤوس الهاوية . انها تحمل ببرك الدماء . انها تعاليم حسن مفتاح ، ولسوف يكفر عنها باحراق القوائم السوداء . ان نعيماً كان يقترح ان تنشر اللجنة المركزية أعداء الشعب بالمناشير : من اسفل إلى أعلى ، درجة درجة ، بلا مخدر ، ليموتوا موتاً مقسطاً . ولكن اللجنة المركزية قالت انها كانت تود ان تفعل ذلك لولا خوفها من كتب التاريخ ، فأجاب نعم بأنه يقترح ذلك بالذات ليدون في كتب التاريخ . ثم تدخل حسن مفتاح قائلاً : « سابق لأوانه . سابق لأوانه » . وعادت الجماعة الى جدول الاعمال . ولكنهم لا يفهمون ما يعملون . انهم لا يعلمون ما عزرائيل . انهم لم يلبسوا أطواق الحديد اما هو فقد فعل ذلك . آه لو رأوا بعض ما رأى . ولكنهم سيرون كل ما رأى واكثر منه . ليتهم علم بما كان سيكون . اذن خلقت روحه اربعين يوماً ثم انطفأت وتوارت في العالم المجهول . ولكن من اين له ان يعلم هذا ؟ ان فؤاد منقريوس لم يخبره بهذا المصير . ان فؤاد منقريوس لا يزال حياً في شجرة الجيز ، وسوف

يظل حبيساً فيها الف عام اخرى . التاريخ . التاريخ . لماذا لم تأتِ نذر السماء
 من قبل وتحذر . ان اللجنة المركزية تحلم الآن اعذب الاحلام . ان اللجنة
 المركزية ستفيق من أحلامها العذبة حين لا تجد القوائم السوداء . فلتعد اللجنة
 المركزية قوائمها السوداء مرة اخرى ، أما حسن مفتاح فلن يشترك في التبعة .
 سيقولون ان حسن مفتاح خرب الثورة . فليقولوا . ما أكثر ما يقولون . اما
 هو فيفسل يديه من المجزرة . لقد قتل مرة ولن يقتل مرة اخرى . لن يقتل
 باسم القانون او باسم الشعب او باسم الشياطين . لقد قتل مرة وهو الآن يدفع
 الثمن . لسوف يقصد الى اللجنة المركزية ويصيح في الجماعة قائلاً : « لقد رأيت
 عزرائيل . احذروا عزرائيل . ان عزرائيل بالمرصاد . » لسوف يقص عليهم
 كل ما جرى . ترى لماذا لا يختنق الآن كما كان يختنق أمام عزرائيل؟ انه هادئ .
 ترى ما سر هذا الهدوء ؟ لسوف يقص عليهم ما جرى . ويترك لهم الخيار . ان
 هذا واجبه فهو الذي دفعهم الى العنف دفعاً . لا يزال في الوقت متسع للتراجع .
 ولكنه لم يعد سيد الموقف . لن يطيعه احد . سيسخر منه الجميع . كلا . لن
 يقص عليهم ما جرى . ولكنه سيدمر القوائم السوداء . سيقول : « ايها الزملاء ،
 صدقوا ما جاء في الميثاق الأعظم . ان العنف لا يجدي . لا تكتبوا التاريخ
 بالدماء . لا تبنوا مصر بالجثث . انشروا السلام على وجه الأرض . » . فلا . لن
 يقول من ذلك شيئاً . سوف يودعهم في صمت . وفيم الوداع ؟ سوف يختفي في
 صمت . سيقال جبان . فليُقتل . . ما أكثر ما يقال . انه نادم على كل ما فعل .
 ولكن من أين له ان يعرف ؟ لماذا لم ترسل السماء من قبل نذراً تحذر ؟ لماذا ؟
 لماذا ؟ آه لو عرف من قبل . انه نادم على كل ما فعل . وفي اللحظة الحاسمة .
 لماذا في اللحظة الحاسمة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ان للقدر منطقاً يحير العقول .
 ولكنه يقبل هذا المنطق راضياً ، فان لم يقبله راضياً قبله صاغراً . انه نادم على
 كل ما فعل . آه ، لو عرف من قبل . من اذن له ان يقتل سيد قنديل؟ الشعب .
 بأي حق ؟ حق ؟ حق ؟ انها الضرورة . هي الضرورة . من يدري ؟ ان
 ضميره قال له : « اقتل سيد قنديل ليحيا الشعب » . ولكن السماء على صواب .

الشعب يأمر والسماء تنهي . اقتل . لا تقتل . اقتل . لا تقتل . ثم من قال ان هذا صوت الشعب ؟ ولكن السماء على حق . السماء دائماً على حق حتى ولو اخطأت . وماذا تعرف الهوام التي تدب على قشرة الأرض وتأكل وتتناسل وتقتتل في الخطأ وفي الصواب ، في الخير وفي الشر . لا بد ان تكون السماء على حق وان كان منطقها يحير العقل . انه نادم على كل ما فعل . لا ثورات بعد اليوم . الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام . فليكتب التاريخ بريش الحماس . فليتهطل الأمطار ولتغسل الدماء عن وجه الأرض . فلينزح السلاح من ايدي الاحياء . لا قتال بعد اليوم . فليتنزع من المقارب اذنانها ومن الأفاعي انبائها ولتنزع من الوحوش الاظافر والمخالب والاذلاف . فلا قتال بعد اليوم . أمر يومي من حسن مفتاح سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري الى الكادحين في وادي النيل : على الأرض السلام . سوف يطبع هذا بالبنط العظيم ويعلق اللوحات على جدران القاهرة . آه لو عرف من قبل ، لما فعل شيئاً مما فعل . انه نادم على كل ما فعل . ولماذا يخدع نفسه ؟ انه لا يخجل من ذلك . نعم ، انه خائف من الموت . ليس طبيعياً ان يخاف الموت ؟ ان كل الناس تخاف الموت . الموت ؟ انه كان يكابر عزرائيل لا أكثر . انه كان يخدع نفسه حين قال لعزرائيل شاخاً . « ان حسن مفتاح لا يهاب الموت » . الموت ؟ ما معنى الموت ؟ انه ميت فعلاً ، فكيف يهاب الموت ؟ ألم يمت عند السلسلة ؟ ان المرء لا يموت مرتين . نرى ماذا سيفعل عزرائيل به في الغد عند الغروب . سيعطيه الموت . سيأخذ منه الحياة . ولكنه رغم ذلك يهاب الموت . ولكن بأي حق يهاب الموت ؟ ان ما سيموت هو جسد سيد قنديل فما دخله هو في الموضوع ؟ ان روح حسن مفتاح باقية على كل حال ، فما دخله هو في الموضوع ؟ ولكنه رغم ذلك يهاب الموت . ترى هل سيتألم . انه لا يعرف اذا كان سيد قنديل قد تألم ام لا حين خرجت روحه تحت الجرف العميق . لا شك انه تألم كثيراً . ان الورقة تصرخ حين تتمزق . ان الصخرة تعول حين تكسر . لا بد ان سيد قنديل قد تألم حين خرجت روحه تحت الجرف العميق كثيراً . تماماً كما تألم حسن مفتاح

حين خرجت روحه عند السلسلة . ان سيد قنديل لم يتوجع ، ولكن الفلاحين لا يتجمعون حتى امام الموت . ولكن من يدري ؟ غداً عند الغروب يتضح كل شيء . ثم انه قال لعزرائيل انه يعرف وادي الخفافيش الحمر ، وهو لا يعرف وادي الخفافيش الحمر . ترى لما فعل ذلك ؟ لعله اراد أن يخدع عزرائيل . كلا . انه كان يعرف وادي الخفافيش الحمر ، يذكره بصورة غامضة . انه يذكر انه زاره من قبل . ترى اين يكون وادي الخفافيش الحمر ؟ يا له من اسم عجيب . ترى ماذا يحدث لو ضل الطريق الى وادي الخفافيش ؟ لا شك ان عزرائيل سيظن به الظنون . ولكنه لن يضل الطريق الى وادي الخفافيش الحمر . سوف يتذكر غداً عند الغروب ، ما في ذلك شك . ولو نسي فعزرائيل سيقترده بقوة سحرية الى هناك .

ونهض حسن مفتاح وسعى الى النافذة المفتوحة واتكأ عليها ، وانكشفت أمامه العائثر الرازحة والشارع النظيف فرآها بوضوح تحت الليل السنجابي على مصابيح الطريق وعلى انوار الكهرباء المتألقة داخل الحجرات . ومن تحته كانت محطة البنزين بانوارها الكبيرة الحمراء تضج ضجيج المصانع ، ولكنه لم يلتفت الى وجود هذه الأشياء . كذلك لم يلتفت الى السابلة السائرين في حلال لونها واحد او متشابه تحت بصره في الشارع النظيف ولا الى السموات الشهباء التي لا يلمع فيها لانجمان صغيران بلون الزئبق القدر . لم يلتفت الى شيء البتة لأنه كان يصلي . ولكنه لم يكن يصلي في الواقع بل كان يحاول الصلاة . انه نادم على كل ما فعل ، ولم يبق الا ان يعلن ندمه جهاراً امام الله . ولم يجد من العبارات ما يريح صدره فعدل عن الصلاة . ثم انتفض فجأة كأنما عضه خاطر موجه ، وانصرف من النافذة وحملق في اثاث الغرفة ، ومضى يهز رأسه هزاً متواصلاً .

كلا . كلا . ان هذه حماقة . حماقة ؟ كلا . كلا . ان هذا ضعف . ضعف ؟ كلا . كلا . ان هذه خيانة . انه لن يفني بالموعد . الموعد ؟ انه لم يعد بشيء . انه . كيف يسلم على طول الخط ؟ انه لم يعد بشيء . ان عزرائيل املى شروطه فقبلها هو صاغراً . انه لم يعد بشيء . يا للحماقة . اين عزرائيل الآن ؟ لقد مضى

لعله يحاسب رجلاً آخر . مضى ولم يترك وراءه أثراً . حتى صوته المعدني الواضح النفاذ قد انصرف وراءه على متن الهواء ، وحسن مفتاح الآن بمأمن . كيف يسلم على طول الخط ؟ ان حسن مفتاح قد نسي انه حسن مفتاح . ثم انه الآن بمأمن . لسوف يهرب . لا بقاء له في هذه الدار بعد الآن . ان الجدران تقول : « اهرب ايها الرجل » . ان مدام ماريكا تقول : « اهرب ايها الرجل » . كل ما في الغرفة يقول : « اهرب ايها الرجل » . حتى الغطاء الأحمر يقول : « اهرب ايها الرجل » . ان هذه ليست بالتخيلات لأن حسن مفتاح يسمع أرض الغرفة تتكلم ومرآة الدولاب تتكلم . كل شيء يقول : « الفرار يا حسن مفتاح » . ثم هبه وعد بشيء . ان عزرائيل شيطان ، فكيف يكون حسن مفتاح جنتلماناً مع الشيطان ؟ نعم ، شيطان . اي مغضوب عليه من السماء . ماذا يعرف عزرائيل عن الميثاق الأعظم ؟ ألم يتواتر الرأي بان الشياطين كائنات خداعة مخاتلة ؟ فكيف يكون حسن مفتاح جنتلمان مع الشيطان ؟ أحقاً ان هذه ارادة السماء ؟ كلا . ان عزرائيل شيطان . اي مغضوب عليه من السماء ومحال ان تكون ارادته ارادة السماء . ثم ان حسن مفتاح لم يقاوم بما فيه الكفاية . انه سلم على طول الخط . ترى كيف ضعف الى هذا الحد ؟ اين هو عزرائيل الآن ؟ لا اثر له . ثم ان مدام ماريكا قالت عاجبة : « اي رجل ؟ » اي رجل ؟ الرجل القصير ذو الشارب الأسود الغزير والفم اللثيم والعينين الضيقتين . الرجل الذي خرج منذ هنية . لا يا مسيو مفتاح انا لم ار رجلاً بهذه الأوصاف . كلا ، يا مسيو مفتاح ، انا لم ار رجلاً يخرج منذ هنية . الرجل الذي زارني يا مدام ماريكا ؟ كلا ، يا مسيو مفتاح لم يزرك أحد اطلاقاً . ولكنك فتحت له الباب بيدك يا مدام ماريكا ؟ كلا يا مسيو مفتاح ، انا لم افتح الباب الا لبائع الثلج . اتشكو شيئاً يا مسيو مفتاح ؟ كلا يا مدام ماريكا . قليل من الهديان . لا شك انها البيرة . نعم لا شك انها البيرة . ان هذه البيرة مسمومة . هل سمع أحد بعزرائيل يزور الأحياء ؟ الأحياء ؟ نعم ، هل سمع أحد بقزم أسود الشارب

كثيفه لثيم الفم ضيق العيدين يتردد على بيوت الناس ؟ هل سمع احد بعزرائيل يلبس جاكته وبنطونا ؟ ان الشياطين تلبس المسوح البيض وتتجول بين القبور . نعم لا شك انه كان يهذي . لا شك انها البيرة . كيف تقدمين الي بيرة مسمومة يا مدام ماريكا ؟ ولكن من كسر الزجاجات والأطباق يا مدام ماريكا ؟ ضربتها برجلك يا مسيو مفتاح . ولكني رأيته . رأيتة يزك في سيره متكئا على عصا من الخريت يا مدام ماريكا . كذلك نيممت صوته وجادلته ساعة أو بعضها . كذلك أمسكت بخناقه وأمسك بخناتي يا مدام ماريكا . لا شك انه دخل مع بائع الثلج دون ان تراه مدام ماريكا . ولكن كيف يدخل مع بائع الثلج دون ان تراه مدام ماريكا ؟ لا شك ان جسده من زجاج شفاف تراه بعض العيون ولا يراه بعضها الآخر . أو لعله تقمص في زي فأر وتسلسل الى الدهليز دون ان يلحجه أحد . نعم . ما من شك في ان عزرائيل زاره مع العصر ولم ينصرف الا مع الغروب . ثم ان مدام ماريكا لم تنكر انها رأيته . ان كل ما قالته مدام ماريكا هو : « أي رجل ؟ » لعلها لم تفهم مراده على التحقيق . لعل بابها طرفة رجال عديدون . بائع الثلج وبائع الزبد وبائع الخبز وبائع الفجل والكوجي والطعمجي والعريجي والقهوجي والتجار والجزار والحمار والزمار . وعزرائيل . نعم . انه لم يكن يهذي . لا شك انه رأى عزرائيل وجادله ساعة أو بعضها . ولكن القوة مع الأقوياء والحتل مع الخاتلين . بل الحتل مع الأقوياء والحتل مع الخاتلين . أي ختل ؟ ان حسن مفتاح لا يخاتل . ولكنه لا يسلم بهذه السهولة . انها أمانة في عنقه . انه لا يخشى الموت ولكن الحياة امانة في عنقه حتى يكتب النصر لعبيد البلاد . فليات عزرائيل ويأخذه أما هو فلن يسعى الى حتفه بظلفه . ولكن عزرائيل لن يمده . لن يقفله على أثر عزرائيل . لأنه سيهرب . سيتوارى . سيخفي في مكان ما . وسيبحث عنه عزرائيل دون جدوى . وسيدبر الثورة . وسيبحث عنه عزرائيل دون جدوى . وسيصدر البلاغات الرسمية عن سير القتال من يدرون مهجور بمهارة مهجورة بحج مهجور بمدينة مهجورة . لماذا لا يغتبيء في نخدع الملك بالهرم الأكبر ؟ نعم . ويوصد

دونه الباب الصواني الأعظم . هناك يكون بأمن من عزرائيل . ولو شاء عزرائيل ان يقتحم عزله لما استطاع . ولو استطاع عزرائيل ان يقتحم عليه عزله لمات مجاهداً . ان الأصوات في رأسه كثيرة وكلها تقول : « اهرب أيها الرجل . اهرب أيها الرجل . »

واندفع حسن مفتاح الى الدولاب كالمجنون وشب على قدميه كثيراً حتى أمسكت يده بحقيبة صغيرة صفراء رفعها ثم حطها على ارض الغرفة وجلس يحوارها القرفصاء . وفتح الحقيبة وفتح الدولاب . وذهب يجمع أشياء في لفة ، وسرعان ما ملأ الحقيبة بالملابس الداخلية البيضاء . ولكنه عاد واستخرج بعض الأشياء وأعادها الى مكانها . وشرع يفكر بسرعة . انه ليس بحاجة الى كل ذلك . انه بحاجة الى لباسين وفانلتين وقميصين وأربع جوارب وحافظه فيها ما يكفي . وتأمل أحذيته قليلاً ثم انصرف عنها . وأغلق الحقيبة . ونهض . ألم ينس شيئاً؟ نعم . لقد نسي أشياء . وجلس القرفصاء مرة أخرى وفتح الحقيبة ثم انطلق الى بابه وفتحه ونفذ منه الى المدخل . ومن المدخل نفذ الى الحمام . لقد نسي الفوطة والصابونة وأدوات الحلاقة وفرشة الأسنان والمعجون . وحين دخل الحمام أحس برطوبته الخارجة من الجدران الصينية ومن الأنابيب الكثيرة فانتعش كثيراً . وحين أثار الحمام وقف يحيل بصره فيه كأنه يبحث فيه عن شيء . ثم انتبه . فقد وقع بصره على المربعات الصينية اللامعة التي تكسو الحائط ورأى ما عليها من رسوم . ولم تكن على المربعات اللامعة رسوم ولكن كان عليها رسم واحد متكرر . وكان هذا الرسم صورة خفاش أحمر مد أطرافه في الاتجاهات الأربعة فملاً يحسمه وسط القوالب . وحين تنبه حسن مفتاح الى مئات الخفافيش المحر تحاصره من كل جانب حلق في الهواء وسقط فكه الأسفل وعجز عن الحركة كأنه فار مسحور . وأحس بأن منيته قد دنت . وأدرك ان هذا مكان اللقاء . ولكنه أفاق لفوره . وهجم على الحوض وعلى الحامل وانتزع منها أشياءه انتزاعاً ، وخرج من الحمام يعدو بعد ان اغلق بابه بعنف رجع أركان الدار ،

واعتصم في غرفته واغلق الباب بالفتح . وذهب يسوي كل شيء في الحقيبة . وبعد ان سوى كل شيء في الحقيبة تذكر اوراقه فسواها في الحقيبة ، كل ذلك دون ان يفكر . وكلما هم بأن يفكر هز رأسه هزاً متواصلاً كأنه ينفذ من عقله الرؤى المزعجة ، ولكنه فهم برغمه ان هذا موعد اللقاء . ولم تكن هذه أول مرة يرى فيها حسن مفتاح الخفافيش الحمر ، ولم تكن هذه أول مرة يتنبه فيها الى وجودها ، ولكنه فهم مراد عزرائيل . انه لم يكن مخطئاً ولا كاذباً حين قال لعزرائيل انه يعرف وادي الخفافيش الحمر . لقد نسي ان هذه الرسوم تملأ جدران الحمام . ولكنه يفهم الآن مراد عزرائيل . كلا . انه لم يفهم بعد مراد عزرائيل . انه موعد عجب في مكان عجب . ولم اختار عزرائيل الحمام مكاناً للقاء ؟ ان للشياطين منطقاً يحير العقل . ولكن الخفافيش الحمر كانت دائماً تملأ الحمام . ترى لم لم يتنبه الى مغزاها من قبل ؟ لا بد ان لها مغزى . عزرائيل قال ان لها مغزى فلا بد ان لها مغزى . نعم . لم يكن هناك مجال للشك . ان زيارة عزرائيل لا شك فيها رغم ما ابدته مدام ماريكا من عجب لسؤاله . أليست هذه هي الخفافيش الحمر التي تحدث عنها عزرائيل ؟ ولكن حسن مفتاح لم يشك لحظة في زيارة عزرائيل مهما يكن من شيء فلا بد من الهرب . ان كل شيء معد والحقيبة ليست ثقيلة . سوف يركب القطار فراراً من عزرائيل اذا لزم الأمر . كلا . لا بد من زيارة مونا ربيع . لعل مونا ربيع تخفيه في غرفتها . ربما اخفته في الدولاب . كلا . ان عزرائيل ماكر وهو يعلم ان حسن مفتاح لن يغادر القاهرة قبل ان يستودع مونا ربيع ، ولعله قد سبقه اليها فعلاً . لعله يمشي الآن جيئة وذهاباً أمام باب المتروبوليتان هوتيل . كلا . ان زيارة مونا ربيع مقامرة كبرى . ولكن كيف يغادر القاهرة دون ان يرى مونا ربيع ، دون ان يقول : « الوداع يا مونا » ؟ محال . محال . محال . ولكن ما ضرورة القطار ؟ ان عزرائيل يطير بأجنحة ، وهو يستطيع ان يطارده الى اقصى المعمورة . لماذا لا يختفي في القاهرة ؟ وراء الباب الصواني الأعظم بمخدع الملك في الهرم الأكبر كما قال ؟ أو في بدرون مهمل ؟ كلا . لا بد من القطار . أي

قطار يركب ؟ قطار الصعيد ما في ذلك شك . لماذا لم يفكر في هذا قبل الآن ؟
سوف يركب قطار الصعيد وينزل في سهالوط ثم يعبر النيل في المعديّة الى دماريس .
القطار الذي جاء بسيد مفتاح يعود بحسن قنديل . وهكذا تكتمل الدائرة .
المهم هو الخروج من شارع الملكة فريدة . لقد أصبح شارع الملكة فريدة
عنواناً معروفاً للبوليس وللشياطين . نعم . المهم هو الفرار من شارع الملكة
فريدة . وفي دماريس يسير قنديل مفتاح وراء المحراث ويعاشر مقصوفة الرقبة
ويدير الثورة الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً . ولكن ماذا يحدث لو كشف
عزرائيل مخبأه ؟ لسوف يلاحقه . ولكن أليست هذه خطة عزرائيل ؟ ان
عزرائيل خيره ان يرتد الى سيد قنديل وكافأه بمائة عام طوال . ان هذا بالذات
ما يريده عزرائيل ، ان يعود حسن مفتاح الى دماريس ، ان يرتد الى سيد قنديل .
ولكن حسن مفتاح يعود الى دماريس ويبقى حسن مفتاح . يبقى حسن مفتاح ؟
أي ضمان لديه ؟ أليس جائزاً ان عزرائيل يدركه بين الحقول ويمسح على جبينه
بكفه البغيض فيمسح من روحه الذكريات ؟ نعم . جائز . جائز جائز . ان
هذا بالذات ما يريده عزرائيل . ولكنه يرجم بحيل الشيطان الماكر ويبطلها .
كلا . ان الاختفاء في دماريس مقامرة كبرى . ولكنه سوف يركب القطار على
كل حال . ايان . ايان . ايان يذهب . نعم . الى الاسكندرية . الى بنسيون
رويال . الى السلسلة . كلا . كلا . كلا . ان نداء الماء قوي . لسوف يفرق مرة
اخرى ان هو ذهب الى السلسلة . فان لم يغرق اغرق نفسه . ان نداء الماء قوي .
أليس هذا ما يريده عزرائيل ؟ ان عزرائيل يريد ان يقتله . ان عزرائيل يتآمر
على حياته ولن يتركه الا جثة هامدة . كلا . ان السفر الى الاسكندرية مجازفة
كبيرة . ولكنه سوف يركب القطار على كل حال . أين الفرار ؟ طنطا . بنها .
اتباني البارود . كفر الزيات . دمنهور . ماذا يهم ؟ في العاشرة . خارج القاهرة .
المهم هو الخروج من شارع الملكة فريدة .

حمل حسن مفتاح حقيبته وخرج من غرفته على عجل . واندفع في الدهليز

حتى بلغ الباب وفتحه بيد ترتعش وهم بالخروج مضطرب القلب زائغ البصر .
ولكنه اصطدم بمغلاق هائل الجثة سد عليه الطريق وقد امتدت يد العملاق الى
الجرس الكهربائي . وازداد اضطراب حسن مفتاح ، وادركه دوار شديد ،
وكاد ان يسقط على الأرض مغشياً عليه ولكنه تماسك . وتحقق من الزائر
الضخم فاذا به الصاغ ممدوح الشربيني . ووقف الصاغ ممدوح الشربيني متهلل
الوجه باسطاً يده ، غير انه ما لبث ان انطفأ ازاء الوجوم العميق وامارات
الهلل القديم التي قرأها على نور السلم في وجه حسن مفتاح . قال الصاغ ممدوح
الشربيني :

— الحمد لله اني وجدتك يا استاذ مفتاح .

واسترد حسن مفتاح بعض حواسه الضائعة ، فنقل الحقيبة الى يده اليسرى ،
وتناول اليد المبسوطة نحوه وأحس بدقتها الشديد فلم يسعه الا ان يبادلها دفئاً
بدفء . ولم يدر ماذا يقول ، فقد بلغ منه اليأس كل مأخذ . ان الصاغ ممدوح
الشربيني قد جاء ليلقي عليه القبض . وفي اللحظة الحاسمة كذلك . وهو يحمل
أخطر الوثائق كذلك . وهو على وشك الفرار كذلك . وأراد حسن مفتاح ان
ينتفع بالغبش المنتشر في الدهليز غير المضاء فانحرف قليلاً ووضع الحقيبة وراء
ضلفة الباب بخفة لم تفت على الصاغ ممدوح الشربيني . ولما طال الصمت أكثر مما
ينبغي عاد الصاغ ممدوح الشربيني يقول :

— أكنت تعتزم السفر يا استاذ مفتاح ؟

فارتبك حسن مفتاح وأجاب مضطرباً :

— نعم . أقصد لا . كنت خارجاً . هذا كل ما في الأمر .

وانتظر حسن مفتاح من الصاغ ممدوح الشربيني ان يقول شيئاً ، ولكنه لم
يفعل فقال حسن مفتاح بخشونة :

— اجئت تفتش ام جلئت تقبض عليّ ؟

— ما بالك هذا المساء ؟ الا تأذن لي بالدخول ؟

— تفضل :

وأغلق حسن مفتاح الباب الخارجي وسار بجوار الضابط الى المدخل ولكنه توقف قليلاً عند باب المطبخ وسأل :

— قهوة ؟ شاي ؟ بيرة ؟

— قهوة سادة اذا سمحت .

وقرر حسن مفتاح باب المطبخ فأطل منه رأس مدام ماريكا وألقى اليها حسن مفتاح بطلبه ثم سعى بالضابط الى المدخل حيث جلسا تحت النور القوي وجهاً لوجه . وقرأ الصاغ ممدوح الشربيني في وجهه حسن مفتاح ، غرائب الامور . وأيقن انه كان يزعم أمراً عظيماً . وبعد لحظات اختفى مظهر الخوف من وجه حسن مفتاح ، ولم يبق منه الا خفقان في جوانب صدره وألم في امعائه . وأراد حسن مفتاح ان يتكلف رباطة الجأش فقال مبتسماً أخف ابتسامة :

— لقد طالت غيبتك يا شربيني بك . كيف حال الحجاز ؟

فأجاب الصاغ ممدوح الشربيني وقد بدا عليه امتعاض شديد :

— أنا لم انتدب الى الحجاز .

— عجيب .

— نعم عجيب . ولكن الملازم أول ادم حل محلي في البعثة .

— لا شك ان ذلك ساءك يا شربيني بك ، فقد فهمت منك انك تعلق الآمال

الكبار على هذه البعثة .

وكانت هذه أول مرة يشرّد فيها الصاغ ممدوح الشربيني منذ ان عرفه حسن

مفتاح . ولم يشأ حسن مفتاح احراجه فقال :

— ما سر غيبتك اذن ؟

— غيبيتي ؟

— نعم . فما زارني منذ العام الماضي الا ضابط صغير السن دمث الطباع .

يدعى سلامة ؟ سلامة ؟ سلام ؟ مسلّم ؟

— آه ، محمد سلامة . اعلم ذلك . فانا الذي اخترته لك . وانا الآن لا اخرج

للتفتيش الا في الأحوال النادرة فقد رقيت الى رئيس قسم مكافحة الشيوعية منذ

ثمانية أشهر . رقيت برتبتني . وابتسم حسن مفتاح ساهماً وأجاب :

— مبروك يا شربيني بك ، وشكراً على اختيارك . ان محمد سلامة شاب

مهذب . أتحب ان تبدأ التفتيش فوراً ؟

— انا لم آتٍ للتفتيش .

وعاد الانزعاج الى وجه حسن مفتاح . وشخص ببصره الى الأنف المكدوب

العظيم البارز وسط وجه الصاغ ممدوح الشربيني .

— أملكك امر بالقبض ؟

— انا لم آتٍ للقبض عليك .

وبدا الارتباك على حسن مفتاح وقرأ الضابط في كل عين من عينيهِ علامة

استفهام واضحة ، وخيل اليه ان حسن مفتاح قد تغير كثيراً ، فهو يعرفه تام

الهدوء كأنه يلبس قناعاً أبدياً ، وهو الآن يفضح وساوسه بكل إشارة يأتيتها

وبكل كلمة يفوه بها . قال متلطفاً :

— أمرض انت يا استاذ مفتاح ؟

— وعكة بسيطة يا شربيني بك .

— ان وجهك شاحب .

— كلا . انت خطيء يا شربيني بك . ان وجهي ليس شاحباً . ما دليلك على ان وجهي شاحب ؟ انا لم اكن في يوم من الأيام اهدأ مني اليوم . ها قد جاءت القهوة . انظر . اتستطيع ان تميز ايها سادة وأيها بسكر ؟

— نعم ، اتعرف انت ؟

— نعم ، هذا فنجانك وهذا فنجاني . أحقاً ان وجهي شاحب يا شربيني بك ؟ لا بد اني مريض . نعم ، انا احس بألم في امعائي .

— اسمع يا استاذ مفتاح . اتعتقد حقاً انكم ستنتصرون ؟

— ماذا تقصد ؟ نتصر ؟ على من نتصر ؟ هناك معركة ؟ نعم سننتصر . انت تقصد الشعب ، اليس كذلك ؟ نعم ، نعم ، نعم . سننتصر بالطبع سننتصر . سينتصر الشعب على اعدائه . وهل انت في ريب من ذلك ؟ ان انتصارنا ضرورة دياكتية . ان انتصارنا جبر تاريخي . ان المستقبل للشيوعية . وكيف نهزم ؟ ان البروليتاريا لا تقهر . لقد نصاب بنكسة ولكنها نكسة مؤقتة . أتفهم يا شربيني بك ؟ جبر تاريخي . الانسانية تتقدم وتسحق اعداء الانسانية . الكل سائر الى الحرية . الى المساواة . الى الاخاء . وكيف نهزم ؟ ان الهزيمة لا تدخل في قاموس المؤمنين . ونحن مؤمنون يا شربيني بك ، لا بطائفة من الخرافات الاجتماعية ، ولا بشرية الغاب ، ولكن بالسراج الذي لا ينطفئ ، بالروح القدس الذي يضيء في قلب الشعب . البروليتاريا هي الشعب ، والشعب فوق الجميع . الشعب هو الانسانية ، وكل ما عدا الانسانية باطل وغرور . الانسانية لا تفهم الهزيمة يا شربيني بك . يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم . جرب يا شربيني بك . ليحرب الطغاة . نحن الأمناء على مستقبل

البشر يا شربيني بك . كيف تسألني هذا السؤال يا شربيني بك . دعني أسألك :
وكيف نهزم ؟ بل دعني أسألك : كيف لا ننتصر .

واهتز الصاغ ممدوح الشربيني لهذه الكلمات وسرت فيه حرارتها وغمره
اعجاب عظيم بحسن مفتاح . اما حسن مفتاح فقد تامل في المقعد الكبير . فقد
أحس بعد ان فرغ من كلامه انه ممثل يلعب دوراً . لقد لعب هذا الدور باتقان
تام . ولو كان امامه الف ممدوح شربيني لصفقوا له تصفيقاً ، لهللوا بصوت
واحد : « الشعب فوق الجميع » . لهتفوا بصوت واحد : « عاش مفتاح منقذ
الشعب » « عاش مفتاح رسول الانسانية » « عاش مفتاح محرر العبيد » . ولكن
حسن مفتاح أحس في قرارة نفسه بالقلق . انه ما احس من قبل انه يلعب دوراً .
ترى ماذا حدث له . لقد كان في الماضي يقول كل ذلك باخلاص اعمى دون ان
يتوقف لحظة واحدة ليفكر فيما يقول . لقد كانت كلماته من قبل اصواتاً جميلة
خالية من المعنى فاذا بها الآن ذات مدلول . لقد بدأ الفكر . لقد انتهى الايمان .
نعم . هو يفهم الآن ما حدث له . لقد بدأ يشك . ترى ماذا يريد ممدوح الشربيني
منه ؟ ان حسن مفتاح يحس بالدم يصعد الى وجهه . ان حسن مفتاح يخجل من
نفسه . أهذا حسن مفتاح الذي كان يوزع الايمان على ابناء الشعب ؟ واذا لم
يثق هو بنفسه فمن ذا الذي يثق به ؟ كلا . كلا . انه لم يكن يمثل . انه يؤمن
بكل كلمة قالها . وحملق حسن مفتاح في وجه ممدوح الشربيني وصاح
بوحشية :

- أنت في شك مما أقول ؟

ثم تذكر انه يخاطب ادارة الأمن العام ، فابتسم وأضاف :

- عفواً يا شربيني بك . لقد اخذتني الحماسة .

فضحك الصاغ ممدوح الشربيني وقال :

- نتتصر ؟ على من نتتصر ؟
- اقصد في المعركة القادمة .
- أية معركة ؟
- انت تفهم ماذا أقصد .
- كلا . لست أفهم ماذا تقصد .
- انا هنا كصديق .
- لست افهم . لست أفهم .
- اقصد بعد غد .
- بعد غد ؟
- نعم بعد غد .
- ماذا سيحدث بعد غد ؟
- دعك من التجاهل يا استاذ مفتاح . انا هنا كصديق .
- وأنا لا أخفي شيئاً .
- بصراحة . هل احكمتم الخطة ؟
- أية خطة ؟
- بصراحة . أمعكم أسلحة كافية ؟
- عم تتحدث يا شربيني بك ؟
- أتحدث عن المؤامرة . لا تقل : أية مؤامرة ؟ انك تحسن السداجة

يا استاذ مفتاح .

- المؤامرة ؟ ها ! ها ! ها ! المؤامرة ؟ ها ! ها ! ها !

- ليس في الأمر ما يضحك .

- كلا . يا شربيني بك . لقد قلنا لكم ألف مرة ان جاسوساً يتقاضى مئة جنيه خير من عشرة جواسيس يتقاضون عشرة جنيهات . ولكن اذا كان القلم السياسي يصير على استخدام الجواسيس الصغار فطبيعي ان يستقي مثل هذه الأنباء الكاذبة .

- انت تشك فيّ وانا اعذرك .

- انت تؤدي واجبك .

- انا جاد فيما أقول .

- عن المؤامرة ؟

- نعم .

- لقلب نظام الحكم ؟

- نعم .

- متى ؟

- بعد غد .

- ومن القائمون بها ؟

- الشيوعيون .

- الشيوعيون ؟ بعد غد ؟ هذه اخبار مسلية يا شربيني بك . يبدو انك

تعرف عن نشاط اللجنة المركزية أكثر مما يعرف سكرتير اللجنة المركزية .

— كلا يا حسن بك . ثقي اني اقدر موقفك . واذا كنت تتخرج من الصراحة فاسمح لي ان أكون صريحاً .

— تفضل .

— نحن نعلم انكم حددتم فجر ١١ يوليو للاستيلاء على الحكم .

— والتفاصيل ؟

نحن نعلم ان معكم ثلاثة أليات من المشاة ، وأورطة من مدافع الماكنة ، وانكم ستستولون أولاً على مراكز البوليس ، وستنسفون مستودعات الذخيرة وتبدؤن الهجوم من بولاق . نحن نعلم انكم ستقيمون ثلاث محاكم شعبية ومعها مشائنها في وقت واحد : الأولى بميدان العتبة ، والثانية بميدان الاسماعيليه ، والثالثة بميدان باب الحديد ، وانكم ستشنقون ١٢٠٠ في اليوم الأول و ٦٠٠ في اليوم الثاني .

— جميل جميل . جميل .

— نحن نعلم انكم اذا انتصرتم في اليوم الأول انتصرتم على طول الخط .

— اذا كنتم تعملون كل هذا فلماذا لا تلقون علينا القبض ؟

— سوف نلقي عليكم القبض .

— متى ؟ متى ؟

— فيما بعد . فيما بعد .

— وفيم التسوية ؟

— الواقع ان هذه المعلومات لم تصلنا الا منذ ساعة ، فقد جاءنا بها رجل لا نعرفه اطلاقاً . قال ان اسمه عزرا عبد الله : قزم ، اسود الشارب كثيفه ،

لثيم الغم ، ضيق العينين ، تجاوز الاربعين ، وقد رفض ان يتناول اجراً على ذلك زاعماً انه من انصار العهد الحاضر ومن محبي السلام ، وانه يكره ان يرى البلاد مسرحاً للمذابح والشوارع قنوات من الدماء . ولكنه تقدم الينا بطلب عجيب ، وهو ان نعفيك من القصاص لأن بينك وبينه حساباً يجب ان يصفيه بنفسه وقد وعدته بذلك . والحقيقة انه لم يكن في المكتب سوى الملازم سلامة وانا وقد طلبت من سلامة الا يثرثر حتى مع الضباط الى ان أعود واتخذ اللازم . عزرا عبد الله . اسم عجيب . ولكن اغرب من ذلك انه لم يترك عنوانه .

وحين فرغ الصاغ ممدوح الشربيني من كلامه كان حسن مفتاح قد استلقى على الكرسي الأسيوطي فيما يشبه الغيبوبة . ولكنه سمع كلام الضابط كلمة كلمة . وامتد الشحوب الى عنقه العاري . وسقط فكه سقوطاً خفيفاً . ومشى الألم من جديد في امعائه ، ولكنه ظل يجاهد حتى عاد الى الحياة . وتحقق ممدوح الشربيني من ان حسن مفتاح محطم الأعصاب ، فهو لم يره قط في مثل هذا الأعياء وهو لم يعهده قط جزعاً في أمثال هذه المواقف . وبدا عليه انه لم يفهم ما يجري في نفس حسن مفتاح ولكنه لم يشأ ان يزعبه بالأسئلة . وبعد ان استرد حسن مفتاح شيئاً من نضرته اعتدل في كرسيه ، وغمره الشعور باليأس . لا فرار من عزرائيل . لا بد ان عزرائيل قد علم بمراده فذهب الى ادارة الأمن العام ليفسد عليه كل شيء . لا شك ان عزرائيل ينزل به هذا العقاب جزاء على حنثه بعهده . ان الشياطين تعرف ما لا يعرف البشر . ان الشياطين أرواح تحل في كل مكان وتنتقل بسرعة البرق وتقرأ الغيوب . وأوشك حسن مفتاح ان يحدث ممدوح الشربيني عن حقيقة هذا القزم الأعرج الذي يطارد باصرار ، ولكنه عدل . وسمعه ممدوح الشربيني يفهم قائلاً : «ما الفائدة» . ما الفائدة . ولكنه لم يفه بشيء . ورأى ممدوح الشربيني اليأس التام مرتسماً على وجه حسن مفتاح ولكنه لم يفه بشيء . غير ان حسن مفتاح عاد أخيراً يقول في عناد :

— اذا كنت « تعلم » كل ذلك فلماذا جئت لحسن مفتاح ؟

— انا ما جئت لاستشيرك ، وانما جئت لأسألك عن قوتك الحقيقية .

— اسمع يا شربيني بك . يحسن ان نتحدث في موضوع آخر . لقد انتهت
المداعبة . أليس كذلك ؟

— المداعبة ؟

— نعم المداعبة .

— انا لا اداعب يا استاذ مفتاح وانما اقول الحقيقة .

— لولا انك تمثل الحكومة لسألتك ان تغادر البيت فوراً .

— تستطيع ان تفعل ذلك ، فانا لا أحمل أمراً من النيابة .

— فيم مجيئك اذن ؟ طبعاً انت لم تزرني لتنصحنني ان أكف عن اللعب
بالنار ، اعني ان كنت تظن ان هناك مؤامرة .

— انا لا أظن ان هناك مؤامرة . انا اعلم ان هناك مؤامرة .

— هيا اقبض عليّ . اقبض عليّ فوراً . ولكنك لا تستطيع ان تقبض عليّ
لأن الدليل يعوزك . نعم يعوزك الدليل . وانت رجل معقول تستمع الى تقرير
ابله معتوه فتزنه ولا تأخذه ، وانما تزور حسن مفتاح لتستقي الأنباء من
مصادرها . انت هنا كصديق يا شربيني بك . أو تعتقد اني ابوح لك بشيء لو
انه كانت هناك مؤامرة حقاً . انا لا افهم كيف تخطيء هذا الخطأ يا شربيني
بك . اتريد ان تعرف رأيي في الموضوع ؟ ان الفجر الجديد في اعتقادك قريب ،
وانت بحاجة الى كل دقيقة . لا تضيع وقتك معي وامض الى ادلتك أجمعها ثم
عد اليّ وستجدني دائماً في انتظارك .

وحين فرغ حسن مفتاح من حديثه مد الصاغ ممدوح الشربيني يده الى جيبه

الداخلي بهدوء وأخرج منه عدداً عظيماً من أوراق الفولسكاب كلها مطوية أزواجاً . ووضعها على المائدة الصغيرة المستديرة قائلاً :

— انا لست بحاجة الى دليل . ان معي كل الادلة . تراها أمامك على المائدة .

— ما هذا ؟

— الأدلة .

— الأدلة ؟

— نعم الأدلة . ماذا تسمي هذا ؟

وأوشكت يد حسن مفتاح ان تمتد الى الأوراق ولكنه ضبط شعوره وتكلف البرود . وانحنى الصاغ ممدوح الشربيني فوق المائدة وتناول الأوراق وبسطها بعناية قائلاً :

— تأمل . أليس هذا خطك ؟

— نعم . هو خطي .

— هذه كلها صور فوتوغرافية من ملفات اللجنة المركزية . أليس هذا امضاؤك ؟

— نعم ، هذا امضائي . كلا . كلا . كل هذه الأوراق مزورة . نحن لا نعرف شيئاً عن هذه الاوراق . من زور هذه التوقيعات ؟

— دعك من حديث التزوير . ماذا تسمي هذا ؟ خطاب من البكباشي سيد عرفة يقول انه يتصرف في ٤٣، ٥٥ حط حط ، ١٢٠٠ ابريق ، وانه سيقابلك بين باب الحديد وميدان توفيق يوم ١١ يوليو الساعة الثامنة صباحاً . ماذا تسمي

هذا ؟ صورة خطاب منك الى الجيار تقول فيه ان كل من ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ الى ١٥٠ من ق ٧ سيلتقون في أحواش ٣ و ٤ و ٧ من العنابر يوم ١١ يوليو الساعة الثامنة . أتريد ان استمر ؟ العريضة رقم ١٢ . هذه عريضة اتهام للموم باشا سراي للموم بمغاغة : انه في يوم ٢٥ مايو من عام ١٩٣٢ وفي يوم ١٥ ديسمبر من عام ١٩٣٢ وفي يوم ١١ اغسطس من عام ١٩٣٧ قتل عمداً ومع سبق الاصرار الزميل يس احمد صناعته فلاح بزمام الفشن بحري والزميل جرجس عوض الله فلاح بالزمام المذكور والزميل عبد التواب عبد الغفار فلاح بابا الوقف على التعاقب بأن استدعى المجني عليهم في سراي للموم بحجة فض نزاع حول ماشية مسروقة وجرى بينه وبينهم الحديث التالي : « انت زعلان من أيه يا عم يس » « علسان خدوا البجرة بتاعتي يا سعادة الباشا . » « ربنا يعوضك يا عم يس » . « العوض على الله يا سعادة الباشا » . « ما تجول يا رب اديني بجرة يا عم يس ؟ » « يا رب اديني بجرة » . « يعني ربنا ما عطاكش بجرة يا عم يس ؟ » « لا ربنا ما عطانيش يا سعادة الباشا » . « طيب جول يا لموم باشا اديني بجرة » . « يا لموم باشا اديني بجرة » . « واد يا خميس هات بجرة لعم يس » . ثم خرج الزميل يس احمد بالبقرة الى فناء الدار وما ان بلغ الباب الخارجي حتى سقط قتيلاً بثلاثة أعيرة نارية خارجة من سراي للموم اما البقرة فقد ردت الى مزاد السراي . الحديث مكرر مع المجني عليها الثاني والثالث . شهود .. ثانياً : انه في أكثر من مناسبة في عام ١٩٣٢ و ١٩٣٣ و ١٩٣٤ و ١٩٣٥ أقام المتهم محاكم خاصة وسجناً خاصاً في داره وتسبب في جلد متي نخلة صراف أميرى وحسن علي ومحروس أبو زيد أولاد الشيخ أبو زيد عمدة آبا الوقف ومريم تود سيوس وعلي علويه وطه السبع فلاحون وسمسار وفي حبس الشيخ أحمد أبو زيد عمدة آبا الوقف وسيد شعير وسيد الطحاوي وذو النون المرسي الجمل بحجة خلاف حول المحاصيل . شهود ... وانه في يوم ٣ و ٤ و ٥ يوليو من عام ١٩٣٥ قاوم قوات الحكومة بقوة السلاح على رأس ٧٥٠ رجلاً حماية لعبد الرحمن للموم المطلوب في حادث تسميم ماشية . شهود ... وانه في يونيو من عام ١٩٣٣ استضاف عمد

الناحية، وأوهمهم انه يتحدث بالتليفون مع السراي الملكية، وأفهمهم ان الملك يطلب خمسمائة اردب قمحاً على الفور، واستولى منهم على القمح المذكور مجاناً، ولنفعته الخاصة . شهود ... وانه في جميع الانتخابات بين ١٩٢٤ و ١٩٣٦ ادعى زوراً انه ملم بالقراءة والكتابة ليتسنى له دخول مجلس النواب . الاتهام يطلب اعدام بلوم باشا شفقاً ، وتسليم جثته للشعب للتصرف فيها .

العريضة رقم ٧

وبعد ان فرغ الصاغ ممدوح الشربيني من التلاوة ، نظر الى حسن مفتاح ، فوجده جامداً في كرسيه كايح من الحشب ، لامع العينين كأنما عيناه من بلور، ورأى شحوبه كما كان . ولكنه رأى كذلك امارات الاحتمار حول فمه ، وشيئاً من الشموخ في انفه . أما حسن مفتاح فقد ادرك ان فرصته الباقية محدودة ولم يبقَ أمامه الا ان ينقذ ملاءه واتباعه من البطش المنتظر ، فصمم على الإنكار على خط مستقيم . قال :

— نحن لا نعرف شيئاً عن هذه الأوراق .

— انها تحمل توقيعك .

— هذه التوقيعات مزيفة .

— هذه التوقيعات صحيحة .

— هذه صور . أين الاصول يا شربيني بك ؟ نعم . أين الاصول ؟ رأيت قبل الآن أوراقاً كهذه ؟ ان هذه ليست أوراقاً . ان هذه اوراق شيطانية يا شربيني بك . من عمل الشياطين . اتفهم ؟ رأيت صحفاً مصورة بهذه الرقة ؟ انا ما رأيت صحفاً مصورة بهذه الرقة . ان هذه ليست أوراقاً يا شربيني بك . انها ألواح سحرية . أهذا تصوير يا شربيني بك ؟ انظر جيداً . هل رأيت مداداً

كهذا ؟ انه بلون الدم . انه دم . ان المستندات المصورة لا تكون بلون الدم .
 انكر ما أقول يا شربيني بك . تأمل الكلمة الثالثة . تأمل جيداً . ألا ترى
 فقط الدم التي سالت من حروفها ؟ ان هذه ليست أوراقاً يا شربيني بك . ان
 الاوراق المصورة ليست على هذه الرقة . ألا ترى ؟ انها رقيقة كنسيج
 العنكبوت ، ومع ذلك فهي صلبة مشدودة تطوى بصموية . أي مصنع في
 الأرض اخرج هذه الاوراق ؟ ان في الجحيم مصانع ورق ومصانع سيارات
 ومصانع ثلاجات ومصانع تصنع البشر كذلك . ان في الجحيم كل ما شئت من
 المصانع يا شربيني بك . ألم تسمع بذلك من قبل ؟ كيف تحمل هذه الأوراق
 الشيطانية يا شربيني بك . أسمح لي أن أمسكها ؟ هذه الورقة الأولى . انظر
 جيداً اليها . انها قوية . انها لا تتمزق . جرب يا شربيني بك . أرأيت ورقاً لا
 يتمزق ؟ انها هشة كنسيج العنكبوت ومع ذلك فهي لا تتمزق . انها قوية في
 صلابة الفولاذ ومع ذلك فهي تطوى . كلا يا شربيني بك . ان ما تمسك الآن
 ليس ورقاً وانما أدوات جهنمية صنعها حداد في قاع صقر . اقذف بها من النافذة
 فهي تجلب الدمار . ثم هذا المداد الدموي . انه يختفي الآن . انه يظهر . انه
 يختفي . انه يظهر . انظر اليه بامعان . انه ليس ثابتاً . انه يظهر ويختفي تحت
 البصر كلما رمشت العيون . انظر اليه بامعان ولا ترمش . انه يختفي الآن . انه
 يظهر . هل رأيت يا شربيني بك ؟ كلا . كلا . ان هذه صفحات من الكتاب
 الجديد الذي لا يصدأ أبد الآبدين . خذه الى النياية تسخر منك النياية . التحب
 أن تجرب ؟ ان في استطاعتي ان أطمس أوراقك هذه وأردها بيضاء من غير
 سوء . أتحب أن تجرب يا عزرائيل ؟ . اني قادم يا عزرائيل . أرأيت ؟ أين
 الكتابة الآن ؟ أين الكتابة ؟ أجب أين الكتابة ؟ ولكني لن اسلبك مستنداتك
 يا شربيني بك . مستندات . مستندات . ها ! ها ! مستندات . انت
 تحمل صعانف بيضاء يا شربيني بك . ولكني سأرد اليك مستنداتك . يا عزرائيل
 عليك لعنة حسن مفتاح . اتصدق الآن ؟ أحمل هذه الوثائق الآن لتغير مجرى

التاريخ . ولكني سأجعلك أضحوة عام ١٩٤٦ . ستكتب صحف اليمين بالبنط الصغير نبأ جنون ضابط بالبوليس السياسي ، اما صحف اليسار فسوف تكتب بالبنط الأكبر في الصفحة الأولى : « ممدوح الشربيني في مستشفى المجاذيب » . كلا ، يا شربيني بك . انت رجل عاقل . أقذف بهذه الأوراق من النافذة . احرقها تتصاعد منها اتتن البخور . أتعرف من يكون القزم الأعرج الذي زارك هذا المساء يا شربيني بك ؟ انه عزرائيل . لقد تحدثت ربع ساعة مع عزرائيل . أنكر يا شربيني بك . أنكر . ان القزم الأعرج كان يلبس حول رقبته رباطاً كثير الألوان فيدرسم مشنقة وعظام متقاطعة وجامح متناثرة . ان القزم الأعرج كان يحمل عصاً من الخرتيت . كذّب ما أقول . أنكر ، يا شربيني بك . كذّب ما اقول .

ولكن الصاغ ممدوح الشربيني لم يحول بصره عن حسن مفتاح ، وأيقن انه مخبول . وبدا عليه الارتباك ، واراد ان يقول شيئاً فلم يجد ما يقول . ان حسن مفتاح مخبول . ما نفع الكلام مع رجل مخبول ؟ لسوف يجمع اوراقه . لسوف ينهض . لسوف ينصرف . ولكن ما العمل ؟ ان حسن مفتاح مخبول . أيقصد الى اللجنة المركزية ؟ انه جاء في مهمة خاصة . خطيرة . ولا بد من اتمامها . ثم ان الوقت قد أزف . لم يبقَ الا ساعات . ما الساعة الآن ؟ انها التاسعة والنصف . لم يبقَ الا ثلاثون ساعة أو نحوها حتى يطلع الفجر الجديد . ولكن الفجر الجديد لن يطلع . ان الملازم سلامة ينتظره بالخارج في قهوة قريبة . لا بد ان الملل قد قتله . لم يبقَ الا ان يقصد الى اللجنة المركزية ولعله واجد بين اعضائها عضواً عاقلاً يتحدث اليه . ماذا يعمل بالملازم سلامة ؟ ان الملازم سلامة هو الوحيد الذي يعرف السر . لقد كان يجب ان يتركه اللجنة المركزية تتصرف فيه بما ترى . ولكن حسن مفتاح مخبول . أمخبول هو حقاً ؟ لعله يدعى الحبل . انه لم يكن مخبولا منذ دقائق : انه كان يجادل جدال العقلاء منذ دقائق . متى أصابه الحبل ؟ فجأة ؟ حين رأى الوثائق ، وأيقن أنه هالك ؟ لعله يدعى الحبل . نعم . لعله . ولكنه

على كل حال مضجع الأعصاب طول الوقت . انه لم يرَ حسن مفتاح في مثل هذا الضعف من قبل . انه لم يرَ حسن مفتاح في مثل هذا الشحوب من قبل . انها كثرة العمل . انها اقتراب الساعة . ولكن ، من يدري ؟ لعله رأى الشيطان . ان الشياطين كائنات موجودة ، وممدوح الشربيني أول من يعرف ذلك ، فهي تعوي كلما انتصف الليل حول الاهرام . وممدوح الشربيني أول من يعرف ذلك . انها تسد عليه الطريق الصغير عند فيلا الشربيني ، وتنبج في الظلام كالكلاب الجائعة كل ليلة ، ولولا انوار سيارته لما استطاع أن يصل الى داره كل ليلة . ممدوح الشربيني أول من يعرف ذلك . ألم يصدم بسيارته عدداً عظيماً منها فقطع ذيولها وتركها جريحة تنن الى مطلع الفجر عند مدخل الطريق الصغير المهجور قرب محطة ترام استوديو مصر ؟ ولكن حماته كانت تنكر انها شياطين ، وكانت تزعم انها جان وكانت تحاضره طويلاً في الفرق بين الشياطين والجان . أما اصحابه في المكتب فقد زعموا انها ارواح الملايين الذين سُخِّروا عشرين عاماً في بناء الاهرام . شياطين جان أرواح عفاريت ما الفرق ؟ قد يكون هناك فرق ولكنها جميعاً كائنات مزعجة ، وممدوح الشربيني أول من يعرف ذلك . ألم تلبس الشياطين خمس نساء في أسرته ؟ إن بيوت اقربائه لم تخل سنة من الزوار . ألم توشك زوجته ان يلبسها عفريت في الصيف الماضي ؟ لقد أرادت ان تقم الزار في فيلا الشربيني ولكنه عرف كيف يعالج الموقف . انها كانت متعبة حقاً . وقد أحسن صنعاً حين أعطاها مائة جنيه لتقضي الصيف في الاسكندرية . لماذا لا يكتب أحد مقالاً في هذا الموضوع ؟ أن العفاريت تخرج اذا ذهبت الزوجات الى المصايف . ان هذا يوفر النفقات ويكتم الفضيحة ويضع حداً لفضول الجيران . ثم أن بعض الناس يسخرون من الزوار وأصحاب الزار . نعم . لا شك في وجود الشياطين . وممدوح الشربيني أول من يعرف ذلك . ثم ان هناك حماته . وحماته لم يلبسها شيطان واحد وانما لبستها شياطين كثيرة . بعضها حمراء وبعضها صفراء وكلها عنيدة وقديمة . كلا . ان حماته هي الشيطان ذاته ، فكيف تلبسها الشياطين . انه كثيراً ما نظر الى عينيها المغوليتين ووجهها

الطويل وقرر ذلك. ثم ان هذا القزم الاعرج الغريب ذا الشارب الأسود الكثيف والفم اللثيم والعينين الضيقتين. انه لا يفهم . انه جاء من المجهول وذهب الى المجهول عزرا عبد الله . ما أغرب هذا الأسم . انه ما سمع بهذا الاسم من قبل . ولكنه يعرف يهودياً اسمه عزرا ويسمع بآخر اسمه عزرا كان نجاراً قبطياً في الجيزة . جائز ان يكون هذا اسم الرجل . ولكن ماذا دفعه الى الشهادة ؟ انه لم يفهم . عزرا عبد الله رفض شيكاً بمائة جنيه تحت الحساب . لعله استخف بالأجر . مؤامرة لقلب نظام الحكم تساوي عشرة آلاف جنيه . اكثر . ان الحكومة تعطى المرشد الى كل قاتل سياسي عشرة آلاف جنيه . ولكنه لم يساوم . ثم انه لم يترك عنواناً . غريب . نعم ، انه قال انه يعرف طريقه اليهم كلما احتاجوا اليه . ولكن ماذا دفعه الى الشهادة ؟ اذا لم يكن يطلب مالا فماذا دفعه الى الشهادة ؟ ان ممدوح الشربيني لم يرَ رجلاً يأتي بعمل إلا من أجل المال الا الشيوعيين . ولكن من يدري ؟ لعل الشيوعيين يطلبون السلطة أو الشهرة أو التآثيل أو حكم التاريخ . هناك أمور كثيرة لا يفهمها ممدوح الشربيني . أنه يعرف أن الناس لا يضحون بلا مقابل . وهؤلاء الشيوعيين لماذا يضحون ؟ أن ممدوح الشربيني لا يفهم هذه العقلية . أن أكثر من يعرف من الشيوعيين رجال معقولون . حتى البنات بينهم كلهن مثقفات وكلهن رشيدات . أنه لا يفهم كيف يرضى رجل معقول أن يحازف بعنقه أو يقضي حياته بين جدران السجون مقابل تمثال أو صفحة في كتاب التاريخ . لا بد أن بهم خبلا . هو مثلاً شيوعي ، ولكنه يقبض على الشيوعيين مقابل وظيفته . هو مثلاً شيوعي ولكنه لا يفكر أن يضحى بمرتب شهر ليرى العدالة تتحقق على وجه الأرض . حتى الآن . انه جاء حقاً لينقذ حسن مفتاح واللجنة المركزية من جبل المشنقة أو من سجن مدى الحياة ولكنه يعرف لماذا يفعل ذلك . أولاً لأنه يريد أن ينتقم من الحكومة التي فجعته في أحلامه وقضت على مستقبله وثانياً لأنه يرى كفة الشيوعيين راجحة ، ولا شك أن العهد الجديد سيحتاج الى خبرته ، وثالثاً لأنه شيوعي . نعم انه يؤمن أن النظام القائم خرب حقاً ولا بد من إزالته واعادة تعميره . على كل حال هناك أمور تحير العقل ، منها

حسن مفتاح ، منها الشيوعيون . منها الشهداء . لماذا يستشهد الشهداء ؟ ترى فيم يتأمل حسن مفتاح ؟ ان بصره لا يتحول عن مصيص السقف . انائم هو ؟ أنه كالنائم تحت قوة سحرية . أن ممدوح الشربيني لا يرى شيئاً في مصيص السقف . لعل حسن مفتاح يرى اشياء لا يراها هو . ولكن حسن مفتاح مجنون ، وأجدر بممدوح الشربيني أن ينصرف عنه . أن القزم الأعرج غريب ما في ذلك شك . ولكن كل ما قاله حسن مفتاح عن الأوراق هراء تام . أين هو المداد الدموي ؟ انه لا يرى مداداً دموياً . ان المداد الذي يراه أحمر حقاً وغريب حقاً ولكنه ليس دموياً . ثم إنه لا يظهر ولا يختفي كما زعم حسن مفتاح . ثم أنه ليس مداداً على الاطلاق لأن الأوراق مصورة . ولكن الأوراق غريبة كما قال حسن مفتاح . من قال انها مستحيلة ؟ لا بد انها اختراع جديد . ثم كيف تصنع الأوراق في الجحيم ؟ ان هذا هراء . ان في الجحيم مصانع سيارات ومصانع دراجات ومصانع ثلاجات . ما هذا الهراء ؟ أولى بممدوح الشربيني ان ينصرف عن هذا الخبول . ولكنه سمعه يقول : « يا عزرائيل ، اني قادم يا عزرائيل . » عزرا ؟ عزرائيل ؟ عزرا ؟ عبد الله ؟ ألسنا جميعاً عبيد الله ان عزرا عبد الله هو عزرائيل . ان حسن مفتاح ليس مخبولاً وانما يرى ما لا يراه غيره . ان القزم الاعرج قال ان اسمه عزرا . ان حسن مفتاح نادى عزرائيل . اليس هذا توافقاً غريباً ؟ ان عزرا عبد الله لا يمكن ان يكون اسم رجل . لا بد ان يكون القزم الاعرج عزرائيل . ولكن كيف عرف حسن مفتاح ؟ لا بد ان القزم الأعرج قد زاره . كلا . انه لا يذكر الرباط الكثير الألوان . مشقة ؟ عظام متقاطعة ؟ جماجم منشورة ؟ انه لا يذكر ، نعم . انه لا يذكر الآن . انه كان يحمل عصاً من الخريتيت . ولكن كيف عرف حسن مفتاح ؟ ان في الأمر ما يحير . كيف ؟ كيف ؟ كيف ؟ كلا . كلا . كلا . محال . محال . محال . انه يتحدث الى مجنون ولو طال مقامه في هذه الدار لأصيب كذلك بالمجنون . ان عزرا عبد الله لا بد أن يكون رجلاً . رجلاً حقيقياً . من لحم ودم . لا بد انه واحد منهم قرر أن يخون اللجنة المركزية . ليس غريباً ان يخرج منهم خائن . وهو ممدوح الشربيني ، أليس

يخون الحكومة ؟ ألم يزر حسن مفتاح ليسلمه الوثائق ؟ نعم ، لا بد أنه واحد منهم وقد قرر ان يخون اللجنة المركزية . ربما بدافع الانتقام . ربما . من يدري ؟ وهو ، ممدوح الشربيني ، أليس يخون الحكومة بدافع الانتقام ؟ ألم يقل عزرا عبد الله أن بينه وبين حسن مفتاح حساباً يجب أن يصفيه بنفسه ؟ انه يفهم الآن . ان حسن مفتاح ما كر خبيث . انه يصطنع الجنون . انه يلعب به . ولكنه لا يعرف الغرض من زيارته . ولو عرف لفرح به . لعانقه بدل هذا العناد . ما أعظم هذا الرجل . أنه لا يتراجع حتى أمام الوثائق . أنه لا يتراجع حتى وهو مريض . ترى ماذا يغريه بالسقف . ترى ماذا يغريه بالصمت ؟ لا بد من ايقاظه . انه يحلم . الساعة العاشرة . كنيسة سان جوزيف تدق الساعة العاشرة . . الملازم سلامة ينتظر . لابد من الانصراف . لابد من ايقاظه :

- يا استاذ مفتاح .

- نعم يا شربيني .

- انتبه جيداً .

- ماذا تريد ؟

وغيض حسن مفتاح بصره الى وجه ممدوح الشربيني ، ونظر اليه مستفهماً .
قال ممدوح الشربيني :

- أأنت معي تماماً ؟

- نعم ، تكلم .

- انا لا أفهم ماذا أصابك ، ولكن الوقت ضيق ولا بد لي من الانصراف .
أتعرف انك حدثتني منذ لحظة عن الشياطين ؟

- نعم اذكر ذلك .

- اصغ اليّ . انا لا أفهم ماذا أصابك . يخيل الي انك مجنون . يخيل اليّ انك تمثل دوراً . انا لا أفهم ماذا أصابك . ولكن أصغ اليّ جيداً . لقد جئت لأحذرك . جئت لأخبرك ان الحزب الشيوعي في خطر عظيم . أن هذه الوثائق تكفي لأرسال ثلثائة رجل الى المشنقة أو الى السجن المؤبد . أتفهم ما أقول ؟ وسواء أكان القزم الأعرج عزرا عبد الله أو ... أو عزرائيل فهذا لا يمنع ان الوثائق صحيحة .

- ولم لا تقوم بواجبك ؟

- لم لا أقوم بواجبي ؟ واجبي ؟ صه . انا أعرف واجبي . أنا هنا لأسلمك الوثائق . أتفهم ما أقول . انها المستند الوحيد ضدكم . دمرها . أحرقها . أتفهم ما أقول ؟ هيا أنهض ، وأغسل رأسك بالماء البارد لتصحو تماماً ، وطف باعضاء اللجنة المركزية و اشرح لهم الأمر ليحيطوا له . وعلى كل فلا بد من القبض عليكم . ولكن لا خوف من ذلك اذا أحرقت الوثائق . انها كل ما معنا لادانتكم . نعم . لا بد من القبض عليكم . لا حيلة لي في ذلك . وسأقبض على ثلثمائة منكم قبل فجر ١١ يوليو ولكن على كره مني . لا حيلة لي في ذلك . لا تنسَ اني رئيس قسم مكافحة الشيوعية . لا تنسَ اني مأجور للمحافظة على سلامة الدولة . فسواء أكان القزم الأعرج عزرا عبد الله ام عزرائيل فقد بلغ عن المؤامرة أمام الملازم سلامة وناولني الوثائق أمام الملازم سلامة . أن لم اقبض عليكم قبض عليّ . سوف أدّعي ظمعا أن الوثائق سرقت من درج مكتبي ، ولكني لا أستطيع أن أنكر البلاغ الشفوي . هناك أمر آخر . انتبه جيداً يا حسن مفتاح . اذا أردت أن يسير كل شيء طبقاً للخطة الموضوعه فأمامك الملازم سلامة . تخلص منه ، أترككم احراراً . أنه الشاهد الوحيد على ما كان ، واذا اختفى الشاهد الوحيد نسي ممدوح الشربيني كل ما حدث منذ ساعتين . لا تسلي كيف التخلص من الملازم سلامة فهذا ليس شأني . كل ما

أقوله هو : اذا اختفى الملازم سلامة الى الأبد اختفى عزرا عبد الله الى الأبد .
ولكن الوقت ضيق . اليك الاوراق . لا تضعها في جيبك . احرقها امامي .
سأملككم أربعاً وعشرين ساعة . سوف أسكت الملازم سلامة أربعاً وعشرين
ساعة . فأن لم يختف الملازم سلامة أعددت العدة للقبض عليكم . اذا لم يختف
الملازم سلامة أحرقوا كل ما يدين . لا تحاولوا الهرب . أحرقوا كل ما يدين .
اليك الاوراق . هيّا ، أحرقها . هيّا الى الحمام نحرقها معاً .
— كلا . كلا . لن ادخل الحمام . هنا . هنا على الأرض .

وعجب الصاغ ممدوح الشربيني لهذا الاعتراض العصبي المفاجيء ، ولكنه لم
يعلق عليه بشيء وانحنى الرجلان ورفعاً جانباً من البساط فأنكشف ما تحته من
بلاط ملون بعضه مربعات بيضاء وبعضه مربعات سوداء . وتأكد الضابط من
سلامة عقل حسن مفتاح حين رأى اهتمامه ولطفه . وذهباً معاً يتأملان الأوراق
وهي تحترق بسرعة نادرة كأنها صنعت من المغنسيوم . وفي لحظات كان المدخل
مشحوناً بالدخان الأبيض الكثيف وحين نهضا حملق حسن مفتاح طويلاً في وجه
ممدوح الشربيني ، وأراد أن يشكره بعينه ولكنه أستفهم بعينه كذلك . وقرأ
ممدوح الشربيني الحيرة في وجه حسن مفتاح ، فقال مبتسماً :

— اتريد ان تعرف لماذا ؟ لن أخفي عليك شيئاً يا استاذ مفتاح . المسألة
بسيطة . أتذكر بعثة الحجاز ؟ نعم ، أنت تذكرها فقد حدثتك عنها منذ عامين
يا استاذ مفتاح . أتذكر كيف كنت أعلق عليها أكبر الآمال ؟ لقد سرقها مني
وزير الداخلية وأعطاهما لأحد أقربائه بلا مسوِّغ . بلا مسوِّغ يا استاذ مفتاح .
لقد كبدتني ألف جنيه . بلا مسوِّغ . بلا مسوِّغ يا استاذ مفتاح . لقد كانت
البعثة في جيبي فبعت عقاراً وأسهماً بالخسارة لأستثمر المال في الحجاز . ولكن
هذا لا يهم . كل هذا لا يهم يا استاذ مفتاح . انا رجل لا يعرف الأحلام يا استاذ

مفتاح . انا رجل لا يعرف الأحلام يا استاذ مفتاح ، وبعثة الحجاز كانت الحلم الوحيد في حياتي . لقد فجمعت في هذا الحلم فجميعتي في الحياة . الف جنيه كبدي هذا الحلم . كذلك كبدي هذا الحلم شرفي وديني . انت تعرف جيداً يا استاذ مفتاح اني رجل شريف ، رجل متدين ، ولكني لم ابج لأحد قط بما حدث . أتذكر يوم قبضنا على روزنشتاين والدكتورة سميرة خلوصي والميكانيكي زعيترا؟ في صباح ذلك اليوم ، استدعاني وزير الداخلية وطلب إلي ان أشهد زوراً بأنهم كانوا يحملون منشورات معادية للنظام الملكي ، وحين اعتذرت عن ذلك لوّح امامي ببعثة الحجاز قائلاً ان الدولة تقدر خدمات الخلفين من رجالها ، قائلاً ان كفايائي المتعددة ينبغي ان تستثمر في الخارج ، قائلاً ان مصر لن ترسل الى الحجاز الا رجلاً في مثل تفاني ونشاطي ، ثم ودعني الى الباب بأدب لا مثيل له . وأين بعثة الحجاز ؟ طارت . بعد ذلك بشهر نسي وزير الداخلية كفايائي ونشاطي واخلاصي وتفاني وسائر الصفات التي اسبغها على يوم حادث قهوة وستمنستر . انا ممدوح الشريبي ، الرجل المتدين الذي يؤمن بالله وبرسوله وبملائكته وباليوم الآخر ، أشهد شهادة الزور . ان اكثر زملائي يشهدون شهادة الزور كأنهم يشربون جرعة من الماء المثلج في حر أغسطس ، فلا تقف الكلمات في حلقهم . العادة يا استاذ مفتاح . العادة . اما أنا فقد أحتقرت نفسي منذ ذلك اليوم . وبعد ان هدأت أعصابي وفكرت ملياً أحتقرت وزير الداخلية ، وأنا الآن أحتقر النظام بأكمله ، النظام الذي لا يعيش الا في جو من التزييف والتزوير والايقاع بالابرياء ، النظام الذي لا يقترن الا بالمحسوبية والرشي والنهب الصارخ . ثم هناك مستقبلي يا أستاذ مفتاح . اتعلم كم يتقاضى الصاغ ممدوح الشريبي بعد عشرين عاماً قضاها في خدمة هذا النظام ؟ اثنان وثلاثون جنيهاً يدخل فيها البديل وعلاوة الزوجة . ماذا بقي الآن من حياتي ؟ أتفهم الآن لم انا ناثر ؟ نعم ، انا ناثر . سوف آتيكم بجميع ملفات القلم السياسي ، نحرقتها ونبصق على رمادها . نعم ، أنا ناثر . ولو اني تحققت الآن من انتصاركم بعد غد لظاهرتكم علانية ، لقدت حملة من رجال البوليس وهاجمت وزارة الداخلية واستوليت عليها في

ساعة واحدة. لا تنس اني ضابطيا أستاذ مفتاح رغم ملابسي الملكية. والضابط بعد غد يساوي خمسمائة من الرعاى الذين تسمونهم بروليتاريا. ولكني أشك في انتصاركم يا استاذ مفتاح. أشك. أشك. على كل حال انا مرتاح الضمير. أمام الله انا مرتاح الضمير. أمامكم أنا مرتاح الضمير. لا تنسوا ممدوح الشربيني، صاغ خبرة عشر سنوات في مكافحة البغايا وتجار الحشيش والشيوعيين وكل حزب من أحزاب المعارضة، حامل نوط الجدارة لاعتقال بلطجي شرير دوخ الحكومة سبع سنوات، وأخيراً خادمتكم المطيع، خادمت البروليتاريا. المهم. مع السلامة يا أستاذ مفتاح؟ البروليتاريا. البروليتاريا. المهم. مع السلامة يا استاذ مفتاح. لا تنس ان الملازم سلامة على قيد الحياة.

ونظر الصاغ ممدوح الشربيني الى ساعته وتم قائلًا: « العاشرة والنصف ». وانتظر قليلاً متوقفاً من حسن مفتاح أن يقول شيئاً، ولكن حسن مفتاح؟ تدبر الأمر ولم يجب. وأحب حسن مفتاح ان يشكر ممدوح الشربيني بصفة غامضة ولكنه أثر الصمت خشية ان يؤخذ الشكر عليه. ومد ممدوح الشربيني يده مصافحاً فضغط عليها حسن مفتاح بقوة عبّرت عما بروحه من الامتنان. وسعى بممدوح الشربيني في الدهليز الضيق حتى بلغ به الباب ففتحه له، وصافحه مرة أخرى على نور السلم. وعلى نور السلم مال ممدوح الشربيني على حسن مفتاح وأسر في اذنه عابساً:

لا تنس ان الملازم سلامة على قيد الحياة. لن أخفي عليك شيئاً يا استاذ مفتاح. ان الملازم سلامة زميلي منذ عامين ومرووسي منذ عام وجاري منذ ستة أشهر، ولكن اختفاءه يحل كثيراً من مشاكل الشخصية. لن أخفي عليك شيئاً يا استاذ مفتاح. انا مشتبه في ان الملازم سلامة على اتصال بزوجتي. مشتبه لا أكثر. مشتبه جداً. أقول لا تنس ان الملازم سلامة على قيد الحياة.

وانصرف الصاغ ممدوح الشربيني على عجل، وهو ينظر من جديد الى

ساعته . واغلق حسن مفتاح بابه ووقف في الدهليز لحظات يفكر . ثم التقط الحقيبة الملقاة وراء الباب وعاد بها الى المدخل . وفي المدخل جلس على الكرسي الاسيوطي العظيم يدخن ويفكر .

انه ترك ممدوح الشربيني يتحدث طـول الوقت ، وخيراً فعل . انه اخذ ولم يعط ، وخيراً فعل . ان رجال القلم السياسي ينصبون الفخاخ باستمرار ، ولعل هذا فن جديد من فخاخهم . ولكن حسن مفتاح لم يقل حتى كلمة شكر ، فلن يؤخذ عليه شيء . وكيف يشكر ؟ لئن شكر البوليس عاد البوليس بمجادله . « علام تشكرنا يا استاذ مفتاح . انت لا تشكرنا على ازعاجك طبعاً . انت تشكرنا على انقاذك من حبل المشنقة . ولكننا نقبل منك الشكر . ألم ننقذك من حبل المشنقة ؟ ما قيمة هذه الاوراق المحروقة ؟ لا بد ان لها قيمة . لا تشكرنا يا استاذ مفتاح . انك تعترف ونحن نشكرك . لا تشكرنا يا استاذ مفتاح . ولكن حسن مفتاح رغم ذلك كان شديد الايمان باخلاص ممدوح الشربيني ، فذهب يقلب الأمر على جميع وجوهه ، وكلما سلك سبيلاً وجده مسدوداً . وكف عن التفكير من فرط يأسه . وبدأ يحس بالجوع . ولكنه لم يتحرك من مكانه . ان الثورة في خطر . لا بد أن يقصد الى اللجنة المركزية ويعلن لها ان الثورة في خطر . ان الاعضاء مجتمعون منذ أسبوع في بدرون بشارع الفلكي ، وهم ينتظرونه منذ ساعتين ولكنهم فيما يشبه الاجتماع الدائم الذي لن يرفض قبل فجر ١١ يوليو ، بل أن أكثرهم ينام في البدرون ، لا بد انهم بحاجة اليه . ولكن كيف يعلن لهم ان الثورة في خطر ، يحدثهم عن عزرائيل ، كلا . انهم سيظنون به الظنون . نعم . سوف يحدثهم عن ممدوح الشربيني وقزمه الأعرج دون تعليق ويترك لهم حرية التفسير . نعم . هذا هو الحل الأمثل . لا بد من تصفية الملازم سلامة . خسارة . ان الملازم سلامة شاب وسيم ودمت الأخلاق . ولكن

لا بد مما ليس منه بد . اليس جائزاً ان ممدوح الشربيني قد اختلق كل هذه الحكاية ليتخلص من الملازم سلامة ؟ ان الملازم سلامة يفسد عليه زوجته . هكذا يقول ممدوح الشربيني . اذا كان الامر كذلك ، فلماذا لا يتولى ممدوح الشربيني تصفيته بنفسه . ان القتل ليس بعيداً عنه . ألم يقتل الطلبة في المظاهرات بمسدسه لا برجاله ؟ ولكن هذا أمر آخر . ان قتلهم اداء للواجب . الواجب . الواجب . ماذا يفهم ممدوح الشربيني عن الواجب . انه يقتل الاحرار اداء للواجب ، ولا يقتل عشيق زوجته اداء للواجب ، ان للبشر منطقاً يحير العقل . الواجب يعادل اثنين وثلاثين جنياً في الشهر . انه يقتل رجلاً لانه يتقاضى اثنين وثلاثين جنياً في الشهر ، ولا يقتل رجلاً لانه أفسد زوجته . ولكن منطق البشر لا يحير العقل . كل هذا طبيعي . انه يقتل لسبب سخيف فيكافأ بمداية ويقتل بسبب وجيه فيجازى بحز عنقه . أن ممدوح الشربيني خائف على عنقه . ان ممدوح الشربيني معذور . لعله الآن يتحسس عنقه . ولكن حسن مفتاح يتحسس عنقه كذلك . ان كل من في القاهرة يتحسسون أعناقهم ، حتى جلاد الدولة يتحسس عنقه . ان ممدوح الشربيني معذور . ولكن ما صلة هذا بالسياسة . أن اللجنة المركزية لن تغتال رجلاً لتحل مشاكل ممدوح الشربيني . ولكن هب روايته صحيحة بخذافيرها ، فلا مفر من تصفية الملازم سلامة . لا بد من اطلاعهم فوراً على الأمر . فوراً . ولكن البدرود ليس به تليفون . سيروي لهم ما قاله الضابط دون تعليق . ولكن اليس ينبغي تصفية الصاغ ممدوح الشربيني كذلك ؟ انه يعرف عنهم أكثر مما ينبغي . ما الفرق بينه وبين الملازم سلامة ؟ هبه غير رأيه أو طمع في منصب خطير أو ثرثر عفواً . النتيجة واحدة . نعم . لا بد من الحزم . التاريخ لا يصنعه الاطفال . سوف ينصح اللجنة المركزية باغتيال الصاغ والملازم جميعاً . ولكن ما جدوى ذلك ؟ ان الاوراق التي احرقها مصنوعة في الجحيم . والمصنع الذي صنعها يستطيع ان يصنع أمثالها . ان عزرائيل يستطيع في ثانية واحدة ان يضع نسخة من هذه الأوراق على كل مكتب

في القلم السياسي ، على كل مكتب في ادارة الامن العام ، على كل مكتب في وزارة الداخلية ، لا بد من تصفية القلم السياسي بأكمله . لا أمل . لا أمل . على كل مكتب في الحكومة المصرية اذا أحب . أما من سيبل الى اغتيال عزرائيل ؟ ولكن جسده لا ينفذ فيه رصاص . لا تمزقه سموم . لا يخنقه غاز . لا يدمره ماء . لا يتلفه حريق . انه لن ينصح بقتل أحد . لو ان قتل الضابطين ينفع لقتلها بيده . ولكنه لا ينفع . ما العمل ؟ لا عمل . ان ممدوح الشربيني حسب حساب الملازم سلامة ولكنه لم يحسب حساب عزرائيل . لا أمل . لا أمل . ان ممدوح الشربيني لا يفهم كيف يدخل عزرائيل مكاتب الضباط في بدلة سوداء متوكتاً على عصا الخرتيت . ان ممدوح الشربيني ظن لحظة انه مجنون . ولكن ممدوح الشربيني معذور . نعم ، معذور . ان حسن مفتاح لو روى الحقيقة لطفل يلعب بدمية لظن الطفل انه مجنون . إن حسن مفتاح يظن أحياناً في نفسه الجنون . لما تحدث غرائب الامور له ولا تحدث لسواه ؟ لن يصدقه من أهل الأرض ظمهم الامونا ربيع . موناربيع وحدها . ولكن الايكفيه ذلك ؟ ماذا يهمه ما يرى الناس ما دامت مونا ربيع تصدقه ؟ نعم . لن يقصد الى اللجنة المركزية وانما سيقصد مونا ربيع . فان لم تصدقه مونا ربيع ! ماذا يحدث ان لم تصدقه مونا ربيع ؟ يبدو ان كل سبله قد سدت . انه كان يطمح أن يتزوجها بعد أن تقام كوميسارية الشعب وتستتب . ماذا يحدث أن لم تصدقه مونا ربيع ؟ سوف تظن ما يظنه الآخرون . ان مونا ربيع لن تتزوج مجنوناً ولو كان على رأس كوميسارية الشعب . ولكنه لن يرى كوميسارية الشعب تقام . انه استرسل في الأحلام اكثر مما ينبغي . أنه نسي مواعده مع عزرائيل . ان حكاية الهرب من عزرائيل حكاية سخيفة . كيف الفرار من عزرائيل ؟ ان لعزرائيل يدأ طولى تدركه ولو أختفى في أعرق الفجاج ، تدركه ولو اختبأ في فيافي التبت أو استخفى في رياش الديكة أو في جلود الجرذان ، تدركه ولو انتقل الى كوكب آخر . ما كان أسخفه حين جمع أشياءه في الحقيقة . ان الفرع ضيع صوابه . ثم ان عزرائيل كان شهماً فوثق به . كلا . هو لن يفر من لقاء عزرائيل . كلا .

لن يقص على مونا ربيع شيئاً مما كان . انها تحبه . انها تحملق فيه كما
 تحملق في أبطال الأساطير . انها توشك أن تتعب له كأنه اله بعيد . لسوف
 يختفي على كل حال ، وخير له أن يختفي في صمت من أن يختفي مجنوناً . لن تقول مونا
 ربيع : « لقد مات حبيبي مجنوناً . » ان الآلهة لا تصاب بالجنون . سوف يقال
 أنهارت اعصابه . سوف يقال أفرط في العمل . سوف يقال فر من المعركة . ولكن
 لن يقال مجنون . سوف يقال . ولكن الحقيقة لن يعرفها أحد . أنه يعرف بابطال
 فروا من المعركة . سوف يقال . ولكن لن يقال مجنون . كلا . لن يقص على مونا
 ربيع شيئاً مما كان . لسوف يختفي على كل حال . فان لم يف بموعد عزرائيل ،
 جاءه عزرائيل واخذه أخذ عزيز مقتدر . ولكن ما العمل ؟ ان اللجنة المركزية
 تنتظره . يا للسخرية . السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي
 رجل ملعون . انه لا يملك ما يقوله للجنة المركزية . بأي حق يشغل مركزه
 الآن ؟ انه لا يملك نفعا للجنة المركزية . انه قادم على رحلة طويلة مع عزرائيل .
 انه رجل ملعون . ثم أن موعد عزرائيل قريب . لا بد ان يستقيل . ماذا يقول
 في كتاب الاستقالة ؟ لن يقول شيئاً . سوف يقول لأسباب صحية . كلا .
 لأسباب خاصة . ولكنه لا يستطيع أن يواجه اللجنة المركزية . سوف يرسل
 كتاب الاستقالة عن طريق مونا ربيع . لا بد ان تجد اللجنة المركزية بديلاً له
 قبل الفجر الجديد . ولكن الفجر الجديد لن يطلع . لسوف يساقون جميعاً الى
 السجن . الى أجل . إلا اذا احرقوا الوثائق . السكارثة اذا لم يحرقوا الوثائق .
 أو يخفوها . انه مل التفكير . أن الليل أوشك ان ينتصف . ترى اين مونا
 ربيع الآن ؟ لعلها في اللجنة المركزية . ولكنه سيجرب المتروبوليتان هوتيل
 أولاً . ولكنه لن يقول لمونا ربيع شيئاً مما كان . سيقول انه مسافر في رحلة
 طويلة . سيقول أن امامه موعداً هاماً ولا بد من الوفاء . كلا . لن يقول شيئاً
 من ذلك . سوف تسأل الأسئلة . سوف تظن الطنون . سيقول انه يستقيل وكفى .
 وكلما سألت فسوف يقبلها حتى تنصرف عن السؤال . فان الحت في السؤال الح

في الرفض • سوف يقبلها كثيراً • كثيراً • أكثر من العادة • ولكنه لن يحدثها
عن موعده • كثيراً • أكثر من العادة • سوف تفهم كل شيء فيما بعد •

وسد حسن مفتاح يده الى التليفون بعسر شديد • وحين أوشك ان يمكسك
بالساعة رن جرس التليفون ، وانكملت يد حسن مفتاح بسرعة كأنها مست
عقرباً • وتردد طه يلاً في التقاط الساعة ، ولكنه تناولها اخيراً • وحين سمع
صوت المتحدث هدأت نفسه • قال :

— مونا • اين انت الآن ؟

قالت :

— يجوار اللجنة •

قال :

— اكل شيء على ما يرام ؟

قالت :

— نعم • صفوان تسلم ربع مليون نسخة من الاعلان الصغير وعشرة آلاف من
الاعلان الكبير • والجيار وزع المواسير الطويلة حسب الكشف ، ولكن المواسير
القصيرة والإدشاش لا تزال في مصر الجديدة • متى ستحضر ؟

قال :

— اعتذري للزملاء نيابة عني •

قالت :

— انتظرك ؟

قال مضطرباً :

— اسمعي يا مونا . أعتذري للجماعة عن ساعتين . لا بد ان اراك بمفردك .
بمفردك . بعد ربع ساعه في المتروبوليتان . قولي أن حسن مفتاح سيقبل نحو
الثانية صباحاً . قبل الثانية صباحاً . سليلهم أن ينتظروني جميعاً . جميعاً . لأمر
خطير . أعتذري لهم بما فيه الكفاية . لا بد ان اراك . لا بد ان اراك .

حين اجتاز حسن مفتاح المشى الطويل المفروش بالطابق الثالث من فندق متروبوليتان رأى باب مونا ربيع شبه مقفل والنور يتسرب من المسافة القليلة المفتوحة . وحين دفع الباب وجد مونا ربيع واقفة أمام المرأة في روب من الحرير الأحمر تتعطر وتصلح من شعرها ، فاعلق الباب بخفة متناهية ، ووقف ينتظرها حتى فرغت . وأحست مونا ربيع بوجود حسن مفتاح في غرفتها وان لم تره يدفع الباب او تلمح خياله في المرأة . وبعد ان أصلحت من شأنها نهضت بخفة وسعت اليه وقد استولت عليها أفراح عصبية وعانقته عناقاً طويلاً حاراً فيه قبلات عديدة . وعجب حسن مفتاح لهذا الفيض المفاجيء من العواطف الجاحجة . وتبلبلت أفكاره فلم يدر كيف يبتدىء . وفيما كان رأسها ملقى على كتفه اجال بصره في الغرفة فتجددت في عينيه ألوانها . ورأى فيها معاني لم يرها من قبل دائماً . وجاءت نسبات الليل من النافذة المفتوحة فعبثت بالستائر الحمراء الثقيلة واكدت في نفسه هذه المعاني وشم اريجاً في جو الغرفة مشى في قلبه بالحياة ورده عشرة أعوام الى الوراء ، فنسى كثيراً من متاعبه وانصرفت عيناه الى السرير بصورة عزيزية وشخصتا اليه زمناً وثبتا على اطلسه الأحمر الخفيف ، وثبتا على تماثيل كيوبيد البرونزية الدقيقة القائمة في اركانه . ولكنه ادرك ما تفعله عيناه فاستحى وغض من بصره . وتحرك فيه الربيع المتأخر الدفين تحت الأهوال الشداد وعظائم الامور فطفق يقبل مونا ربيع حتى أمسكه لهب . وتدبر لحظة كل ما كان وفكر في الاختفاء في غرفة مونا ربيع حيث

الحب يصرع الشياطين والاريج القوي يطرد الارواح الشريرة . ولكنه عدل عن افكاره وعاد يتأمل البنت الملتصقة به . ولم يعد لديه شك في ان مونا ربيع تريد ان تحبه الليلة . وتعتقد عليه الأمر أكثر من ذي قبل . اما عقله فقد كان كاللوحه الصدئة ذات النقوش القديمة ، فقد كان مكدوداً كما كان حائراً . وفي وسط هذا الغميش العقلي عجز عن التفكير المجدي ثم ينس من التفكير المجدي . فاستسلم للألوان الجميلة التي نهبت بصره نهباً تحت النور الكبير . واستسلم للعطر المنتشر في الغرفة وللوهاء المعطر بروائح لا يعرف لها أحد مصدراً ، وقنع بمدرجات الحواس وحدها . انه كان يسعى لهذه اللحظة منذ ان عرف مونا ربيع ، فكانت هي ابداً تقيم بينهما ملايين الغلائل التي تشف عن كل ما وراءها ، ولكنها رغم ذلك تحول دونه . ها قد سقطت آخر غلالة أو كادت ان تسقط . وهو لا فضل له في ذلك ، وهو على أهبة السفر . ان كل شيء يحدث دفعة واحدة . لماذا يحدث كل شيء دفعة واحدة ؟ لماذا انتظرت مونا ربيع حتى هذه اللحظة ؟ في اللحظة الأخيرة ؟ لماذا في اللحظة الأخيرة ؟ ان لمونا ربيع منطقاً يحير العقل . ولكن مونا ربيع لا تعرف ان هذه اللحظة الأخيرة . أليس هذا أدعى للعجب ؟ انه ما جاء ليحب بل جاء ليقول الوداع . ترى لم تستسلم مونا ربيع الآن ؟ ان وراء نظرتها السطحية انهاك شهور متراكمة . انها لم تتم الا ساعات قليلة طوال الاسبوع الماضي ، ومع ذلك فهي تبتسم . انها أفرطت في الشراب في الاسبوع الماضي ، ولكن جميع اعضاء اللجنة المركزية قد أفرطوا في الشراب في الاسبوع الماضي ، ولعلمهم الآن يغنون ويرقصون حول الملفات في بدرون شارع الفلكي . ولكن حسن مفتاح في حيرة من أمره . انه ما رأى مونا ربيع مقبلة عليه هذا الاقبال من قبل . انه سعى لهذه اللحظة منذ ان عرف مونا ربيع . اللحظة موجودة . ترى اينتفع من اللحظة ؟ ولكنه ما جاء ليحب وانما ليقول الوداع . كلا . انه ما جاء ليقول الوداع ، وانما جاء ليحذر اللجنة المركزية . يجب ألا ينسى . واذا كانت عيناه تنصرفان بانتظام الى أطلس السرير والى تماثيل كيوبيد فينبغي ان يضع حداً لذلك . وبعد ان يضع لذلك حداً يستطيع أن يرفع الحد . يستطيع

ان يرفع كل الحدود . أما الآن فينبغي ان يضع الحد . فليضع حداً للقبيلات
أولاً ، ويعمد ذلك يستطيع ان يتدبر ما سيقول . كيف يبدأ ؟ كيف يبدأ ؟
ولكن حسن مفتاح لم يبدأ ، فقد دفعته مونا ربيع بخفة قائلة :

- والآن يا حبيبي .

- أكل شيء على ما يرام ؟

- نعم ، كل شيء .

- وأنت ؟

- على ما يرام .

- هل أجلس على حرف السرير ؟

- اذا شئت .

- اجلسي أمامي .

- هكذا ؟

- كلا . هكذا . ألا تحبين الهواء ؟

- نعم ، احبه .

- والآن . الآن . نقطة نقطة . أولاً : لماذا لم تسافري ؟

- انتظر مني أن أهرب ؟

- كلا ، ولكنك خدمت بما فيه الكفاية .

- كذلك صفوان والجيار وسعدية والباقون .

- نعم ، نعم . ولكن الحوادث القادمة لا قبل للنساء بها .

- ولم لم تشتري تذكرة لسعدية الطويل ؟

— هذا موضوع آخر .

— كلا . بل هو ذات الموضوع .

— ولم أشتري تذكرة لسعدية الطويل ؟

— لأن الحوادث القادمة لا قبل للنساء بها .

— ولكنني لا أحب سعدية الطويل .

— أأنت تشتغل بالسياسة أم تشتغل بالحب ؟

— الآن . الآن . أنا لا أستطيع أن افصل . كل ما أعرفه هو أن الشاعرة

الآن ملفمة بالبارود ، وبعد أربع وعشرين ساعة سوف ينفجر كل شيء . كل

ما أعرفه هو أننا جميعاً في خطر . خطر أكبر . ثم الوحشية . الوحشية . أنت

لا تفهمين ما الثورة . أنت ملاك . نعم الوحشية . برك الدماء . القتل بالآلاف .

برك الدماء . الرصاص الطائش . المشانق في الشوارع .

— أنت مجنون اذا انتظرت مني أن أهرب .

— أنا لا أنصحك بالهرب .

— بم تنصح اذن ؟

— بالاعتكاف . اعتكفي اسبوعاً واحداً . سوف ينجلي كل شيء بعد اسبوع ،

واللجنة لن تستغني عن خدماتك حين يبدأ التعمير . نعم . حين يبدأ

التعمير .

— يا للعار . وكيف أرفع رأسي بعد ذلك .

— انت متعبة . أي عار في التعب . ان من حقك أن تتعبى .

— انت آخر من أنتظر منه هذا الكلام .

— مونا .

— لا تجادل .

— مونا .

— نعم .

— ماذا يكون حالي لو حدث لك شيء ؟

— وماذا يكون حالي لو حدث لك شيء ؟

— نحن رجال . نحن معرضون . هذا جزء من عملنا .

— أفق يا حسن . ان الحب يعميك .

— أمعك التذكرة ؟ ربما استطعنا مدها .

— كلا ، معي ثمنها ، فقد رددتها أمس .

— وماذا يكون الحال لو فشلت الثورة ؟

— لو فشلت الثورة ؟ أقول عشنا معاً ونموت معاً . لو فشلت الثورة ؟ أتحسب

اني لم أفكر في ذلك ؟ نعم . أقول عشنا معاً ونموت معاً . وأية حياة لي من

بعدك ؟ لن نموت وحدك يا حبيبي . لو فشلت الثورة . نحن شركاء يا حبيبي . انهم

يطلبون رأسك يا حبيبي . آه . لو فشلت الثورة . ماذا يحدث لو أعفوني من

المشقة ؟ ولكني سأنتحر . نعم ، سأنتحر ، سأنتحر لو مسك سوء . فان سلمت عشت

ولو في السجون لا كافح معك من جديد . نحن شركاء يا حبيبي . ولكن الثورة

لن تفشل . كيف تتحدث عن الفشل ؟ ماذا اصابك ؟ أخائف أنت ؟ ان الثورة

لن تفشل . لا . لا . لن تفشل . لن تفشل .

— مونا .

— نعم يا حبيبي .

— ان الثورة قد تفشل .

— لا . لا . لا . أنت خائف يا حسن . يا للعار . ماذا يقال ؟ حسن مفتاح يضعف . حسن مفتاح يشحب لونه ؟ ولكنك متعب يا حسن . قل انك متعب .

— اصغني إليّ جيداً يا مونا .

— اذا ...

— لقد جدّدت امور يا مونا . ان البوليس يعلم بالمؤامرة وسوف يقبض على ثلثائة شيوعي قبل فجر الغد . ان ممدوح الشربيني زارني هذا المساء وروى لي كل شيء . قال ان رجلاً ما تقدم اليه بتقرير شفوي عن المؤامرة وسلمه نسخة مصورة لأكثر ما معنا من الوثائق . وقد سلمني ممدوح الشربيني كل ما وصله من أوراق تديننا واشترطنا سوياً في احراقها . نعم . ان النسخ كانت صحيحة ، لا شك في ذلك . لقد امتحنتها بنفسي يا مونا .

— من يكون الخائن ؟ من يكون الخائن ؟

— انا اعرف من يكون .

— من هو ؟

— أرجو أن تعفيني من الاجابة يا مونا . ولكنه ليس واحداً منا ، وفي هذا بعض العزاء .

— ولكن كيف ... كيف توصل ؟

— أنا أعرف كذلك كيف توصل ، ولكنني أطلب عفوك مرة اخرى . سوف تعرفون كل شيء . سوف يعرف الناس كل شيء . كل شيء في حينه .

بالتفصيل . بالتفصيل . بالتفصيل يا مونا . سأدون كل شيء غداً بالتفصيل .

— وماذا دفع ممدوح الشربيني الى هذا العمل الجنوني ؟

— انه ناظم على الحكومة . انه ساخط . ساخط . ان ممدوح الشربيني رجل ، والرجال حين يسخطون يثورون . المهم الآن هو هذه الملفات يا مونا .
أعرفين بيت سمير حجازي ؟

— ومن يكون سمير حجازي ؟

— ابن عمي الذي يفاضل عنايات ممدوح ويدعي الاهتمام بمحاضراتنا ليحاول
الاتصال بها .

— نعم ، اذكر سمير حجازي ، ولكن سعيدة الطويل هي التي تعرف
العنوان .

— انه في الزمالك ٣١٥ شارع الجبلية . اجمعوا كل الملفات . اخفوها في بيت
سمير حجازي . ان مفتاح البيت معي . خذيه يا مونا . ان سمير حجازي في
الاسكندرية ولن يعود الا بعد اسبوع . ان في البيت تليفوناً وهذا يسهل الامور
كثيراً . انتدبوا رجلاً قوياً مسلحاً يسهر على الملفات ولا يفادر التليفون .
انتدبوا رجلين يتناوبان الحراسة ، واذا هوجم البيت فلتحرق الملفات . انها كل
ما معهم لادانتنا . لقد فرغت من القوائم السوداء وسوف تجدينها في آخر هذا
هذا الملف . انقلوا الملفات قبل الصباح . اياكم ان تنتقل ورقة واحدة خارج
البيت . انتدبوا واحداً منكم ... انتدبوا نور الدين ليقرأ كل شيء بالتليفون
اذا لزم الأمر .

— ونحن ، انخفي كذلك ؟

— ان اختفاءكم دفعة واحدة يقوي الشبهة . تذكروا ان النيابة لا تملك
دليلاً واحداً ضدكم . تذكروا ان اعتقالكم لن يطول .

— كلا . كلا . لن نستسلم بهذه السهولة . لسوف نقاوم لسوف نسير في الخطة كما رسمناها . لسوف نختفي وليبحث عنا ممدوح الشربيني ما شاء ان يبحث . لسوف ندير الثورة في الشوارع ، من السرايب ، من المنازل المهجورة ، من المقابر . كلا . كلا . لن نستسلم بهذه السهولة . أنا أطلب عرض هذه المسألة للمناقشة .

- العقل . العقل . نحن لن نستسلم ، نحن قد استسلمنا . نحن هزمننا . نحن هزمننا قبل ان تبدأ المعركة . تذكروا ان عدتنا الأولى هي الصدمة المفاجئة . تذكروا ان عدتنا الثانية هي طوابير الجيش . ماذا تملك البروليتاريا بغير الجيش . سيروا في الخطة الموضوعة وتحملوا التبعة . أما أنا فأنفض يدي . نعم أنفض يدي . ان حسن مفتاح يدير الثورة ولا يدير مذبحه . ثم الفشل . فكروا في الفشل . أنا لا أقصد اعدام الزعماء وتشيت المجاهدين . ولكن الفشل يؤخر الحركة ربع قرن . لن ترفع البروليتاريا رأسها الا بعد ربع قرن . ان الشعب جبان يا مونا . سوف يختبيء الشعب في ججوره كالفيران الخائفة . سوف تنشط الجماعات المهادنة . سوف يكثر المهادنون الانتهازيون ويحدثون في جبهتنا صدعاً . سوف تنهار عضوية الحزب . لا تطلبوا المحال . لا تهاجموا الطواجين . كلا . كلا . ان الخطأ أقطع من الخيانة . ان الثورة الفاشلة جريمة . سيروا في الخطة وتحملوا التبعة . أنا أنفض يدي . اختفوا اذا شئتم . أما أنا فباق في الملكة فريدة . هناك امور تحدث بين السماء والأرض لا تعرفون عنها شيئاً . ماذا أقول ؟ ماذا أقول ؟ أقول ان السماء غاضبة عليكم ؟ ماذا تقولون لو قلت ذلك ؟ أقول أن بينكم رجلاً نجساً يحلب عليكم اللعنة ؟ ماذا تقولون لو قلت ذلك ؟ أتقولون أن حسن مفتاح يهدي ؟ ولكن هناك اموراً تحدث بين السماء والأرض لا تعرفون عنها شيئاً . أما أنا فقد رأيته بعيني وسمعتها بأذني . ان بينكم رجلاً ملعوناً . ولا ترضى السماء عنكم قبل أن يخرج من صفوفكم . انبذوه . انبذوه ترحمكم السماء .

— عن تتحدث ؟

— أنا هو . أنا الرجل الملعون . انبذوني . اللعنة يا مونا . أتعرفين ما اللعنة يا مونا ؟ ان بينكم رجلاً مطاردًا . أقول ان الشياطين تطاردني ؟ كلا . كلا . أنتم لا تؤمنون بالشياطين . أنا لا أؤمن بالشياطين ، ولكني ملعون . أينما ذهبت جررت اللعنة . انبذوني قبل أن يفوت الأوان . لن أبوح بأكثر من هذا . أنا لست مجنونًا . أنا لست متعبًا . أنا لست خائفًا . ان حسن مفتاح لا يخاف . الخوف ؟ ها . ها . ها . ان الخوف من شيم البشر . أما أنا فقد فقدت انساني . منذ ... منذ ... منذ ليلة المونسنيير . أتعرفين لم أخلفت موعدي ؟ لقد حدثت أشياء . لقد حدثت أشياء غير مألوفة . أنت تصدقيني يا مونا ؟

— نعم .

— نعم . انت تصدقيني يا مونا . لهذا سألتك ان ... هات يدك أقبلها . يا للراحة . قبلة أخرى . ان يدك تشفي المرضى . امسحي بيدك على جبیني . لعل اللعنة تخرج . نعم ، هكذا . بأصابعك يا مونا . تخلي شعري بأصابعك يا مونا . نعم . هكذا . انت تصدقيني يا مونا . لهذا سألتك المجيء . لتحسين اني أستطيع أن أواجه اللجنة المركزية بكل هذا الحديث ؟ كلا . كلا . انهم لن يصدقوا . انهم لن يفهموا . لسوف يقولون مسه خبل . ولكني لا أكرث . يكفي أن مونا تصدق . يكفي ان مونا تفهم . البشرية . ماذا تفهم البشرية ؟ ولكن هذا عجيب . اني أتحول . اني أتحوّل . كيف حدث هذا يا مونا ؟ لقد حدثت المعجزة . لقد سقطت البشرية مدلولها . لم يعد في العالم كله الا مونا ربيع . ترى كيف حدث هذا ؟ أنا لم أكن أفهم الا المجردات . أنا لم أكن أتحدث الا عن الجماهير . أنا لم أفكر الا في التاريخ . الانسانية . الشعب . تيار الحياة . كل هذه أمست عندي كلمات جوفاء . ان في العالم الفامليون ولكني لم أعد أكرث الا بشخص واحد هو مونا ربيع . كيف ارتددت الى

هذه الفردية المطلقة ؟ ان هذه معجزة يا مونا . كيف حدثت المعجزة ؟ أنا الآن طفل . الطفولة اليانعة يا مونا . وأنت الأم . الأمومة الشاملة يا مونا . والجزء يعود الى الكل . الطفل لا يعرف الا ثدي أمه . يتحسسه بيده الصغرى . ينهشه بيده الصغرى . يقبل عليه بفمه الأصغر . الكون عنده تركز في شبر من اللحم . كلا . هذه ليست معجزة . هذه سنة قديمة . انت الأم يا مونا . أنا الطفل يا مونا . انت منبع الحياة . اريد أن أعود الى المنبع . انت الكل يا مونا . أنا الجزء يا مونا . أريد أن أعيش في الكل . أنا اتحدث كالمجانين . ولكني لست مجنوناً . لو سمع نعيم هذا الكلام لقال : « ان زعيمنا يشكو مركب أوديب » . لو سمع صفوان هذا الكلام لقال : « ان زعيمنا انخرق الى الوجودية المتعقبة » . لو سمع الجيار هذا الكلام لقال : « ان زعيمنا خائف ، ان زعيمنا يفر من المعركة » . ولكن اللجنة المركزية لا تفهم كل شيء . انت وحدك تفهمين . انت وحدك وحدك . يا جايا . قبلي ولدك بروميثيوس . ان الهواء معطر . ان صدرك اثقلته الفاكهة ومن جسدك تنبع الحياة . أنا لا أهذي يا مونا . أمجنون أنا ؟

وسكت حسن مفتاح وانتظر . ولم تحب مونا ربيع فوراً فقد كانت تمزقها احساسات شتى كلها متضاربة ، منها الدهشة ومنها الحنان ومنها اليأس ومنها الفضب ومنها دوافع الجنس . وأوشكت أن تقول : « نعم . أنت مجنون » ولكنها ضبطت لسانها ، فقد أحست في قرارة نفسها ان هناك بعض الصدق فيما يقول . ولم تكن تدري ما الحق وما الضلال ، ولكنها كانت تعلم أن حسن مفتاح ليس رجلاً كسائر الرجال وانما هو مخلوق غريب في حياته ألغاز لا تفهم وفي طبيئته عناصر لا تدخل في تركيب البشر . كانت تعلم ذلك منذ قبلها تحت النور القوي في مدخل داره بشارع الملكة فريدة . وحين سمعت كل ما قال اضطربت نفسها ولكن هاتفاً عميقاً أوحى اليها بأنها تفهم ما يقول . وحاولت أن تفهم فلم تفهم ولكنها أحست بأنها تفهم . وساءها من كل ذلك أن يبدأ حسن مفتاح في التصدع الى عناصره الغريبة الأولى في هذا الوقت العصيب

بالذات . وكان أول ما فعلت ان انصرفت الى قراءة عينيه كما كانت تفعل في القديم فرأت حديقته قد أتسعتا وشردتا وخيل اليها انها ترى ما وراءهما بوضوح . ورأت الحزن العميق النابع من الأغوار . وتذكرت مرة أخرى عيون الكلاب المسحورة في « ألف ليلة وليلة » . وكادت ان تبكي . وبدأ لها أن تسأله عن حقيقته لتعرف سره الأكبر ، ولكنها أكتفت بأن أجابت :
- لا تخف . فأنت بكامل عقلك .

وزحف حسن مفتاح على حافة السرير حتى خرج عنها وانحنت ركبتها رويداً رويداً فإذا به راكع عند قدمي مونا ربيع وإذا رأسه ملقى على حجرها وإذا هو في بحران ، وإذا به يحدث نفسه قائلاً : « الغفران . الغفران . » ومونا ربيع صامته احشاؤها تتمزق . ولكن صلاته لم تطل ، فقد نهض بهدوء وعاد الى مكانه من السرير وأدمن النظر الى أرض الغرفة كأنه لا يقوى على مواجهة مونا ربيع . وبدأ عليه انه يجاهد قوة خفية تدفعه الى افشاء سره . وأخيراً قال :

- ولكن الأمل لم يضع تماماً . اسمعي يا مونا وتذكري كل كلمة أقولها . لا أحد يعرف بالمؤامرة الا ممدوح الشربيني والملازم سلامة . لا أحد . هكذا قال ممدوح الشربيني ، لا أحد حتى هذه اللحظة . ممدوح الشربيني قال ان الملازم سلامة وحده كان في مكتبه حين دخل الشاهد وأدلى بتقريره وسلم الأوراق . ممدوح الشربيني قال انه كان يحب أن يقاتل في صفوفنا لولا خوفه من العواقب . نعم . ممدوح الشربيني قال انه لا يملك السكوت علينا ما دام الملازم سلامة على قيد الحياة . قال انه سيقبض علينا بنفسه ، قبل فجر الغد ، ما دام الملازم سلامة على قيد الحياة . قال اذا اختفى الملازم سلامة نسي ممدوح الشربيني كل ما يعرفه عن المؤامرة . انه يمهلنا حتى التاسعة مساء ، فاذا لم ننتفع بهذه المهلة أدى هو واجبه . نعم ، انه ينصح بقتل الملازم سلامة لأنه يعرف أكثر مما ينبغي أما أنا فانصح بقتل الصاغ ممدوح الشربيني كذلك . ان ممدوح الشربيني يعرف أكثر مما ينبغي كذلك . أمامكم نهار كامل وبضع ساعات . واذا اقيمت

كوميديا الشعب فلا تنسوا ممدوح الشربيني . انعموا على اسمه بلقب مجاهد من الطبقة الثالثة . ولكن لا تذكروا ان الملازم سلامة يفسد زوجة ممدوح الشربيني . كلا . كلا . انعموا على اسمه بلقب شهيد من الطبقة الثالثة . ان ممدوح الشربيني شهيد من شهداء النظام الحالي : مسكين ممدوح الشربيني . انه سقط بين الحاضر والمستقبل فخر الحاضر وخسر المستقبل . أزيلوا سلامة والشربيني . وجربوا . نعم ، في امكانكم أن تجربوا . من يدري ؟ لعلكم تنتصرون . فاذا لم تتجحوا في اغتيالها فالبشوا كل في مكانه . لسوف تطوف بكم عربات البوليس . ولكن لا تحافوا . ان اعتقالكم لن يطول . لقد أحرقت النسخ المصورة بيدي ، وليس لديهم ما يدينكم . ازيلوا سلامة والشربيني . ومع ذلك فلا ضمان للنتيجة . أنا لا أضمن لكم شيئاً . ان الأمر أكبر من سلامة . أكبر من الشربيني . ان القوى الخفية تحاربكم يا مونا . انكم لا تقاتلون الطغاة وحدهم . انكم تقاتلون مخلوقات ممسوخة تسكن الجحيم ليلاً وتتجول نهاراً على ظهر الأرض وتكيد للبشر كيذاً عظيماً . أنا أعلم ذلك . ولكن حذار ان تسيروا في الخطأ اذا أفلت سلامة أو الشربيني . ومع ذلك فانا لا أضمن لكم شيئاً . ان السماء غاضبة عليكم . ان السماء ترسل الرسل وتقشي الأسرار ، ولعل سرهم الآن على كل لسان في المدينة . ان القوى الخفية تحاربكم من يدري ؟ لعلها تحاربكم من أجلي . من يدري ؟ من يدري ؟ نعم . انها تحاربكم من أجلي . ان القوى الخفية تطاردني يا مونا . أنت تفهمين ما أقول . أنت تفهمين أليس كذلك ؟ أنا رجل مطارد . أنا رجل ملعون . أنا أجر عليكم اللعنة ، ومن الخير ان أنتحى . ضعوا رامتاً في مكاني . نعم . من الخير ان أنتحى . هذا كل ما أملكه الآن . أن أنتحى . من يدري ؟ لعل ظلي الملعون ينقش عنكم . لعل السماء تعفيكم من القصاص . هذا كل ما أملكه لكم . سوف أسلم نفسي . لقد وعدت بتسليم نفسي .

— كيف تسلم نفسك للبوليس ؟ ماذا دهاك ؟ ماذا دهاك ؟

- البوليس ؟ البوليس ؟ كلا . لن اسلم نفسي للبوليس . لسوف اتنحى .
لقد وعدت بأن اتنحى . لا تنتظروني . ربما طال غيابي . نعم . ان غيابي
سيطول . لا تزعجوني . سألزم داري طول اليوم فلا تزعجوني . كلا . ان
السماء لا تعاديكم . ان السماء تطاردكم من اجلي . ان السماء تطاردني وحدي .
انتم ابرياء . كيف تعاديكم السماء ؟ ماذا جنيتم ؟ ان السماء لا تأخذ بالنوايا .
السماء تأخذ بالأعمال . انتم ابرياء . ماذا تعرفون عن القتلة ؟ ماذا تعرفين عن
القتل يا مونا ؟ انت لم تقتلي بعوضة . أما أنا فقد قتلت . قتلت رجلاً . رجلاً
قوياً . لهذا تطاردني السماء ولا بد من الوفاء . أنا قاتل . أنا ملعون . ولكنكم
في أمان الى ١١ يوليو . وبعد ١١ يوليو سوف يبدأ القصاص . بعد الجريمة يكون
العقاب . القاتل يقتل ولو بعد حين . سوف تقتلون . جميعاً . ان في الجحيم
مطبخاً فيه قدر عظيم ، وفي ذلك القدر تسبك الذنوب على نار زرقاء لهبها
أخضر ، تسبك الذنوب ، بطيئاً بطيئاً ، حتى تنضج . وعندئذ يأتي العقاب .
وتوفد جهنم رسلها الى الأرض . لقد رأيتهم . بعيني . رأيت واحداً منهم .
وحين توفد جهنم رسلها للأرض تأخذ الرسل بالحناق وترهق الانفاس . انه شيء
يشبه المشانق . سيقولون يومئذ : لقد قتلنا من أجل الشعب . أنا كذلك قتلت
من أجل الشعب . لكن السماء لن تقبل هذا الدفاع . ولكنكم الآن في أمان
لأنني سأتنحى . ان السماء تطلبني وحدي . لقد وعدت أن اسلم نفسي .
سيمعرف الناس كم جاهدت لأنجو . وسيكون . جاهدت من أجلكم . من
أجلكم وحدكم . من أجل الشعب . ولكن لا مفر من القصاص . لقد ورد
ذلك في الميثاق الأعظم . نعم ، لا مفر من القصاص . ولكني رغم ذلك لا
أضمن لكم شيئاً . ان للسماء منطقاً يحير العقل . سوف أمضي بلعنتي بعيداً
عنكم . هذا كل ما أملكه لكم . فاذا غضبت عليكم السماء فلن يقيكم من
غضبها شيء ، ولو قتلتم كل ممدوح شربيني . سوف أعتكف طول النهار فلا
تزعجوني . رامز وكيلى فلا تزعجوني . سوف أكتب وأحرر وأقرأ قليلاً .

سوف اصلي كثيرا من أجلكم . سوف أناجي القوى الخفية . سوف الاعبها
واجادها واخاصمها لاهيها عنكم . ثم أنصرف عند الغروب الى الموعد العظيم .
وانت يا مونا . لن أراك مرة اخرى ... ليتني كنت مؤمناً ، اذن لقتلتك
لتخلق روحانا معاً ، وتسكننا عشاً واحداً بين وارف النخيل عند الكوثر
الخمري . لقد كان ينبغي ان أثبت بينكم لتجلسي الى جواري في قلوب الناس
وفي كتب التاريخ وفي كوميسارية الشعب وفي كل مكان . أين أحلامي ؟ أين
أحلامي ؟ أو اه يا مونا . أين أحلامي ؟ لكم همت كالشعراء المجانين في فراديس لا
يرقى اليها الكوكب الأرضي . ولكنني لن أراك مرة اخرى . لسوف أنصرف
مع الغروب . كل شي ينقسم ثم يمتطي . العقارب تتوالد . نسل يتوالد . أنجس
الكائنات تتوالد . الجامدة تتوالد أما أنا فسوف امض قبل ان انقسم .
انا ذرة من غبار جاءت بها الريح وطار بها الريح . أنا شجرة الصبار . آه من
الجدب . آه من الجفاف . لقد يبست اليافي . لقد يبست روحي . لقد يبست في
أوراق الحياة . اعطني ولدي يا مونا . أين ولدي يا مونا ؟ الفلاحون البله
والصيادون البله والنساجون البله كلهم يخصب وكلهم يدوم . أما أنا
فقائم بين الرمال المطلقة كشجرة صبار عتيقة لا أب لها ولا زوج ولا ولد . لا
جذر ولا فرع ولا ثمر ولا أنيس . آه من العزلة الشاملة . آه من الوحشة الكاملة .
آه من الصمت العظيم . لا تبكي يا مونا . لقد كانت لك ماجدة . وما زالت لك
ذكرها . ان بكيت أنت فماذا أنا فاعل ؟ اعطني ولداً ثم اقتليه . اعطني
ولداً ثم اقتليني . اعطني ولداً ثم احبسني بين الأبالة الحمر في أطباق الجحيم .
اعطني ولداً . ولكنني أهذي لقد فات الأوان . الى الخراب الأكبر يا حسن
مفتاح . الى الفراغ الحزين . سوف اختفي مع الغروب . وحين تهبط الشمس في
العين الحثة سوف أهبط أنا الى البلقع الأعظم . أنا لا الوملك يا مونا . ان حسن
مفتاح يحدث مرة واحدة . ان حسن مفتاح لا يتكرر . ان حسن مفتاح لا
ينبغي أن يتكرر . انك تفهمين سري دون أن تعرفيه . لقد أدركت ذلك يوم

ارتعشت بين ذراعي تحت النور القوي في مدخل داري . عندئذ أدركت انك تفهمين سري وان لم تعرفيه . انت وحدك فهمت سري يا مونا . بقوة الحب يا مونا . ولكنني كبرت ولكنني قارمت ولكنني طالبت باحلام ليست من نصيبي . كلا . كلا . حسناً فعلت يا مونا . ان حسن مفتاح لا يتكرر . وكيف يتكرر حسن مفتاح ؟ انه ليس مادة فيتكرر . انه ليس روحاً فيتكرر . انه .. انه ... جسد بلا روح . انه روح بلا جسد . أفهمت السر الخطير يا مونا ؟ انا روح تسكن جسداً . أنا جسد تسكنه روح . أنا العنقاء . أفهمت الآن يا مونا ؟ كلا . انك لا تفهمين . كلا . ان هذه ألغاز لا تفهم . لا أحد يفهم ما أكون . لا أحد . حتى أنا لا أفهم من أنا . ولكنني لم أهبط من كوكب ذري ولم أهبط من كوكب فحيمي فأنا من هذا العالم . وقد كنت من قبل وحدة لا تتجزأ . كان ذلك قبل ليلة الونسبير . ولكن حسن مفتاح تجزأ في الصباح فجأة . بلا سبب . بلا ذنب . بلا انذار . تجزأ . في الصباح . عند السلسلة نعم يا مونا غرقت عند السلسلة . تجزأت يوم تواعدنا على اللقاء . تجزأت فغاص جسدي في الماء وطار روح في الهواء . لهذا اخلفت موعداً يا مونا . أفهمت الآن ؟ ولكنني انتظرتك طول النهار وقبعت في الزمهرير المظلم بركن الغرفة حتى الأصيل . حتى أقبلت . ثم زحفت اليك على متن الهواء باحتراس بخافة ان ترعجك جلبتي . ودنوت من خدك وقبلتك . ألم تحسي بريح باردة تلطم خدك يا مونا ؟ نعم . لقد أحسست . لكم بكيت في الزمهرير المظلم يا مونا . وقد كان ينبغي أن أعيش . نعم . كان لا بد ان أعيش لأتم ما بدأت . نعم ، من أجل الشعب كان ينبغي ان أعيش . لم اكن مختاراً كان لا بد ان أقتل . أجل . لم اكن مختاراً . لقد كان ابن عمي سيد قنديل يشبهني تماماً فتربصت به بين الحقول وقذفت به في الماء الأسن العميق وكنمت انفاسه حتى خرجت روحه . وحين خرجت روحه تسلفت في جسده روحي . أسمعني عن التناسخ يا مونا ؟ هذا هو التناسخ يا مونا . نعم . لم اكن مختاراً . كان لا بد ان يموت سيد قنديل ليعيش حسن مفتاح . ولكنني

ما قتلت انتقاماً لك وانما قتلت من اجل الشعب . انظري الى عيني . نعم .
 انت وحدك تريه يا مونا . بقوة الحب يا مونا . اما الباقيون . انهم ما عرفوا
 حسن مفتاح القديم ليعرفوا حسن مفتاح الجديد . انظري الى عيني يا مونا . ان
 ما تريه حقيقة لا خداعاً . ان فيها بصيصاً من سيد قنديل . كل شيء ينطفيء
 الا العيون يا مونا . انها مرايا الأرواح يا مونا . وقد خرجت روح سيد قنديل
 وتركت خيالها في قرارة عينيه . انه خيال حزين يا مونا . ولكن هكذا عيون
 الفلاحين . حزنهم قديم . من عهد مصرائيم . نعم . ان ما تريه حقيقة لا خداعاً .
 والآن حان وقت القصاص . لقد زارني رسول من السماء . لا شك انه من السماء .
 قال إنه عزرائيل . لا شك انه عزرائيل . جاء يطالبني بجثة سيد قنديل . ان
 للسماء منطقاً يحير العقل . طلبت منه ان يمهلي فأبى . لكم جادلت . لكم
 قاومت . لكم راوغت . ولكنه كان كالصخرة الصماء . ولكنني لم أطلب الرحمة
 يا مونا . ان حسن مفتاح لا يطلب الرحمة يا مونا . أفهمت الآن يا مونا ؟ نعم .
 انت تفهمين كل شيء . هذه هي اللعنة يا مونا . ولكن عزرائيل كان شهماً
 كريماً فأمهلي من الغروب الى الغروب . لقد قال ان الأبطال يسمعون اليه ولا
 يسمي هو اليهم . لقد قال انه يكرم الأبطال . لقد ضرب لي موعداً في وادي
 الخفافيش الحمر . ولسوف أفي . ترى ماذا هو فاعل بي ؟ أرجو الا يمدبني عذاباً
 أليماً . ترى أين هو ساع بي ؟ أرجو الا يخرجني من مدارك يا مونا . هذه هي
 اللعنة . انت تفهمين الآن . انت تفهمين لم طلبتك على انفراد . انت تفهمين لم لا
 أواجه الجماعة . انت وحدك تفهمين هذه الاحاجي التي يلغز بها الزمان في آذان
 الأصفياء . تفهمين من أين جئت والى أين ذهبت . ولسوف تدافعين عني .
 أليس كذلك يا مونا ؟ سوف تدافعين عني . كلما قيل مجنون دافعت عني يا
 مونا . كفى ما أتعذب . ولكنهم اغبياء . كلا . انهم بسطاء . انهم مساكين .
 اما نحن فقد انتهكت أماننا الحجب وتعري صدر السماء . اتعلمين ان الرسول
 الذي زارني هو الرسول الذي زار ممدوح الشربيني ؟ انه قزم وأعرج ولثيم .
 وحين ترين قزماً اعرج لثيماً فاعلمي انه عزرائيل . انت تفهمين كل شيء .

تفهمين كل ما قلته عن الثورة . تفهمين اني لم اتخلف . وحين يقال جبان سوف تدافعين عني . تفهمين اني لم انصحكم بالحذر . ان السماء تمكر بكم . ولكنك احسنت عملاً يا مونا . ان مثلي ينبغي ان يحبس في قمقم مختوم . كما تحبس الجان يا مونا . نعم ، لقد احسنت عملاً يا مونا . ما انت مزرعة للشياطين . ان مثلي جذع شامخ عملاق ولكنه اجوف ويابس وقديم . ابقى شيء ؟ كلا . لم يبق شيء . لقد فرغت . بقي ان انصرف . ماذا ستقولين لهم ؟ لا تبوحى لهم بشيء . انهم لن يفهموا . هذه اسرار بيننا يا مونا . قد كنت اوثر ان اتناول معهم العشاء الأخير ولكنهم لن يفهموا . سوف أرسل اليك غداً رغيفاً لتوزعيه على أعضاء اللجنة المركزية في المساء . وليكن هذا عشاءي الأخير مع احبائي . فنكتف بالرمز . الرمز سلب الحياة . ولكنهم لن يفهموا . قولي ، قولي ان البوليس يعلم بأمرنا . قولي ان حسن مفتاح مريض . قولي انه يوضي برامز خليفة له . غير هذا لا تقولي شيئاً . ولا تنسي جمع الأوراق . غداً ترين العجب العجاب يا مونا . لو بدا الدم يجري في الشوارع فيا لهول ما ترين . في كل ساعة تسقط غشاوة . لسوف ترين خدام الشعب يتحاسدون في خدمة الشعب . لسوف ترين خدام الشعب يتباغضون ويتناحرون ويدبح بعضهم بعضاً . وفي المحادع تكثر الوسوس وفي الأحلام تزحف الأمانى كأنها الأفاعي وتعض اصحابها فتوقظهم على الحقد المميت . وفي النوادي تكثر الدسائس وعلى المنابر تكال التهم بغير حساب وفي السرائر لن يحول الا خاطر واحد : « اما عنقه واما عنقي » . كل هذا لأن حسن مفتاح قد توارى ، فحسن مفتاح وحده يعرف كيف يضع كلاً في مكانه . أقول ان خليفتي رامز . سوف اكتب هذا لتقرئيه عليهم . وحين تقرئيه عليهم ضعني مسدسك على المائدة ليبصره الجميع . ولا تنسي ان تحشيه بالرصاص . فاذا تامل متامل فلا تهلوه ، ولو كان الجيار . ان الجيار اكفؤكم جميعاً ولكنه يذكر نفسه كلما ذكر الشعب ولا يذكر الشعب الا ليذكر نفسه . أما انا فأقول لكم ان مؤمناً واحداً يغني عن جيش من العباقرة . لقد سمعتم انه قيل للزعماء الاخاء الاخاء ، أما انا فأقول لكم : اقتلوا بعضكم بعضاً حتى

لا يبقى على وجه الأرض الا اصفاءكم نفساً وأصلبكم عوداً . لقد سمعتم انه قيل للزعماء : الاتحاد قوة . اما انا فأقول لكم ان الخصام في سبيل الحق خير من الشركة على ضلال . لقد سمعتم انه قيل للزعماء : ان الرحمة فوق العدل ، أما أنا فأقول لكم ان من رحم خائناً فهو أخون منه وان من ظلم ليرحم فقد فرطوفرطوفرط . لقد سمعتم انه قيل للزعماء : أيتها الحرية ، كم من جرائم ارتكبت باسمك ، أما أنا فأقول لكم ان ما سال من دم منذ هابيل لم يغسل الاستعباد من وجه الأرض . لقد سمعتم انه قيل للزعماء ان الغاية تبرر الوسيلة . أما أنا فأقول لكم : في الشعب تلتقي الوسائل والغايات ، ومن اتخذ الشعب غايته استغنى عن معاجم الاخلاق . قد سمعتم انه قيل للزعماء : الأعصاب نصف المعركة . أما أنا فأقول لكم : والحق نصفها الآخر . قد سمعتم انه قيل للزعماء ما استحق ان يولد من عاش لنفسه . قد سمعتم انه قيل للزعماء : يحيا اصدقاء الشعب ، ، أما أنا فأقول لكم : الموت لأعداء الشعب . قد سمعتم انه قيل للزعماء : عاش فلان زعيم الشعب ، اما انا فأقول لكم من هتف لغير الشعب فقد كفر بالشعب واستوجب غضب الأجيال والآن لم يبق الا ان ابارككم باسم الثالوث المقدس ماركس وانجلز ولينين ، فامضوا في الخطة ، وانشروا الذعر في الوادي حتى تتحطم السلاسل عن العبيد وتسكن السعادة فؤاد البشرية . طوبى لكم اذا عذبوكم من أجل الشعب . تذكروا ان اليأس من اختراع الأعداء ، وكلها دب اليأس الى قلوبكم فارسموا علامة المشنقة . فالمشنقة رمز الخلاص . المشنقة رمز القداء . المشنقة باب الحياة الأبدية . المشنقة تمسح خطايا الاشرار . المشنقة تمسح خطايا الابرار . بالمشنقة تمسحون عن الشعب خطاياهم . بالمشنقة تتجدد الحياة . فليحمل كل مشنقته على ظهره ولتسيروا على الطريق العالي . طريق العذاب . أمامكم انا في الحياة وفي الممات . فطوبى للمشنوقين من أجل الشعب . هذه لعنة قابيل : ان يقتل الأخ أخاه . يا الهي ! متى ترتفع اللعنة . متى ؟ متى ؟ متى ؟ متى يجري الكوثر مكان جداول الدماء والدموع ؟ لا . لا . كلكم أبرياء . أنا وحدي هو الملعون .

انبذوني . انبذوني . انبذوني .

وسكت حسن مفتاح ورسم علامة المشنقة فرسمت مونا ربيع علامة المشنقة . وبعد ان فرغ حسن مفتاح من حديثه رفع بصره الى مونا ربيع فوجدها شاخصة اليه . ووجدها تبكي . وكانت دموعها صامئة فلم يعلم انها كانت تبكي . وكان العرق ينهمر على جبينه بلا انقطاع ، ويبلل خديه ولحيته ويسيل على عنقه الواضح تحت قميصه المفتوح . وكان وجهه شاحباً شحوباً مخيفاً . وكان يلث كأنه يحمل مشنقته طول الوقت ويصعد بها الى طريق العذاب . ورأت مونا ربيع قطرات من الدم تلتطخ فمه ولكنه لم يسعل قط ، وحول شعره الناعم الجميل أبصرت غصوناً اليمة كأنما حفرها اكليل خفي من الشوك . ونهضت مونا ربيع في صمت وعادت بمندبل كبير من الحرير الأحمر وجففت به عرق حسن مفتاح . ومسحت الدم العالق في فمه ، ثم ربطت المندبل الكبير الأحمر حول عنقه العاري . ونهض حسن مفتاح قائلاً « الوداع يا مونا . الوداع يا أحبائي . » وسار خطوة يطلب الباب ، ولكنه ترنح من فرط الأعياء . وأمسكت مونا ربيع بتلابيبه وصاحت به : « لا تتركني يا معلم . لا تتركني يا معلم . » ولكن حسن مفتاح سار خطوة ثالثة يطلب الباب ثم ترنح من جديد وسقط عند قدمي مونا ربيع وانطرح على ظهره ، والزبد في ركن فمه . أما عيناه فقد جحظتا وتعلقتا بسقف الغرفة كأنهما تريان فيه شيئاً . وكان يبتسم كأنه يرى حبلاً يتدلى من السقف . وأوشكت مونا ربيع أن تولول ولكنها كظمت عويلها وفركت يديها بدلاً عن ذلك . وأرادت أن تحمله الى السرير ولكنها عدلت يأساً . واندفعت الى اليمين وإلى اليسار كأنها تبحث عن شيء ، وأخيراً وجدت ما تبحث عنه . رأت زجاجة البراندي على المائدة الصغيرة يجوار الحوض فسعت اليها وأفرغتها في اناء ضحل ، وحملت كوباً من الباغة الحمراء وفوطنة مربعاتها حمراء الى حيث حسن مفتاح . وسقته من الكوب الأحمر ومسحت جبينه بالفوطنة الحمراء . وحملت المندبل الأحمر المعقود حول عنقه فتمرى صدره الأعلى مرة أخرى وبدا عليه شعر غزير ووشم قديم . ولم تكن مونا ربيع قد

رأت الشعر أو الوشم من قبل . ومالت على صدره فقبلته ثم انصرفت الى فمه مرة اخرى تسقيه البراندي وتمسح جبينه حتى دبت فيه الحياة . وانصرفت مونا ربيع الى قدمي حسن مفتاح وخلعت نعليه ، وغسلت قدميه بالبراندي ، ولما عادت اليه الحياة تماماً تنقلت عيناه في أرجاء الغرفة فأدرك لوهلته كل ما كان . ونهض . وجففت مونا ربيع قدميه في صمت بالفوطة الحمراء . ولم يقل شيئاً من فرط الخجل . وجاء بجذائه الى حافة السرير واخذ مكانه من الفراش . وجثت مونا ربيع عند موطيء قدميه وألبسته الجورب الأحمر ، فتركها تلبسه الجورب الأحمر . ودفعت رأسه الى الورا على الوسادة ، ومددت جسده على الأتلس الأحمر فأحس بالسعادة . ونامت مونا ربيع الى جواره وأطفأت النور .

وفي الظلام دخل الهواء من النافذة منعشاً اكثر من ذي قبل معطراً اكثر من ذي قبل ، ولكن أحداً لم يعلم مصدر العطور . ورفرف في الغرفة جناحان عظيمان قويان كالجناحين الذين رفرفا على وجه المياه قبل الخليقة . وكان حسن مفتاح مغمض العينين ، وكانت مونا ربيع مغمضة العينين ، فلم يريا الروح القدس حين دخل من النافذة مع الهواء ، ولكنهما كانا متعانقين . ورفرف في الغرفة الجناحان العظيمان القويان فسبح كل ما في الغرفة . سبحت المرأة الكبيرة المنطفئة ولاح فيها ما يشبه البصيص . وسبحت الأرض الخشبية الغامضة رغم طنافسها السمكية الحمراء . وسبح الفراش الكبير رغم انه ثقيل وصموت . ورفرف الجناحان العظيمان القويان كما رفرفا قبل بدء الخليقة . وأحس كل ما في الغرفة ببدء الخليقة . وحدثت المعجزة . واكتملت الدائرة . وولدت المياه الألف . وحين بدت تباشير الفجر رفرف الجناحان العظيمان القويان وخرجا من النافذة . وحين خرج الروح القدس من النافذة انتهت الصلاة ولم يسبح في الغرفة شيء . لم تسبح المرأة الكبيرة المنطفئة لا ولا الأرض الخشبية الغامضة ذات الطنافس السمكية الحمراء . لا ولا الفراش الثقيل . وعم الصمت المسكان . ولكن الهواء

المنعش المعطر ظل منعشاً ومعتراً . اما العطور فلم يعلم مصدرها أحد . وكان الصمت مطلقاً حتى كسرتة من الخارج زقزقة العصفير التي لم تنس رغم حياتها المدنية افراح الفجر . وحين انتشر الفجر فتح حسن مفتاح عينيه فوجد انه يعانق مونا ربيع فتذكر كل ما كان وخشي ان يصير الفجر صباحاً فنهض من الفراش . وأحس بنشاط عجيب لم يحسه في حياته وتجدد كل ما فيه فخيل اليه انه ولد ولادة ثانية . خيل اليه ان الصدا القديم المتراكم على حواسه قد زال ، فعيناه تبصران ما لا تبصر العيون ، واذناه تسمعان ما لا تسمع الآذان ، وشم ريحاناً من غير ريحان الأرض ، وذائق نبیذاً حلواً من الخمر الموعود ، ولبست ملامسه غلافاً من حرير . كذلك كانت على عقله غيمة ثقيلة سوداء انقشعت فانطلق خياله في سموات زرقتها أبدية ولا يشوبها كدر . وسمع العصفير تزقزق في قلبه . وعرف الصفاء . وتذكر كل ما كان فلم يعجب . وابتسم . وخشي حسن مفتاح ان يصير الفجر صباحاً فمال الى مونا ربيع وقبل شفيتها قبلة كأنها لم تكن . وسعى الى الباب دون ان يلتفت الى وراء مرة واحدة . وكان يعلم ان المعجزة قد حدثت وان الدائرة قد اكتملت وان الياء ولدت الألف وان الأب صار الابن ، ولهذا لم يلتفت الى وراء مرة واحدة . وترك حسن مفتاح مونا ربيع راقدة على السرير مشرقة كأنها الأرض قد اخضبت . وحين بلغ حسن مفتاح الطابق الأرضي لم ينس أن يأمر الخادم بايقاظ مونا ربيع .

ولزم حسن مفتاح داره طول النهار يقرأ قليلاً ويكتب كثيراً . ولم يسبح مكانه المعتاد في المدخل على الكرسي الأسبوطي الضخم أمام المائدة الصغيرة المستديرة . ولم يحدث قط ما يزعجه خلا التليفون الذي تواتر دقه بين التاسعة والعاشر ، ومدام ماريكا التي كانت تسرع الى التليفون كل مرة لتقول ان حسن مفتاح ليس بالدار . وأخيراً رفع حسن مفتاح الساعة ووضعها جانباً ، ومضى في الكتابة . وكان يكتب بسرعة عظيمة ولا يتردد ولا يراجع نفسه ولا يراجع ما كتب ولا يبحث عن شيء ولا يعيد الصياغة . وكلما فرغ من صحيفة وضعها جانباً حتى كان له من الأوراق كوم عظيم . ولم يأكل زاداً ، ولم يتناول شرباً ، ولم يدخن ، واكمل استقلاله عن العالم الخارجي .

وكانت نفسه صافية كما كانت قبل ان يولد . حتى هواء يوليو الساخن داعب حواسه كأنه الأوقيانوس السحري الدافيء داخل الرحم . ودامت بشاشته كأن في قلبه أطيّاراً تغرد للخضرة الدائمة في جنان لم تدنسها اقدام البشر . وبعد ان استنفذ أوراقه وضع الأوراق داخل غلاف هائل وأحكم اغلاق الغلاف ، ودوّن عليه بالفرنسية « مونا مفتاح » وسلمه الى مدام ماريكا مع ارشاداته . فلما كانت الساعة الثالثة جاءته مدام ماريكا بقائمة الحساب وتصافيا . وبعد ان تصافيا استلقى حسن مفتاح على الكرسي الأسبوطي ووضع قدميه على المائدة الصغيرة المستديرة وأغض عينيه واسترسل في التأمل . وكانت يقظته تامة فاستعرض احداث حياته منذ مولده كأنه يقلب كتاباً كاملاً لم تتمزق أوراقه الأولى .

ووقف طويلاً عند الباب الأول ووقف طويلاً عند الباب الأخير . فتذكر انه رأى يوم مولده الفيران تمشي هادئة وتتناغى على أرض الحصر أمام القط الأدهم الشرير وسمع امه تصيح : « تبارك . تبارك . تبارك » . وسمع أباه يصيح : « أعوذ بالشیطان الرجيم » وسمع اللفظ يسري في القرية من بيت الخواجة عبد الملاك أبو عازر في الشمال الى بيت العمدة في الجنوب . وفي الصفحة الأخيرة قرأ ان العبيد سوف يخرجون من أوجارهم ويرفعون امام السادة هاماتهم وان الاهتاف سوف يسري في المدينة من صحراء هليوبوليس الى صحراء الازهرام .
فلما كانت الساعة الخامسة دخلت مدام ماريكا على حسن مفتاح مصافحة مودعة قائلة انها سوف تقضي الليلة في دار اختها . فصافحها حسن مفتاح وودعها قائلاً ان غيبته قد تطول .

فلما كانت الساعة السادسة نهض حسن مفتاح من تأملاته وذكرياته ونظر الى ساعته وفتح باب غرفته ليستقبل من النافذة ضوء الشمس الغاربة ، ولكن ضوء الشمس كان لا يزال منشوراً على أعلا الجدار . وعاد الى مكانه على الكرسي الأسبوطي وجلس فيه معتدلاً خاشعاً يصلي . ثم نظر الى الحائط فاذا الشمس قد انكشت ولم يبقَ من ضوءها الا القليل . ونظر الى ساعته فأدرك ان الغروب وشيك . فنهض وسعى الى النتيجة المعلقة بتأملها ودخل الحمام وخلع ملابسه ونام في الحوض وغسل نفسه تفسيلاً .

وغربت الشمس . وحين غربت الشمس ارتفعت في الحمام أصوات هادئة وعميقة بعضها كالحديث وبعضها كالمناجيات . ثم ساد الصمت المكان . وكان الصمت كلياً . ثم اصطلحت مع الصمت الظلمة ، وكانت الظلمة كلية كذلك . وجثم على الدار ظلام صامت ، كالظلام الذي جثم على الكون قبل الخليقة .

ولم يكسر الصمت صوت أو الظلمة نور الا بعد ان انتصف الليل . فقد كثرت الاقدام الثقيلة على السلم ، وتتالى رنين الجرس . وكانت الاقدام اقلام الشرطة . فلما تتالى رنين الجرس بلا أثر ارتفع اللفظ في الخارج ثم تلاشى اللفظ

وارتفعت اصوات المطارق وأسياخ الحديد حتى انكسر باب الدار . واقتحم
الدار ضابطان أحدهما الصاغ ممدوح الشربيني والآخر الملازم سلامة . وانار
الأول المدخل وشهر الثاني مسدسه ومن ورائهما وقف رجال الأمن وقد صوبوا
بنادقهم الى اثاث الدار . وصاح وكيل النيابة قائلاً : « يا حسن مفتاح ،
فلم يجبه مجيب ، بل تجاوب نداؤه في الدار الخاوية . وجال الرجال بين الغرف
في غير احتشاد ، وركل الرجال الأثاث بالاقدام ومزقوا بالسونكي كل ما
يتمزق . وحين تم التفتيش تجمهر الرجال حول الحمام . وكان الباب مغلقاً
فتحامل عليه الضابطان حتى اطاع . وامتدت يد الصاغ ممدوح الشربيني الى
النور فأنارته ودخل الملازم سلامة شاهراً مسدسه ومن ورائهما وقف وكيل
النيابة . ورأى الرجال الثلاثة جثة حسن مفتاح معلقة في حبل يتدلى من انبوبة
الحمام ، وقد احاطت به مئات الخفافيش المنقوشة على القوالب الصينية اللامعة في
الجدران الأربعة ، كلها حمراء وكلها تهم بالطيران . وغير ذلك لم يروا شيئاً .
وقرأ اثنان منهم الفاتحة ورسم الثالث علامة الصليب ، ولكن حسن مفتاح
وحده رسم في الهواء الرطيب علامة المشنقة .

القاهرة اكتوبر ١٩٤٦ - باريس سبتمبر ١٩٤٧



- عن المؤلف :
- ولد في ٥ يناير ١٩١٥ بقرية شارونة بمصر (محافظة المنيا) .
- تعلم في جامعة القاهرة وجامعة كامبريدج وجامعة برنستون .
- كان استاذ الأدب الانجليزي بجامعة القاهرة حتى ١٩٥٤ ثم تفرغ للأدب وظل المستشار الثقافي لمؤسسة الأهرام بين ١٩٦٢ و١٩٨١ .

- أهم مؤلفاته :
- بلوتر لاند (ديوان شعر)
- برومثيوس طليقاً
- في الأدب الانجليزى الحديث
- الاشتراك في الأدب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٠/٧٩١٥

ISBN 977 - 01 - 2573 - 3